أعلاق أندلسية
إشبيلية (٤)

سلسلة مؤلفات الإمام
أبي بكر ابن العربي (٤)

سراج المريدين في سبيل الدين

لاستنارة الأسماء والصفات في المقامات والحالات
الدينية والدنيوية بالأدلة العقلية والشرعية القرآنية والسنية
وهو القسم الرابع من علوم القرآن في التذكير

إملاء
إمام الأئمة وزين الملة الفقيه الحافظ النظار
أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي المعافري الإشبيلي
المتوفى سنة ٥٤٣ هـ

ضبط نصه وخرج أحاديثه ووثق نقوله
الدكتور عبد الله التوراتي

السفر الثاني

دار الحديث الكتانية


سراج المريدين في سبيل الدين





المملكة المغربية : طنجة - شارع لبنان -إقامة يامنة- الطابق الثالث رقم ٤٧
هاتف ٠٠٢١٢٦٥٦٩٩٣١٤٧
الجمهورية اللبنانية ، بيروت - شارع برج أبي حيدر- ص.ب ٥٥٥٦-١٤ بيروت
هاتف ٠٠٩٦١-١-٨٤١٦٣٦/ ٠٠٩٦١-٣-٢٨٧٨١٩
e-mail. dar.alkatani@gmail.com

الكتاب : سراج المريدين في سبيل الدين لاستنارة الأسماء والصفات في المقامات والحالات الدينية والدنيوية بالأدلة العقلية والشرعية القرآنية والسنية

المؤلف : الإمام الحافظ أبو بكر ابن العربي المعافري

تحقيق: الدكتور عبد الله التوراتي

الطبعة : الأولى ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

تطلب منشوراتنا من

المغرب: دار الأمان - الرباط - زنقة المأمونية
هاتف : ٠٠٢١٢٥٣٧٧٢٦٣٧٨٧

الأردن : دار مسك -عمان -العبدلي
هاتف: ٠٠٩٦٢٧٩٦٠٥٤٨٠٠

تركيا : دار الشامي - استانبول - بايزيد
هاتف: ٠٠٩٠٢١٢٥٢٦٠٥٤٦-٠٠٩٠٥٤٢٣٣٢٣١٥٧

القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر - ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي
هاتف : ٠٠٢٠٢٢٥٩٣٢٨٢٠





اسْتِطْرَادٌ: وهو البابُ الثَّاني من الكِتَابِ

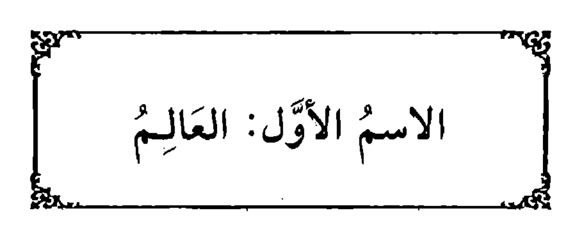
وهذه المقامات للعِبَادِ فيها أسماءٌ وصفاتٌ، يتجلَّى[١] كلُّ واحد منهم فيها، ويتسمَّى باعتقاده وفِعْلِه، ويتحلَّى[٢] في نعوتها، كثيرٌ عددُها، بعيدٌ أمدُها، بها يَتَعَرَّفُ، وعليها يَحْكُمُ، وإلى مقتضاها يصيرُ[٣] آخِرًا، حسب ما تفسَّر في «المقامات»/. [٦٢/أ]

* * * * *

(١) في (ص) و(د): يتحلى.

(٢) في (ص): يتجلى.

(٣) في (د): يسير.



الاسمُ الأوَّل: العَالِـمُ

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي ﷺ: هذا أَوَّلُ أسمائه وأَوْلَاهَا به، فإن الله خَلَقَه حَيًّا مُدْرِكًا، وأخرجه من بَطْنِ أُمِّه كما قال: «لا يعلم شيئًا»، ثم علَّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضلُ الله عليه عظيمًا.

وقد أرادت المُلْحِدَةُ أن تجعل العِلْمَ معنًى مجهولًا أو خَفِيًّا، فسَأَلَتْ عنه سؤال الباحث عن حقيقته ليُغْمِضُوه، حتى إذا شكَّكُوا الخَلْقَ في العِلْم لم يَبْقَ لهم بعده ما يتعلَّقون به ولا ينظرون فيه، وسَاوَرَتْهُم[1] على ذلك القَدَرِيَّةُ لموافقتهم لهم في قَصْدِ إضلال الخَلْقِ والتَّلْبِيسِ على العباد، وساعدتهم طائفةُ علمائنا المتكلمين[2]؛ على المجادلة في ذلك والتَّبْيِينِ له، فأدخلُوا الاسم في سُوقِ الخلاف، ومن أين يزول الإشكال إذا[3] زَهَقُوا به عن درجات البيان[4]؟

ولئن احتاج العِلْمُ إلى بَيَانٍ ودَلِيلٍ، وتطرَّقت إليه أَسْوِلَةٌ تَقْتَضِي أَجْوِبَةً؛ ليَذْهَبَنَّ الحقُّ، وليُعْدَمَنَّ البيانُ، فلا تلتفتوا إلى

---

(١) في (د): ساوتهم.

(٢) في (ص): المتكلمون.

(٣) قوله: «المتكلمين على المجادلة في ذلك والتبيين له، فأدخلوا الاسم في سوق الخلاف، ومن أين يزول الإشكال إذا» سقط من (د).

(٤) ينظر: العواصم من القواصم: (ص٢٩)، والأوسط لأبي المظفر: (١/ق١٦/أ).

مقالتهم لِيتًا، ويَكْفِيكُم[١] في بيان العِلْمِ علمُكم بأنفسكم، ويكفيكم في شَرَفِه أمران:

أحدُهما: أنه صفة الربِّ التي ينشأ عنها كلُّ فِعْلٍ.

والثاني: أنه مُقَدِّمَةٌ لكل معنى دنيوي وأخروي، ومن خَلَا عنه هَلَكَ في أمور دُنياه ففاتته وتَشَعَّبَتْ عليه، ومن فاتته في معاني آخِرَته كَفَرَ ولم يَعْلَمْ، وعصى ولم يَشْعُرْ.

قال الفقراء: «ما عُصِيَ الله بأَعْظَمَ من الجَهْلِ، والجَهْلُ بالجَهْلِ أشدُّ من الجَهْلِ»[٢].

وفي مثله أَتْقَنَ بعضُ حكماء النَّظْم فقال[٣]:

إذا لَمْ تَكُنْ تَدْرِي ولَمْ تَكُ بالذِي ... يُسَائِلُ مَنْ يَدْرِي فكَيْفَ إِذًا تَدْرِي

ومن عَجَبِ الأَيَّامِ أنَّك لا تَدْرِي ... وأنَّك لا تَدْرِي بأنَّك لا تَدْرِي

جَهِلْتَ ولم تَعْلَمْ بأنَّك جَاهِلٌ ... فكُنْ هَكَذَا أَرْضًا يَطَاكَ الذي يَدْرِي[٤]

وقد خصَّ الله قَوْمًا بالعلم دون قَوْمٍ، وأَمَرَ من لم يعلم أن يسأل من عَلِمَ، والعِلْمُ المطلوب هو المذكور في كتاب الله.

وأصلُه: العِلْمُ بالله وصفاته، وسُنَّتِه وأَحْكَامِه وشَرَائِعِه، وهو مُبَيَّنٌ لكم في هذا الكتاب، مُقَدِّمَة لما بين يديه ومن خَلْفِه إن شاء الله.

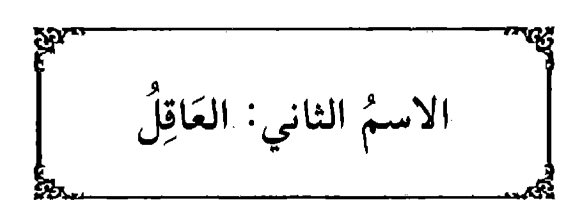
---

(١) في (د): يكفيهم.

(٢) قوت القلوب: (٣/١٣٦٠)، والإحياء لأبي حامد: (ص١٧٣٨).

(٣) الأبيات من الطويل، وهي لأبي القاسم الآمِدي، في أدب الدنيا والدين للماوردي: (ص٧٦)، وزاد فيها بيتًا آخر، ورتَّبها ترتيبًا آخر.

(٤) سقط البيت الأخير من (ص).



الاسمُ الثاني: العَاقِلُ

اعلَمُوا - مَعْشَرَ المُرِيدِينَ - أنهم كما فَعَلُوا في العِلْمِ كذلك فَعَلُوا في العَقْلِ، وعَقَدُوا فيه وفي العِلْمِ عبارات يَكْثُرُ عددُها، وتتبَّعوها بالاعتراض، ونقَّحُوها بزعمهم ولقَّحُوها، فخَلَطُوها ولَطَّخُوها، وتَخطَّوْها وتَرَكُوها وراءهم، وهم يطلبونها أمامهم؛ جَهْلًا أو هَزْلًا[١].

والعَقْلُ هو العِلْمُ بعينه لُغَةً[٢].

وقد غَلِطَ فيه سِيبَوَيْهِ من النَّحْوِيَّةِ، والقاضي أَبُو بَكْرٍ من المُتَكَلِّمِينَ[٣].

---

(١) ينظر: نكت المحصول: (ق٢/أ).

(٢) في الأوسط لأبي المظفر (١/ق١٦/أ): «وأمَّا العقل فهو العلم؛ هذا أصله في اللغة؛ لأنهم يقولون: عقلت الشيء، وعلمته، وفهمته، يُقِيمُونَ بعض هذه الألفاظ مقام بعض، وكذلك يقولون: هذا كلام مفهوم معقول معلوم، لا يفرقون بينهما، والمرجع إلى اللغة فيه وفي أمثاله، وإذا تقرَّر أن العقل هو العلم على الإطلاق؛ فكل من له مقدار من العلم فله ذلك المقدار من العقل، تختلف قلة العقل وكثرته بقلة العلم وكثرته».

(٣) عرَّف القاضي أبو بكر الباقلاني العقل بقوله: «لا أقول: إن العقل غير العلوم، ولا كل العلوم، بل هو بعض العلوم الضرورية، وهو العلم بأن الموجود لا يخلو من أن يكون لوجوده أوَّلٌ، أو لا أوَّلَ لوجوده، وأن الجسم الواحد لا يجوز أن يكون في مكانين في حالة واحدة، وأن الموجود لا يجوز أن يكون معدومًا في =

فأمَّا سيبويه فلا لَعًا لعَثْرَتِه.

وأمَّا القاضي فقد وَهِمَ في أن ساعدهم وجَعَلَ العَقْلَ وَضْعًا اصطلاحِيًّا في غير الموضع العربي[١]، وليس يُحتاج إلى ذلك في تَعَلُّمِ الخبر، ولا في/ تَعَلُّمِ النظر، وقد جادلنا الدَّهْرَ كلَّه ورأينا المُجادلين وما احتجنا إلى شيء من ذلك. [٦٢/ب]

وأمَّا سيبويه فإنه اقتفى مع الخليل آثارَ الفلاسفة في اصطلاحهم[٢].

وهذا الاصطلاحُ وإن كان القاضي قد احتاج إليه بزَعْمِه في الجدال، فسيبويه لا يَحْتَاجُ إليه في اللغة؛ فإن العربية لا تنبني على اصطلاح الفلاسفة، ولا يَجِدُ سيبويه ولا الخليلُ في العربية أبدًا فَرْقًا بين عَرَفْتُ زيدًا قائمًا، وعَلِمْتُ زيدًا قائمًا؛ في المعنى ولا في الإِعْرَابِ أبدًا.

أمَا إن المعنى الذي قَصَدُوه[٣] صحيحٌ، وتَعْيِينُ العبارة له من اللغة باطلٌ قَطْعًا، وانتهاكٌ لحُرْمَةِ العربية، وخروجٌ عن سِيرَةِ السَّلَفِ.

والعِلْمُ في لسان المُحَقِّقِينَ هو الخَشْيَةُ، وسترون صِفَتَه.

= حالة واحدة، وأن المتحرك عن المكان لا يجوز أن يكون ساكنًا فيه في حالة واحدة، وما جرى هذا المجرى من كون الذات حيَّةً ميتةً، وغير ذلك من الأوصاف المتضادة»، الأوسط لأبي المظفر: (١/ق١٧/أ).

(١) في (د) و(ص) و(ز): اصطلاحيًّا غير الوضع العربي.

(٢) قال ابن العربي في تعريف أرسطو طاليس للعقل-: «إنه تصورات ومعان تحصل للنفس بأصل الفطرة، والعلم يحصل بالاكتساب، فتلقَّفه الخليل منه، وقال: إن العلم معرفتان مجتمعتان، فعرفتُ زيدًا قائمًا؛ حال لزيد، وعلمتُ زيدًا قائمًا؛ مفعول ثان لعلمتُ»، العواصم من القواصم: (ص١٥٩-١٦٠).

(٣) في (د) و(ص) و(ز): قصداه.

قال ابن مسعود: «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو الخشية»[١].

وسترون صفته؛ مُفرَّقَةً[٢] على الأسماء إن شاء الله.

* * * * *

(١) الزهد للإمام أحمد: (ص١٩٨)، وروضة العقلاء لابن حبان: (ص٣٨).

(٢) في (د) و(س): مقدمة.

الاسمُ الثالث: الإنسانُ

وهو الآدَمِيُّ، معلومٌ عَقْلًا، معلومٌ لُغَةً، معلومٌ شَرِيعَةً، فأدخلُوها في سَوْقِ الخلاف، ونَادَوا عليه في سُوقِ من يقول، ورتَّبُوا فيه أقوالًا؛ كلها اقتداءٌ بتلبيس[١] المُلحدة، حتى يَدْخُلَ الشكُّ على الناس في أنفسهم.

فقد ذَكَرَ الأستاذ[٢] أبو المظفَّر[٣] شَاهْفورُ[٤] أن أعرابيًّا دخل مسجد البصرة، وسَمِعَ قومًا من المتكلمين يتجادلون في الإنسان، ويَنْتَحِلُ كلُّ واحد منهم قولًا غير الآخَر، ويَشْرَعُ بحُجَّةٍ على نِحْلَتِه، فقام عنهم وخرج على باب المسجد وهو يُنْشِدُ[٥]:

---

(١) في (س): تلبّس.

(٢) في (س): الشيخ.

(٣) الإمام المتكلم النظّار، شاهفور بن طاهر بن محمد، أبو المظفر الإسفراييني، صِهْرُ أبي منصور البغدادي، وتلميذ أبي إسحاق الإسفراييني، له التفسير الكبير بالفارسية، وسمَّاه: «تاج التراجم»، طبع قديمًا، وله «الأوسط في الاعتقاد»، في ثلاثة أسفار، منه نسخة في خزانة خاصة، عرَّفت بها في تقدمتي للمتوسط في الاعتقاد: (ص٣٧-٤٢)، وله غير هذه المؤلفات، توفي عام ٤٧١هـ بطُوس، ترجمته في: المنتخب من تاريخ نيسابور: (ق٧٣/أ)، وتبيين كذب المفتري: (ص٢٧٦)، وسير النبلاء: (٤٠١/١٨)، وطبقات الشافعية: (١١/٥).

(٤) في (س) و(د): شاهبور.

(٥) البيت من الرَّجَزِ، وهو من شواهد الكتب النحوية، قال البغدادي في الخزانة (٢٣٨/٥): «وهذا البيت لم أقف له على أثر».

إِنْ كُنْتُ أَدْرِي فعَلَيَّ بَدَنَهْ ... مِنْ كَثْرَةِ التَّخْلِيطِ فِيَّ مَنْ أَنَهْ[(١)]

وقد صنَّف القاضي أبو بَكْرٍ كتاب «الإنسان»، وكان في غِنًى عنه، وما لمن سَأَلَ عنه طِبٌّ إلَّا أَن يُغَلَّ في المَارِسْتَان، ويُعَانَى حتى يستريح أو يموت.

قال الإمام الحافظ رضي الله عنه[(٢)]: وهذا كلُّه حِيَلٌ منهم، ودَوَرَانٌ حول الرُّوح، فإنهم رأوا الإنسان حيًّا إنسانًا بها، فإذا زَهَقَتْ عنه صار مَوَاتًا، فجعلها بعضُهم الإنسان، وطَفِقَ يَتَرَدَّدُ حولها، ويطلب تعليق الإِشْكَالِ بها، وليس يتعلَّق بها أبدًا، فإنَّ تلك محجوبةٌ تحت أستار الغَيْبِ، لا سَبِيلَ لأحد إلى معرفتها[(٣)].

وكَشَفَ الله الحقيقة له كأنَّها العِيَانُ فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١ - ٣].

وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:٤ - ٥].

وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢] الآية.

---

(١) أخبره بهذه الحكاية شيخُه أبو سعد الزنجاني الشهيد، العواصم: (ص٢٧).

(٢) في (ص): قال القاضي الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

(٣) العواصم: (ص٢٨).

فخاطب من يَفْهَمُ بما يُفْهَمُ، ولم يجعلوا فيه إِشْكَالًا ، ولا افتعلوا فيه مقالًا ، ولا رَدَّدُوه في الإِشْكَالِ احتيالًا واختبالًا ، فلا يُوجِبُ لهم إلَّا سَلَاسِلَ[1] وأَغْلَالًا .

وهذا الإنسانُ والآدَمِيُّ[2] معلومٌ، تختلف عليه الأحكام، ويرتبط به الابتلاء والامتحان، فهو معلوم ضرورة.

* * * * *

---

(١) في (س): سلاسلًا.

(٢) في (ص): الآدمي.

١
[٦٣/أ]

الاسم الرَّابعُ: المؤمن/

واسـمَعُوا - مَعْـشَرَ المُرِيـدِينَ - وعُـوا، ولا تنظـروا إلـى مـن يَـزْوِي حاجبه، ويُقَطِّبُ عُرَّته، ويُسَوِّدُ غُرَّتَـه؛ حتـى تبلغـوا آخِـرَ كلامـي، وتُحيطـوا بمَرَامِي، فإنِّي على سيرة السَّلَفِ سَلَكْتُ، وبأقوالها نَطَقْتُ، والحَـقَّ أَرَدْتُ، وعلى كتاب الله وأحاديـث رسـول الله ﷺ عَوَّلْتُ، ومـن العربيـة اقْتَنَـصْتُ، وما خرج عن هذه المسالك يَجِبُ طَرْحُه.

وهذا الاسم هو أَوَّلُ الأسماء وأَوْلَاها.

وقد قال الشيخ أبو الحسن - ومثله ذَكَرَ القاضـي فـي بعـض طُرُقِه -: «إن الإيمان هو العلم»[١].

وقال في موضع آخر: «إنه التصديق»[٢].

وهو الذي جَرَى في ألسنة المتكلمين من علمائنا، وقـد ذكرنـا فيـه الدليل وتَتَبُّع الأقاويل في غير موضع، وبينَّاه مختصرًا وبسيطًا[٣].

والذي نُلِيحُ[٤] لكم به الآن: أن بنـاء «أَفْعَلَ» يقـال: بمعنـى دَخَـلَ فـي الفعـل والزمـان والمكـان، يقـال: أصـاب الرجـل وأخطـأ، وأَتْهَـمَ وأَنْجَـدَ، وأَصَافَ وأَرْبَعَ، إذا دخل في ذلك وتلبَّس به، فمعنى آمَنَ: دَخَلَ في الأَمْنِ.

---

(١) مقالات أبي الحسن لابن فُورَك: (ص١٥٤).

(٢) رسالة في الإيمان لأبي الحسن: (ق٢/أ).

(٣) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٤٥٦-٤٦٠).

(٤) في (د): نلوح.

الاسم الخامس: المسلم

ومعنى أَسْلَمَ: دخل في السَّلَامَةِ؛ بمِثْلِ ذلك بعَيْنِه في آمَنَ[١].

وهذان اللفظان أخوان، يقتضيان معنًى واحدًا وإن اختلفا لَفْظًا، ولمَّا كان الدخول فيهما والتلبُّس بهما معقولًا غَيْرَ محسوس ومشروعًا؛ وضعه الله في الدِّينِ على معنيين:

أحدهما: بالقول؛

والآخَر: بالفعل.

وبهما جاء القرآن ووردت السنة.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

---

(١) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٤٥٥).

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٢ - ٤].

وذلك كثير؛ وقال: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٧].

وقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨].

وقال النبي ﷺ لوَفْدِ عبد القَيْسِ: «آمُرُكُمْ بأربع؛ الإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ثم فسَّرها؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تُؤَدُّوا خُمُسَ ما غَنِمْتُم، وأنهاكم عن أَرْبَعٍ؛ فذَكَرَ: الدُّبَّاءَ، والنَّقِيرَ، والمُزَفَّتَ»[1].

وقال ﷺ: «الإيمانُ بِضْعَةٌ وسبعون شعبة»[2].

وقال ﷺ: «بُنِيَ الإسلام على خمس؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجِّ البيت»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين، رقم: (١٧-عبد الباقي).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الإيمان، باب عدد شعب الإيمان، رقم: (٣٥-عبد الباقي).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما: كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام، رقم: (١٦-عبد الباقي).

١

وحديث/ جبريل - صحيح -؛ جاء يُعَلِّمُ الناس دينهم، فقال للنبي[1] [٦٣/ب] ﷺ: «ما الإيمان؟ قال: أن تومن بالله، وملائكته، وكتبه، ورُسُلِه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، قال: فما الإسلام؟ قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان، قال: فما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

والحديث الصحيح عن معاذ بن جبل قال: «كنتُ مع النبي ﷺ في سَفَرٍ، فأصبحتُ يومًا قريبًا منه ونحن نَسِيرُ، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يُدخلني الجنة ويُباعدني من النار، قال: لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليَسِيرٌ على من يسَّره الله عليه؛ تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّةٌ، والصدقة تُطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النَّارَ، وصلاة الرجل مِنْ جَوْفِ الليل[3]، قال: ثم تَلَا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:١٦]، حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُون﴾ [السجدة:١٧]، ثم قال: ألا أُخبرك بِرَأْسِ الأمر وعَمُودِه وذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذُروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بمِلَاكِ ذلك كله؟ قلت: بلى، يا رسول الله، فأَخَذَ بلسانه وقال: كُفَّ عليكَ هذا، فقلت: يا نبي الله، وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به،

---

(١) في (س) و(د): النبي.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم: (٩-عبد الباقي).

(٣) بعده في (س) زيادة: من شِعَارِ الصالحين.

فقال: ثَكِلَتْكَ أمُّك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم إلَّا حَصَائِدُ ألسنتهم»[١].

قال الإمام الحافظ أبو بكر رضي الله عنه[٢]: فهذه الأحاديثُ أُصُولٌ تنبئك بفصلين:

أحدهما: أن الإسلام والإيمان شيءٌ واحدٌ؛

والثاني: أن الأَمْنَ والسلامة يكونان به.

وللأمن والسلامة مرتبتان:

إحداهما: في الدنيا.

والأخرى: في الآخرة.

فأمَّا مرتبة الدنيا فقسمان:

أحدهما: الأَمْنُ والسلامة من إباحة المال والذات.

والثانية: الأمن من الضَّرْبِ والهَوَانِ.

فأمَّا الأَمْنُ من الإباحة فقد قال النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ويؤمنوا بما جئت به، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلَّا بحَقِّها، وحسابُهم على الله»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم: (٢٦١٦-بشار).

(٢) في (ص): قال القاضي الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، رقم: (٢١-عبد الباقي).

وفي رواية: «مَن وَحَّدَ الله وكَفَرَ بما يُعبد من دون الله؛ حرَّم[١] الله ماله ودمه، وحسابُه على الله»[٢].

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها؛ وصَلَّوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا؛ فقد حَرُمَتْ علينا دماؤهم وأموالهم، إلَّا بحقها، وحسابُهم على الله»[٣].

وفي رواية - في حديث أنس هذا -: «فمن[٤] صلَّى صلاتنا، واستقبل قِبْلَتَنا، وذَبَحَ ذبيحتنا؛ فهو المسلم، لَهُ ما للمسلمين، وعليه ما عليهم»[٥]/. ١ [٦٤/أ]

وسُئِلَ النبي ﷺ: «أي الأعمال أفضل؟ فقال: إيمان بالله»[٦]، وذكر الحديث.

---

(١) في (د) و(ص) و(ز): حرُم ماله.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، رقم: (٢٣-عبد الباقي).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة، رقم: (٣٩٢-طوق).

(٤) سقطت من (د).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة، رقم: (٣٩٣-طوق).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الإيمان، بابُ من قال: إن الإيمان هو العمل، رقم: (٢٦-طوق).

وقال رجل للنبي ﷺ: «أي الإسلام خير؟ قال: أن تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفتَ ومن لم تعرف»[١].

وقال ﷺ: «المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[٢].

وقال ﷺ: «الإيمان بِضْعٌ وستون - أو سبعون شعبة -، والحياء شعبةٌ من الإيمان»[٣].

وقال سفيان بن عبد الله الثقفي: «قل لي يا رسول الله في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: قُلْ: آمنت بالله، ثم استقم»[٤].

نكتة إسلامية:

وبهذا نرجو أن نكون من أهل دار السَّلام، ومن كان في رَيْبٍ لم يَأْمَنْ ولا رأى الدَّارَ، ومن كان في رِقِّ مخلوق - حيوانًا كان أو جمادًا - لم يَجِدِ السَّلَامَةَ، وإنما يجد السلامة من لم يكن إلَّا في رِقِّ الله الذي هو المولى حقيقةً، فإذا سَلِمَ اليوم لسانُه من الغِيبَةِ، وجَنَانُه من الخُبْثَةِ، وسرائرُه من الرِّيبَةِ، وجوارحُه من الزَّلَّةِ، وعقائدُه من الغفلة، ومعاملتُه من الشُّبْهَةِ، وأعمالُه من الرِّيَاءِ والمصانعة، وأحوالُه من الملاحظة؛ كان من أهل تلك الدار.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ﷺ: كتاب الإيمان، بابٌ إطعامُ الطعام من الإسلام، رقم: (١٢-طوق).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ﷺ: كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم: (١٠-طوق).

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، جامع أوصاف الإسلام، رقم: (٣٨- عبد الباقي).

وإنما شَرُفَتْ دار السَّلام لأنها مَحَلُّ الكرامة، واختصاصها[١] بالزُّلْفَةِ، والأقطارُ كلُّها ديارٌ، ولَكِنْ قِيمَةُ الدَّارِ إنَّما هي بقَدْرِ الجار، كما قال القائل[٢]:

إنِّي لأَحْسُدُ جارَكم بجِوَارِكُمْ ... طُوبَى لمن أَضْحَى لَكُمْ جارَا

يا ليت جارَك باعَنِي من دَارِهِ ... شِبْرًا فأُعطيَه بِشِبْرٍ دَارَا

وليس القُرْبُ هاهنا بالمسافة، وإنما هي المرتبة والمنزلة، وقُرْبُ الثواب والتكرمة، لأن حقيقة الإله مُقَدَّسَةٌ عن التداني بالأقطار والجهات، والتجاور بالذوات، وإنَّما دُنُوُّهُم بأنه وَلِيُّهم، وهذا شَرَفٌ لا يُدَانَى، ومنزلة لا تُدْرَكُ بالهُوَيْنَى، ولا تُنال بالمُنَى، وإنَّما هي هِبَةُ المَوْلَى.

وأمَّا مرتبة الآخرة فالفوز بالنعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

فأمَّا الفوز بالنعيم فباجتناب الشرك، قال النبي ﷺ: «من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبد الله ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أَمَتِه، وكلمُته أَلْقَاهَا إلى مريم، ورُوحٌ منه، والجنة حقٌّ، والنار حقٌّ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[٣].

---

(١) في (ص): لاختصاصها.

(٢) البيتان لم أقف على قائلهما، وهي من بحر الكامل، والأول في المنتحل للثعالبي: (ص٢٢٢)، وهما في غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة للوطواط: (ص٥٧٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن عبادة بن الصامت ﷺ: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، رقم: (٢٨-عبد الباقي).

وقد تقدَّمت الأحاديث بسلامة أهل التوحيد من الخلود.

وأمَّا العِصْمَةُ من العذاب فباجتناب الذنوب؛ فإنْ وَاقَعَ الذنوب فأمرُه إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٧]، والأخبار في ذلك قد تقدَّم أكثرُها، وبيَّنَّا أصولها في المقام الثالث.

تحقيق:

[١/٦٤ب] قد تبيَّن لكم من الآيات والآثار الصحيحة أنَّ الإيمانَ والإسلامَ/ جُمْلَةُ أَعْمَالٍ في القلوب والأبدان، وتَوَضَّحَ[١] جريانُهما[٢] على معانيهما[٣] في العربية؛ من الأمان والسلامة حقيقةً، وإنَّما عُبِّرَ بهما عن العِلْم لما يكون من ابتنائهما عليه، فلمَّا كان مُقَدِّمَةً لهما سُمِّيَا به، وهذا أَحَدُ رُكْنَي المجاز على ما بينَّاه في «كُتُبِ الأصول»، ويأتي إيضاحُه مخصوصًا هَاهُنَا الآن إن شاء الله.

ولم يَبْقَ بعد بيان الله له في كتابه وعلى لسان رسوله؛ تمثيلًا لشجرة، وتجزئةً بسبعين جُزْءًا؛ مَوْضِعٌ للإشكال فيه، ولكثرة ما ذَكَرَه كذلك دلَّ على أنه حقيقة، والمجازُ تَسْمِيَتُه تَصْدِيقًا، وإنَّما فرَّ علماؤنا من تسمية الأعمال إيمانًا لإِلْحَاحِ المبتدعة عليهم بأن العاصي مُخَلَّدٌ في النار، ولو كان العصيان في أعمال الإيمان كُفْرًا لأَوْجَبَتْ التخليد، فأرادوا قَطْعَهم من

---

(١) في (س): نوضح.

(٢) في (د): جريانها.

(٣) في (د): معانيها.

الأصل بما ليس بأَصْلٍ، والمسألة صحيحةٌ لنا، مع أن الأعمال كلَّها إيمـانٌ، كما بيَّنَّاه في «كتب الأصول»[١].

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦ - ٢٨][٢].

ثَبَتَ عن النبي ﷺ: «أنهما النخلة والحنظل»[٣]، فمثَّل الله في هذه الآية سَبْعًا بسَبْعٍ؛ شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أُكلها كل حين[٤].

فالشجرة: مَثَلٌ للإيمان.

أصلُها: التوحيد.

ثبوتُه: استقرارُه في القلب، حتى لا تُزَعْزِعَه رِيَاحُ الشَّكِّ[٥]، ولا تَرْحَضَه عوارضُ الخواطر.

وفرعُها: العمل.

وسماؤها: عُلُوُّ العمل وظهوره.

وأُكلها - بضم الهمزة -: حلاوة الطاعة.

---

(١) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٤٥٨-٤٥٩).

(٢) في (د) و(ص): ﴿كشجرة خبيثة﴾ إلى قوله: ﴿قرار﴾.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه عن أنس ﷺ: أبواب التفسير عن رسول الله ﷺ، بابٌ ومن سورة إبراهيم عليه السَّلام، رقم: (٣١١٩-بشار).

(٤) ينظر: قانون التأويل: (ص٢٦٦).

(٥) في (د) و(ص): الشكوك.

والحِينُ: الحِينُ بعينه.

والأوراق: الأخلاق الجميلة في الأغصان؛ وهي شُعَبُ الإيمان وفروعُه.

وثمارُها: حلاوةُ الطاعة[١].

ثم الثمار تختلف في الطُّعْمِ، والنَّفْعِ والضُّرِّ، والرائحة، واللون، والصورة، كذلك الطاعات.

وقيل: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾: أن ثمرات الدنيا لا تنقطع، إن عُدِمَ نَوْعٌ كان آخر، فالنعيم متصلٌ بها على البدل، وثمرات الجنة[٢] لا مقطوعة ولا ممنوعة على الانفراد.

وهذه الشجرة لها أصل ثابت في أرض زَكِيَّةٍ؛ وهي[٣] القلب، هي له مَثَلٌ، كما أن أَرْضَ شَجَرَةِ الخَبِيثِ خَبِيثَةٌ، ثم كل شجرة لها ماء، والماء لهذه الشجرة الطيبة دَوَامُ التوفيق، ومن ثمراتها التوكل والتفويض والتسليم، والمحبة والرضا، والأحوال الصافية، والأخلاق الرَّضِيَّةُ العالية.

تَبْيِينٌ:

ولا يخلو العبد أن يكون جاهلًا بربه غافلًا عن فَرْضِهِ، ويتمادى[٤] ذلك به فيكون هالكًا، أو في سبيل الهلاك سائرًا، حتى إذا عرف ربَّه

---

(١) قوله: «والحِينُ: الحِينُ بعينه، والأوراق: الأخلاق الجميلة في الأغصان؛ وهي شُعَبُ الإيمان وفروعُه، وثمارُها: حلاوةُ الطاعة» سقط من (د).

(٢) قوله: «وثمرات الجنة» سقط من (د).

(٣) في (د) و(ص): هو.

(٤) في (س) و(د) و(ز): تمادى.

وانتهى إليه أمرُه ونهيُه، وعَلِمَ من خَبَرِه له بذلك وابتلائه به، أنه إن أطاعه نَجَا، وإن عصاه هَلَكَ، وقد بيَّن له النَّجْدَيْنِ؛ النَّجْدَ المُفْضِي إلى الفوز والسلامة والأمان، والنَّجْدَ المُوَرِّطَ في الهَلَكَةِ، فيقتضي له النظر في نفسه الاستعدادَ لما يجد في آخِرَته، وأوَّلها حلولُه في رَمْسِه، ألا تَرَوْنَ/ أنه إذا سَلَكَ في الدنيا طريقًا يُفضي به إلى مطلوب استعدَّ للطريق، واستعدَّ لما يُنفق ويُصلح بالموضع الذي يقصده، واستعدَّ الوُسْعَ فيما يُنفقه[1] فيه ويَعْضُدُه، فإن لم يفعل شيئًا من ذلك كان زاهقًا عن درجة النظر ومرتبة العقل والعلم التي زعم أنه فيها، وزال عن سَبيلِ التصديق والحَوْطَةِ على نفسه خَوْفَ الهَلَكَةِ التي يعلمها، ولا يخلو تَرْكُه لذلك من أربعة أقسام: ١ [٦٥/أ]

القسم الأوَّل: أن يشك في أنه سائر، ويعتقد أنه مقيم، وهذا ما لا يخطر ببال أحد له سُوسٌ[2]، ولا ممَّن هو داخل في حَدِّ التمييز.

الثاني: أن يشك أنه وارد على شيء، وهؤلاء هم الذين يعتقدون أن الموت عَدَمٌ مَحْضٌ، وللكلام معهم موضع.

الثالث: أن يشك في حال ذلك المقام وما فيه من أحوال وأحكام، وهذا كافر مُخَلَّدٌ في النار؛ لما تقدم من الآيات والأحاديث والإجماع.

الرابع: أن يعلم ذلك على صِفَتِه، ويتحقَّقه بتفصيله وجُمْلَتِه، من جهة خَبَرِ الصادق به[3]، ولكنه أَقْدَمَ عليه مع عِلْمِه به.

---

(١) في (ص) و(ز): ينفعه.

(٢) أي: العقل.

(٣) سقط من (س).

ويُقال للذي يعتقد أن الموت عَدَمٌ مَحْضٌ: ألم تر إلى الدنيا وما فيها من تفاوت الأحوال والمنازل، والغنى والفقر، والحرية والرق، والنعمة والبؤس، على غير نظام صالح في الظاهر لنا؟

فلو كانت الدنيا بهذه الصفة هي المقصَد وعليها الموقف، وليس وراءها مَوْرِدٌ لكان عبثًا ولَعِبًا، وقد تنزَّه الله عن ذلك وتقدَّس، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٦]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٦]، ولو شاء الله لجعل الدار واحدةً، والحال واحدةً، ولكنه فضَّلها[١] بقُدرته، وقسَّمها بحِكْمته.

وأمَّا إن شَكَّ في كيفية ذلك المقام؛ فالدليل الذي يُثبت وجوده يُثبت كيفيته، وقد أخبر الله عن الآخرة وأحوالها بأسماء الدنيا وصفاتها، فهي مِثْلُها لوجوب الصِّدْقِ في خَبَرِه، إلَّا أن ما في الآخرة يَفُوتُها بالزيادة عليها في العِظَمِ والقَدْرِ، والبقاء والدوام، وعَدَمِ الآفات، ومَزِيدِ الحُسْنِ في الصفات.

وأمَّا إن علم ذلك كلَّه وَعْدًا ووعيدًا، وفوزًا وهلاكًا، وأقدم على المخالفة، ولكنه قال: أرجو التوبة؛ فهو مغرور[٢]، لأنه لا يعلم هل يدركها.

وأمَّا إن قال: أُقْدِمُ عليها، وأُؤْثر شهوة الدنيا على نعيم الآخرة، وأرضى بالعاجل بدلًا من الآجل، فإني أقول له[٣]: إنه غير مُوقِنٍ بالآخرة[٤]

---

(١) في (ص): فصَّلها.

(٢) في (ص): مُغَرر.

(٣) سقطت من (د) و(ص) و(ز).

(٤) سقطت من (س).

بحال؛ وذلك أن الخاطر الذي يُوقعه في المعصية مع علمه بأنها مَهْلَكَةٌ بمنزلة الرجل يُقْدِمُ على وَطْءِ الأجنبية وإن قُتِلَ، كأنه يرضى بالوصول إلى أَمَلِه وإن أدَّى إلى تَلَفِ نفسه، وهذا لأنه عذابُ لحظة، فيمكن أن يُقَابَلَ بلذة لحظة، كأنه مقابلة مِثْلٍ بمِثْلٍ؛ في القَدْرِ والزمان، لا في الصفة والمقدار.

وأمَّا المؤمنون بالحقيقة فمثالُ المعصية إذا عَرَضَتْ لهم كرَجُلٍ قُدِّمَ له طعامٌ شَهِيٌّ تَحَقَّقَ أنه مسمومٌ/، وأنه وَحِيٌّ[١] لا يُمْهِلُه؛ فإنه لا يُقْدِمُ عليه، فإن أَخَذَه الجُوعُ وغَلَبَه لم يُقْدِمْ أيضًا عليه؛ لأنه يقول: مَوْتٌ بمَوْتٍ من غير يَدِي أولى بي، ولو تحقَّق أنه سُمٌّ يُدِيمُ أَلَمَه، ويُهْرِي لَحْمَه، ويَشُدُّ وَجَعَه؛ ربَّما يَحْمِلُه سوءُ الاختيار على أن يُؤْثِرَ حياةَ شَهْرٍ مُتَمَلْمِلًا مُتَوَجِّعًا مُتْبَلًا[٢] على الموت الآن، وذلك لمَغِيبِ الألم عنه الآن، وأن الجوع متحقق، والألم متوقع، وإذا عرف أنها شهوة مُسْتَغْنًى عنها، وعلم أنها مُوقِعَةٌ في العذاب الدائم؛ لم يُقْدِمْ عليها بحال إلَّا مع الاِسْتِرَابَةِ بأن ذلك الطعام مُهْلِكٌ، والشكِّ في أن ذلك الفعل مُعْطِبٌ، أو مع الذهول عن هذه الخواطر كُلِّها بغلبة الشهوة، وإلى هذه الأحوال كلها يَرْجِعُ قول النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذات شرف يَرْفَعُ الناسُ إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن»[٣]،

١ [٦٥/ب]

---

(١) في (ز): الردى.

(٢) في (ص) و(د): مُبتَلًى.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب المظالم، باب النُّهبى بغير إذن صاحبه، رقم: (٢٤٧٥-طوق).

والتوبة بعد ذلك معروضة[١]، فجمع له بين الحُكْمِ بالإيمان، وعيَّن له التوبة من ذلك الفعل.

وقال النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله»[٢]، وفي رواية أبي ذر: «أتاني جبريل فبشَّرني أنه من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق، قال: وإن زنى وإن سرق - ثلاثًا -؟ ثم قال في الرابعة: على رَغْمِ أنف أبي ذر، فخرج أبو ذر وهو يقول: على رغم أنف أبي ذر، كما قال رسول الله ﷺ»[٣].

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا زنى العبدُ خرج من الإيمان وكان فوق رأسه كالظُّلَّةِ، فإذا خرج من ذلك العمل عاد إليه»[٤]، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ورَوَى عُبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته، ألقاها إلى مريم ورُوحٌ منه؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[٥].

---

(١) في (س): في خـ: مفروضة.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه عن معاذ بن جبل ﷺ: كتاب الجنائز، بابٌ في التلقين، رقم: (٣١١٦-شعيب)، ولفظه فيه: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة».

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، رقم: (٩٤-عبد الباقي).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﷺ: أبواب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن، رقم: (٢٦٢٥-بشار).

(٥) تقدَّم تخريجه.

وقد عَبَّرَ عن بعض هذه الجُمْلَةِ ابنُ مسعود فقال: «لن يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذُرْوَتِه، ولا يحل بذُرْوَتِه حى يكون الفقرُ أحبَّ إليه من الغنى، والتواضع أحب إليه من الشرف، وحتى يكون حامدُه وذامُّه من الناس سواء»[١].

وفسَّرها أصحابه فقالوا: معناه: «حتى يكون الفقرُ في الحلال أحبَّ إليه من الغنى في الحرام، والتواضعُ في طاعة الله أحبَّ إليه من الشَّرَفِ في معصيته[٢]، وحتى يكون حامدُه وذامُّه في الحق سواء»[٣].

قال الإمام الحافظ أبو بكر[٤] ﵁: وذلك في الذي يَأْتِي هذه المعاني جاهلًا، راكبًا شهوتَه غير/ مُرْتَابٍ، على ما بينَّاه من المراتب. ١ [٦٦/أ]

ولمَّا كان طَلَبُ الإيمان بالوجه الذي يُطْلَبُ به من الشهادة والأعمال كان ذلك مَبْنِيًّا على تصديق المُخْبِرِ، فبذلك سُمِّيَ تصديقًا.

ولمَّا كان تارةً يَصْدُرُ عن تقليد، وتارةً يصدر عن دليل، قال في الصادر عن الدليل: «المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أَمِنَه الناسُ على دمائهم وأموالهم»[٥].

---

(١) الزهد للإمام أحمد: (ص١٩٧)، وحلية الأولياء: (١٣٢/١).

(٢) في (س) و(ز): معصية الله.

(٣) الزهد للإمام أحمد: (ص١٩٧)، وحلية الأولياء: (١٣٢/١).

(٤) في (د) و(ز): قال الإمام الحافظ القاضي، وفي (ص): قال القاضي الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﵁: أبواب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم: (٢٦٢٧-بشار).

وقال: «المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[١].

وقال في الصادر عن التقليد ما جاء في حَدِيثٍ عن سَعْدٍ: أن النبي ﷺ أعطى رَهْطًا وترك رَجُلًا، فقال له سعد: «يا رسول الله، ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال النبي: أو مسلمًا، وكرَّره مرارًا»[٢].

معناه: لعله أسلم في الظاهر، أي: استسلم، أي: طلب ذلك في الظاهر، ولم يعتقده في الباطن.

ومنه قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، فحكم على بواطنهم بما أَعْلَمَهُ به الظاهرُ الباطنُ.

فإن كان عن دليل وعن اعتقادٍ جَزْمٍ دَلَّ على بَاطِنِه ظاهرُ أَفْعَالِه.

[نكتة بديعة]:

وهاهُنَا نكتة بديعة؛ وذلك أنه دخل هذا التقسيم من استواء الظاهر والباطن في الإسلام، وجاء الإيمان مطلقًا غير مختلف، وذلك؛ لأن المؤمن صِفَةٌ من صفات الله، فصِينَتْ عن الاحتمال والإشكال، والمسلم لمَّا لم يكن من صفاته تَطَرَّقَ إليه[٣] الاحتمال لفظًا ومعنًى.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، رقم: (٢٧-طوق).

(٣) بعده في (س): صح.

قال الإمام الحافظ[1]: فإذا عَلِمْتُم معنى الإيمان والإسلام ومواردهما وفوائدهما فقد تبيَّن لكم أنهما يرجعان في الأصل إلى العِلْمِ، ولذلك قال الشيخ في الإيمان: «هو العلم بالله»[2].

وهو الذي فُرِضَ على النبي ﷺ في قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:٢٠]، وقيل له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١١].

وهذا[3] المفروض على الأمة، وهو العِلْمُ بالله وصفاته وأفعاله على الجُمْلَةِ والتفصيل، ويَكْفِي من ذلك ما بينَّاه في «العَقْدِ المُتَوَسِّطِ»[4]، وهو الدِّينُ الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

* * * * *

(١) في (د): قال الإمام الحافظ القاضي رضي الله عنه، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر رضي الله عنه.

(٢) مقالات أبي الحسن لابن فورك: (ص١٥٤).

(٣) في (د) و(ص): هو.

(٤) المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٤٥٩).

[الدَّيِّنُ[1]]: وهو الاسمُ السَّادس

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٤].

وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣].

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل:٥٢].

و﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم:٢٩].

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة:٢٩].

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٦].

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور:٢].

وقال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٣].

وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات:٦].

وقال: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة:٨٩].

وقال: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف:٧٦].

---

(١) ما بين المعقوفتين إضافة مني يقتضيها السياق.

وقال ذو الإِصْبَعِ العُدْوَانِي[١]:

لاهِ ابنَ عَمِّكَ لا أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ   عنِّي ولا أنت ديَّاني فتَخْزُوني[٢]

وقال آخَرُ[٣]:

تقولُ وقد دَرَأْتُ لها وَضِينِي: أهذا دينُه أبدًا ودِينِي

أطُولَ الدَّهْرِ حَلٌّ وارتحالٌ   أمَّا تُبْقِي عَلَيَّ ولا تَقِينِي

وقال آخَر[٤]/:   ١ [٦٦/ب]

كدِينِك من أُمِّ الحُوَيْرِثِ قبلها   وجارَتِها أُمِّ الرَّبَابِ بمَأْسَلِ

أي: هذا جزاؤك من هذه، كجزائك من التي قبلها؛ على بَذْلِكَ الحُبَّ لهنَّ، واستفراغ قلبك في هَوَاهُنَّ.

وتصريفه: دَانَ يَدِينُ دِينًا[٥].

وقد جاء الاسم والفعل في بيت واحد، وهو:

يا دِينَ قَلْبَكَ من سَلْمَى وقد دِينَا[٦]

---

(١) البيت من البسيط، وهو لحُرثان العُدْوَاني الملقب بذي الأصبع، من قصيدة في المفضليات: (ص١٦٠)، والأغاني: (١٠١/٣)، وأمالي القالي: (٢٤٤/١).

(٢) في (د) و(ص) و(ز): فتجزوني.

(٣) البيتان من الوافر، وهما للمُثَقِّبِ العُدْوَاني، من قصيدة في المفضليات: (ص٢٩٢)، وطبقات فحول الشعراء: (٢٧٣/١).

(٤) من الطويل، وهو لامرئ القيس في معلَّقته، شرح القصائد التسع المشهورة للنحَّاس: (١٢٣/١)، وشرح المعلقات السبع للزوزني: (ص١١).

(٥) مقاييس اللغة: (٣١٩/٢).

(٦) هذا الشطر من البسيط، وهو في كتب اللغة بدون نسبة ولا تتمة، ينظر: المقاييس: (٣١٩/٢)، والتاج: (٥٥/٣٥).

فهو[1]: مَصْدَرٌ سُمِّيَ بـه الاعتقـادُ والعمـلُ المقتـضيان للجـزاء مـن الله سبحانه.

والشريعةُ كلُّها دِينٌ.

قـال الله تعـالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٤]، لأنَّ جميعها يُجَازِي الله عليه.

وديَّان هو فعَّالٌ مـن الـدِّينِ؛ بنـاءٌ للكثيـر: الجـزاء، يقـالُ لمـن يلتـزم شعائر الشريعة كلها امتثالًا وزَجْرًا.

قال النبي ﷺ: «الدين يُسْرٌ، ولن يُشَادَّ هذا الدين أَحَدٌ إلَّا غَلَبَه»[2].

قال الإمام أبـو بكـر[3] ﷺ: وهـذا المعنـى خَفِـيَ علـى قَـوْمٍ، وحقيقـة معناه: أنه من أراد أن يَسْتَوْفِيَ فضائل الشريعة كلَّها لم يَقْدِرْ على ذلك بَشَرٌ؛ لأنه خارجٌ عـن طُـوقِهم، وإنمـا يؤخـذ مـن فضائله مـا تَيَـسَّرَ، فمـن تَعَـرَّضَ لاستيفائه بل لاستيفاء نَوْعٍ منها غَلَبَـهُ الـدِّينُ، فأمـا اسـتيفاءُ الفـرائض امتثـالًا واجتنابًا فإنه مُمْكِنٌ لكلِّ أَحَدٍ.

وقد مَرَّ النبي ﷺ على[4] الحَوْلَاءِ بنت تُوَيْتٍ؛ وقد علَّقـت حَبْلًا فـي

---

(١) في (ص): وهو.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريـرة ﷺ: كتـاب الإيمـان، بـاب الـدين يسر، رقم: (٣٩-طوق).

(٣) في (د): قال الإمام الحـافظ، وفـي (ص): قـال الإمـام الحـافظ أبـو بكـر، وفـي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.

(٤) في (س): عن.

المسجد وهي تتعلَّق به إذا ضَعُفَتْ عن القيام في الصلاة، فقال: «اكلَفُوا من العمل ما تُطِيقُون، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا»[١].

وغاية ما يتعاطاه الآدمي أن يكون مستغرق الأوقات في الطاعات، وذلك ما لا يقدر عليه بَشَرٌ، إنَّما المستطاع أن يَعْمُرَ بالكَفِّ عن المحظور والمكروه، وأمَّا أن يفعل كل طاعة فبَعِيدٌ[٢] عن الخَلْقِ عَسِيرٌ عليهم[٣].

لقد رُوي عن بعضهم: «أنه كان يصلي كل يوم ألف ركعة»[٤].

ورُوي عن[٥] بعضهم: «أنه كان يُسَبِّحُ الله كلَّ يَوْمٍ مائة ألف تسبيحة، إلَّا أن تخطئ الأصابع»[٦].

وروى أَحْمَدُ عن أبي هريرة: «أنه كان له خيط فيه أَلْفَا[٧] عُقْدَةٍ، وكان لا ينام حتى يُسَبِّحَ به»[٨].

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: ما جاء في صلاة الليل، (١٨٨/١)، رقم: (٣١٢-المجلس العلمي الأعلى).

(٢) في (س) و(ص) و(ز): وأما بفعل طاعة فهو بعيد.

(٣) سقطت من (س).

(٤) الجامع الكبير: (٥/٤١٧ -بشار).

(٥) سقطت من (س).

(٦) حلية الأولياء: (٥/١٥٧).

(٧) في (ز): ألف.

(٨) أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل: (١/٣٨٣).

وكان كُرْزٌ[١] يختم كل يوم ثلاث مرات[٢]، وله عُودٌ في المحراب يعتمد عليه إذا نَعَسَ[٣].

وكان عطاء بن السائب يختم القرآن في كل ليلتين[٤].

وهذا أَمْرٌ رَوَيْنَاهُ وما رَأَيْنَاهُ، ولو حَاوَلْنَاهُ ما اسْتَطَعْنَاهُ، ولعلَّ الله يؤيد أولياءَه على طاعته، ولكنَّ الذي يُغَبِّرُ[٥] في وَجْهِ هذه الأقوال أن أَحَدًا من الصحابة لم يكن على هذه الحال، وإنَّما هذه رَهْبَانِيَّةٌ حَدَثَتْ، وسنزيد ذلك بيانًا في مَوْضِعِه إن شاء الله.

تَنْبِيهٌ على وَهْمٍ:

وقد ذَكَرَ بَعْضُهم أن الديَّان من أسماء الله، وليس كذلك، وهو سبحانه يُجازي العباد بأعمالهم، ولا يُشْتَقُّ له من أفعاله أسماء، وإنَّما هو يُسَمَّى ويُوصَفُ بما ورد من نُعُوتِه العظيمة وصفاته الكريمة، أما إنه يُخْبَرُ عنه[٦] به في أثناء الدليل وعلى رَسْمِ/ التَّعْرِيفِ، فإذا كان في الدعاء والابتهال وَقَفَ على مَوْرِدِ الشرع في الصفات والأسماء[٧].

١ [٦٧/أ]

---

(١) العابد الناسك، كرز بن وبرة الحارثي، من جرجان، ترجمته في حلية الأولياء: (٥/٧٩-٨٣).

(٢) حلية الأولياء: (٥/٧٩).

(٣) حلية الأولياء: (٥/٨٠).

(٤) مختصر قيام الليل للمروزي: (ص١٥٧).

(٥) في (س): يعير.

(٦) سقطت من (ص).

(٧) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١/١٩٨-٢٠٠).

وقد روى أحمد بن حنبل عن عمر قال: «وَيْلٌ لدَيَّانِ الأرض من ديَّان السماء يوم يلقونه، إلَّا من حَكَمَ بالعَدْلِ وقَضَى بالحَقِّ، ولم يَقْضِ لقرابة ولا لِهَوًى، ولا لرغبة ولا لرهبة[١]، وجَعَلَ كتاب الله مرآةً بين عينيه»[٢].

وقال أبو الدرداء: «البِرُّ لا يبلى، والإثم لا يُنسى، والديَّان لا ينام، فكُنْ كما شئت، كما تَدِينُ تُدَان»[٣].

تكملة:

وقد عَبَّرَ [ﷺ] عن الدين بمُعْظَمِه فقال[٤]: «الدين النصيحة، لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامَّتهم»[٥]، وهو حديث حَسَنٌ.

فَضَائِلُ العِلْمِ وما يَرْتَبِطُ به من العَقْلِ والإِسْلَامِ والإيمان والدِّينِ:

وقد انتدب قَوْمٌ للعلم فأطنبوا في أوصافه وفرائضه وفضائله.

فأمَّا أوصافه فقد تقدَّمت الإشارة إليها[٦] بما تقتضيه هذه الرسالة من الاختصار.

وأمَّا الفضائل فقد أكثر الخلق في ذلك وأَطْنَبُوا، وصَعَدُوا واسْتَفَلُوا[٧]، وعليهم في ذلك ما احْتَمَلُوا، وهم مُطالَبون بالقيام بما حُمِّلُوا،

(١) قوله: «ولا لرهبة» سقط من (د).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في الزهد: (ص١٥٥).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في الزهد: (ص١٧٦).
(٤) في (ص): فقال ﷺ.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن تميم الداري رضي الله عنه: كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم: (٥٥-عبد الباقي).
(٦) في (س): إليه.
(٧) في (س): أسفلوا.

وليس في هذا الباب أَثَرٌ يُلْتَفَتُ إليه، ولا يُعَوَّلُ عليه، فلا تَشْغَلُوا بأحاديثه[١] بالًا، ولا تَسْطُرُوا بذِكْرِه[٢] مَقَالًا، فإن فَضْلَ هذه الصفات أَعْظَمُ مِنْ أَن تظهر، والذي صحَّ عن النبي ﷺ فيه عَشَرَةُ[٣] أحاديث[٤]:

الأَوَّل: قوله ﷺ: «من يُرِدِ الله به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ»[٥].

[الثاني]: وقوله[٦] ﷺ: «مَثَلُ ما بَعَثَنِي الله به من الهُدَى والعِلْمِ كمثل الغَيْثِ الكثير أصاب أرضًا؛ فكانت منها طائفة طيبة قَبِلَتِ الماء فأنبتت الكَلَأَ والعُشْبَ الكثير، وكانت منها[٧] طائفةٌ[٨] إِخَاذَاتٍ[٩] أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشَرِبُوا وسُقوا وزَرَعُوا، وأصاب منها طائفةٌ أخرى، إنما هي قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ ماءً، ولا تنبت كَلَأً، فذلك مَثَلُ من فَقُهَ في دين الله ونَفَعَه الله بما بَعَثَنِي به، فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ من لم يَرْفَعْ بذلك رأسًا ولم يَقْبَلْ هُدَى الله الذي أُرْسِلْتُ به»[١٠].

---

(١) في (س) و(ص) و(ز): بأحاديثها.

(٢) في (س) و(ص): أو تذكروا.

(٣) في (د): ثلاثة، وسقطت من (ص).

(٤) ذكر منها ثمانية فقط.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن معاوية رضي الله عنه: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، رقم: (٧١-طوق).

(٦) في (س) و(ص): قال.

(٧) في (ص) و(د): منه.

(٨) سقطت من (د).

(٩) في (ص) و(د) و(ز): أجادب، وما أثبته هو رواية أبي ذر الهروي.

(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه: كتاب العلم، باب فضل من علم وعلَّم، رقم: (٧٩-طوق).

قال الإمام الحافظ[1] رضي الله عنه: فضَرَبَ النبي ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ لثلاثة أَحْوَالٍ، فسَّر منها الأوَّل والثاني، وتَرَكَ الثالث، وهي: الإخاذات[2] التي تُمْسِكُ الماء ولا تُنْبِتُ الكلأ[3]، وهو الذي يَحْفَظُ العلم ولا يَفْقَهُه ولا يَعْلَمُه، ولكنه قد بَيَّنَه في حديث آخر صَحَّ من غير الصحيح.

[**الثالث**]: قال النبي ﷺ: «نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، وأدَّاها كما سَمِعَها، فرُبَّ حامل فِقْهٍ غير فقيه، وربَّ حامل فِقْهٍ إلى من هو أَفْقَهُ منه»[4].

[**الرابع**]: وقال ﷺ: «لا حسد إلَّا في اثنتين؛ رَجُلٌ آتاه الله مالاً فسَلَّطَه على/ هَلَكَتِه في الحق، ورجلٌ آتاه الله حِكْمَةً فيقضي بها ويُعَلِّمُها»[5]. [٦٧/ب]

[**الخامس**]: وقال ﷺ[6]: «إذا مات المَرْءُ انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صَدَقَةٍ جارية، أوعِلْمٍ يُنتفع به[7]، أو وَلَدٍ صالح يدعو له»[8].

---

(١) في (د): قال الإمام الحافظ القاضي، وفي (ص): قال الإمام أبو بكر محمد بن العربي، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.
(٢) في (د) و(ص) و(ز): وهو الأجادب.
(٣) سقطت من (س) و(ص) و(ز).
(٤) أخرجه الترمذي في جامعه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم: (٢٦٥٦-بشار).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم: (٧٣-طوق).
(٦) في (د): عليه السلام.
(٧) في (د): أو علم علَّمه.
(٨) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم: (١٦٣١-عبد الباقي).

قال الإمام الحافظ ﵁: وهُمْ سِتَّةٌ، هؤلاء الثلاثة[١].

وقال النبي ﷺ: «ما من مسلم يَغْرِسُ غَرْسًا أو يَزْرَعُ زَرْعًا فيأكلُ منه إنسانٌ أو بهيمةٌ إلَّا كان له حسنات إلى يوم القيامة»[٢].

وقال ﷺ[٣]: «من سنَّ سنة حسنة في الإسلام كان له أجرُها وأَجْرُ من عَمِلَ بها إلى يوم القيامة، لا يَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئًا، ومن سنَّ سُنَّةً سيئة في الإسلام كان عليه وِزْرُها ووِزْرُ من عَمِلَ بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أَوْزَارِهم شَيْئًا»[٤].

وقال النبي ﷺ: «كلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ على عمله إلَّا الذي مات مُرَابِطًا في سبيل الله؛ فإنه يُنْمَى له عملُه إلى يوم القيامة، ويأمنُ فِتْنَةَ القَبْرِ، والمجاهدُ من جاهد نفسه»[٥]، صَحِيحٌ.

[السَّادس]: وقال - أيضًا - ﷺ: «الناسُ معادن؛ خِيَارُهم في الجاهلية خِيَارُهم في الإسلام إذا فَقِهُوا»[٦].

---

(١) وذكر ابن العربي تمام الستة، وهي الأحاديث الثلاثة التي تلي قوله هذا.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ﵁: كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أُكل منه، رقم: (٢٣٢٠-طوق).

(٣) في (د): عليه السَّلام.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله ﵄: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم: (١٠١٧-عبد الباقي).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه عن فَضالة بن عُبَيد ﵁: أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل من مات مرابطًا، رقم: (١٦٢١-بشار).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﵁: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾، رقم: (٣٣٨٣-طوق).

[السَّابع]: وقال ﷺ: «ما اجتمع قَوْمٌ في مسجد من مساجد الله؛ يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلَّا نزلت عليهم السَّكِينَةُ، وغَشِيَتْهُم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بَطَّأَ به عملُه لم يُسْرِعْ به نسبُه»[(١)].

[الثامن]: وقال ﷺ[(٢)]: «من سَلَكَ طريقًا يلتمس فيه عِلْمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنَّة»[(٣)].

[كتابُ العقل لداود بن المحبَّر]:

وأمَّا العَقْلُ فليس فيه حَدِيثٌ صَحِيحٌ ولا حَسَنٌ، وقد قرأنا ببغداد «كتابَ العَقْلِ»[(٤)] لداود بن المُحَبَّر[(٥)]، جُزْءًا على القاضي أبي المُطَهَّر

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم: (٢٦٩٩-عبد الباقي).

(٢) في (د): عليه السَّلام.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﷺ: أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب فضل طلب العلم، رقم: (٢٦٤٦-بشار).

(٤) قال فيه الدارقطني: «كتاب العقل وضعه أربعة، أوَّلهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبَّر؛ فركبَّه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركبَّه بأسانيد أُخَر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السِّجْزِي فأتى بأسانيد أخرى»، تاريخ بغداد: (٩/٣٢٨)، ويروي ابن العربي «كتاب العقل» عن أبي المُطَهِّر من طريق الحارث بن أبي أسامة.

(٥) داود بن المحبَّر بن قَحْذَم بن سليمان بن ذكوان، أبو سليمان البصري، تـ ٢٠٦هـ ببغداد، روى له أبو داود وابن ماجه، قال فيه الخطيب البغدادي: «حال =

سعد بن عبد الله بن أبي الرجاء الأصفهاني، وكُلُّه أو أكثرُه آثارٌ عن النبي ﷺ ليس لها أَصْلٌ، أَمْثَلُها - ولا مَثِيلَ فيها - حَدِيثٌ: «قيل له: أَقْبِلْ فأَقْبَلَ، وأَدْبِرْ فَأَدْبَرَ»[1]، وهذا الجزء هو الذي أَخَلَّ بدَاوُدَ فحَطَّ مَرْتَبَتَه؛ فلم يُرْوَ عنه[2]، وأَخُوهُ بَدَلٌ[3] تَرَكَه، فخرَّج عنه البُخاري وغيرُه، فكانَا[4] كمَا قيل في المثل مَقْلُوبًا:

دَاوُدُ مَحْمُودٌ وأنت مُذَمَّمٌ   عَجَبًا لذاك وأنتُما من عُودِ
فلرُبَّ عُودٍ قَدْ يُشَقُّ لمَسْجِدٍ   نِصْفًا وسائرُه لحُشٍّ يَهُودِ[5]

= داود ظاهرة في كونه غير ثقة، ولو لم يكن له غير وضعه «كتاب العقل» بأسره لكان دليلًا كافيًا على ما ذكرتُه»، تاريخ بغداد: (٣٢٨/٩)، وقال فيه ابن عدي: «وعن داود كتاب قد صنفه في فضائل العقل، وفيه أخبار مسندة، وكل تلك الأخبار أو عامتها غير محفوظات»، الكامل: (١٠١/٣)، وينظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: (٤٢٤/٣)، وتهذيب الكمال: (٤٤٧/٨).

(١) حديث موضوع، آفته داود بن المحبَّر، وأخرجه أيضًا ابن أبي الدنيا في كتاب العقل وفضله: (ص٤٠)، وليس يصح في العقل حديث؛ كما قال الحافظ ابن العربي، وكذلك قال الإمام ابن حبان، قال -رحمه الله- «لستُ أحفظ عن النبي ﷺ خبرًا صحيحًا في العقل»، روضة العقلاء: (ص١٦).

(٢) أي: لم يَعْتَنِ الحفَّاظ بأحاديثه، فلم تخَرَّجْ في الصحاح وما قاربها.

(٣) بَدَلُ بن المُحَبَّر بن المنبه التميمي البصري، وليس بأخ لداود، أخرج عنه البخاري وغيره، ينظر: تهذيب الكمال: (٢٨/٤).

(٤) في (س): فكان.

(٥) من الكامل، وهي لعبد الله بن محمد ابن أبي عُيَينة، وهما في الشعر والشعراء: (ص٧٥٥)، والأغاني: (١١٧/٢٠).

[المفاضلةُ بين الإيمان والإسلام]:

وأمَّا الإيمان والإسلام فأمرُهما عظيم، وشأنُهما كبير، وقد وردت أحاديثُ يسيرةٌ في تفصيل التفضيل[١] فيهما[٢]، فأمَّا ذواتُهما[٣] فأفضل من أن تُفَضَّلَ.

قال عبد الله بن مسعود:/ «والذي لا إله غيره[٤]، ما يَضُرُّ عَبْدًا يُصْبِحُ على الإسلام ويُمْسِي ما أصابه في[٥] الدنيا»[٦]. [٦٨/أ]

وقد روى[٧] بعضهم عن النبي ﷺ: أنه قيل له: «أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمانٌ بالله وجهادٌ في سبيله»، وسئل: «أي الإسلام خير؟ قال: أن تُطْعِمَ الطعام»، كما تقدَّم فيهما[٨].

وسئل النبي ﷺ: «أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خَلَقَكَ»[٩]، الحديث.

---

(١) في (س): تفضيل التفصيل.

(٢) في (س): فيها.

(٣) في (د): ذاتهما.

(٤) في (د): «لا إله إلا هو»، «لا إله غيره».

(٥) في (د): من.

(٦) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: (١٣٢/١).

(٧) في (د) و(ص) و(ز): روي عن النبي.

(٨) تقدَّم تخريجهما.

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كتاب التفسير، بابٌ، رقم: (٤٤٧٧-طوق).

وأمَّا الدِّينُ: فالمِلَّةُ؛ مشهورةُ الفَضائل[1].

تَنْبِيهٌ على وَهْمٍ: [طلب العلم فريضة]

رَوى قَوْمٌ عن النبي ﷺ: «طلبُ العلم فريضة»[2].

وقال فيه بعضهم: «فريضة بعد الفريضة»[3].

والأوَّل: صحيح المعنى، باطل السند.

والثاني: باطل الوجهين.

وكلُّ حِكْمَةٍ صحَّ معناها دِينًا لم يَحِلَّ أن تُنسب إلى النبي.

والثاني: فاسدُ المعنى لا يَصِحُّ أن يضاف إليه[4].

قال يحيى بن معين: «من لم يَكُن له فَهْمٌ بالحديث؛ يَعْرِفُ صَحِيحَه من سَقِيمِهِ قبل أن ينظر في طريقه، فلا ينبغي له أن يشتغل بطلبه».

---

(١) في (س) و(ز): الفضل.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم عن أنس رضي الله عنه: (٢٣/١)، والخطيب في تاريخ بغداد: (٢٥٢/٥)، قال ابن عبد البر: «هذا حديثٌ يُروى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة، كلها معلولة، لا حجة في شيء منها عند أهل العلم بالحديث من جهة الإسناد»، وقال إسحاق بن رَاهُويَه: «طلب العلم واجب، ولم يصح فيه الخبر»، قال ابن عبد البر: «يريد إسحاق -والله أعلم- أن حديث وجوب طلب العلم في أسانيده مقال لأهل العلم بالنقل، ولكن معناه صحيح عندهم»، جامع بيان العلم: (٥٣/١)، وسئل الإمام أحمد عن هذا الحديث فقال: «لا يثبت عندنا فيه شيء»، المنتخب من العلل للخلَّال: (ص١٢٨).

(٣) أخرجه ابن حبان في المجروحين عن ابن مسعود: (١٦٠/٢)، وفيه عباد بن كثير؛ متروك الحديث، والحديث باطل منكر.

(٤) في (س): إلى النبي ﷺ.

ولم يَقْنَعِ البائسون بحديث موسى في رحلته إلى الخَضِرِ يَطْلُبُ العِلْمَ حتى اختلقُوا ما لا معنى له، إلى أحاديث لا حصر لها ولا أصل.

[الوصاةُ بالأحاديث الصحيحة]:

فاقبضوا على ما في كَفِّ الإسلام منها، واضبطوا عليه بها، فياليتكم حصَّلتموه عُمْرَكُم، وما أُرَاكُمْ فاعلين ولا لها، ولو فعلتم مُطِيقِينَ إلَّا بتوفيق رَبِّ العالمين[١] وفضله ورحمته، واعتمِدوا من أحاديث[٢] الكَفِّ على ما صحَّ وثَبَتَ، ففيها ضَعِيفٌ كثير، ولا تكونوا كمن أحرز[٣] ناقةً أو شاةً من هَجْمَةٍ[٤] أو قَطِيعٍ فترك الكَوْمَاءَ[٥] والرُّبَّى[٦]، وعَمَدَ إلى المريضة والهزيلة، بل قد تركتم هذا كله وعمدتم إلى الميتة، وتركتم السمين والهزيل، وجعلتم تأكلون الميتة وتُطْعِمُونها سواكم، فياليت شعري ما حُجَّتُكم عند ربكم؟

وقد أخبرني[٧] بدمشق الشيخ الحافظ[٨] أبو محمد هِبَةُ الله بن أحمد

---

(١) في (س): فضل رب العالمين.

(٢) في (س): حديث.

(٣) في (س): جزر.

(٤) في (س): عجمة.

(٥) في طرة بـ (س): الكوماء: الطويلة السنام.

(٦) الرُّبَّى: هي التي تُرَبَّى في البيت لأجل اللبن، تاج العروس: (٢/٤٧٠).

(٧) في (ز): أخبرنا.

(٨) سقط من (ص).

الأَكْفَانِي[١]: نا أبو محمد[٢] عبد العزيز الكَتَّاني الحافظ قال: نا[٣] أبو الحُسَين[٤] عبد الوهاب[٥] الميداني[٦]: نا[٧] أبو هاشم عبد الجبار بن عبد الصمد[٨] السُّلَمِي قال: نا[٩] أبو بكر [القاسم[١٠]] العصَّار[١١]: أنا إبراهيم بن يعقوب الجُوزَجَانِي[١٢]: «بأنَّ الله عز وجل قال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٥].

---

(١) المحدث العلَّامة الإمام، هبة الله بن أحمد بن محمد بن أحمد الأنصاري الدمشقي، أبو محمد ابن الأَكْفَانِي، (٤٤٤-٥٢٤هـ)، كان ثقة عارفًا ثبتًا، مَعْنِيًّا بالحديث وجَمْعِه، روى عنه ابنُ العربي «فضائل مالك بن أنس» لابن الجبَّان، و«محنة الشافعي»، والإسناد الذي أورده ابنُ العربي من طريقه هو إسنادُه إلى «أحوال الرجال» للجُوزَجاني، وأوَّل من أدخله إلى الأندلس هو ابن العربي، ذَكَرَ ذلك في آخِرِ «السراج»، ينظر: فهرس ابن خير: (ص٣٤٧)، وسير النبلاء: (٥٧٦/١٩-٥٧٨).

(٢) قوله: «أبو محمد» سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٣) في (س): أنا.

(٤) في (س) و(د): الحَسن.

(٥) سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٦) في (س) و(ز): الهمداني، وهو تصحيف.

(٧) في (س): أنا.

(٨) قوله: «عبد الجبار بن عبد الصمد» سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٩) في (س): أنا.

(١٠) في طرة بـ (د) كلمة غير واضحة، ويقرب أن تكون كما كتبتها، وسقطت من النسخ الأخرى.

(١١) في (س): العطَّار، وهو تصحيف.

(١٢) في (س): الجرجاني، وهو تصحيف.

وقد حدَّثني(١) علي بن الحَسن(٢) قال: سمعت عبد الله - يعني: ابن المبارك - يقول: إذا ابتليت بالقضاء فعليك بالأثر.

قال علي(٣): فذكرته لأبي حمزة محمد بن ميمون السُّكَّري(٤)؛ من أهل مرو، ولا بأس به، فقال: هل تدري ما الأثر؟ أن أحدثك بالشيء فتعمل به، فيقال لك يوم القيامة: من أمرك بهذا؟ فتقول: أبو حمزة، فيجاء بي(٥) فيُقال: إن هذا يزعم أنك أمرته بكذا وكذا، فإن قلتُ: نعم، خُلِّيَ عنك، ويقال لي: من أين لك هذا؟ فأقول: قال لي الأعمش، فيُسأل الأعمش، فإذا قال: نعم، خُلِّي عني، ويقال للأعمش: من أين قلت هذا؟ فيقول: قال لي إبراهيم، فيُسْأَلُ إبراهيم، فإن قال: نعم، خُلِّي عن الأعمش(٦) وأُخِذَ إبراهيم، فيقال له: من أين قلت/ هذا(٧)؟ فيقول: قال لي [٦٨/ب] علقمة، فيُسأل علقمة، فإذا قال: نعم، خُلِّيَ عن إبراهيم، ويقال له: من أين قلت هذا(٨)؟ فيقول: قال لي عبد الله بن مسعود، فيسأل عبد الله بن مسعود، فإن قال: نعم، خُلِّيَ عن علقمة، ويقال لابن مسعود: من أين قلت؟ فيقول: قال لي رسول الله ﷺ، فيُسأل رسول الله ﷺ فيقول: قالي لي جبريل، حتى ينتهي إلى الرب، فهذا الأثر.

---

(١) القائل هنا هو الجُوزَجاني.
(٢) في (س) و(ص): الحُسَين، وهو تصحيف.
(٣) في (س) و(ز): قال علي بن الحُسَين.
(٤) في (س) و(ز): السَّكُوني.
(٥) سقط من (د) و(ص).
(٦) في (س): عنه.
(٧) سقط من (د) و(ص).
(٨) سقط من (ص) و(د).

فالأَمْرُ جِدٌّ غير هَزْلٍ، إذ كان يُشْفِي على جنة أو نار؛ ليس بينهما هناك منزلٌ، وليعلم أحدُكم[١] أنه مسؤولٌ عن دينه، وعمَّن[٢] أخذه، وحِلِّه وحَرَامِه[٣]، كالذي[٤] [حدَّثني أشهل بن حاتم عن ابن عون عن محمد قال: إنَّ هذا العلم دين؛ فلينظر امرؤٌ عمَّن يأخذ دينه]»[٥].

[كُتُبُ الزهد]:

وإذا لم يكن لكم بُدٌّ من قراءة «كتب الزهد» فلا تشتغلوا منها إلَّا بثلاثة؛ «كتاب ابن المبارك»، و«ابن حنبل[٦]»، و«هنَّاد بن السَّرِيِّ»[٧]، فهي أمثلها، وهم أَجَلُّ الزُّهَّادِ، وأعلمُهم، وأكثرُهم حَوْطَةً على المسلمين، وأبصرُهم بما يَرْوُون[٨].

---

(١) سقط من (س).

(٢) سقطت من (ص) و(س).

(٣) قوله: «حله وحرامه» سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٤) بعده في (د) علامة اللحق، ولا يكاد يظهر شيء، والاستدراك من كتاب أحوال الرجال للجوزجاني: (ص٣٥٩).

(٥) أحوال الرجال للجوزجاني: (ص٣٥٩).

(٦) بعده في (س) و(ص) و(ز): والسري أبي السري، وضرب عليها في (د).

(٧) يروي ابنُ العربي «كتاب الزهد» لهنَّاد عن ابن الطُّيُوري، فهرس ابن خير: (ص٣٤١).

(٨) بعده في (ص): آخر الجزء الأوَّل، وأوَّل الثاني: بسم الله الرحمن، قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي ﷺ: أقسام العلوم.

أقسامُ العلوم:

والعِلْمُ وإن كان معنًى واحدًا، وحقيقةً واحدةً؛ ولكنه يَنْقَسِمُ أقسامًا كثيرةً من جهات مختلفة، من جهة صفاته، واختلاف متعلقاته، وما يتصل به، ويرتبط معه.

أمَّا[١] انقسامُه من جهة صفاته فأمرٌ يختصُّ به أهل السنة، فإنهم يقولون: إنه على قِسْمَيْنِ: قديم ومخلوق، فعِلْمُ الله هو الذي لا أوَّل له[٢]، يتعلَّق بالمعلومات كلها على اختلاف أنواعها؛ من قديم ومُحْدَثٍ، وموجود ومعدوم، على الجملة والتفصيل، لا يَعْزُبُ عنه معنًى يَصِحُّ أن يتعلَّق به عِلْمٌ، ولا يَتَقَدَّرُ في وَهْمٍ، فهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير.

والمقصود من العِلْمِ: العِلْمُ بالله تعالى، وبه يتعلَّق جميعُ المعلومات، فإنَّا نفتقرُ إلى أن نعلم ذاته وصفاتِه ومخلوقاته، ونعلم من ذلك جُمْلَةً من تفصيل، وقليلًا من كثير، إذ الإحاطةُ له خاصة، ونَعْلَمُ من وَجْهٍ، ونَجْهَلُ من وَجْهٍ، ويطرأُ علينا السَّهْوُ والذُّهُولُ والشَّكُّ، ويُعْدَمُ عِلْمُنا، وهو القُدُّوسُ عن ذلك كلِّه، وَجَبَتْ له صفات الكمال، وتفرَّد بنُعوت الجلال.

وتنقسم العلوم من جهة طُرُقِها إلى ثلاثة أقسام؛ قِسْمٍ يَثْبُتُ في النفس ابتداءً، وقِسْمٍ يُعْلَمُ بالحواس، وقِسْمٍ يُعْلَمُ بالقياس على هذين القِسْمَيْنِ؛ وهو الأكثر، وهو المأمور به، وهو المُسَمَّى بالعِلْمِ النَّظَرِيِّ[٣].

---

(١) في (ص) و(د): فأما.

(٢) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص١٩٠)، والأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١٠/٢).

(٣) في (د): وهو العلم المسمى بالنظري.

وينقسمُ من جهة متعلَّقاته إلى ثلاثة أقسام[١]:

الأوَّل: معرفة الله تعالى بذاته وصفاته، وأفعاله وأحكامه، وهو المطلوب.

والثاني: معرفة أفعال المكلَّفين.

والثالث: معرفة الجزاء في الآخرة.

ولو قلت: إنه قِسْمٌ واحدٌ؛ معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله، لدخل ذلك كلُّه فيه، وانتظم به، وينبني ذلك على معرفة المرء بنفسه، فمن لا يَعْرِفُ نَفْسَه لا يعرف ربَّه، إذ لا سبيل إلى معرفة الله إلا بالاستدلال عليه، وهذا مَسْطُورٌ مُوَضَّحٌ في كتاب الله فليُنْظَرْ فيه، فليس له صفة كمال، ولا/ للمُلْحِدَةِ شُعْبَةُ ضلال إلَّا وهو[٢] في كتاب الله مُوَضَّحٌ، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

١ [٦٩/أ]

وأمَّا أَحْكَامُ أفعال المكلفين: ففي[٣] القرآن الإيضاحُ لها، والإحالةُ أيضًا على بيان النبي ﷺ فيها.

رُوي في الصحيح عن ابن مسعود: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمُتَنَمِّصَاتِ، والمُتَفَلِّجَاتِ للحُسْنِ المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله، فجاءته امرأة فقالت: إنه بلغني أنك لَعَنْتَ كَيْتَ وكَيْتَ، فقال: وما لي لا أَلْعَنُ من لعن رسولُ الله ﷺ، ومن هو في كتاب الله، فقالتْ له: قرأتُ

---

(١) ينظر: قانون التأويل: (ص٢٣٠).

(٢) قوله: «في كتاب الله فلينظر فيه، فليس له صفة كمال، ولا للمُلْحِدَةِ شعبةُ ضلال إلَّا وهو» سقط من (د) و(ص).

(٣) في (د): في.

ما بين اللَّوْحَيْنِ فما وجدت فيه ما تقول، فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أمَا قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه»[(١)].

وتَزْكِيَةُ[(٢)] النفس وتطهيرُها والخروجُ عن آفاتها بالقَلْبِ والجَوَارِحِ عِلْمٌ مُحْكَمٌ في القرآن والسنة، وهو نِصْفُ العِلْمِ من جهة، إذ[(٣)] العِلْمُ وَجْهَانِ؛ معرفة الخالق، ومعرفة الخَلْقِ.

فتنخَّل لك أن علوم الشريعة[(٤)] ثلاثة؛ «التَّوْحِيدُ»، و«الأحكامُ»، و«التَّذْكِيرُ»، ويدخل عليها «الناسخ والمنسوخ»، وهو منها، وقد مَهَّدْنَا في ذلك فُنُونًا عظيمةً في «أنوار الفجر».

وهذه «الرسالة» هي مُجَرَّدَةٌ في قِسْمِ الذِّكْرَى، فإنَّ من معرفة النفس معرفةَ الأسماء والصفات، في الأحوال والمقامات، وسترون ذلك إن شاء الله.

فإنكم إذا عَقَلْتُم ما كنتم به مخاطبين، وعَلِمْتُم ما غَدَوْتُم به جاهلين، وذكرتم ما كنتم عنه غافلين، وصدَّقتم بما غدا سواكم به مُكَذِّبِينَ، وطلبتم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب اللباس، باب المتنمصات، رقم: (٥٩٣٩-طوق).

(٢) في (س): تزكية.

(٣) بعده في (د): إلى، ولا وجه لها.

(٤) في (د) و(ص) و(ز): الشرع، وأشار إليه في (س).

الإيمان من المؤمن[١]، والإسلام من السَّلام، وخلعتم كل معبود سواه، ولم تُؤَمِّلُوا غيره؛ فقد وَفَيْتُم بالعُهْدَةِ، وأحكمتم العُقْدَةَ.

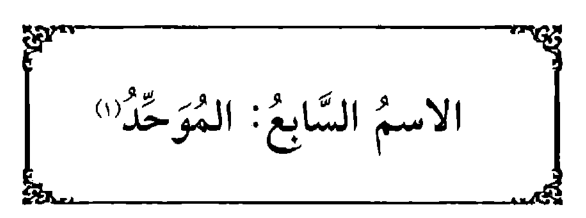
وقد روى ابن عمر عن النبي ﷺ - واللفظ لمسلم -: «بُنِيَ الإسلام على خمس، على أن يُوَحَّدَ الله»[٢]، وذَكَرَ باقيها، فجعل التَّوْحِيدَ أَصْلَ الدِّينِ وجُمْلَتَه، وهو:

* * * * *

---

(١) في (س): المؤمنين.

(٢) تقدَّم تخريجه.



الاسمُ السَّابعُ: المُوَحِّدُ[١]

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣].

وقال النبي ﷺ - واللفظ للبخاري - لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن: «إنك تقدم على قوم أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يُوَحِّدُوا الله، فإذا فعلوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات»[٢]، وذكر الحديث.

وهو قوله في القرآن والحديث: «أن لا تشركوا بي شيئًا»، أي: لا تجعلوا له مِثْلًا في ذات ولا صفات ولا أفعال، فذلك إثباتُ حقيقة التوحيد، لَهُ ذاتًا وصفةً وفِعْلًا، وفِيكَ[٣] عَقْدًا وقَوْلًا وعَمَلًا.

بيان سهولة التوحيد:

وقد عَظَّمَه قَوْمٌ على الخلق حتَّى أَيْأَسُوهم منه، وما أعظمه قَدْرًا! وما أقربه تَيَسُّرًا[٤]! ولقد رضي الله فيه باليسير، وأدناه لعباده بالتيسير، وأمرهم به بسابق الحُكْمِ والتقدير فقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

---

(١) سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم: (١٤٥٨-طوق).

(٣) ضرب عليها في (د).

(٤) في (س) و(ص): يسرًا.

[٦٩/ب] فالتوحيد هو: أن لا/ ترى لله شريكًا ؛ بأن لا تعتقد سواه خالقًا ولا معبودًا ، وأنه فعَّال لما يريد ، ولا يُسأل عمَّا يفعل ، والخَلْقُ[١] يُسألون ، وأدلة هذا كله قرآنيةٌ قريبة على الخلق.

وقد قالوا: إنه بحر لا ساحل له ، وصَدَقُوا ، وهو نَهْرٌ عَذْبٌ تخوضه بالقَدَم ، وتُدركه بالعلم في أسرع وقت وعلى أنهج أَمَمٍ ، وإنَّما عظَّمه كثرة الشاكِّين ، وتخليط المُلحدين ، ونزغات الشياطين.

وإذا كُنْتَ منشرح الصدر على نُورٍ من الله لم يَعْظُمْ عليك شَيْءٌ ممَّا تَلْقَى ، وإن أخطأتك الهدايةُ فأنتَ بكل طريق طَرِيحٌ مُلْقًى ، وقد قابل الله كلَّ ما تخافُ[٢] اعتراضه[٣] من ذلك بحُجَجِهِ الظاهرة في كتابه المُبين ، وبيَّنها خاتم المرسلين ، وها أنا أُوردها عليكم في هذه الرسالة مَجْلُوَّةَ الحُلَى ؛ على ترتيب العلماء الراسخين:

وإذا عرفتم أنه لا خالق سواه ، ولا معبود إلَّاه[٤] ، فله الخَلْقُ لنا وفينا ، ومنَّا الطاعة له خَلْقًا وحَقًّا ، فمن يُرْجَى بعده لمُلِمَّةٍ؟ أو لكَشْفِ عظيمة[٥]؟ أو لهَدْيِ كَرِيمَةٍ[٦]؟ وعن هذا وقعت الإشارة من النبي في قوله لرجل[٧]: «أسلمتُ وتخلَّيتُ»[٨] ، خرَّجه النسائي.

---

(١) في (ص): هم.
(٢) في (س): يخاف.
(٣) في (س): اعتقاده.
(٤) في (س) و(ز): إلا هو.
(٥) في (س) و(ص): يكشف العظيمة.
(٦) في (س) و(ص): يهدي الكريمة.
(٧) بعده في (س) و(ص) و(ز): قل ، وضرب عليها في (د).
(٨) أخرجه النسائي في الكبرى من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: كتاب الزكاة ، باب من سأل بوجه الله ، رقم: (٢٣٦٠-شعيب).

المعنى: قصدتُ السلامة؛ ولم أَدْعُ سواك، ولا رجوت غيرك، ولا يكون التَّخلِّي[١] في العُلُوم إلَّا بالتَخَلِّي عن الأفعال والهُمُوم.

والمُوَحِّدُ[٢]: هو الذي يَعْلَمُ هذا بقلبه، ويعتقده ويقوله بلسانه، وتظهر ثمراتُه على جوارحه في أفعاله.

والمُلْحِدُ: لا يعلم ذلك ولا يقوله.

والمنافق: يقولُه ولا يعتقدُه.

والقاصر: يعتقده ويقوله، ولا يظهر أثرُه على جوارحه.

وهذا[٣] الناقص الحالة، الناقص المرتبة، الناقص العاقبة.

فأمَّا نقصان حالته؛ فلا يدخل في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ ٱلذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، وأمثاله.

وأما نقصان مرتبته؛ فإنه لا يكون شاهدًا دُنيا[٤] ولا آخرة، ولا يكون إمامًا ولا أمينًا.

وأمَّا نقصان حاله في العاقبة؛ فحسب حاله في الخلاف والتقصير، وقد تَخْتَلِجُ الشكوك في القلب، وتعترض العوارض حتى يأتي الله باليقين.

[إسلامُ أبي سفيان وزوجه هند رضي الله عنهما]:

قال أبو سفيان حين سأله هِرَقْلُ عن النبي وصفاته ومقاله، وراجَعه هِرَقْلُ عن ذلك بما راجعه في الحديث المشهور، قال أبو سفيان: «فما زلت مُوقِنًا أن أَمْرَ رسول الله ﷺ سيظهر»[٥].

---

(١) في (س): التخلي، وفي (ص): التجلي.

(٢) في (د) و(ص): الموحد.

(٣) في (د): هو.

(٤) في (س): دينًا.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الوحي، رقم: (٧-طوق).

فلمَّا كان ليلة الفتح ولقيه العبَّاس بالأذاخر، وجاء به، ووَقَفَ بين يدي رسول الله ﷺ[١]، وعُمَرُ قد تبعه ليقتله، فقال له النبي ﷺ: «أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله؟ فقال له أبو سفيان[٢]: أما هذا فقد علمتُ أنه لو كان مع الله إله غيره لأغنى عني[٣]، قال له: أما آن لك أن تشهد أن محمداً رسول الله؟ قال له أبو سفيان: أمَّا هذه ففي النفس منها شيء، فقال له العباس: ويحك؛ تَشَهَّدْ قبل أن تُضرب عنقك، فتشهَّد[٤] شهادة الحق»[٥].

ولم تكن تخفى[٦] على أبي سفيان منزلتُه، ولا ضَلَّتْ عليه معجزتُه، ولكنها كانت أَنَفَةً دَنِيَّةً، وهِمَّةً جَاهِلِيَّةً، وحالاً[٧] اقتضتها العصبيَّةُ، وحَسُنَ بعد ذلك إسلامُه،/ [٧٠/أ] وإسلامُ الفاضلة زَوْجِهِ؛ هِنْدِ بنت عُتْبَةَ، وجاءت إلى النبي ﷺ فقالت له: «يا رسول الله، والله ما كان على ظهر الأرض أَهْلُ خِبَاءٍ أحب إليَّ من أن يَذِلُّوا من أهل خبائك، وما أصبح اليوم على ظهر الأرض أَهْلُ خباء أحب إليَّ أن يَعِزُّوا من أهل خبائك، فقال لها رسول الله[٨] ﷺ: وأنا كذلك»[٩]، وناهيك بها[١٠] منقبةً وشرفًا.

---

(١) بعده في (د): به.

(٢) قوله: «فقال له أبو سفيان» سقط من (س).

(٣) في (س) و(ص): لو كان غير الله لأغنى عني.

(٤) في (س) و(ز): فشهد.

(٥) أخرجه الطبراني في أكبر معاجمه عن ابن عباس رضي الله عنهما: (١١/٨)، رقم: (٧٢٦٤)، فيه محمد بن إسحاق، وهو حسن الحديث.

(٦) في (د): لم يكن يخفى.

(٧) في (د): حال.

(٨) في (د) و(ص) و(ز): النبي.

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: كتاب مناقب الأنصار، باب ذكر هند بنت عتبة رضي الله عنها، رقم: (٣٨٢٥-طوق).

(١٠) في (د) و(ص): بهذا.

وعنـدي هاهُنـا نُكْتَـةٌ ؛ أن بنـي أميـة إنَّمـا ارتفعـوا بهـذه الإشـارة، واسْتَسْعَدُوا[١] بِهِنْدٍ فيها، وما أجرى الله على لسان النبي[٢] منها، فاعتزَّ القَوْمُ ومَلَكُوا الأرض، وظَهَرُوا على من[٣] سواهم ممَّن ناوأهم، ما أقاموا الحق واعتمدوا التأويل، فلما غَيَّرُوا غيَّر الله بهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١٢].

قال الإمام الحافظ أبو بكر[٤] ﷺ: فقد تبيَّن أن حقيقة التوحيد أن لا تعتقد خالقًا إلَّا الله، ولا معبودًا سواه، وأنه فعَّال لما يريد، وأنه قد كتب العبدَ شَقِيًّا أو سعيدًا، صحيحًا[٥] أو مُعْوَجًّا، مُقَدَّرًا عليه رِزْقُه أو مُوَسَّعًا، طائعًا أو عاصيًا، مُعَمَّرًا أو غير مُعَمَّرٍ[٦]، أو مُعْتَبَطًا[٧]، وأبلغ[٨] رسولُه أمرَه ونهيه[٩]، وعرَّفه ما ابتلاه به من ذلك؛ في طاعة يمتثلها، أو معصية يجتنبها، ووعد بالثواب[١٠] لمن أطاع، وأوعد بالعقاب لمن عصى.

---

(١) في طرة بـ (د): انتفعوا، وصحَّحها.

(٢) في (د) و(ص) و(ز): رسوله.

(٣) سقطت من (س) و(ز).

(٤) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.

(٥) في (س): في خـ: مستقيمًا.

(٦) قوله: «أو غير معمرٍ» سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٧) في (د) و(ز): مغتبطًا.
المُعْتَبَطُ: من مات شابًا، تاج العروس: (١٩/ ٤٦٧).

(٨) في (ص): أنهى، وفي (س): أنه.

(٩) في (س): نُهاه.

(١٠) في (س): الثواب.

قالت الصحابة للنبي ﷺ: «يا رسول الله، هذا الذي نحن فيه أَمْرٌ قد فُرِغَ منه أم أَمْرٌ مُسْتَأْنَفٌ؟ فقال لهم: فَرَغَ ربُّكم، قالوا له[1]: ففيم العمل؟ فقال: اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، أَمَّا من كان من أهل السعادة فيُيَسَّرُ[2] إلى عَمَلِ أهل السعادة، وأَمَّا من كان من أهل الشَّقاوة فيُيَسَّرُ[3] إلى عَمَلِ[4] الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥ - ١٠]»[5].

فانقادوا وفَهِمُوا أن الأمر لله والحُكْمَ له، وأن هذه الأَعْمَالَ الجَارِيَةَ على جَوَارِحِ الخَلْقِ عَلَامَاتٌ على ما للعبد عند الله.

فإن خطر ببالك أن العملَ غيرُ مُغْنٍ عنك، وأنه قد خُطَّ في جَبِينِك ما خُطَّ، وحُطَّ رَحْلُك من الدارين حَيْثُ حُطَّ، فأجمعت[6] على التخلي عن العمل، والاستسلام لسابق القَدَرِ، فتلك علامة الهلكة.

وإن خطر[7] وغَلَبَ على الخاطر الاستسلامُ للعمل والقدر، وجرى على الجوارح الامتثالُ؛ فذلك دليلُ الله للعباد على الفوز في المعاد.

---

(١) سقط من (س) و(ص).

(٢) في (ص): فَسَيُيَسَّرُ، ومرَّضها في (د).

(٣) في (ص): فسييسر، ومرَّضها في (د).

(٤) في (د) و(ص): لعمل.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن علي رضي الله عنه: كتاب التفسير، رقم: (٤٩٤٩- طوق).

(٦) في (د): فاجتمعت.

(٧) سقط من (د) و(ص).

والباري تعالى هو الذي دبَّر الأمور، وقدَّر المقادير، وابتلى بها عبادَه وأخبرهم عنها، وأَحْكَمَ فاتحتها وخاتمتها، وليس في فِعْلِه عَبَثٌ، ولا في حُكْمِه[1] سَفَهٌ، ولا في خبره كَذِبٌ، ولا في أفعاله تناقض، ولا في أقواله تعارض، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران:٧٣]،/ وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات:٧-٨].

١ [٧٠/ب]

يعني: كل ذلك خَلَقَ فيهم أفعالَه، وأنفذ فيهم إرادته[2]، ثم أخبر عنهم بأنهم الراشدون بصفة الفاعل، وكُلُّهم بما فيه[3] مفعول، وذلك كله بنعمته وحِكْمَتِه ورحمته.

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥].

وفَاتَحَ الله رسوله بنصره، وأَوْعَدَ[4] إليه أن يَرْمِي بأمره، فامتثل ذلك من حَدِّه، وأنجز الله له فَاخِرَ وعده، وهزم جُنْدَ[5] الأحزاب بجُنْدِه، ثم قال له[6] مُطْلِعًا على الحقيقة، وناهجًا له سواءَ الطريقة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧].

---

(١) في (د): فعله.
(٢) في (ص): إراداته.
(٣) في (ص): وجعلهم بما فيهم.
(٤) في (ص): أوعز.
(٥) في (ز): جنود.
(٦) سقطت من (س).

[حَقِيقَةُ الكَسْبِ][١]:

وهو قد رمى بدليل قوله: ﴿رَمَيْتَ﴾، وأضاف الفعل إليه ونفاه عنه، وكلاهما صِدْقٌ، فإنه أضافه إليه عربيَّةً[٢]، ونفاه عنه حقيقةً، ويحتمل أنه أضافه إليه لأنه خَلَقَ الحركة فيه، ونفاه عنه لأن التبليغ إلى الكفار[٣] المرمي به كان من خَلْقِ الله في عَبْدِه، يُدَبِّرُ الأمر، يُفَصِّلُ الآيات، ويُبَلِّغُها إلينا محكمات ومتشابهات.

فإن قيل: فهذا هو القول بالجبر؟

قلنا: ليس في الجبر خَبَرٌ[٤]، وإنكارُ القَدَرِ كُفْرٌ، ونحن بُرَآءُ من الوجهين:

أمَّا القَدَرُ فصحيحٌ على ما بيَّناه وأوضحناه.

وأمَّا أن الله خَالِقُ كل شيء، وأن[٥] العبد لا يخلق شيئًا؛ فبَيِّنٌ ظاهرٌ مقطوعٌ به.

وأمَّا لفظ الجَبْرِ فمُعَارِضٌ للشرع[٦]؛ فإنَّ الله خلق المشيئة في العبد وأثبتها له لفظًا، ونفاها عنه خَلْقًا، فالقول بالجَبْرِ تكذيبٌ لله، والقول بخَلْقِ المرء لِفِعْلٍ تَشْرِيكٌ مع الله، والاعتقادُ لما قال الله وأَخْبَرَ به ورَتَّبَ عليه قَوْلَه

---

(١) من طرة بـ (س)، وفوقها: بخطه، أي: ممَّا وُجِدَ بخطِّ القاضي ابن العربي.

(٢) في (س): عزيمة، وما أثبتناه صحَّحه بطرته.

(٣) في (ص): للكفار للمرمي به.

(٤) في (س) و(ز): خير.

(٥) سقط من (س).

(٦) في (ص): الشريعة.

وشَرِيعَتَه حَتْمٌ من الله، وهو سبحانه قد سَلَكَ بكُلِّ فَرِيقٍ على كلٍّ[١] طريق، واختار لنا بفضله ورحمته جادَّة التحقيق، والحمد لله رب العالمين.

فإن قيل: فلِمَ يُعَاقِبُ على ما فعل؟

قلنا: هو حاكمٌ لا يُسأل، وقد غبَّرنا وجوهكم[٢] وطمسناها في «كُتُبِ الاعتقاد» بأدلتها[٣].

فائدة:

سمعتُ الفقراء ببغداد يقولون: «إنَّ ما نقله أهلُ التفسير؛ من أن عيسى كان يَخْلُقُ من الطير كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طائرًا بإذن الله، فإذا طار شيئًا سَقَطَ مَيِّتًا ولم تَدُمْ له حياة، لأنَّ عيسى كان يَخْلُقُ ولا يَرْزُقُ، ولو رَزَقَ كما خَلَقَ لم يَبْقَ أَحَدٌ إلَّا قال: هو الله؛ فِتْنَةً، إلَّا مَن آتاه الله هُداه».

وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ [العنكبوت:١٩]، وأنت ترى الرزق يَجْرِي على أيديهم؛ ويُعْطُونَ ويَحْرِمُون، ولكنه مَوَاطِنُ لمقدورات[٤] الله، فتعلَّق بها أهلُ الجهل بالله.

وقد ثَبَتَ وصَحَّ عن النبي ﷺ من طريق زيد بن أرقم - واللفظ له - قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ فذكر الحديث،/ وقال: فكنتُ مع عمي؛ فسمعتُ عبد الله بن أُبَي بن سلول يقول: ﴿لاَ تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ

١ [٧١/أ]

(١) سقطت من (ص).

(٢) يقصد بالوجوه هنا الأقوال والشبه.

(٣) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٢٧٠).

(٤) في (ص): بمقدورات.

حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون:٧]، و﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، فذكرتُ ذلك لعَمِّي، فذَكَرَ ذلك عَمِّي لرسول الله ﷺ، فدعاني فحدَّثتُه، فأرسل إلى عبد الله بن أُبَي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، وكذَّبني النبي ﷺ وصدَّقهم، فأصابني غَمٌّ لم يُصِبْني مثلُه قَطُّ، فجَلَسْتُ في بيتي، فقال عمي: ما أردت إلَّا أن كذبك[1] رسول الله ﷺ ومَقَتَك، فأنزل الله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]، فأرسل إليَّ النبيُّ ﷺ فقرأها عليَّ[2]، وقال: إن الله قد صدَّقك»[3].

وهو الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «هو الذي أوفى الله بأُذُنِه»[4].

فأخبر الله سبحانه أن خزائن السماوات والأرض لله، وأن قول العبد: أنفق أو لا[5] تنفق في غير الطاعة؛ لَغْوٌ، وأن المعتبر في الطاعة قول النبي ﷺ: «أنفق يا بلال، ولا تَخْشَ من ذي العرش إقْلَالًا»[6]، وكذلك قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:٣٥]،

---

(١) في (س): في خـ: أكذبك.

(٢) سقطت من (ص).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، قوله: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾، رقم: (٤٩٠٠-طوق).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: كتاب التفسير، قوله: ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾، رقم: (٤٩٠٦-طوق).

(٥) في (ص) و(ز): ولا.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في الزهد عن مسروق، وهو مرسل: (ص١٥).

وهو[١] قد ضَمِنَ الكفاية من التخويف والتوحيد، فينبغي أن لا[٢] يخاف غَيْرَ الله، وسَنُبَيِّنُ[٣] ذلك في موضعه إن شاء الله.

مُتَمِّمَةٌ: [في زيادة الإيمان ونقصانه]

لم يختلف أَحَدٌ من المتقدمين من الصحابة والتابعين والسَّلَفِ الصالحين[٤] في أن الإيمان والعلم يزيد وينقص، حتَّى نَشَأَتِ المبتدعة من القدرية وإخوانهم، فتكلموا بألفاظ الأوائل؛ من عَرَضٍ وجَوْهَرٍ، وحامل ومحمول، وخاضوا في أن العَرَضَ يتجدَّد، وأن الجَوْهَرَ الفَرْدَ لا يتعدَّد، ورَكَّبُوا عليه أدلة التوحيد، وهذا وإن كان يُفْضِي إلى تحقيق، ولكنه خُرُوجٌ عن سيرة السلف، ويصلح للغَلَبَةِ في الجدال، وإلَّا فقد أغنى الله في كتابه بما وضع من أدلته، «وليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن[٥]»[٦]، ولَوْ لَمْ يُمَكِّنُوا أنفسهم من هذه[٧] الألفاظ معهم، ولا انقادوا في تَرْدَادِها في النظر إليهم؛ لكانوا قد سَدُّوا من البدعة بابًا، وطَمَسُوا وَجْهًا، فإن المداخلة لهم فيها أَطَالَ النَّفَسَ، وما حَلَّتْ عُقْدَةَ الحَبَسِ[٨].

---

(١) سقط من (ص).

(٢) سقطت من (ص).

(٣) في (د): نبين.

(٤) في (ص): الماضين.

(٥) أي: يستغني بالقرآن، وبدلائله عن تلك الأقوال والتعمُّقات.

(٦) يأتي تخريجُه في اسم «القارئ».

(٧) سقطت من (ص).

(٨) أفاد من قول ابن العربي هذا الإمامُ ابن مخلص السبتي في كتابه «أدلة التوحيد والنبوة»: (ق٢/ب).

ونحن وإن كنا نقول: إن العَرَضَ لا يقوم بنفسه وأنه يتجدَّد، وأن الجوهر الفرد لا يتعدَّد، وحُكْمُنا بأن الإيمان والعلم والاعتقاد أَعْرَاضٌ، فإنَّا نقول: إنها تزيد وتنقص، وتقوى وتضعف، وتستقيم وتنحرف، وقد ورد بذلك القرآن، وهو الغاية في البيان، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [المدثر:٣١][١]، وقال: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ [الحج:١١]، وقال: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾[٢] [آل عمران:١٧٣]. / [٧١/ب]

وقال[٣] ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإيمان من رَضِيَ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمُحَمَّدٍ نبيًّا»[٤].

وقال ﷺ: «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه[٥] وأهله وولده والناس أجمعين، فقال له عمر: إنك لأحب إليَّ إلَّا من نفسي، قال له رسول الله ﷺ: لا، حتى أكون أحب إليك من نفسك،

(١) لم ترد هذه الآية في (ص).
(٢) بعدها في (س): ﴿فما زادهم إلَّا إيمانًا وتسليمًا﴾.
(٣) في (ص): قال رسول الله.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن العباس ؓ: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصي الكبائر، رقم: (٣٤-عبد الباقي).
(٥) سقط من (ص).

قال له عمر: فإنك أحب إليَّ من نفسي[١]، قال: فالآن يا عمر»[٢]، خرَّجه البخاري.

وقال: «لن يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[٣].

وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[٤].

وقال ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان»[٥].

قال الإمام الحافظ[٦]: ومن يَعْجَبْ فَعَجَبٌ[٧] ممَّن يتأوَّل هذه الآيات والأخبارَ والحقيقةُ تعضدها، وذلك أنهم جَهِلُوا أو[٨] غَفَلُوا عن حقيقة

---

(١) قوله: «قال له رسول الله ﷺ: لا، حتى أكون أحب إليك من نفسك، قال له عمر: فإنك أحب إليَّ من نفسي» سقط من (س).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، رقم: (٦٦٣٢-طوق).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم: (١٣-طوق).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي شُرَيح الكعبي ﷺ: كتاب الجامع، جامع ما جاء في الطعام والشراب، (٢/٣١٠)، رقم: (٢٦٤٢-المجلس العلمي الأعلى).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ: كتاب الإيمان، باب بيان أن النهي عن المنكر من الإيمان، رقم: (٤٩-عبد الباقي).

(٦) في (د): قال الإمام الحافظ القاضي ﷺ، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي ﷺ، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي ﷺ.

(٧) في (ص): فيعجب.

(٨) في (س): و.

الزيـادة والـنقص، والوجـود والعـدم، وذلـك أن الـشيء لا يزيـد بذاتـه ولا ينقص بها، وإنَّما يزيد بشيء[1]؛ كـان جـوهرًا أو عَرَضًـا، فـإن وُجِـدَ مِثْلُـه أو مِثْلَيْه[2] زاد، فإن عُدِمَ ذلك الوجود بعده نَقَصَ، فإن عُـدِمَ أصـلُه الأوَّل كـان نَفْيًا مَحْضًا، فالعَدَمُ نَفْيُ الوجـود[3] الأول، والـنقص نَفْـيُ الوجـود[4] الثـاني الذي به كانت الزيادة، ولن يزال العبدُ أبدًا فـي زيـادة المعرفـة بنَفْـسِه وبرَبِّـه وبدِينِه ما تراخى أجلُه، وإذا طرأت[5] عليه غفلةٌ أو ذُهُولٌ أو شكٌّ في معلـوم فانعدم ذلك الزائد على الأصل كان نقصًا، حتى لو عُدِمَ الأول الذي حَـصَلَ له به الحكم، أو الثاني الـذي جُعِلَ مثلـه فـي الفَرْضِـيَّةِ والعـصمة، كـان فـي وُجُودِ الأول عَدَمًا حقيقةً وحُكْمًا، وحُكِمَ عليه بالكفر، وإن عُدِمَ الثاني كـان كـافرًا حُكْمًـا، وهـذا ممَّـا[6] كـان لا ينبغـي أن[7] يخفـى علـى أَحَـدٍ مـن المحققين.

وكـأنِّي بـشَيْخٍ مُزَمِّـلٍ[8]، وفَتًـى مُخَـضْرَمٍ مُؤَنَّـبٍ[9]؛ يـرى هـذا الكـلام

---

(١) في (س) و(ص) و(ز): وإنما يوجد الشيء.

(٢) قوله: «أو مثليه» سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٣) في (د): الموجود.

(٤) في (د): الموجود.

(٥) في (س) و(ص) و(ز): طرأ.

(٦) سقطت من (س)، وفي (ز): كان ممَّا.

(٧) في (د) و(ص): ينبغي ألا.

(٨) في (د) و(س): مُؤَيَّل، ومرَّضها في (د)، وفي الطرة: مُزْمِل، وصـحَّحها، وفـي (ص) و(ز): مؤبـل، ومـا أثبتنـاه مـن طـرة بــ (س): وقـال: فـي نـسخة أخـرى، وصحَّحه، والمزمل: المقصر المتهاون في الأمر، تاج العروس: (١٤٢/٢٩).

(٩) في (د): مخضرم مُزَبَّب، وفوق «مزبَّب» علامة التمريض، وفي الطـرة: مؤنـب، وصحَّحها.

فيقولُ كما قال الذين من قبلهم في مِثْلِي، تَشَابَهَتْ قلوبهم مع قلوب الذين كانوا مِن قَبْلِي: «فُلَانٌ ضَعِيفٌ في أصول الدين»، وقد بيَّن الله الآيات لقوم يوقنون.

والقاطع للدَّاء الحاسم لما يطرأ عليك من قِبَلِهم من الشُّبَهِ والأَنْبَاءِ حَدِيثُ حَنْظَلَةَ وأبي هريرة - واللفظ لحنظلة -: قال أبو عثمان النَّهْدِي عن حنظلة الأُسَيْدِي[١]، وكان من كُتَّابِ رسول الله ﷺ: أنه مرَّ بأبي بكر وهو يبكي فقال: «مالك يا حنظلة؟ فقال: نافق حنظلة يا أبا بكر؛ نكون عند رسول الله ﷺ فيُذَكِّرُنا[٢] بالنار والجنة[٣] كأنَّا رَأْيَ عَيْنٍ، فإذا رجعنا إلى الأزواج والضَّيْعَةِ نَسِينَا كثيرًا، قال: فوالله إنا كذلك، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فانطلقنا، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: مالك يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة يا رسول الله، نكون عندك تُذَكِّرُنا بالنار والجنة[٤] كأنَّا رَأْيَ عَيْنٍ، فإذا رجعنا عافسنا[٥] الأزواج والضَّيْعَةَ ونَسِينَا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ:/ لو أنكم[٦] تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم، وفي طُرُقكم، وعلى فُرُشِكم، ولكن يا حنظلة؛ ساعةٌ وساعةٌ»[٧].

١ [٧٢/أ]

(١) في (س) و(ز): الأسدي.
(٢) في (د) و(ص): يذكرنا.
(٣) في (س) و(ص): بالجنة والنار.
(٤) في (س) و(ص) و(ز): بالجنة والنار.
(٥) في (ص): غافسنا.
(٦) سقطت من (س) و(ص) و(ز).
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، رقم: (٢٧٥٠-عبد الباقي).

تكملة: [في قول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله]

اختلف النـاس فـي قَـوْلِ الرجـل: أنـا مُـؤْمِنٌ إن شـاء الله، علـى ثلاثـة أَقْوَالٍ:

أحدُها: أنه يَجِبُ عليه إذا أخبر عن نفسه بالإيمان أن يَقْرِنَه بالمشيئة.

[ثانيها]: وقال آخرون: لا ينبغي أن يفعله.

[ثالثها]: وقال آخرون:إن فَعَلَه جاز، أو تَرَكَه فمِثْلُه.

والقول فيه طويل، وَجِيزُه: أن العبد لمَّا كان لا يَمْلِـكُ عَقْـدَه ولا قَوْلَـه ولا فِعْلَه كان حقًّا عليه أن يُضيفه إلى مشيئة من هو بيده، فإذا صرَّح بـه فقـد قال الحقيقة، وهذا[1] قَوْلُ من أوجبَه؛ لأنه لَوْ لَمْ يفعل ذلك لكـان قـد أَثْبَـتَ لنفسه ما رُبَّما لم يَثْبُتْ له.

وأمَّا من قال: إنه يُمْنَعُ منـه؛ فلأنـه يـدل علـى شَـكٍّ فـي دوام الحـال، وهو إنَّما ينبغي أن يَجْزِمَ عَقْدَه، والباري يُنْجِزُ[2] وَعْدَه، ويُظْهِرُ ما عنده.

وأمَّا من قال: إنه جائز لـه؛ فهـو عنـدي علـى تَأْوِيـلٍ، كأنـه يقـول: أنـا مُؤْمِنٌ الآن جَزْمًا، إن شاء الله أن يُجَدِّدَ لي فيه كل وقت عَزْمًا.

والذي يَصِحُّ من هذه الأقوال: إِطْلَاقُ القـول بأنـه مـؤمن، ولا يدخلـه استثناء؛ بتأويل ولا بغير تأويل[3]، قال النبي ﷺ: «لا يقولن أحدكم: اللهـم

---

(١) في (ص) و(د): فهذا.

(٢) في (ص) و(د) و(ز): سينفذ.

(٣) في (س): بغير تأويل ولا تأويل.

اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليَعْزِمِ المسألة، فإنه لا مُكْرِهَ له»[١].

وقد انقرض عَصْرُ الرسول ﷺ والصحابة ولم يُسْمَعْ فيه[٢] قَطُّ: «أنا مؤمن إن شاء الله»، ولا وَرَدَ ذلك من طريق يَصِحُّ.

والذي أوقعهم في ذلك حديث أبي هريرة: «خرج النبي ﷺ إلى المقبرة فقال: السَّلامُ عليكم دارَ قَوْمٍ مؤمنين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون»[٣]، فلمَّا قال النبي: «وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون[٤]»، فأدخل المشيئة في الموت الذي لا مَحِيدَ عنه، دَخَلَتْ في كل ما بعده ممَّا يمكن أن يكون أو لا يكون، وإذا كان فيُمْكِنُ أن يَثْبُتَ أو لا يَثْبُتَ، وقد بيَّنَّا معنى هذا الحديث في كتاب «القَبَسِ»[٥] وغيره من جميع وُجُوهِه، وأَوْضَحْنَا إِبْطَالَ قَوْلِ من قال: إنَّ معناه: وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون؛ على الإيمان قَطْعًا في خاصَّته، وظاهرًا فيمن معه من أصحابه، وذكرنا تأويل ذلك الحديث في موضعه.

وقد قيل: إن معناه: وإنا إن شاء الله بكم لاحقون في هذه البقعة؛ لأن النبي ﷺ كان يرجو الشهادة في سبيل الله ويتمنَّاها، ولم يكن يعلم كيفية

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه: ما جاء في الدعاء، (٢٦٣/١)، رقم: (٥٧٠-المجلس العلمي الأعلى).
(٢) في (ص) و(د): قط فيه.
(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: جامع الوضوء، (١١٧/١)، رقم: (٦٦-المجلس العلمي الأعلى).
(٤) قوله: «فلمَّا قال النبي: وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون» سقط من (س).
(٥) القبس: (١٥١/١-١٥٣).

موته، وتَحَقَّقَ أن الوجه الذي شاء الله أن يموت عليه سيظهر عند حضور[١] أجله، فصَرَفَ رسول الله[٢] ﷺ الاستثناءَ بالمشيئة إلى تلك الحالة الخفية.

وقد قال النبي ﷺ: «المدينةُ يأتيها الدَّجَّالُ فيجد الملائكة يحرسونها، فلا يقربها الدَّجَّالُ ولا الطاعون إن شاء الله»[٣]، فربَّما تعلَّقوا به،/ والنبيُّ إنَّما استثنى فيه لأنه كذلك أُوحِيَ إليه[٤]، فنَقَلَ كما عُلِّمَ. [٧٢/ب]

ولم يُنْقَلْ في حديث عن النبي ﷺ أنه شَرَطَ على أَحَدٍ في الإيمان الاستثناءَ، ولا تَطَوَّعَ به أَحَدٌ فأَقَرَّهُ عليه، بل نُقِلَ عنه ضدُّه؛ مِنْ أنه كان يُخْبِرُهم بالإيمان والإسلام وأركانه ووظائفه؛ فيُجِيبُون إليه، ويُسْلِمُونَ فيه، ويُقِرُّونَ به من غير استثناء، وقد قال - كما تقدَّم في الصحيح لرجل -: «قُلْ: آمنتُ بالله، ثم استقم»[٥]، ولم يَجْرِ للمشيئة ذِكْرٌ؛ فدَلَّ على أنه من التَّنَطُّعِ الفاسد.

* * * * *

(١) في (س) و(ز): حلول.

(٢) قوله: «رسول الله» لم يرد في (س) و(ز).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ: كتاب الفتن، باب لا يدخل الدجَّال المدينة، رقم: (٧١٣٤-طوق).

(٤) في (ص) و(د): إليه به.

(٥) تقدَّم تخريجه.

القَارِئُ: وهو الاسمُ الثامن

ولمَّا كانت[١] معجزة النبي ﷺ القرآن؛ الذي هو منبع العلوم ومعدن المعارف، فاجتمعت فيه الدِّلَالَةُ على الصدق، والدِّلَالَةُ على الإنباء[٢]، والإيضاحُ لجميع العلوم والأنباء، كان الإقبالُ عليه فَرْضَ الأمَّة، ودَأْبَ الصحابة، وقد أبقى الله لنا معجزة نَبِيِّنَا، وجَعَلَ فيه علومنا وهدايتنا، وأضلَّ به أعداءنا، فالعاقل العالم[٣] المؤمن المسلم الدَّيِّنُ المُوَحِّدُ هو القارئُ، وعلى قَدْرِ قراءته يكون عِلْمُه وإيمانُه وإسلامُه وتوحيدُه ودينُه؛ وفَضْلُه كُلُّه.

فضائله:

وقد قال النبي ﷺ: «خَيْرُكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»[٤].

وقال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار»[٥].

وقال: «مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ؛ ريحُها طَيِّبٌ وطَعْمُها طَيِّبٌ، ومَثَلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مَثَلُ التَّمْرَةِ التي لا رِيحَ

---

(١) في (ز) و(س): كان.

(٢) في (ص) و(د) و(س): الابتلاء، ومرَّضها في (د)، وأثبتنا ما صحَّحه بالطرة.

(٣) سقط من (س) و(ز).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن عثمان ﷺ: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه، رقم: (٥٠٢٧-طوق).

(٥) تقدَّم تخريجه.

لها وطعمُها حُلْوٌ، ومَثَلُ المنافق - وفي رواية: الفاجر[1] - الذي لا يقرأ القرآن مَثَلُ الحَنْظَلَةِ ليس لها رِيحٌ وطعمُها مُرٌّ، ومَثَلُ المنافق الذي[2] يقرأ القرآن مَثَلُ الريحانة؛ ريحُها طَيِّبٌ وطعمُها مُرٌّ»[3].

وفي رواية: «مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأُتْرُجَّةِ، والمؤمن الذي يقرأ القرآن ولا يعمل به كالتمرة»[4].

وقال عبد الرحمن بن عوف: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة تحت العرش يوم القيامة؛ القرآن يُحَاجُّ العباد؛ له ظهر وبطن، والأمانة، والرَّحِمُ؛ تنادي أَلَا مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَه الله، ومن قَطَعَنِي قَطَعَه الله»[5].

قال رسول الله ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن: اقْرَأْ وارْقَ ورَتِّلْ كما كنت تُرَتِّلُ في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرأها، ويزاد بكل حَرْفٍ حسنة»[6].

---

(١) أخرجها البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام، رقم: (٥٠٢٠-طوق).

(٢) قوله: «لا يقرأ القرآن مَثَلُ الحَنْظَلَةِ ليس لها رِيحٌ وطعمُها مُرٌّ، ومَثَلُ المنافق الذي» سقط من (د) و(ص).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ﷺ: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، رقم: (٧٩٧-عبد الباقي).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ﷺ: كتاب فضائل القرآن، باب من راءى بقراءة القرآن أو تأكَّل به أو فخر به، رقم: (٥٠٥٩-طوق).

(٥) أخرجه البغوي في شرح السنة: كتاب البر والصلة، ثواب صلة الرحم وإثم من قطعها، (١٣/٢٢)، رقم: (٣٤٣٣-شعيب)، وأخرجه العُقَيلي في ضعفائه: (٥/٤)، وقال: «لا يصح إسناده».

(٦) تقدَّم تخريجه.

وقال ﷺ: «إنَّ الذي ليس في جوفه مِنَ القرآن شيءٌ كالبيت الخَرِبِ»[١].

وقال ﷺ: «تعاهدوا القرآن؛ فإنه[٢] أَشَدُّ تَفَصِّيًا من صدور الرجال من النَّعَمِ من عُقُلِها»[٣].

وصحَّ عنه ﷺ أنه كان يجمع في الدَّفْنِ بين القتلى يوم أُحُدٍ، فإذا أُشير له إلى أحدهم/ أنه كان[٤] أكثرَ قرآنًا قدَّمه في اللَّحْدِ[٥]. ١ [٧٣/أ]

وقال ﷺ - وصَحَّ -: «يَؤُمُّ القَوْمَ أقرؤهم لكتاب الله»[٦].

وقال ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السَّفَرَةِ الكرام البَرَرَةِ، والذي يقرؤه وهو عليه شَاقٌّ له أجران»[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٢٩١٣-بشار).

(٢) في (د) و(ص) و(ز): فلهو.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن، رقم: (٧٩٠-عبد الباقي).

(٤) سقطت من (س).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد، رقم: (١٣٤٣-طوق).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه: كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة؟ رقم: (٦٧٣-عبد الباقي).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه، رقم: (٧٩٨-عبد الباقي).

وصحَّ عن محمد بن كَعْبٍ عن ابن مسعود عنه أنه قال: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعَشْرِ أمثالها، لا أقول أَلَمّ حَرْفٌ؛ الأَلِفُ حَرْفٌ، ولامٌ حَرْفٌ، ومِيمٌ حَرْفٌ»[1].

وقال ﷺ: «ما أَذِنَ الله لشَيْءٍ كأَذَنِه[2] لنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بالقرآن»[3].

يُرِيدُ: يَجْهَرُ به؛ في تفسير سفيان[4].

وقال غيره[5]: يرى أنه قد صار به من الأغنياء.

وهو الصحيح.

قال الله لرسوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر:٨٧ - ٨٨].

وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٢٩ - ١٣٠].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه عن ابن مسعود ﷺ: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، رقم: (٢٩١٠- بشار).

(٢) في (د): كإِذْنِه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغنَّ بالقرآن، رقم: (٥٠٢٤-طوق).

(٤) في الجامع الصحيح (٦/١٩١-طوق): «وقال صاحب له: يريد: يجهر به»، ولم ينسبه لسفيان.

(٥) في الجامع الصحيح (٦/١٩١-طوق): «قال سفيان: تفسيره: يستغني به».

يُرِيدُ: وما رَزَقَكَ الله من القرآن خَيْرٌ وأَبْقَى[١].

فاتحة الكتاب:

قال النبي ﷺ لأُبَيٍّ: «لأعلمنَّك سورةً من القرآن ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مِثْلَها، قال: نعم يا رسول الله، قال: كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟ قال: فقرأ أُمَّ القرآن، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده؛ ما أنزل[٢] الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وأنها سَبْعٌ من المثاني - أو: «السبع المثاني»[٣] - والقرآن العظيم الذي أُعطيته»[٤].

ومِن **فَضْلِهَا**: أنها رُقْيَةٌ عُظْمَى؛ قال أبو سعيد الخدري: «كُنَّا في مَسِيرٍ لنا فنزلنا بحَيٍّ من أحياء العرب[٥]، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سَلِيمٌ، وإنَّ نَفَرَنا غَيْبٌ، فهل منكم من راقٍ؟ فقام معها رَجُلٌ ما كُنَّا نَأْبُنُه[٦] بِرُقْيَةٍ، فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاةً، وسقانا لَبَنَه[٧]، فلمَّا رجع قلنا له:

---

(١) قوله: «يُرِيدُ: وما رزقك الله من القرآن خير وأبقى» سقط من (د).

(٢) في (د) و(ص): ما أنزل في التوراة.

(٣) أخرج هذه الرواية البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، بابُ ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم: (٤٤٧٤-طوق).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، بابُ ما جاء في فضل فاتحة الكتاب، رقم: (٢٨٧٥-بشار).

(٥) قوله: «بحَيٍّ من أحياء العرب» سقط من (ص) و(س) و (ز).

(٦) في (س): في خـ: نُؤَبِّنُه.

(٧) في (ص): لبنًا.

أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً أم كنت تَرْقِي؟ قال: لا[١]، ما رَقَيْتُ إلَّا بأُمِّ القرآن، قلنا: لا تُحْدِثُوا شَيْئًا حتى نأتي رسول الله ﷺ، فلمَّا قَدِمْنَا[٢] المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: وما كان يُدريه أنها رُقْيَةٌ؟ اقسمُوا[٣] واضربُوا لي بسَهْمٍ»[٤].

سورة البقرة:

قال النبي ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن[٥] البيت الذي تُقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»[٦].

ومن الحديث الحسن[٧]: «أن النبي ﷺ بَعَثَ بَعْثًا وهُمْ ذَوُو عَدَدٍ فاستقرأهم[٨]، فاستقرأ كلَّ واحد[٩] ما معه من القرآن، فأتى على رَجُلٍ من أَحْدَثِهم سِنًّا، قال: ما معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا، وسورة البقرة،/ قال: أو معك سورة البقرة؟ قال: نعم، قال: اذهب [٧٣/ب]

(١) سقطت من (س).

(٢) في (س): ذكرنا، وهو سبق قلم.

(٣) في (ص): اقسموه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، بابُ فاتحة الكتاب، رقم: (٥٠٠٧-طوق).

(٥) في (س) و(ز): إن.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، رقم: (٧٨٠-عبد الباقي).

(٧) في (س): الصحيح.

(٨) سقطت من (د).

(٩) في (ص): رجل.

فإنك[١] أميرهم، فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية[٢] ألا أقوم بها، فقال رسول الله ﷺ: تعلَّموا القرآن فاقرءوه وأَقْرِئوه، فإن مَثَلَ القرآن لمن تعلَّمه فأقرأه[٣] وقام به كمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكًا، يفوح بريحه كلُّ مكان، ومَثَلُ من تعلَّمه فيَرْقُدُ وهو في جَوْفِه كمَثَلِ جِرَابٍ أُوكِيَ على مِسْكٍ[٤]»[٥].

ومن الحَسَنِ: قال رسول الله ﷺ: «لكلِّ شيء سَنَامٌ، وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آيةٌ هي سَيِّدَةُ آيِ القرآن؛ وهي: آية الكرسي»[٦].

«ومن قرأ ﴿حمٓ﴾ المؤمن إلى ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وآية الكرسي حين يُصْبِحُ حُفِظَ بهما حتى يُمْسِي، ومن قرأهما حين يُمْسِي حُفِظَ بهما حتى يصبح»[٧].

---

(١) في (ص): فأنت.

(٢) في (ص): خشيت.

(٣) في (ص): فقرأه.

(٤) في جامع الترمذي (٥/٦-بشار): «ومثلُ من تعلَّمه فيرقد وهو في جوفه مسك»، وهي عبارة مختلة؛ للسَّقَطِ الذي لحقها، صوابها ما أثبته، وهو الموافق لنسخة ابن العربي من الترمذي: (ق١٩٤/ب-فيض الله).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﷺ: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، رقم: (٢٨٧٦-بشار).

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﷺ: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، رقم: (٢٨٧٨-بشار)، قال أبو عيسى: «هذا حديث غريب»، يستضعفه.

(٧) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﷺ: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، رقم: (٢٨٧٩-بشار)، قال أبو عيسى: «هذا حديث غريب».

وقد قال الشيطان لأبي هريرة: «إذا قرأتَ آية الكرسي لا يقربك شيطان، فقال النبي ﷺ: صَدَقَكَ وهو كذوب»[١]، صحَّحه قَوْمٌ وضعَّفه آخرون، وأدخله البخاري مَقْطُوعًا[٢].

وعن أبي سعيد الخدري: «أن أُسَيْدَ بن حُضَيْر بَيْنَا هو يقرأ من الليل سُورَةَ البقرة وفَرَسُه مربوطة عنده إذ جالت الفرس، فسَكَتَ فسَكَنَتْ، فقرأ[٣] فجالت، فسكت فسكنت، ثم قرأ[٤] فجالت، فلمَّا أصبح حدَّث النبي[٥]، قال: فرَفَعْتُ بصري إلى السماء؛ فإذا مِثْلُ الظُّلَّةِ فيها أمثالُ المصابيح عَرَّجَتْ في الجَوِّ حتى لا أراها، قال: تلك الملائكة أَذِنَتْ بصوتك، ولو قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ الناس إليها لا تتوارى منهم»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، فضل البقرة، رقم: (٥٠١٠-طوق).

(٢) يقصد ابن العربي أن الحديث منقطع؛ لعدم تصريح البخاري بالتحديث، ففي صحيحه: «وقال عثمان بن الهيثم»، وكذلك هو في جميع الأبواب التي أدخله فيها، ووصله الإسماعيلي وغيره، وعثمان بن الهيثم من شيوخ البخاري، فيحمل قوله ذلك على السماع، ولعلَّ لهذه العلة صحَّحه من صحَّحه، وكأنَّ ابن العربي لم يقنع منه بذلك حتى يصرح بالتحديث، والله أعلم، ينظر: الفتح: (٤/٤٨٨).

(٣) في (د): فقرأها.

(٤) في (د): قرأها.

(٥) في (د) و(ص) و(ز): النبي ﷺ.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، رقم: (٧٩٦-عبد الباقي).

خاتمتها:

ثَبَتَ في الصحيح عن ابن عباس قال: «بينما جبريل عند النبي ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا بابٌ من السماء فُتِحَ لم يُفْتَحْ قَطُّ إلا اليوم، فنزل منه مَلَكٌ إلى الأرض لم ينزل قطُّ إلا اليوم، فسَلَّمَ فقال: أَبْشِرْ بنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لم يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ؛ فاتحة الكتاب، وخواتم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما[1] إلَّا أُعطيتَه»[2].

وعن عبد الله: «لمَّا أُسْرِيَ بالنبي ﷺ انتهى إلى سِدْرَةِ المُنْتَهَى فأُعْطِيَ ثَلَاثًا؛ أُعْطِي الصلوات الخمس، وخواتم سورة البقرة، وغُفِرَ لمن لم يُشْرِكْ بالله من أُمَّتِه المُقْحِمَات[3]»[4].

وقال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة؛ من قرأ بهما في لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[5].

---

(١) في (س): منها.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس ﷺ: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، رقم: (٨٠٦-عبد الباقي).

(٣) في (د): المنجِمات.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، بابٌ في ذكر سدرة المنتهى، رقم: (١٧٣-عبد الباقي).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ: كتاب فضائل القرآن، فضل البقرة، رقم: (٥٠٠٩-طوق).

آل عمران:

معها[١]: قال النبي ﷺ: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرأوا الزهراوين؛ البقرة وسورة آل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان[٢]، أو غيايتان، أو فِرْقان[٣]/من طَيْرٍ صَوَافَّ، بينهما شَرَقٌ، تُظَلِّلَانِ[٤] صاحبهما، وتحاجَّان عن صاحبهما، اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البَطَلَةُ»[٥].

[١/٧٤أ]

وفي رواية منه: «يؤتى يوم القيامة[٦] بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به، تَقْدُمه سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان»[٧]، بنحوه[٨].

سورة الكهف:

في الصحيح: «بينما رَجُلٌ يقرأ سورة الكهف إذ رأى دابَّته[٩] تركض، فنظر فإذا مِثْلُ الغمامة أو[١٠] السحابة، فجعلت تدنو وتدنو[١١]، وفرسُه تنفر،

---

(١) في (د): منها.

(٢) في (د): غيامتان أو غيابتان.

(٣) في (د): خرقان، وفي (ز): جرفان.

(٤) في (ص): تظلان.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي أمامة الباهلي ﷺ: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم: (٨٠٤-عبد الباقي).

(٦) في (د) و(ز) و(ص): بالقرآن يوم القيامة.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي أمامة الباهلي ﷺ: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم: (٨٠٥-عبد الباقي).

(٨) في (ز): بنحوه في الصحيح.

(٩) في (ص): دابة.

(١٠) سقطت من (د).

(١١) سقطت من (د) و(ص).

فأتى رسولَ الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: تلك السكينة نزلت مع القرآن، أو أنزلت على القرآن»[١].

وعن أبي الدرداء: «من قرأ ثلاث آيات من أوَّل[٢] الكهف عُصِمَ من فتنة الدجَّال»[٣].

سورة ألم السجدة:

فيها: أن النبي ﷺ كان يقرأها يوم الجمعة في صلاة الصبح[٤].

حم الدخان:

حديثُها منكر لا يُلتفت إليه[٥].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي في جامعه عن البراء رضي الله عنه: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل سورة الكهف، رقم: (٢٨٨٥-بشار)، وأصله في صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، فضل الكهف، رقم: (٥٠١١-طوق).

(٢) سقط من (ص).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل سورة الكهف، رقم: (٢٨٨٦-بشار).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في يوم الجمعة، رقم: (٨٨٠-عبد الباقي).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل حم الدخان، رقم: (٢٨٨٨-بشار).

سورة المُلْكِ:

لا حديث فيها إلَّا قوله ﷺ: «سورة الملك ثلاثون آية، تجادل عن صاحبها»[١]، صحَّ[٢].

سورة إذا زلزلت والكافرون:

من الحَسَنِ: عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا، والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال[٣]: أليس معك: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؟ قال: بلى، قال: ثُلُثُ القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ قال: بلى، قال: رُبُعُ القرآن، قال[٤]: أليس معك: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن[٥]، قال: أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾؟ قال: بلى، قال: رُبُعُ القرآن، قال: تَزَوَّجْ تَزَوَّجْ»[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﷺ: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في سورة الملك، رقم: (٢٨٩١-بشار)، وقوله: «تجادل عن صاحبها» أخرجه الإمام مالك في الموطأ: ما جاء في قراءة قل هو الله أحد وتبارك، (١/٢٦٠)، رقم: (٥٦١-المجلس العلمي الأعلى).

(٢) سقطت من (د) و(س) و(ز).

(٣) سقطت من (س).

(٤) سقطت من (س).

(٥) قوله: «قال: ربع القرآن» سقط من (س) و(ص).

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه عن أنس بن مالك ﷺ: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في إذا زلزلت، رقم: (٢٨٩٥-بشار).

سورة الإخلاص:

قال النبي ﷺ: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»[١]، في حديث مالك وغيره.

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي[٢] رضي الله عنه: قد ظَنَّ قَوْمٌ فيها تأويلات، وقد كَشَفَ الحديثُ الصحيح بعضَها، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «احشُدوا؛ فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، قال: فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم دخل، فقال بعضُنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، إني لأُرى هذا خبرًا جاءه من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: إني قلتُ: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، أَلَا وإنَّها تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن»[٣].

وحديث عائشة: «أن النبي بعث رَجُلًا على سَرِيَّةٍ؛ وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم[٤] بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلمَّا رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: سلوه لأي شيء كان[٥] يصنع ذلك؟ فسألوه،

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ما جاء في قراءة قل هو الله أحد وتبارك، (١/٢٦٠)، رقم: (٥٥٩-المجلس العلمي الأعلى).

(٢) في (د): قال الإمام الحافظ القاضي.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد، رقم: (٨١٢-عبد الباقي).

(٤) في (س): فختم.

(٥) سقطت من (د) و(ص) و(ز).

فقال[١]: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأها[٢]، فقال: أخبروه أن الله يحبه»[٣].

[سورة الفلق والناس]:

١ وعن عُقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر أيَّ[٤] آيات أنزلت الليلة/ لم يُرَ مثلهن: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[٥]. [٧٤/ب]

وعن عائشة: «كان النبي إذا آوى إلى فراشه كلَّ ليلة؛ جمع كَفَّيْه ثم نَفَثَ فيهما، ثم قرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات»[٦].

قالت عائشة ﵂: «كان النبي ﷺ إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وَجَعُه؛ كنتُ أقرأ عليه وأمسح بيده رَجَاءَ بركتها»[٧].

---

(١) في (س): فقالوا.

(٢) في (د) و(ص): أقرأ بها.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد، رقم: (٨١٣-عبد الباقي).

(٤) سقطت من (د) و(ص).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، رقم: (٨١٤-عبد الباقي).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، المعوذات، رقم: (٥٠١٧-طوق).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، المعوذات، رقم: (٥٠١٦-طوق).

[التحذيرُ ممَّا لم يصحَّ في باب فضائل القرآن]:

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي[١] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لم يَبْقَ من الصحيح ما أَذْكُرُه، وقد اقتحم الناس في فضائل القرآن وسُوَرِهِ أحاديثَ كثيرة، منها ضَعِيفٌ لا يُعَوَّلُ عليه، ومنه ما لم يُنْزِلِ الله به من سلطان، وأَشْبَهُ ما جُمِعَ في ذلك «كتابُ ابنِ أبي شَيْبَةَ»[٢] و«كتابُ أبي عُبَيْدٍ»[٣]؛ وفيهما[٤] باطلٌ عظيم، وحَشْوٌ كثير، وانتقى الأئمة - نفعهم الله - من ذلك الحَشْوِ جُمْلَةً، واستخرجوا من ذلك المنتقى الصحيحَ، وهو الذي أوردناه عليكم؛ فتَمَسَّكُوا به.

وقد ذَكَرَ الحاكمُ وغيرُه من شيوخ المحدثين: «أنَّ رَجُلًا من الزهاد انتدَبَ في وَضْعِ أحاديث في فضائل القرآن وسُوَرِه، فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: رأيتُ الناس قد زَهِدُوا في القرآن فأحببت أن أُرَغِّبَهم فيه، فقيل له: فإن النبي ﷺ قال: «من كذب عليَّ مُتَعَمِّدًا فليتبوأ مقعده من النار»[٥]، فقال: أنا ما كذبت عليه، إنما كذبت له»[٦].

---

(١) في (د): قال الإمام الحافظ القاضي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن العربي.

(٢) هو كتاب ثواب القرآن، أفاد منه أبو القاسم الملَّاحي في لمحات الأنوار، وسمَّاه بالاسم الذي أثبته له: (١/٥٣).

(٣) هو كتاب فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، مطبوع مشتهر، وسمَّاه بهذا الاسم أبو القاسم الملَّاحي في لمحات الأنوار: (٣/١٣٦٦).

(٤) في (د): فيها.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم: (١٢٩١-طوق).

(٦) المدخل: (ص١٣٥).

فتأمَّلوا - رحمكم الله - كَيْدَ الشيطان على هذا الزاهد بهذا الزُّهْدِ؛ حتى قَرَنَ بها[١] هذا الجهل، وخَزَلَ عنها هذا الهُدَى.

حالُ القُرَّاءِ:

وقد كان القُرَّاءُ أصحابَ مَجْلِسِ عُمَرَ ومُشَاوَرِيهِ[٢] ومُسَاوِرِيهِ[٣]، وكان ابن عباس يُقْرِئُ رِجَالًا؛ منهم: عبد الرحمن بن عوف، وما توفي رسول الله ﷺ حتى استظهر ابنُ عبَّاس المُفَصَّلَ في حياة رسول الله ﷺ[٤]، وكان أهل الصُّفَّةِ يُكثرون من القرآن.

وقال أنس: «مات رسول الله ﷺ ولم يجمع القرآن غَيْرُ أربعة: أُبَيّ - وفي رواية: أبو الدرداء -، ومعاذُ بن جَبَلٍ، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، أحد عمومتي، ونحن ورثناه -يعني: نفسه[٥] -»[٦]، حاشا الخلفاء؛ فإنهم كانوا يستظهرون القرآن كما ثبت في الروايات، وعبد الله بن عمر، وابن[٧] مسعود[٨].

---

(١) في (د): به، وفي (ز): بهما.

(٢) الحوادث والبدع للطرطوشي: (ص١٧٧).

(٣) في (ص): مساورته، وفي (د): مشاورته، وسقطت من (ز).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب تعليم الصبيان القرآن، رقم: (٥٠٣٥-طوق).

(٥) سقطت من (د) و(ص).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم: (٥٠٠٤-طوق).

(٧) في (س) و(ص): عبد الله بن مسعود، وضرب على «عبد الله» في (د).

(٨) ينظر: الجامع الصحيح للبخاري (٦/١٨٩-طوق): كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، والسنن الكبرى للنسائي (٧/٢٤٩-شعيب): كتاب فضائل القرآن، ذكر قراء القرآن.

وذِكْرُ أَنَسٍ لهؤلاء يحتمل وَجْهَيْنِ[١]:

[الأَوَّل]: إمَّا أنهم الذين عَرَفَ[٢].

[الثاني]: وإمَّا أنهم[٣] الذين كانوا جمعوه على عهد رسول الله ﷺ؛ فإن ابن عباس أخذه عن أُبَيٍّ بعد ذلك، وأَدْرَكَ حِفْظَه جماعةٌ يَكْثُرُ عَدَدُهم[٤].

وقال عمر: «أقرؤنا أُبَيٌّ، وإنَّا لَنَدَعُ من لَحْنِ أُبَيٍّ، وأُبَيٌّ يقول: أخذتُه[٥] مِنْ فِي رسول الله/، فلا أتركه لشيء، قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٥]»[٦]. ١ [٧٥/أ]

وقال ابنُ مسعود[٧]: «والذي لا إله غيره؛ ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آيةٌ من كتاب الله إلَّا وأنا أعلم فيما[٨] أنزلت، ولو أعلمُ أَحَدًا أَعْلَمَ بكتاب الله مِنِّي تُبَلِّغُنِيهِ الإِبِلُ لرَكِبْتُ إليه»[٩].

---

(١) تنظر وجوهًا أخرى لقول أَنَس في: شرح ابن بطَّال: (١٠/٢٤٢).

(٢) المعلم للمازري: (٣/١٥٢).

(٣) سقطت من (ص) و(س) و(ز).

(٤) يُنظر في هذا كلام الإمام المازَري في المُعْلِم -وهو نفيس جدًّا-: (٣/١٥٠-١٥٣)، والمسالك: (٣/٤١٠)، وشرح ابن بطَّال: (١٠/٢٤١-٢٤٤).

(٥) في (د): أخذه.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم: (٥٠٠٥-طوق).

(٧) في (س) و(ص) و(ز): عبد الله بن مسعود، وضرب على «عبد الله» في (د).

(٨) في (د) و(ص) و(ز): فيمن.

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم: (٥٠٠٢-طوق).

تَحْسِينُ القراءة[١]:

ثَبَتَ من كل طريق أن النبي ﷺ قال لأبي موسى: «لقد أُوتِيتَ مِزْمَارًا من مزامير آل داود، قال له أبو موسى: لو علمتُ أنك تسمعني لحَبَّرْتُه لك تَحْبِيرًا»[٢].

وقال معاوية بن قُرَّةَ عن[٣] عبد الله بن مُغَفَّلِ المُزَنِي، قال[٤]: «رَأَيْتُ رسول الله ﷺ يوم الفتح على ناقة له يقرأُ سورة الفتح، قال: فرَجَّعَ فيها، ثم قرأ معاوية يَحْكِي قراءة ابن مُغَفَّلٍ، وقال: لولا أن يجتمع الناس عَلَيَّ لرَجَّعْتُ كما رَجَّعَ ابن مُغَفَّلٍ؛ يَحْكِي قراءة[٥] النبيِّ ﷺ، قال شعبة: فقلت لمعاوية: كيف كان ترجيعُه؟ فقال: ءآ ءآ ءآ[٦]، ثلاث مرَّات»[٧].

وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى الأشعري: «شَوِّقْنَا ربَّنا - أو: خَوِّفْنَا رَبَّنَا -، قال: فيقرأ»[٨]، لِـمَا كان عليه من تَحْبِيرِ القراءة وتحسينها.

---

(١) ينظر: أحكام القرآن: (١٥٩٦/٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة، رقم: (٥٠٤٨-طوق)، وقوله: «لحبَّرته لك تحبيرًا» أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب فضائل القرآن، تحبير القرآن، رقم: (٨٠٠٤-شعيب).

(٣) في (س): لعبد الله، وهو تصحيف.

(٤) سقطت من (د) و(ص).

(٥) سقطت من (د) و(ص) و(ز).

(٦) في (د) و(ص): أَ أَ أَ.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ذكر قراءة النبي ﷺ سورة الفتح يوم فتح مكة، رقم: (٧٩٤-عبد الباقي).

(٨) أخرجه الإمام أحمد في الزهد: (ص١٤٨).

وكَرِهَ مَالِكٌ التَّطْرِيبَ في الأَذَانِ[١]؛ لأنه لم يكن سُنَّةً، وأَحْسَنَ ما شاء أن يُحْسِنَ، ولم يَرَ لمن يأخذ على التَّلْحِينِ في رمضان أُجْرَةً ولا أَجْرًا؛ لأنه كَرِهَه، وذلك لأن نِيَّةَ[٢] الدنيا دخلته[٣]، وكأنه إنَّما يبيعُ صوته.

والأُجْرَةُ على الصلاة جائزة عندنا، والقراءة بالتلحين سنة، وسماعُه يزيدُ إيمانًا بالقرآن وغِبْطَةً، ويُكْسِبُ القَلْبَ[٤] خَشْيَةً.

سَمِعْتُ بمصر ابن الرَّفَّاءِ[٥] يَقْرَأُ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ في ذي الحجة سنة خَمْسٍ وثمانين وأربع مائة، فكأني ما سمعتها قَطُّ، ولقد مَرِضَ في وَبَاءٍ كان بها، ثم خرج فجلس «بمسجد العَالِمِ» وقرأ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٢]، وجَعَلَ يُرَدِّدُها، وقرأ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤٠]، فكادت نفسي تطير شَعَاعًا[٦]، وأَدْرَكَتْهُ بطُول المرض عَيْلَةٌ؛ فرَأَيْتُ الثياب قد رُمِيَتْ عليه في المجلس حتى صارت كُومًا حال بيني وبينه.

---

(١) المدوَّنة: (٥٩/١).

(٢) في طرة بـ (س): زينة.

(٣) في (س) و(ص): دخلت.

(٤) في (ص) و(د): القلوب.

(٥) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن: (١٥٩٦/٤)، وذكر أنه سمع منه بالقرافة، ولم أجد له ذِكْرًا في كتب التراجم.

(٦) يقال: طار فؤاده شَعَاعًا، أي: تفرقت همومه، تاج العروس: (٢٧٥/٢١).

وسَمِعْتُ لَيْلَةً تَاجَ القُرَّاءِ ابنَ لِفْتَةَ[١] يَقْرَأُ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾[٢] في «جامع عَمْرٍو[٣]»؛ فما عَلِمْتُ أَلَيْلًا كان أم نَهَارًا ؟

وسَمِعْتُ الكَازَرُونِيَّ[٤] بالمسجد الأقصى يقرأ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١].

[٧٥/ب] وكان أبو بكر الطُّوسِي[٥] إمامُ «الصخرة المقدَّسة» يَقْرَأُ في صلاة/ الصبح بالسُّوَرِ الطِّوَالِ، وكنتُ أُصَلِّي أبدًا معه، وكان أحسن الخَلْقِ صَوْتًا، وكان يُسْمَعُ صَوْتُه إذا أَعْلَنَ من ديار لُوطٍ، على أَقَلَّ مِنْ فَرْسَخٍ.

---

(١) ذكره في الأحكام: (٤/١٥٩٦)، وذكره بمثل ما ذكره به هنا.

(٢) بعدها في (س): ﴿عسى﴾، [الإسراء:٧٩].

(٣) في (س): عمر.

(٤) لم أقف على من ذكره من أهل التواريخ، وترجم الذهبي لأبي عبد الله الكازروني، وذكر عنه أنه كان مقرئًا، توفي عام ٤٥٥هـ، فلعله والد هذا، سير النبلاء: (١٨/١٧١-١٧٢)، وفي طبقات التاج (٧/٤٨): محمد الكازَروني، وذكر أنه توفي في الوَجْدِ، وكان مع أبي حامد وإسماعيل الطُّوسِيين، وغيرهما، فلعله هو، وقال فيه ابن العربي (الأحكام: ٤/١٥٩٦): «كان ابن الكازروني يأوي إلى المسجد الأقصى، ثم تمتَّعنا به ثلاث سنوات، ولقد كان يقرأ في مهد عيسى فيُسمع من الطور، فلا يقدر أحدٌ أن يصنع شيئًا طول قراءته إلا الإنصات إليه».

(٥) إمام الصخرة المقدسة، المقرئ الصوفي، محمد بن أحمد بن علي، أبو بكر الطوسي، مات شهيدًا؛ قتله الصليبيُّون في شعبان من عام ٤٩٢هـ، تاريخ دمشق: (٥١/٨٩).

وكـان تـاجُ القُـرَّاءِ الكَفِيـفُ بمدينـة السَّلام أَعْظَـمَ خَلْـقِ الله حُنْجُـرَةً، وأحلاهم تلحينًا، سمعته بـدار بَهَـاءِ المُلْـكِ[١] إزاء المدرسة النِّظامية يقرأ: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج:١]، فأَجِدُ أَعْضَائِي تَفَصَّلُ، حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، فظننتُ أنَّ سَقْفَ الإِيـوَانِ يُنْقَضُ علينا.

وعلى الجُمْلَةِ: فإن في القوم طَبْعًا صَوْتًا، وفي هـوائهم صفاءً، وفي قلـوبهم رحمـة[٢]، وفـي أنفـسهم رقـة، يتميَّـزون بهـا علـى[٣] أهـل الجفـاء والجهالة والقسوة.

وقد كان أبو بكر الصديق ﷺ رقيق القلب، خاشع الجوارح، حَسَنَ الصوت، فإذا قـرأ تَقَـصَّـفَ[٤] عليـه نـساءُ المشركين وصـبيانُهم، حتـى قـالوا لحَلِيفِهِ ابنِ الدَّغِنَةَ: «إمَّا أن تَكُفَّـه وإمَّـا أن[٥] تُخفِـرَ عهـدك، فقـال لـه: يـا أبـا بكر، اعبد ربك في بيتك ولا تتظاهر لهم، قال: بـل أصـرف عليـك جِـوَارَك وأرضى بجوار الله ورسوله»[٦]، فـصرفه عليـه، وأَذِنَ الله لرسـوله حينئـذ فـي

---

(١) بهاء المُلْكِ ابن نظام المُلْكِ، ورد ذِكْرُه في الكامل لابن الأثير، في حوادث عام ٤٨٧هـ، عند تولية المستظهر بالله، (٨/٤٩٤).

(٢) في (س): وفي أنفسهم رقة، وفي قلوبهم رحمة.

(٣) في (س): عن.

(٤) التقصف: الاجتماع والازدحام، تاج العروس: (٢٤/٢٦٣).

(٥) سقطت من (د).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة ﷺ: كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، رقم: (٢٢٩٧-طوق).

الهجرة، فخرج رسول الله ﷺ به معه، وترك ما كان له من أهل وقرابة؛ استئثارًا به، وتَوْفِيَةً لحقه، وعَمَلًا بمقتضى منزلته في الدين ومرتبته، وثِقَةً بمُنَّتِه، وأُنْسًا بصحبته، فمن ذا يطمع في مرتبته؟

وقد يُصِيبُ بَعْضَ الناس غَشْيٌ عند القراءة، وقد يبقى قلبُه على حاله.

ورُوي[١] أن الرَّبيع بن خُثَيم سمع: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠]، فخَرَّ مَغْشِيًّا عليه؛ ولم يُفِقْ إلَّا في اليوم الثاني ذلك الوقت، فسُئِلَ ابنُ مسعود عن صلاته فقال: «لا إعادة عليه»[٢].

ورُوي عن ابن عمر أنه مرَّ برجل ساقط فقال: «ما هذا؟ قال: إنه إذا قُرِئَ عليه القرآن يصيبُه مثل هذا، قال: إنَّا لنخشى الله وما نسقط»[٣].

ورأيت رَجُلًا بمجلس عالم العلماء الرازي[٤] بالرَّيْحَانِيِّينَ[٥] قد سمعه[٦] يتكلَّم ويُشَوِّقُ للحج ويتلو، وكان إلى جانبي[٧] رَجُلٌ على دُكَّانٍ؛

---

(١) في (د) و(ص): روي.

(٢) الزهد للإمام أحمد: (ص٤٠١)، والحلية لأبي نعيم: (١١٠/٢)، ولم أجده كما ذكره ابن العربي هنا، والله أعلم.

(٣) الزهد للإمام أحمد: (ص٢٤٢).

(٤) لم أهتد إلى معرفة عينه وحاله بعد بحث، غير أن ابن العربي ذَكَرَ في موضع آخر من هذا الكتاب أنه قَدِمَ إلى بغداد بنيَّة الحج، وذكر أن أصله من الري.

(٥) في (س) و(د): الريحانتين، وفي قانون التأويل (ص١١٥): «سوق الريحانيين»، وهو أحد أسواق بغداد، وفي مراصد الاطلاع (٥٠٦/٢): «دار الريحانيين: دار في دار الخلافة، مشرفة على سوق الريحانيين».

(٦) في (د) و(ص): فسمعته.

(٧) في (د): في خـ: جنبي.

فسقط مَغْشِيًّا عليه، وشُجَّ جَبِينُه، وكان إلى جانبي[١] رَجُلٌ من أصحابي فتعجبتُ[٢] منه، فقال لي: غلبت على بلادكم القسوة.

وصلَّى رجلٌ العشاء خلف إمام فقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦]، فخرَّ الرَجُلُ[٣] وراءه[٤] مَغْشِيًّا عليه، فلمَّا سَلَّمَ الإمامُ[٥] أَلْفَوْهُ مَيِّتًا، فاحتُمِل إلى منزله، فلمَّا كان في[٦] اليوم الثاني حُمِلَ إلى المقبرة، ومشى معه جِيرَتُه، فقالوا: «من يصلي عليه؟ فقال بعض الصوفية: يصلي عليه الذي قتله»، يعني: الإمام الذي قرأ الآية.

وقال عبد الله بن عُبَيد[٧]: «كان عُبَيْدُ بن عُمَيْرٍ يَقُصُّ لابن الزبير، وابن عمر قاعدٌ ناحية[٨]، وهو يقول: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ إلى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤١ - ٤٢]، فبكى ابنُ عمر حتَّى لَشَّقَ خَدَّيْهِ[٩]/ ،وبَلَّ لحيتَه، قال [١/٧٦أ]

---

(١) في (د): في خـ: جنبي.

(٢) في (س): فتعجب.

(٣) في (س): رجل.

(٤) سقط من (س).

(٥) في (د): الناس.

(٦) لم ترد في (س).

(٧) قوله: «قال عبد الله بن عبيد» سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٨) في (ص) و(ز): حجرة، وفي (س): حُجْزَة.

(٩) في (د) و(ص): حتى لثق ابن عمر خدَّيه، وفي (د) أيضًا: لثق ابن عمر ثوبَه، وابتلت لحيتُه.

عبد الله بن عُبَيد[١]: فهَمِمْتُ أن أقوم إلى عُبَيْدٍ فأقول له: أَقْصِرْ، فإنَّك قد آذَيْتَ الشيخ»[٢].

مَدُّ القراءة:

قال أَنَسٌ: «كانت قراءة النبي مَدًّا، ثم قَرَأَ أَنَسٌ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يَمُدُّ بسم الله، ويَمُدُّ بالرحمن، ويَمُدُّ بالرحيم»[٣].

وقد كان النبي ﷺ يُسْرِعُ بالقراءة[٤]، وكان ممَّا يحرك به لسانه وشَفَتَيْه[٥]، حتى قال الله له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة:١٦]، فكان إذا أتاه جبريل أَطْرَقَ، فإذا ذهب قَرَأَهُ كما وعده الله[٦].

[تَرتِيبُ القراءة وترتيلُها]:

وحديث عبد الله بن عمرو مَشْهُورٌ في ترتيب القراءة وترتيلها، وهو أن يقرأه في شَهْرٍ، وأقلُّه في ثلاث[٧]، ولم يجعل لعبد الله سبيلًا إلى أقلَّ منها، وقال ﷺ: «لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»[٨].

---

(١) قوله: «قال عبد الله بن عبيد» سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء مختصرًا: (ص١٠٧-١٠٨)، رقم: (١١٢-١١٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، رقم: (٥٠٤٦-طوق).

(٤) في (د): القراءة.

(٥) بعده في (س) و(ص) و(ز): «يشتد عليه»، وضرب عليها في (د).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس ﵄: كتاب فضائل القرآن، باب الترتيل في القراءة، رقم: (٥٠٤٤-طوق).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب صوم يوم وإفطار يوم، رقم: (١٩٧٨-طوق).

(٨) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب القراءات عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٢٩٤٩-بشار).

وقد رأيتُ من أصحابنا من كان يختمه مَرَّةً في الليل، ومَرَّةً في النهار؛ سَفَرًا وحَضَرًا، لرُطوبة لسانه، واطِّراد عَمَلِه بذلك وعادته، وهذا هو[١] الذي يَرْعَى طريق الذكر دون الاعتبار به.

فأمَّا الاعتبار به[٢] فقد[٣] يكون بالآية الواحدة في الليلة الواحدة، فقد قال الترمذي: أخبرنا أبو بكر محمد بن نافع البصري: أنا عبد الصمد بن عبد الوارث عن إسماعيل بن مسلم العبْدي عن أبي المتوكل عن عائشة ﵂ قالت: «قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة»[٤].

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ لم يأذن لعبد الله بن عمرو في أقل من خمس ليال[٥].

وقد روى أحمد أنه نقله من أربعين ليلة إلى سبع ليال[٦].

وروى ذلك أبو داود، وقال: «ولم ينزل عن سَبْعٍ[٧]»[٨].

---

(١) سقط من (س).

(٢) قوله: «فأما الاعتبار به» سقط من (د).

(٣) في (س): وقد.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في قراءة الليل، رقم: (٤٤٨-بشار).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب في كم يُقرأ القرآن، رقم: (٥٠٥٣-طوق).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو ﵄: (٥٢/١١)، رقم: (٦٥٠٦-شعيب).

(٧) قوله: «وروى ذلك أبو داود وقال: ولم ينزل عن سَبْعٍ» سقط من (س) و(ز).

(٨) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب في كم يقرأ القرآن؟ رقم: (١٣٨٨-شعيب).

وروى أبو داود أيضًا[١] عن عبد الله بن عمرو عن النبي عليه السلام أنه قال: «لا يفقه القرآن من قرأه في أقل من ثلاث»[٢].

وروى أحمد عن عثمان أنه كان يُوتِرُ بالقرآن في ركعة[٣].

ورُوي عن سعيد بن جُبَيْرٍ أنه قرأ القرآن في ركعة في الكعبة[٤].

والترتيلُ أَحَبُّ إلى أهل العلم.

سماعُه من الغَيْرِ والبكاءُ عليه:

قال النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود: «اقرأ عليَّ القرآن، قال: أقرأ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أُنزل، قال: إني أُحِبُّ أن أسمعه من غيري، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، قال: حسبك الآن، فالتفت إليه وإذا[٥] عيناه تذرفان»[٦].

وقد قال الله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٥].

فالنبي ﷺ بكى رَهْبَةً لذلك اليوم العظيم، وهؤلاء بَكَوا شَوْقًا إلى الله حين سَمِعُوا كلامَه.

---

(١) سقطت من (س) و(ز) و(ص).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب في كم يقرأ القرآن؟ رقم: (١٣٩٤-شعيب).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في الزهد عن زوج عثمان رضي الله عنه: (ص١٥٨).

(٤) جامع الترمذي: (٥/٦٣-بشار).

(٥) في (د) و(ص): فإذا.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن، رقم: (٥٠٥٥-طوق).

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨].

فإن كان المرادُ به من تقدَّم ممَّن أسلم من الأمم؛ فإنَّما بَكَوا تَذْكِرَةً لِمَا كان نَزَلَ عليهم، وتقدَّم من التعريف به لهم، أو لمَا فاتهم من أيَّامهم قبل هذه التذكرة، أو على من فاته ذلك من قَوْمِهم ومعارفهم/، أو على عواقبهم التي لا يعرفونها[1]. [٧٦/ب]

والبُكَاءُ رِقَّةٌ في القلب، مُمَدَّحَةٌ في الخلق، معدودة في الفضائل، وأين هذا من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]؟

وهم على أقسام:

منهم: الكفار.

ومنهم: الغافلون.

ومنهم: الذين وَرَدَ ذِكْرُهم في الأثر: «ينثرونه نَثْرَ الدَّقَلِ»[2]، «يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه»[3]، يمرون عليه بغير فَهْمٍ ولا تثبت، صُمٌّ عن سماعه، عُمْيٌ عن رؤية عِبَرِه.

---

(١) في (د) و(ص): يعلمونها، وأشار إليها في (س).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه عن عبد الله بن مسعود موقوفًا: أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما ذكر في قراءة سورتين في ركعة، رقم: (٦٠٢-بشار).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعًا: (١٤٤/٢٣)، رقم: (١٤٨٥٥-شعيب).

ومنهم: من يُقِيمُ حروفه في مخارجها.

ومنهم: من يُقْبِلُ على جميع القراءات، وليته جَمَعَ الصحيح منها، أو عرف كيف يجمعها، وهذا كله مذموم، وإقبال على ما لا يُحتاج إليه، أو إعراضٌ عمَّا يلزم، وقد بيَّناه في غير موضع[١].

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أَسِيفًا؛ إذا قرأ بكى شَوْقًا وخَوْفًا.

وقد رأيت من يَعِيبُ البكاء ويقول: إنه صفة الضعفاء، والنبي ﷺ قد مدحها، قال: «عينان لن تمسهما النار أبدًا، عَيْنٌ بَكَتْ من خشية الله، وعَيْنٌ سهرت في سبيل الله»[٢].

وبُكَاءُ الشوق - عندي - خشية، فإنه حَذَرٌ من فوات المتاع بالمحبوب.

وقد كنت فاوضتُ في ذلك شَيْخِيَ الزَّاهِدَ أبا بكر[٣] القُرَشِي[٤]، وكانت فيَّ[٥] قَسْوَةٌ جِبِلِّيَّةٌ[٦]، وشَكَوْتُ إليه ما بقلبي من ذلك، فقال لي: «تَبَاكَ إذا لم يُطِعْكَ البكاء، وتَحَازَنْ إذا لم يُجِبْكَ الحُزْنُ، حتى تتَّخذه عادة، وإن مَدَّ الله في عمري لأجمعنَّ كتابًا في البكاء»، وفارقتُه ولم أَدْرِ ما فَعَلَ بعدي.

---

(١) ينظر: العارضة: (١٠/٧١)، والعواصم: (ص٣٦١).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، رقم: (١٦٣٩-بشار).

(٣) في (س): وأبا بكر.

(٤) هو الإمام أبو بكر الطُّرطوشي تـ ٥٢٠هـ، تقدَّم التعريف به في السِّفر الأوَّل.

(٥) في (س): فيه، وهو تصحيف.

(٦) في (د) و(س) و(ص): جبلية.

وكان عبد الله بن عمرو[١] يبكي وهو ساجد في الحِجْرِ، فمرَّ به رجل[٢]، فقال له[٣]: «أَتَعْجَبُ[٤] مني أن أبكي من خشية الله؟ وهذا القمر يبكي من خشية الله[٥]، ونظر إلى القمر وقد شَفَّ إلى[٦] أن يغيب»[٧].

وكانت أمُّ يعلى بن[٨] عطاء تصنع لعبد الله بن عمرو[٩] الكُحْلَ، وكان يُكثر من البكاء ويُغلق عليه بابَه حتى رَسَعَتْ[١٠] عيناه[١١].

وقد جَمَعَه ابنُ أبي الدُّنْيَا فأَحْسَنَ فيه[١٢]؛ لولا صِغَرُ حَجْمِه[١٣].

[شكوى ابن العربي من أحوال زمانه]:

وقد عَظُمَ الخَطْبُ في هذا الزمان حتى لا يَدْرِي العَبْدُ على أي شيء يَبْكِي؛ أعلى فوات دنياه؟ أم على ذهاب دينه؟ أم على[١٤] إخوانه في

---

(١) في (س) و(ز): عمر.

(٢) قوله: «في الحجر، فمرَّ به رجل» سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٣) سقطت من (س) و(ص) و(ز).

(٤) في (س) و(ص): العجب.

(٥) قوله: «من خشية الله» سقط من (د).

(٦) سقط من (س) و(د) و(ص) و(ز)، والمثبت من (ل).

(٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد عن ابن أبي مُلَيكة: (٢/٨٦٠)، رقم: (١١٤٥).

(٨) في (ص): بنت.

(٩) في (س) و(ز): عمر.

(١٠) في (ز): تصدَّعت، وفي (د): رَسَّعَتْ، وفي (ص): وسعت، ورَسَعَتْ عيناه: التصقت أجفانها، تاج العروس: (٢١/٨٨).

(١١) أخرجه أبو نعيم في الحلية: (١/٢٩٠).

(١٢) قوله: «فأحسن فيه» سقط من (س).

(١٣) يقصد «كتاب الرقة والبكاء»، وهو منشور في مجلَّدة لطيفة.

(١٤) سقطت من (س) و(ص) و(ز).

القربـات؟ أم علـى[1] أعوانـه علـى الـصالحات؟ أم علـى دروس العلـم وطُمُوسِه؟ أم على اتفاق الخَلْقِ على إنكار المعروف وتعريف المنكر؟ أم على نفسه التي لا تطاوعه على طاعة؟ أم[2] على[3] عِرْسِه التي تطالبه بما ليس له به طاقة؟ أم على ولده الذي لا يَرَى فيه[4] للعين قُرَّةً؟ أم على جاره الذي لا يُغْضِي له على عورة؟ أم على أميره الذي لا يَرْعَى فيه إلًّا ولا ذِمَّةً؟ أم على فَقْدِ صَبْرِهِ الذي يغلبه على الانفراد عن الخَلْقِ، والاستبداد[5] بالربِّ؛ حين لم يَجِدْ سواه، ولا رأى حُسْنًا في[6] غيره؟ أم على عَدَمِ مَحَلِّ الهجرة حتى يخرج عن هذه الأمة إلى موضع يَأْمَنُ فيه ما يتوقع من نِقْمَةٍ؟

١ أما - والله - إنه لينبغي أن يَتْرُكَ هذا كلَّه؛ ويَرْجِعَ على[7] نفسه الخائنة له باللَّوْمِ، وليجادلها؛ فلعَلَّها[8] إن كانت لم تَرِعْ/ [٧٧/أ] أَمْسِ تُطِعِ اليَوْمَ.

---

(١) سقطت من (س) و(ز).

(٢) في (س) و(ص) و(ز): أو.

(٣) سقطت من (س) و(ص) و(ز).

(٤) في (س) و(ز): للعين فيه.

(٥) في (د) - أيضًا -: الاكتفاء.

(٦) في (س) و(ز): في.

(٧) في (س): إلى.

(٨) في (س): فعلَّها.

[تَتِمَّةُ الحديث عن البكاء]:

قالَ لي عَطَاءٌ[١] - شيخُ الفقهاء والفقراء بالمسجد الأقصى[٢] -: أين أعين البُكَاءِ؟ وأين أسباب الاشتياق إلى المولى لا إلى اللِّوَى؟ وجرى القَوْلُ يَوْمَنا وليلَه[٣]، وجرَّ الحديثُ على المشافهة ذَيْلَه، حتى قال لي: ما سَمِعْتُ في البكاء أَحْسَنَ من قَوْلِ الشَّاعر[٤]:

أَتَتْنِي تُؤَنِّبُنِي[٥] في البُكَا ... فأَهْلًا بها وبتَأْنِيبِهَا

تَقُولُ وفي قَوْلِهَا حِشْمَةٌ: ... أَتَبْكِي بعَيْنٍ تَرَانِي بِهَا؟

فقلت: إذا اسْتَحْسَنَتْ غَيْرَكُمْ ... أَمَرْتُ جُفُونِي بتَعْذِيبِهَا

وأَصْلُ البكاء إنَّما هو على فَقْدِ المحبوب، أو نزول المكروه، وأيُّ محبوب أعظمُ من الله تعالى وطاعته؟ أو[٦] أيُّ مكروه أصعبُ من سَخَطِ الله وعذابه؟

---

(١) الإمام الفقيه، شيخ الشافعية، أبو الفضل عطاء المقدسي، لقيه ابن العربي عام ٤٨٧هـ ببيت المقدس، وذكر أنه فقيه الشافعية (القانون: ص٩٤)، ونعته في العارضة بفقيه بيت المقدس وصُوفِيِّها، (٨/٢٣٩)، وذكر مفاوضته لأبي منصور التركي في إحدى مسائل العلم بالمسجد الأقصى، وأحال على كتابه «عيان الأعيان»، ينظر الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٤٣١)، وترجمتُه في: الأنس الجليل: (١/٤٣٥).

(٢) قوله: «بالمسجد الأقصى» سقط من (س)، وفي (ز): في المسجد الأقصى.

(٣) في (د) و(ل): يومًا وليلة.

(٤) الأبيات من المتقارب، ونسبها النُّوَيري في نهاية الأرب: (٢/٥٦) إلى سلم الخاسر، ونسبها ابن جُمَيع الصيداوي في معجم شيوخه: (ص٣٤٩) إلى ابن المعتز، وأغرب المقري بنسبتها في النفح والأزهار إلى ابن العربي، وسكت عن هذه النسبة إحسان عباس.

(٥) في (د) - أيضًا -: تُعَاتِبُنِي ... وبِتَعْتِيبِهَا.

(٦) في (س) و(ص) و(ز): و.

أَلَا ترى أن السحرة لمَّا تَحَقَّقَتْ هذه الحقيقة واستمرت عليها من غير مَثْنَوِيَّةٍ عزيمة قالت لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧١].

وقد قال الله تعالى مخبرًا عن الأنبياء ومن انضاف إليهم من الأولياء: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨]، وإنَّما كان بكاؤهم على أنَّ ما انتهَوا إليه من السجود - وهو الغاية في الذلة - لا يقوم بحق النعمة، فرأوا أنفسَهم بعَيْنِ التقصير فيما عليهم من الحق.

ومن فَضْلِ الله على الخلق أن جَعَلَ البكاء راحةً لهم في الدنيا، وأَجْرًا لهم في الأخرى، وقد بكى السفهاءُ على الأطلال وآثارها، والهفوات وأطوارها، والشَّهوات وأَوْطَارِها، فابْكِ أنت على ما مضى من أيَّامك الأُوَلِ في غَيْرِ عَمَلٍ، وفي ذلك ما[1] قُلْتُ:

يا نَفْسِي وَيْحَكِ[2] كَمْ ذا أَنْتِ في وَسَنِ ... لا تَبْكِيَنَّ على الآثار في[3] الدِّمَنِ

وابكي على عَمَلٍ قد كُنْتِ تاركةً ... أوقاتَه هَمَلًا في سَالِفِ الزَّمَنِ

يا فُرْصَةً لم تزل عنها مدافعة ... كالطِّفْلِ يُخْدَعُ باللُّعْبَى عن اللَّبَنِ

أيَّامَ تعملُ في دنياك مجتهدًا ... مِن كلِّ يَعْمَلَةٍ[4] كَوْمَاءَ كالفَدَنِ

---

(١) سقطت من (س).

(٢) في (س): يا ويح نفسك.

(٣) في (ل): في خـ: و.

(٤) اليعملة: الناقة النجيبة المطبوعة على العمل، تاج العروس: (٣٠/٥٨).

تَحَفَّظِي ببقايا العُمْرِ جَاهِدَةً   من أن تَمُرَّ[١] على حالٍ من الغَبَنِ
وكيف أرجو بلوغًا ما أُؤَمِّلُه   ولَسْتُ أَسْعَى إلى التحقيق في سَنَنِ
واللهُ لا يقبل الأعمالَ خالصةً   حتَّى تكون على هَدْيٍ من السُّنَنِ

وقد قال النبي ﷺ - في الصحيح -: «لو تعلمون ما أَعْلَمُ لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»[٢].

وقد جاء هذا القول في حديث طويل ضعيف فلا تلتفتوا إليه.

ومن الحديث الحَسَنِ: قال النبي ﷺ: «لا يَلِجُ النَّارَ من بَكَى من خَشْيَةِ الله حتى يعود اللَّبَنُ في الضَّرْعِ»[٣]/. [٧٧/ب]

والأوَّلُ أَصَحُّ.

الانتقاءُ للآيات بحَسَبِ الأغراض:

وقد تختلف القلوب في القراءة[٤]؛ فمنها قَلْبٌ يَخْلُقُ الله[٥] له الرجاء، وآخَرُ يخلق له التخويف، وآخَرُ يخلق له التوحيد، فينتقون آيةً آيةً لأمر يَتَوَجَّهُ.

---

(١) في (س) و(ص): يمر.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾، رقم: (٤٦٢١-طوق).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﷺ: أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله، رقم: (١٦٣٣-بشار).

(٤) في (د): القراءات.

(٥) لم يرد في (د) و(ص) و(ز) و(ل).

وفي الحديث الحَسَنِ: أن النبي ﷺ سَمِعَ بِلَالًا يقرأ هكذا فأَقَرَّهُ ورَضِيَه[١].

ونَصُّه[٢]: عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة: «أن النبي ﷺ خرج ليلة؛ فإذا هو بأبي بكر رضي الله عنه يُصَلِّي؛ يَخْفِضُ من صوته، قال[٣]: ومرَّ بعمر بن الخطاب وهو يُصَلِّي رافعًا[٤] صوتَه، فقال: يا رسول الله؛ أُوقِظُ الوسنان، وأطردُ الشيطان، فقال النبي ﷺ: يا أبا بكر، ارفع من صوتك شيئًا، وقال لعمر: اخفض من صوتك شيئًا»[٥].

ورواه عن أبي هريرة بنحوه، وزاد[٦]: «وقد سمعتك يا بلال وأنت تقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة، قال[٧]: كَلَامٌ طَيِّبٌ يَجْمَعُه[٨] الله؛ بعضه إلى بعض، قال[٩] النبي عليه السَّلام: كلكم قد[١٠] أصاب»[١١]، خرَّجه أبو داود.

---

(١) سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٢) سقط من (د).

(٣) سقط من (د) و(ص) و(ل).

(٤) في (ص): وهو يرفع صوته.

(٥) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة، باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، رقم: (١٣٢٩-شعيب).

(٦) في (ل): زاد.

(٧) في (س): فقال.

(٨) في (س) و(ص): يجمع.

(٩) في (س): قال عليه السلام.

(١٠) سقطت من (د).

(١١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة، باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، رقم: (١٣٣٠-شعيب).

وقد روى أحمد[1] عن سلمان: «أنه اجتمع الناس إليه بالمدائن؛ فقرأ عليهم سورة يوسف، فجعلوا يتفرَّقون عنه، فقال: أَبِزُخْرُفٍ[2] من القول؟ تريدون آية من سورة كذا، وآية من سورة كذا»[3].

وقد أَذِنَ النبي ﷺ في اختيار السُّوَرِ[4].

وروى أبو داود: «قال رجل للنبي ﷺ: أَقْرِئني[5] يا رسول الله، قال: اقرأ ثلاثًا من ذوات ﴿الٓر﴾، قال: كَبِرَتْ سِنِّي، واشتدَّ قَلْبِي، وغَلُظَ لساني، قال: اقرأ ثلاثًا من ذوات ﴿حمٓ﴾، فقال مِثْلَ مقالته، فقال: اقرأ ثلاثًا من المُسَبِّحَاتِ، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: يا رسول الله، أَقْرِئني سورة جامعة، فأقرأه النبي ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، حتَّى فرغ منها، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها أبدًا، فقال النبي ﷺ: أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ»[6].

---

(١) في (د) و(ص): أحمد بن حنبل.

(٢) في (س) و(ز): الزخرف.

(٣) عادة ابن العربي إذا أحال على الإمام أحمد يقصد كتاب الزهد له، ولم أجد الأثر في المنشور منه، وهو في الحلية لأبي نُعَيم: (١/٢٠٣).

(٤) منه حديث عبد الله بن مسعود، خرَّجه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن، رقم: (١٣٩٦-شعيب).

(٥) في (س) و(د): أقرني.

(٦) أخرجه أبو داود في السنن عن عبد الله بن عمرو ﵄: كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن، رقم: (١٣٩٩-شعيب).

حقيقة القراءة:

والذي يقرأ القرآن مُتَعَلِّمًا كالذي يقرأه مُؤْتَجِرًا[١]؛ في أنَّ كل واحد منهما يلزمُه أن يكون له مُتَدَبِّرًا، وفيه مُتَفَقِّهًا، وبه عاملًا، فما كان أَحَدٌ من الصحابة يقرأُ آيةً ولا يتجاوزها إلى سواها حتى يَفْهَمَ معناها، وبذلك كانت كما جاءت الآثار[٢].

قال النبي ﷺ: «أيكم يُحِبُّ أن يغدو كل يوم إلى بُطْحان أو العَقِيق فيأتي بناقتين كَوْمَاوَيْنِ في غير إِثْمٍ ولا قطيعة رَحِمٍ؟ قالوا: يا رسول الله، كلنا نحب ذلك، قال: أفلا يغدو أَحَدُكم إلى المسجد فيَعْلَمُ أو يقرأ آيةً أو آيتين من كتاب الله؛ خَيْرٌ له من ناقة أو[٣] ناقتين، وثلاثٌ خَيْرٌ له من ثلاث، وأَرْبَعٌ خَيْرٌ له من أربع، ومن أَعْدادِهِنَّ من الإبل»[٤].

وعن أبي هريرة قال[٥]: قال رسول الله ﷺ: «أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يَجِدَ فيه ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ[٦] عِظَامٍ سِمَانٍ؟ قلنا: نعم، قال:/ [٧٨/أ] فثلاثُ آيات يقرأ بهن أحدُكم في صلاته خَيْرٌ له من ثلاث خَلِفات عِظَامٍ سِمَانٍ»[٧].

---

(١) في (ز): مُتَّجِرًا.

(٢) قوله: «جاءت الآثار» سقط من (س) و(ص) و(ل) و(ز).

(٣) قوله: «ناقة أو» سقط من (ص) و(ز) (س) و(ل).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه، رقم: (٨٠٣-عبد الباقي).

(٥) سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٦) في طرة بـ (د): الخَلِفات: النُّوقُ الحوامل، الواحدة: خَلِفَةٌ.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه، رقم: (٨٠٢-عبد الباقي).

وقَوْلُه في هذا الحديث[١]: «يَقْرَأُ ويَعْلَمُ» سواءٌ؛ لأنَّ من قرأ ولـم يَعْلَـمَ واقتصر على التلاوة دون عَقْلِ المَتْلُوِّ وفِقْهِه فقد خاب سعيَه، وأُفِنَ رأيَـه، وغَبِنَ نفسَه، وسَفِهَ عقلَه[٢].

وقد ثبت عن النبي ﷺ ذَمُّ ذلك في حديثين عظيمين صحيحين:

أحدهما: قوله ﷺ: «إنكم في زمان كثير فقهاؤه، قليل قراؤه، يَحْفَظُونَ فيه حدود القرآن، ويُضَيِّعُون حروفه، وسيأتي على الناس زمانٌ كثيرٌ قراؤُه، قليلٌ فقهاؤُه، تُحْفَظُ فيه[٣] حروفُ القرآن، وتُضَيَّعُ حدودُه»[٤].

الثاني: قوله ﷺ: «يَخْرُجُ من ضِئْضِئِ هذا[٥] - وفي رواية: من قبل المشرق - قَوْمٌ يقرؤون القرآن لا يُجَاوِزُ حناجرهم، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْم من الرَّمِيَّةِ»[٦]، وذَكَرَ الحديث، فذَمَّهُم على التلاوة دون العمل، وهُمْ يَدَّعُونـه ولا يعقلونـه، ويقولـون: «كتـابُ الله إِمَامُنـا»، وقـد نبـذوه وراء ظهورهم.

وقد صحَّ أنَّ ابن عمر أقام على البقرة ثماني سنين يتعلمها[٧].

---

(١) قوله: «في هذا الحديث» سقط من (س).

(٢) المعنى: خَسِرَ نفسه، وأفسد رأيَه، ينظر: الروض الأُنُف: (٤/١٥٤).

(٣) سقطت من (س).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا: جامع الصلاة، (١/٢٣٣)، رقم: (٤٨١-المجلس العلمي الأعلى).

(٥) سقط من (س).

(٦) أخرجه الإمام مالك في الموطأ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ما جاء في القرآن، (١/٢٥٧)، رقم: (٥٤٧-المجلس العلمي الأعلى).

(٧) أخرجه الإمام مالك في الموطأ بلاغًا: ما جاء في القرآن، (١/٢٥٧)، رقم: (٥٤٨-المجلس العلمي الأعلى).

وقد قال العلماء: «فيها أَلْفُ أَمْرٍ، وأَلْفُ نَهْيٍ، وأَلْفُ حُكْمٍ، وأَلْفُ خَبَرٍ»[(١)]، وقال ابن مسعود: «من أراد العلم فليُثَوِّرِ[(٢)] القرآن، فإنَّ فيه عِلْمَ الأوَّلين والآخِرين»[(٣)].

صِفَةُ التَّعْلِيمِ:

وقد بيَّنَّا في كتاب «قانون التأويل»[(٤)] كيف يُقْرَأُ القرآن ويُعْلَمُ ويُعَلَّمُ، وقد كان عِلْمُ الألفاظ ومدلولاتها[(٥)] عند[(٦)] الصدر الأوَّل؛ لأنهم كانوا عَرَبًا عَرْبَاءَ[(٧)]؛ يعرفون معاني الألفاظ ومقاطع الكلام، ثم اختلط الخلق حتى فَسَدَتِ الأَلْسُنُ، وضَلَّتِ القلوب عن الحقائق حتى فسدت المعاني، فتعيَّن علينا - والحالةُ هذه - أن نبدأ بعِلْمِ الألفاظ؛ على وَجْهِ دِلاَلَتِهَا على مدلولها، وأن نعلم مقاطع التعبير عنها؛ وهي الفصاحةُ التي يتميز[(٨)] بها لسانُ العرب الذي ورد القرآن به، وهو الذي نحاول معرفته.

فينبغي أن يُنَشَّأَ الطفل على تعليم العربية ومقاطع الكلام، ويُحَفَّظَ أشعار العرب وأمثالها، ويُلْقَى إليه من الحساب ما يُقِيمُ به دينه، ويكون دُسْتُورًا لعِلْمِ الفرائض، واستخراج المعلوم من المجهول، ففيه منفعةٌ في الدين، وتمرينٌ للأفهام، ويُدَرَّسُ من القرآن المفصَّل عند استقلاله ببعض

---

(١) وفي المسالك للقاضي (٣/٤٠٩): «سمعت بعض أشياخي يقول».

(٢) ثوَّر القرآن: بحث عن معانيه وعن علمه، وتثوير القرآن: قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه، تاج العروس: (١٠/٣٤٣).

(٣) أخرجه الطبراني في أكبر معاجمه: (٩/١٤٦)، رقم: (٨٦٦٦).

(٤) قانون التأويل: (ص٣٤٦-٣٤٨)، وينظر: العواصم: (ص٣٧٠).

(٥) في (س) و(ص): مداولاتها.

(٦) في (س): في.

(٧) في (د) و(ز): عُرْبًا.

(٨) في (د) و(ص): تميَّز.

هذه المقاصد، حتى إذا رَوِيَ من هذا الغرض مشى إلى العالم فأقرأه القرآن بتفسيره، ودرَّسه إيَّاه بمعناه، ويأخذه به من أوَّله، فلا يخطئ في وجهين:

أحدهما: أن يُعَلِّمَهُ القرآنَ منكوسًا[١]، ولا يقرأه[٢] كذلك إلَّا منكوس القلب.

والثاني: أن يُحَفِّظَ الصبيَّ كتاب الله وهو لا يَعْقِلُ منه حَرْفًا، فيتكلَّف استظهارَ ما لا طاقة له به، وإنَّما يَمُرُّ عليه كالعربي يحفظ التوراة بالعِبْرَانيَّة.

وإن عَقَلَ الصَّبِيُّ منه الألفاظ المستعملة عنده «كجاء» و«قام» و«قَعَدَ»/ و«جَلَسَ» لم يَقْدِرْ على رَبْطِها بما يَتَّصِلُ به، ولا فهْم ما تقتضيه فيما انتظمت معه. [٧٨/ب]

فإن قَدَّرَ الله ونظرتُم في شيء من التفسير فأُحَذِّرُكم أنَّ كُتُبَ التفسير مشحونة بالأحاديث الموضوعة والمقاصد الفاسدة، فلا تقرؤوا[٣] منها إلَّا المُسْنَدَاتِ؛ «كتفسير عبد الرزَّاق»، و«ابن المنذر»، و«الطبري» لمن أراد أن يَتَبَحَّرَ، وأمَّا هذه المجموعات من غير أسانيد؛ فإنها مُشْتَمِلَةٌ على

---

(١) لعله يقصد بذلك ما جرت به عادة المغاربة من التدرج في حفظ القرآن للصبي؛ فتكون البَداءة بأواخر السُّوَرِ، ثم يترقَّى به إلى ما فوقه، إلى أن تكون سورة البقرة من آخر ما يحفظ، فهذا معنى التنكيس، أو يكون معنى التنكيس أن يقرأ آيَ السُّورة الواحدة منكوسة، أي: يقرأ من آخرها إلى أولها؛ وذلك ليقتدر على الحفظ، ويستدلُّ به الواحد على تمكنه منه، وجريان القرآن على لسانه، وهذا لا يجوز قطعًا، ففيه من الفساد الشيء الكثير، ينظر: شرح ابن بطَّال: (١٠/٢٣٩)، والحوادث والبدع للطرطوشي: (ص٣٠١-٣٠٢).

(٢) في (ل): يقرأ.

(٣) في (د) و(ز): تقرؤون.

مَغْوَاة، لا يكون لأَحَدٍ معها نجاة، منها ما وَقَعَ فيها مؤلفوها غفلة، ومنها ما اعتمدوه جهالة، وأَسْلَمُ ما في هذه المختصرات «كُتُبُ[1] أبي الحسن الحَوْفِي[2]»؛ التي[3] ترجمها[4] لبعض ملوك الأندلس[5] ابنُ عمَّار

---

(١) في (س): كتاب.

(٢) الإمام العلَّامة، النحوي المفسر، علي بن إبراهيم بن سعيد، أبو الحسن الحَوْفي، مالكي المذهب، من أخص تلاميذ أبي بكر الأُدْفُوي، توفي عام ٤٣٠هـ، ولقي جماعة من علماء المغرب القادمين إلى مصر، له تفاسير عدة، منها: «إعراب القرآن»، و«البرهان في علوم القرآن»، وهو كتاب كبير، ذكر ابن خير أنه في مائة سفر ضخمة، وذكر ياقوت المستعصمي أنه في ثلاثين مجلدة بخط دقيق، يوجد بعضه، واسمه: «البرهان في علوم القرآن؛ من الغريب والإعراب، والقراءات والتفسير، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وعدد الآي والتنزيل»، حُقِّقَ بعضه في رسائل جامعية، ونَقَدَ طريقته في التفسير الإمامُ ابن دحية السبتي، نقله عنه ابن الملقن في البدر المنير: (٤٧٢/٧)، ينظر في أخباره: فهرس ابن خير: (ص١٠٥)، ومعجم الأدباء: (١٦٤٣/٤-١٦٤٤)، وإنباه الرواة: (٢٢١/٢-٢٢٢)، وسير النبلاء: (٥٢١/١٧-٥٢٢).

(٣) في (د) و(س) و(ص) و(ز): الذي، ومرَّضها في (ل).

(٤) في (س): جمعها.

(٥) هو: الأمير الموفق، أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري، مَلِكُ دانية لأزيد من ثلاثين سنة، وكان من أهل العلم، قصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب، وألَّفوا له تواليف مفيدة في سائر العلوم، وممَّن قصده أبو عمرو المقرئ، وابن عبد البر، وابن عمَّار المهدوي، وابن سِيدَه، وغيرهم كثير، توفي عام ٤٣٦هـ، ترجمته في: جذوة المقتبس: (ص٥٢٢-٥٢٤)، والبيان المعرب لابن عذاري: (١٥٦/٣-١٥٧)، والمغرب لابن سعيد: (٤٠١/٢)، وأعمال الأعلام لابن الخطيب: (ص٢١٧-٢٢٠).

المهدوي[١] باسمه، أيَّان[٢] ورد عليها؛ عام المجاعة الكبرى[٣]، منذ تسعين[٤] عامًا، فقد قرأتُها «بالثَّغْرِ المحروس» و«الفُسْطَاط»، ولم أَرَ فيها مُنْكَرًا.

وإيَّاكم و«كُتُبَ القَصَصِ»، فإنكم بقِلَّةِ تَمَرُّنِكُم بالعلوم تَتَجَرَّعُونَ منها الغُصَصَ، أمَّا في الدنيا فبالجهالات، وأمَّا في الآخرة فإنه يُخاف عليكم أن يُقال فيكم: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[٥] عن اقتدائهم بالذين لا يعلمون.

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي[٦] ﷺ: فإذا كُنْتَ جَارِيًا على هذا السَّنَنِ فأنت «العَابِدُ».

---

(١) الإمام العلَّامة، المقرئ المفسر، أحمد بن عمَّار، أبو العباس المهدوي، تَلْمَذَ لأبي الحسن القابسي، ودخل الأندلس في حدود عام ٤٣٠هـ، وألف التآليف الجليلة، طبع له منها: «التحصيل لفوائد كتاب التحصيل»، وهو مختصر «التفصيل الجامع لعلوم التنزيل»، ألَّفه برسم الأمير مجاهد العامري، وكانت وفاة ابن عمَّار بالأندلس بعد ٤٤٠هـ، ترجمته في: جذوة المقتبس: (ص١٦٧-١٦٨)، والصلة: (١/١٣٨)، وإنباه الرواة: (١/١٢٦-١٢٧)، وكتاب العُمُر: (١/١٢٢-١٢٧)، وينظر: التحصيل لابن عمَّار: (١/١٠٧).

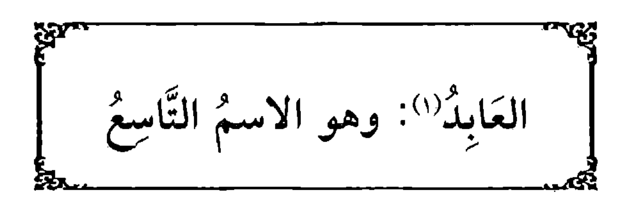
(٢) في (ص): إبَّان.

(٣) في طرة بـ (ص): قال الأشيري: «أظن عام المجاعة كان سنة الخمسين أو الستين وأربعمائة»، قلتُ: كلامُ ابن العربي يحوم حول الأربعين وأربع مائة، وهو قريب من قول من قال: «إن دخول ابن عمَّار كان في حدود الثلاثين وأربع مائة».

(٤) في (د): تسعون.

(٥) [الصافات:٢٤].

(٦) في (د): قال الإمام الحافظ القاضي، وفي (ص): قال الحافظ أبو بكر بن عبد الله، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر، وفي (ل): قال الإمام.



العَابِدُ[١]: وهو الاسمُ التَّاسِعُ

وقد اختلفت عباراتُ[٢] الناس في العبادة على أربعة أقوال[٣]:

أحدُها: الطاعة.

الثاني: التَّذَلُّلُ.

الثالث: عَبَدَ: دَانَ.

الرابع: عَبَدَ: قَهَرَ.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١].

قال قَوْمٌ: «إن عبد بفتح الفاء[٤] وكَسْرِ العَيْنِ معناه: أَنِفَ وغَضِبَ»[٥].

والذي عندي: أنَّ بِنَاءَ «ع ب د» في العربية مَوْضُوعٌ للذِّلَّةِ؛ وهي: تصريفُ الجوارح في أَمْرِ الغَيْرِ أو منفعته، وقد يأتي[٦] للتَّعَزُّزِ، وكَثِيرٌ من الألفاظ العربية تُستعمل في الشيء وضِدِّهِ[٧].

---

(١) سقط من (د) و(س) و(ص) و(ز).

(٢) في (س): عبارة.

(٣) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٤٧٢).

(٤) في (س): الباء، وفي (ص) و(ل): بفتح العين وكسر الباء.

(٥) تفسير الطبري: (٢٠/٦٥٦-التركي)، ومعجم مقاييس اللغة: (٤/٢٠٧).

(٦) في (د) و(ص): تأتي.

(٧) معجم مقاييس اللغة: (٤/٢٠٥).

والذين قالوا: إنَّ عبد بمعنى أَنِفَ؛ لم يكن مأخوذًا - والله أعلم - إلَّا من هذه الآية، فإنْ كان تأويلُها كما قال قَوْمٌ: إنَّ معناها[١]: «إن قلتم: إنَّ للرحمن ولدًا فأنا أوَّلُ من يَعْبُدُ الرحمن[٢]»[٣].

وقد رُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال حين نُسِبَ إليه أنه[٤] قَتَلَ عثمان: أَنَّه عَبِدَ، يعني: غَضِبَ[٥].

وهذه كلُّها أقوالٌ مصنوعة[٦]، مَبْنِيَّةٌ على تأويل الآية، وليس للعبادة مَعْنًى إلَّا التذلُّل، فاعلمُوه واطرحُوا غَيْرَه.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقد خَفِيَتْ هذه الآية على المبتدعة وعلى أهل السُّنَّةِ.

فقال قَوْمٌ من المبتدعة: «خَلَقَهم وأراد منهم العبادة، ففَعَلُوا ما أرادوا».

تعالى الله أن يكون في مُلْكِهِ ما لا يُريد.

وقال بعضُ أهل السُّنَّةِ: «إن كان خَلَقَهُم/ ليعبدوه فقد وُجِدَ من لا يَعْبُدُه، ولا يَصِحُّ أن يكون في خبره خُلْفٌ، وأيضًا فإنَّه غَنِيٌّ عن عبادتهم، وظاهرُ الآية يُعْطِي أنه خَلَقَهُم لما هو غَنِيٌّ عنه[٧]». [٧٩/أ]

---

(١) قوله: «إن معناها» سقط من (س) و(ز).

(٢) في (ص): فأنا أوَّلُ العابدين.

(٣) تفسير الطبري: (٢٠/٢٥٤-التركي).

(٤) سقط من (س).

(٥) يقارن بما في تفسير الطبري: (٢٠/٦٥٧-التركي)، ومعجم مقاييس اللغة: (٤/٢٠٧).

(٦) في (س): موضوعة.

(٧) في (س): عنهم.

وقال قَوْمٌ من القَدَرِيَّةِ: «إنَّ العبادة وُقُوعُ أفعال العباد على وَفْقِ أَمْرِ المَوْلَى».

فأخرجوا الأفعال عن العبادة ما لم تكن[١] موافقة للأمر[٢]؛ ليُثَبِّتُوا بذلك أنه لا يريد المعصية.

وقال أهلُ السنة: «إن العبادة هي وقوعُ أفعال العباد على حُكْم المَوْلَى، لا جَرَمَ كل طاعة ومعصية وخَيْرٍ وشَرٍّ ظَهَرَ من العباد، فإنه بحُكْم المَوْلَى وقضائه، والأمورُ تَجْرِي على حسب مراد الله تعالى، لا[٣] على مقتضى أَمْرِهِ ونَهْيِهِ»[٤].

ولمَّا جَهِلَ هذا الأَصْلَ المبتدعةُ وغَفَلَ عنه[٥] المُفَسِّرُون خلَّطُوا في هذه الآية:

فقال قَوْمٌ: «معناها الخصوص وإن كانت[٦] جاءت بلفظ العموم»[٧].

وهذا ضعيفٌ لوجهين:

أحدهما: أن العموم إنما يُخَصُّ لحاجة، ولا حاجة هاهُنا.

---

(١) في (د): يكن.

(٢) في (د) و(ص) و(ل): الأمر.

(٣) سقطت من (س).

(٤) تفسير الطبري: (٢١/٥٥٥-التركي)، والحدود لابن فُورَك: (ص١٢٣).

(٥) في (س): عنها.

(٦) في (س) و(ص) و(ز): كان.

(٧) هو قول زيد بن أسلم، ذكره الطبري: (٢١/٥٥٣-التركي)، وهو قول الضحَّاك وسفيان أيضًا، ذكره عنهما الثعلبي في الكشف والبيان: (٩/١٢٠)، وينظر: معاني القرآن للزجَّاج: (٥/٥٨).

الثاني: أن[١] الأصل الذي يَدْعُو إلى الخُصوص فاسدٌ، ولا يُبْنَى عليه.

ومنهم من قال: معناه: «وما خلقتُ الجن والإنس إلَّا لآمُرَهم بالعبادة»[٢].

والمعنى صحيحٌ؛ ولكنه تركيب لا تعضدُه العربية، ولا تقتضيه الفصاحة، والقُرْآنُ طَلَقُ[٣] العربيَّة، وبَيِّنُ[٤] الفصاحة.

والمعنى الصحيحُ في الآية[٥]: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَالِانسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: لتَجْرِيَ أفعالهم على مُقْتَضَى قضائي، فيكون فِعْلُ العبد على مقتضى حُكْمِ المَوْلَى، وإنَّما يخرج فِعْلُ العبد عن حُكْمِ المولى إذا كان مغلوبًا، والغالب لا يَخْرُجُ شيءٌ عن حُكْمِه، وهو الله وحده، وقد فَهِمَ بعضُ الصالحين هذا الحق، فقيل له: «ما أراد الله من الخلق؟ فقال: ما هُم عليه».

والغَفَلَةُ ظنُّوا أن تفسير العبادة هاهُنَا الطاعة، ورَأَوا بَعْضَ الخلق لا يُطِيعُ[٦] فطَلَبُوا للآية معنًى غير معناها، ولو عَقَلُوا معنى ذلك وفَهِمُوا أيضًا

---

(١) في (س): أن الأصل يدعو، وفوقه: بخطه، أي: كذلك وُجِدَ بخطِّ المصنف.

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية: (٨/٨٢).

(٣) الطَّلَقُ -بالتحريك-هو: القَيْدُ من أَدَمٍ، ومعناه هُنا: أن القرآن قَيْدُ العربية، وهو حاكمٌ عليها وعلى عباراتها ومُرَكَّباتها، تاج العروس: (٢٦/٩٨).

(٤) في (س) و(د) و(ص) و(ز): نيِّر، وضرب عليه في (ل).

(٥) هو قول الطبري: (٢١/٥٥٥-التركي)، وينظر: أدلة التوحيد لابن مُخْلِصٍ السبتي: (ق١٦٧/ب).

(٦) في طرة بـ (د): لا يطيعون، وصحَّحها.

معنى السجود كما قال الله سبحانه: ﴿وَلِلهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ [الرعد:١٦]، فالكافر يَكْفُرُ بلسانه، وجوارحُه كلُّها مؤمنة، نعم؛ ولسانُه الكاذب شاهدٌ لله، عابدٌ له في تكذيبه به[١]؛ لأنه جَرَى بحُكْم قضائه، ونَفَذَ بمُقْتَضَى تقديره، فلم يخرج شيءٌ عن مُلْكِه، وقد قال الله تعالى: ﴿عِبَادِي﴾ في مواضع من كتابه، منها قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]، فأضافهم إلى نفسه؛ بما وَهَبَهم من الحِفْظِ والعِصْمَةِ، فهم لا تضرهم الوساوسُ باستجارتهم بالله، وإذا قَرُبَ الشيطان من قَلْبِ العالِمِ أَحْرَقَه نُورُ العِلْمِ، وإذا دنا من قَلْبِ[٢] الغافل أحرقه تجديدُ الذِّكْرِ وإحضارُ التوحيد.

قال النبي ﷺ: «إن الشيطان يأتي أحدَكم فيقول له: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ فيقول له: الله[٣]، فيقول له: من خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدُكم فليَقُلْ:/ لا إله إلا الله»[٤]. [٧٩/ب]

وقال في موضع آخَرَ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [الزخرف:٦٨]، وإنَّما يكون عبدُه الذي يخاطبه بهذه المخاطبة الشريفة من لم يَكُنْ في أَسْرِ غيره، وأمَّا[٥] من استعبده هَوَاهُ واستمكن منه الطَّمَعُ واسْتَرَقَّتْهُ كل خَسِيسَةٍ ونَقِيصَةٍ فلا يكون منهم، ولا يُدْعَوْنَ، بل يُدْعَى عليهم.

---

(١) سقط من (س).
(٢) سقط من (ص).
(٣) قوله: «فيقول له: الله» سقط من (س).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم: (١٣٤-عبد الباقي).
(٥) سقط من (د) و(ص) و(ل).

قال النبي ﷺ: «تَعِسَ عبد الدينار، تَعِسَ عبد الدرهم، تَعِسَ عبد القَطِيفَةِ، تَعِسَ عبد الخَمِيصَةِ، تَعِسَ وانتَكَسَ، وإذا شِيكَ فلا انتَقَشَ»[١]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

والمعبود: هو الذي تَجْعَلُ له قلبَك وعملَك، فمن جعله للحَجَرِ فهو عابدُ صَنَمٍ، ومن جعله للذهب والفضة فغَدَا فيه وراح، وعَمِلَ له وسعى، ورأى أنه هو المقصود الأَوْفَى؛ فهو على مَنْزِلَةٍ من عبادة غير الله، ولذلك دعا عليه رسول الله ﷺ في الحديث المتقدِّم.

وقد[٢] قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٣].

والمعنى: تَذَلَّلْ لحُكْمِي، واستَسْلِمْ لأَمْرِي، وانْقَدْ لامتثال حَدِّي[٣]، واخضع لسُلْطَانِي، وذلك بإقامة الصلاة لذِكْرِي.

يعني: إذا ذَكَرْتُهَا[٤] لك، وخَلَقْتُ لك العِلْمَ بها.

والصلاة هي العبادة كلها؛ فإنها تشتمل على فِعْلِ القلب واللسان والجوارح، وهي الجملة الآدمية المُتَوَجِّهُ إليها الابتلاءُ بالأمر والنهي، والوظائف الشرعية التي أوَّلها إخلاصُ القلب، وآخرُها السجودُ بتَمْرِيغِ الوَجْهِ لله تعالى.

---

(١) تقدَّم تخريجه في السفر الأوَّل.

(٢) سقطت من (د) و(ص) و(ل).

(٣) في (س) و(ز): خوفي.

(٤) في طرة بـ (س): «قوله: ذكرتها، هذا تفسير على قراءة: ﴿للذكرى﴾».

ولما بَلَغَ النبيُّ ﷺ الغَايَةَ من[١] التذلل والتواضع لله والمسكنة[٢]، وصار اسمُ العَبْدِ فيه حقيقة؛ حين[٣] لم يَعْصِ الله قَطُّ؛ لا قبل النبوَّة ولا بعدها؛ رَفَعَهُ الله إلى سِدْرَةِ المنتهى، وأَوْصَلَه إلى مَوْضِع يَسْمَعُ فيه صَرِيفَ الأقلام، وأخبر عنه[٤] باسم العَبْدِ، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء:١].

التقدير: سبحان الذي رَفَعَ المُتَذَلِّلَ له إلى أَعَزِّ مَوْضِعٍ عنده.

وقال[٥] له: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم:٦٥]، فكذلك[٦] فَعَلَ ﷺ، فلقد قام حتى تَفَطَّرَتْ قدماه، وكان نهارُه كلُّه في عبادة مولاه، حتى إذا طرأت عليه غَفَلَاتُ الآدميَّة بمُعَافَسَةِ الأهل والطعام تاب إلى الله في اليوم والليلة مائة مرة، ووَذَرَ[٧] الدنيا[٨]؛ ولم يَمُدَّ إليها عَيْنًا، ولم ينتقم لنفسه.

ولا يَتِمُّ الصبر على العبادة إلَّا بترك الدنيا، قال أبو الدرداء - فيما رواه ابن حنبل -: «كنت تاجرًا؛ فلمَّا أَسْلَمْتُ حاولت التجارة والعبادة فلم يَجْتَمِعَا، فأخذت العبادة وتَرَكْتُ التجارة»[٩].

---

(١) في (س): في.

(٢) في (س): السكينة فيه.

(٣) في (س) و(ص): حتى، ومرَّضاها في (د) و(ل).

(٤) قوله: «وأخبر عنه» سقط من (س) و(ص).

(٥) في (س): فقال.

(٦) في (س): وكذلك.

(٧) في (ز): ترك.

(٨) في (ص): الزينة.

(٩) أخرجه الإمام أحمد في الزهد: (ص١٧٢).

وقال في عيسى وعنه: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٢٩]، مُعْتَرِفًا[١] بما هو عليه، وبما يجب في صفته/. [٨٠/أ]

قال علماؤنا: المعنى في الاحتجاج على النصارى: إِنْ صَدَقَ عيسى بَطَلَ قولُكم[٢]، وإِنْ كَذَبَ فلا يَكُونُ ابنًا لله، ولا خلاف بيننا وبينهم في أن عيسى عبد الله من تَسْمِيَتِهِ لنَفْسِه، وادَّعَوا أن الله سَمَّاه ابنًا، فبذلك قامت هذه[٣] الحجة عليهم.

[صفاتُ عباد الرحمن]:

وقد قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:٦٣]، فوصفهم باثنتي[٤] عشرة صفة، وبذلك اختصُّوا أن يُضِيفَهم إلى نفسه.

الصِّفَةُ الأولى: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]

الهَوْنُ[٥] الرِّفْقُ، يُريد به: التواضع والخشوع، وهو[٦] ضِدُّ الذين يمشون على الأرض مَرَحًا.

الثانية: إذا جُهِلَ عليه[٧] لا يَجْهَلُ مثل جَهْلِه ولا فوقه

---

(١) في (س): في خـ: معرفًا.

(٢) في (د): في خـ: قولهم.

(٣) سقطت من (س) و(ز).

(٤) في (ز) و(س): باثني.

(٥) في (س): والهون.

(٦) سقط من (د) و(ص) و(ل).

(٧) في (س): عليهم.

كما قال الذي لم يَكُنْ له دِينٌ، وكان له حَمِيَّةُ الجاهلية ونَخوة[١] الأعرابية:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا[٢]

ولكنَّه يُقَابِلُ بالحَسَنِ من القَوْلِ، إن ذَمَّه مَدَحَه، وإن ساءَه فرَّحه، أو يسكت عنه[٣] ويُعْرِضُ عنه، كما قال بعضُ أصحابنا[٤]:

إنَّ صَبْرِي على الجفاء صَوَابُ وسُكُوتي عن السَّفِيهِ جَوَابُ
فَهْوَ لا شَكَّ كالذي قِيلَ فيه: مَنْزِلٌ عَامِرٌ وعَقْلٌ[٥] خَرَابُ

وإن ذَكَرَ أَحَدٌ لهم عَيْبًا سَكَتُوا عن عَيْبِه.

وقيل: يقال له: «سلام عليكم»، يُذَكِّرُ بالسلامة، ويُعَرِّفُ أن الله رقيب عليه، قال النبي ﷺ في الصائم: «فلا يَرْفُثْ ولا يجهل، فإن امرؤٌ قاتله أو شاتمه فليَقُلْ إنِّي صائم»[٦]، ولا يُقابِل قِتَالَه بقِتَالٍ، ولا سَبَّه بسَبٍّ.

---

(١) في (س): نجدة.

(٢) هو من الوافر، لعمرو بن كُلثوم في معلَّقته المشهورة، شرح القصائد التسع المشهورات للنحَّاس: (٢/٢٢٨)، وشرح المعلقات السبع للزوزني: (ص١٧٨).

(٣) سقطت من (س).

(٤) البيتان من الخفيف، ولم أجدهما، والشطر الأخير فيه لجَحْظَة البرمكي، من جملة بيتين، وهما:

قلت لما رأيته في قصور مشرفات، ونعمة لا تعاب
رب ما أبين التباين فيه منزل عامر، وعقل خراب

ذكرهما له الثعالبي في الإعجاز والإيجاز: (ص٢١٣)، وأدب الدنيا والدين: (ص١٦٦).

(٥) في (د) - أيضًا -: نفس.

(٦) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي هريرة ﵁: جامع الصيام، (١/٣٥٦)، رقم: (٨٦٣-المجلس العلمي الأعلى).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان:٦٤]

يَعْنِي: أنَّهم[١] بالنهار في صَمْتٍ وكَفٍّ، وهُم بالليل في سُجُودٍ ورُكُوعٍ، وقِرَاءَةٍ وفِعْلٍ[٢].

وقد قُلْتُ في ذلك أبياتًا ربَّما أفادت الصالحين ذِكْرَى، وهي:

إِلَيْكَ إِلَهَ الخلق قاموا تَعَبُّدَا ... وذَلُّوا خُضُوعًا يَرْفَعُونَ لَكَ اليَدَا

بِإِخْلَاصِ قَلْبٍ وانتصاب جوارحٍ ... يَخِرُّونَ للأَذْقَانِ يَبْكُونَ سُجَّدَا

نَهَارُهم صَوْمٌ ولَيْلُهُم بُكَا[٣] ... ودينُهم رَعْيٌ ودُنياهم[٤] سُدًا[٥]

فبالحِكَم اللَّاتِي تَوَلَّتْ نظامَهم ... وبالكَلِم اللَّاتِي أَنَالَتْهُمُ الهُدَى

أَزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عَنِّي بكَبْتِهم ... فأَنْتَ الذي صَيَّرْتَهُم لي حُسَّدَا

وهذا كقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:١٠]، ولم يَذْكُرِ الركوع؛ لأن ذِكْرَ السُّجُودِ ذِكْرٌ له، والسُّجُودُ هو الانحناء، وأوَّله خَفْضُ الرأس، وآخِرُه وَضْعُ الوجه على الأرض، وإذا انحنى نِصْفُ بدنه وبَقِيَ النِّصْفُ الآخَرُ/ قائمًا[٦]؛ فهو آخِرُ الركوع عَرَبِيَّةً، وأوَّلُه[٧] ابتداءُ خَفْضِ الرأس، وهذا كلُّه يفعله خَوْفًا من الله، ورجاءً في الرحمة.

١ [٨٠/ب]

---

(١) سقطت من (س).

(٢) مرَّضها في (ل).

(٣) في (س) و(د) و(ص): هُدًى، ومرَّضها في (ل).

(٤) في (د): وأخراهم.

(٥) في (د): صدًا.

(٦) في (س): فإنما هو.

(٧) في (س): أوَّل السجود.

وهذا رَدٌّ على من يقول: «إنَّ الله إنَّما حقيقةُ عبادته ألَّا يَخْطُرَ بباله ثوابٌ ولا عقابٌ»، وهذا لَغْوٌ من الكلام لا يُساوي سماعه، وأصلُهم فيه حديثٌ ينسبونه إلى عُمَرَ: «نِعْمَ العَبْدُ صُهَيْبٌ، لَوْ لَمْ يَخَفِ الله لَمْ يَعْصِه»[١]، وهذا لم يثبت، والذي ثَبَتَ من قَوْلِ الله في كتابه وقَوْلِ النبي ﷺ في سُنَّتِه[٢] غَيْرُ هذا[٣]، ولا تَجِدُ في هذين[٤] الموضعين الكريمين أَثَرًا لهذه النَّزْغَةِ[٥] الباردة[٦].

فإن قيل: قد قال النبي ﷺ: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»[٧].

---

(١) أورده أبو عُبَيد القاسم بن سلَّام في غريبه بغير إسناد: (٤/٢٨٤)، وذكر السخاوي في المقاصد الحسنة (ص٤٤٩) أن شيخه الحافظ ابن حجر ظَفِرَ به بغير إسناد في «مشكل الحديث» لابن قُتَيبة، ثم نقل عنه أنه قال: «أراد: أن صهيبًا إنما يطيع الله حبًّا لا لمخافة عقابه»، وقولُه هذا الذي نسبه له ابن حجر لم أجده في «مشكل الحديث» لابن قُتَيبة، وإنما هو في غريب أبي عُبَيد: (٤/٢٨٥)، والحديث لا أصل له.

(٢) قوله: «في سنته» سقط من (ز).

(٣) قوله: «غير هذا» سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٤) سقطت من (د) و(ص).

(٥) في (ص): الشرعة، وفي (د) و(ز): النزعة.

(٦) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/١١٣).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان، رقم: (٣٧-طوق).

قلنا: الاحتسابُ هو ألَّا يطلب عليه ثوابًا إلا في الآخرة، يَعُدُّه على الله، ولا يرتجي به شيئًا في الدنيا، وأن يحسب[١] ذلك على الحسيب المُقِيتِ.

ولا تصدرُ مِثْلُ[٢] هذه العبادة[٣] إلَّا عن العالم بالله؛ الذي يَتَحَقَّقُ أنه لله كله[٤]، فتصريفُه لشَيء[٥] من الزمن[٦] في غير ما أَمَرَه[٧] به تَعَدٍّ منه، ولذلك قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٠].

أي[٨]: إنما يَذْكُرُ ذلك[٩] ولا ينساه من لُبُّه حاضرٌ، أي: عِلْمُهُ معه مُتَمَادٍ[١٠]؛ لا تقطعه الغفلات، ولا تُذهبه الشهوات.

ثم أعقبه بقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١١]، أي: اجعلوا بينكم وبينه وقاية من العمل، على ما يأتي بيانُه في اسم «المُتَّقِي» إن شاء الله تعالى.

---

(١) في (س) و(ص): يحتسب.
(٢) سقطت من (س).
(٣) في (س) و(ل): العبارة.
(٤) في (س) و(ز): كله لله.
(٥) في (س) و(ز): شيئًا.
(٦) في (س): الزمان.
(٧) في (س) و(ز): أُمر.
(٨) سقطت من (ص).
(٩) قوله: «أي: إنما يذكر ذلك» سقط من (س) و(ز).
(١٠) سقطت من (س)، وفي (ص) و(د): متمادي.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٦٥]

قال الإمامُ أبو بكر[١] رضي الله عنه: قال بعضُ الفقراء: «هذا مقامٌ عظيمٌ تَطِيشُ فيه الألباب، وتخضع له الرقاب؛ لأنه وصفهم بما وصفهم من صفات الطاعة، ثم أخبر عنهم بأنه لا يَكْمُلُ ذلك منهم حتى يَقِفُوا مَوْقِفَ المذنب المعترف بالتقصير، فيقول: اصرف عنِّي عذاب جهنم، كأنه استحقر عملَه لتقصيره[٢] عمَّا يَجِبُ عليه من حَقِّ مولاه»[٣].

وهذا وإن كان حَسَنًا له وَجْهٌ صحيحٌ؛ فإن هنالك مَعْنًى أقوى منه، وهُوَ أنَّ الأثر الصحيح قد ثبت بأنه: «ما من نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلَّا وقد كُتب مكانُها من الجنة أو النار»[٤]، وهذا لم يَعْلَمْ مكانه، ولا صَحَّتْ عنده خاتمتُه[٥]، فهو يسأل وِقَايَةَ عذاب جهنَّم بحُسْنِ الخاتمة له.

الخامسة: قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧]

وقد بيَّنَّا في «قِسْمِ الأحكام»[٦] ما يتعلَّق بهذه الآية من «القِسْمِ الثالث».

---

(١) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي (ص) و(ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، وفي (ل): قال الإمام أبو بكر بن العربي.

(٢) في (س) و(ز): بتقصيره.

(٣) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٦٤٩).

(٤) تقدَّم تخريجه في السِّفر الأوَّل.

(٥) سقطت من (س).

(٦) أحكام القرآن: (٣/١٤٣٠-١٤٣١).

فأمَّا ما يتعلَّق بها[(١)] من القِسْمِ الرابع في[(٢)] «التذكير»: فإن الإسراف أن يُنْفِقَ بِنِيَّةِ الشهوة والهوى، فأمَّا لو تصدَّق بجميع ماله لم يَكُن إسرافًا؛ إذا[(٣)] وَثِقَ من نَفْسِه[(٤)] بالصبر على فَقْدِ المعيشة، ولو مات هَزِلًا، وإن لم يَثِقْ بنفسه فإنه إسرافٌ منه؛ لأن العمل لا يكون طاعةً إلَّا بنيَّة، ولا تصحُّ له[(٥)] نِيَّةُ القُرْبَةِ مع/ اعتقاده أنه[(٦)] يندم غدًا. ١ [٨١/أ]

وأمَّا الإقتار: فهو حَبْسُ المال عن حقوق الله تعالى، أو عن الصدقة التَّطَوُّعِ؛ لابتغاء ثواب الله.

فأمَّا التضييق على النفس عن الشهوات لتَتَعَوَّدَ الاجْتِزَاءَ باليَسِيرِ فليس ذلك بإقتار[(٧)].

واختلف الناسُ هل يَفْعَلُ ذلك على الدوام؟

فمَذْهَبُ الصوفية أن يفعله على الدوام؛ حتَّى يَنْحُلَ بَدَنُه، ويَضْعُفَ جِسْمُه، ويَقِفَ على جِلْفِ الخبز والماء، لا يزيد عليه، «وقد كان أَحَدُ بَنِي الزُّبَيْرِ يمشي على سوق الفاكهانِيِّين؛ فإذا رأى الحُمْرَةَ والصُّفْرَةَ والخُضْرَةَ جسَّها بيده وشمَّها، وقال: موعدي وإياك الجنة»[(٨)].

---

(١) قوله: «من القسم الثالث. فأمَّا ما يتعلَّق بها» سقط من (س)، وفي (ص) و(د): به.

(٢) في (ل): من، في.

(٣) في (س): فإذا.

(٤) في (س) و(ز): بنفسه.

(٥) سقطت من (س).

(٦) في (س) و(د) و(ص) و(ز): أن.

(٧) لطائف الإشارات: (٢/٦٥٠).

(٨) لم أهتد إلى موضعه في كتب الأثر.

ولم يَسْلُكِ النبي ﷺ ولا الصحابة[1] هذا المسلك، ولكنه يُشْبِهُ أن يكون هذا زمانَه لمن أطاقه؛ لغلبة الحرام على الأرض، فتكون غلبة الحرام على الأرض الآن مُوجِبَةً عليه قَوْلَ[2] النبي ﷺ: «حَسْبُ ابن آدم لُقيمات يُقِمْنَ صُلْبَه»[3]، كما جاء في الخبر عنه ﷺ.

السَّادسة: قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اَللَّهِ إِلَٰهاً ـاخَرَ﴾ [الفرقان:٦٨]

قال الفُقَرَاءُ: «إن كان المراد به الأصنام في الظاهر، فإنه تنبيه على أن لا يَسْكُنَ أحدٌ إلى غير الله في نَفْعٍ أو دَفْعٍ؛ لأنه قد أَمَرَ الله رَسُولَه أن يَتَبَرَّأَ من نَفْعِ نَفْسِهِ وضَرِّهَا، فكيف أن ينفع غيره»[4].

وإنَّ قَطْعَ العلائق بين القلب وبين غير الله لَمِنْ أَوْجَبِ الواجبات، ولكن هذا هاهُنا[5] تَنْبِيهٌ بعيدٌ قد وقع التصريحُ به في موضعٍ آخَرَ.

السَّابعة: قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَقْتُلُونَ اَلنَّفْسَ اَلتِي حَرَّمَ اَللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان:٦٨]

قَتْلُ النَّفْسِ يكون بوُجُوهٍ:

منها: قَتْلُ العَدَاءِ، وهو: القَصْدُ إلى الإتلاف على معنى التشفي والانتقام.

---

(١) في (س): وأصحابه.

(٢) في (س): قال.

(٣) تقدَّم تخريجه في السِّفر الأوَّل.

(٤) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٦٥٠).

(٥) في (د): هذا هنا.

ومِنْ قَتْلِ المؤمن إِذَايَتُه، قال النبي ﷺ: «لَعْنُ المؤمن كقتله»[(١)].
وأَخْذُ ماله قَتْلٌ له.
وتَنْكِيدُ عيشه بالهموم والغموم قَتْلٌ له؛ فإنَّ الكاسفَ البال مَيِّتٌ.
وسجنُه قَتْلٌ له؛ فإن المسجون مَعْدُودٌ في جُمْلَةِ الموتى.
ومن المُحَرَّم قَتْلُه لنَفْسِه بتركها مُخَلَّاةَ العِنَانِ مع هواها، سالكةً سَبِيلَ شهوتها؛ فإنها سيئة الاختيار، أَمَّارَةٌ بالسُّوءِ، والسَّفِيهُ إذا لم يُنْهَ مَأْمُورٌ.
ثم قال تعالى: ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾، وقَتْلُكَ نَفْسَكَ بالحَقِّ: أن تقمعها عن الشهوات، وتصرفها عن المخالفات، وتردَّها إلى الصراط المستقيم، وتأخذها بقانون الدِّين، وفي الأثر: «الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أَتْبَعَ نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني[(٢)]»[(٣)].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨]

هو أَلَّا يسعى بقَدَمٍ، ولا يَلْمَسَ بجارحة، ولا يُقَبِّلَ، ولا ينظر، ولا يستمع إلى ما لا يَحِلُّ له، مع القُدْرَةِ على ذلك والتمكن منه، من غير تَقِيَّةٍ إلَّا من الله، وهذه المَنْزِلَةُ ما عَلِمناها ثَبَتَتْ لأَحَدٍ إلَّا ليُوسُفَ صلوات الله عليه؛ لأن امرأة العزيز دَعَتْه، / ولَمَسَتْهُ، وقَطَّعَتْ عليه ثَوْبَه، فما أَصْغَى ولا نَظَر، وولَّى عنها وأَدْبَر، بعد أن حدَّثته نفسُه المُتَمَنِّيَةُ بما لا يستطيع البَشَرُ ردَّه عن أنفسهم، فلم يُتْبِعِ الهَمَّ الهَمَّ، وقَطَعَه وما تَمَّ، وخاف مولاه، [٨١/ب]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن ثابت بن الضحَّاك ﷺ: كتاب الأدب، باب ما ينهى من السِّباب واللعن، رقم: (٦٠٤٧-طوق).
(٢) سقطت من (س) و(د) و(ص) و(ز).
(٣) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٢٤٥٩-بشار)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن».

وأَكْرَمَ من أَكْرَمَ مَثْوَاه، وحَفِظَ المروءة والدِّيَانَة، وصار ما كان مُدَّخَرًا له عند الله من النُّبُوَّةِ والمَكَانَة، وبه سُمِّيَ الصِّدِّيقَ؛ فإنه اتَّفق قولُه وفِعْلُه واعتقادُه على الطاعة، وما خالف قَطُّ مولاه في ساعة، كما أخبر سبحانه عنه، وهو الصَّادِقُ المَقَالِ، الكَرِيمُ الفِعَالِ[١]، الكَبِيرُ المُتَعَال.

قال الإمام الحافظ أبو بكر[٢] رضي الله عنه: هؤلاء الذين جمعوا هذه الصفات الأمهات هم الذين وَصَلُوا إلى رحمته بطاعته، التي كانت ابتداء رحمته، فبرحمته وصلوا إلى رحمته، وكانوا في مُتَعَلَّقِ ما وصفهم[٣] الرحمن به[٤] من صفاته بلسان الحقيقة والشريعة، وهم الذين يقال لهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف:٦٨ - ٦٩]، طلبوا السَّلَامَةَ من كل جهة فكَمَلَتْ لهم علائقها، وحصلت عندهم متعلَّقاتُها، فاستحقُّوا النعيم الدائم والفوز الأكبر بعملهم[٥] الذي هو من جُمْلَةِ رحمة مولاهم، قال النبي ﷺ: «لن يدخل أَحَدٌ منكم الجنة بعمله، قيل له[٦]: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمة منه وفضل»[٧].

---

(١) في (س): الفعَّال.

(٢) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، وفي (ل): قال الإمام.

(٣) قوله: «ما وصفهم» سقط من (د) و(ص) و(ل).

(٤) سقطت من (س) و(ص).

(٥) في (س) و(ص) و(ز): لعملهم، وضعَّفها في (ل).

(٦) سقطت من (س) و(ز).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، بابٌ لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله، رقم: (٢٨١٦-عبد الباقي).

نكتة:

قال الله لرسوله: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٠]، نَزَلَتْ في قَوْمٍ أَنَابُوا، لكنَّهم قدَّموا الإشراك والقتل والزنا، وأنواع المعاصي والخطيئات، فخافُوا أن لا يُقْبَلُوا، فبذلك المِقْدَارِ من الإنابة قيل لهم: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾، يعني: بالتوبة، وذلك قَوْلُه بعَقِبِ هذه الصفات: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحاً فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الفرقان:٧٠].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماً﴾ [الفرقان:٧٢]

أَخْبَرَ الله عنهم أنهم لا يحضرون مَجْلِسَ باطل، ولا يُقِيمُونَ بِمَشْهَدِ زُورٍ، فإن مرُّوا به وصادفوه من غير قَصْدٍ مَرُّوا به كِرَامًا عنه، يعني: مُعْرِضِينَ.

قال الإمام الحافظ[١] **أبو بكر** رضي الله عنه: إذا لم يَقْدِرُوا على تغييره كانت كرامتُهم كراهيتَه، وإذا قَدَرُوا على تغييره كانت كرامتُهم تغييرَه.

وحقيقة اللَّغْوِ: ما لا فائدة فيه، وقد يكون فيه فائدة[٢] مُضِرَّةٌ[٣]، فإن

---

(١) في (س): قال الإمام الحافظ القاضي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ، وفي (ز) و(ل): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.

(٢) في (د) و(ص): آفة.

(٣) سقطت من (س) و(د) و(ص) و(ز).

١ لم يكن فيه فائدة فكرامتُهم تَرْكُه، وإن كانت فيه فائدة[١] مضرة - وهذه حقيقته[٢] - فكرامتُهم تَغْيِيرُه/. [٨٢/أ]

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣]

القُلُوبُ مَجبُولَةٌ على الغَفْلَةِ، مُفْتَقِرَةٌ إلى الذِّكْرِ، فإذا ذُكِّرَتْ فلا يخلو أن تَمُجَّ الذِّكْرَى، وتقول: قلوبنا في أَكِنَّةٍ، وفي آذننا وَقْرٌ، ولا نرى ممَّا تقول شيئًا، ويقولوا[٣]: سمعنا وهم لا يسمعون، فهذان على حُكْمِ الهَلَكَةِ، وإن قالوا: سمعنا وأطعنا، واعتبروا وتفكَّروا، واحتملُوا واعتملُوا بما عَلِمُوا؛ فهُم المُراد هاهُنا.

الحادية عشرة[٤]: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان:٧٤]

قال الإمام الحافظ أبو بكر[٥] رضي الله عنه: هذا يَدُلُّ على فَضْلِ النِّكَاحِ على العُزُوبَةِ، وأنَّ من صفات العابد الزوجية وطلب الولد؛ لبقاء العمل بدُعائه

---

(١) قوله: «فكرامتهم تركه، وإن كانت فيه فائدة» سقط من (س).

(٢) في (د) و(ص): حقيقة.

(٣) في (د): يقولون.

(٤) في (س) و(د) و(ص) و(ز): عشر.

(٥) في (د): قال الإمام الحافظ القاضي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، وفي (ل): قال الإمام رحمه الله.

بعده؛ وطاعته ودُعائه له، فإنَّ ذلك يَجْرِي له ثوابُه كلُّه بعد موته، وقد تقدَّم فَضْلُ ذلك[١] في «قِسْمِ المقامات»[٢].

وقُرَّةُ العَيْنِ: هي أن تَسْكُنَ عينُه على الزوجة والولد، فلا يتعدَّى إلى أَحَدٍ غيرهما؛ بما يَرَى فيهما من الخصال المطلوبة والحقوق القائمة.

الثانية عشر: قوله: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ [الفرقان:٧٤]

سَأَلُوه[٣] في أن تدوم لهم هذه الصفاتُ إذا حَصَلَتْ، ويشاهدُها غيرُهم إذا فُعِلَتْ، فيكونون لهم قدوة، ويجري لهم ثوابُ اقتدائهم بهم إلى يوم القيامة، قال النبي ﷺ: «من سنَّ سُنَّةً حسنة في الإسلام كان له أجرُها وأَجْرُ من عَمِلَ بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن سَنَّ سُنَّةً سيئة كان عليه وزرُها ووِزْرُ من عَمِلَ بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا»[٤].

تَكْمِلَةٌ:

قال أَهْلُ الزُّهْدِ: ولمَّا عدَّد الله هذه الأعمال ونبَّه على هذه الصفات وأَخْبَرَ بجزائها؛ صَغَّرَه وما أَعْظَمَه، وقَلَّلَه وما أكثره، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان:٧٥].

ومن يَقْدُرُها قَدْرَها أو يَعْرِفُ[٥] وَصْفَها أو يُحْصِي فَضْلَها؟

---

(١) في (س) و(ز): النكاح.

(٢) ذَكَرَ ذلك في المقام الأوَّل، وهو مقام الحياة الدنيا، من السفر الأوَّل.

(٣) في (س) و(د) و(ص) و(ز): سألوا.

(٤) تقدَّم تخريجه.

(٥) في (س) و(ز) و(ف): ويعرف.

وبفَضْلِه عَظَّمَ ضِيَافَةَ إبراهيمَ الخليل عليه السلام[١] للملائكة، قال: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات:٢٦].

ثم ذَكَرَ حال من يَسْكُنُ الغُرْفَةَ وبيَّنها[٢] فقال: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٧٥]، يعني بالتحية: المَلَكَ.

وقيل: البشرى والبشاشة، والبِرَّ والكرامة.

ويُسْمِعُهم كلامَه بغير واسطة، ويُريهم نفسه، فيتجلَّى[٣] لهم من غير تَكَلُّفِ نَقْلٍ ولا قَطْعِ مَسَافَةٍ، ولا ضَيْمٍ ولا ضَمٍّ[٤]؛ قَطَعُوا المسافة بالهجرة إليه نُصْرَةً لرسول الله ﷺ، وجهادًا لأعداء الله، وقصدًا إلى بيت الله، ومَشْيًا بالخُطَى لعمارة مساجد[٥] الله، ولعيادة مريضٍ ابتغاء ثواب الله، والصلاة على مَيِّتٍ/ رجاءَ رحمة الله، وزيارة أَخٍ صِلَةً[٦] لوَجْهِ الله، فاليوم يُجْزَى بأن يلقاه ربُّه في مكانه، ولا يتكلَّف لذلك عملًا[٧] ولا مؤونة، فيُسمعه قوله[٨]، ويُريه نفسه، وهذا لا تكافيه الدنيا ولا الآخرة، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس:٥٨].

[٨٢/ب]

---

(١) قوله: «الخليل عليه السَّلام» لم يرد في (ل) و(د) و(ص).

(٢) في (س) و(ص): ثم بيَّن سكن الغرفة وبيتها، وفي (د): بيَّن سكن الغرفة وبينها، ومرَّضهما في (ل)، وفي طرة بـ (د) إشارة إلى ما أثبتناه.

(٣) في (س): ويتجلى.

(٤) في (د) و(ص): ولا ضم ولا ضيم.

(٥) في (س): مسجد.

(٦) في (س): لصلة، وفي (ص): يصله.

(٧) في (د): يُتكلف لذلك عمل.

(٨) في (س): كلامه.

وقـد قـال الله تعـالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [النور:٣٢]، وهذا يشهد لما عَضَدْنَاهُ من نكاح العابد والصالح، ويُبَيِّنُ أن نكاحه سَبَبٌ لغناه وسَعَةِ رزقه.

وعَبْدُك هو الذي لا يخدم إلَّا لك، ولا يتصرَّف إلا بأمرك، ولا يرجو سواك، قال النبي ﷺ: «إن الله أمر يحيى بن زكرياء بخَمْسٍ كلمات ليعمل بها، ويَأْمُرَ بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد يُبْطِئُ[١] بها، فقال[٢] عيسى: إن الله أَمَرَكَ بخمس كلمات لتعمل بها، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخْسَفَ بي أو أُعَذَّبَ، فجمع الناسَ في بيت المقدس، فامتلأ المسجد وقَعَدُوا على الشُّرَفِ، فقال: إنَّ الله أمرني بخَمْسٍ كلمات أن أعمل بِهِنَّ، وآمرُكم أن تعملوا بهن؛ أَوَّلهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مَثَلَ من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذَهَبٍ أو وَرِقٍ، فقال: هذه داري، وهذا عملي، فاعْمَلْ وأَدِّ إِلَيَّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سَيِّدِه، فأيكم يرضى أن يكون كذلك؟ وأنَّ الله أمركم بالصلاة، فإذا صلَّيتم فلا تلتفتُوا، فإنَّ الله يَنْصِبُ وَجْهَه لوَجْهِ عَبْدِه في صلاته ما لم يلتفت، وآمركم بالصيام، فإن مَثَلَ ذلك كمَثَلِ رَجُلٍ في عصابة مَعَهُ صُرَّةٌ فيها مِسْكٌ، وكلهم يَعْجَبُ أو يُعْجِبُه ريحُها، وإنَّ رِيحَ الصائم عند الله أَطْيَبُ من ريح المِسْكِ، وآمرُكم بالصدقة، فإن مَثَلَ ذلك كمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العدو

---

(١) في (س): أن يبطئ.

(٢) في (س): فقال له.

فأَوْثَقُوا يَدَهُ إلى عُنُقِه، وقدَّموه ليضربوا عُنُقَه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل وبالكثير، ففَدَى نفسَه منهم، وآمرُكم أن تذكروا الله، فإنَّ مَثَلَ ذلك كمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ في أَثَرِه سِرَاعًا[١]، حتَّى أتى على حِصْنٍ حَصِينٍ فأَحْرَزَ نَفْسَه منهم، كذلك العَبْدُ؛ لا يُحْرِزُ نفسه من الشيطان إلَّا بذكر الله.

قال النبي ﷺ: «وأنا آمركم بخَمْسٍ التي أمرني الله بِهِنَّ؛ السَّمع والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإن[٢] من فارق الجماعة قِيدَ شِبْرٍ[٣] فقد[٤] خَلَعَ رِبْقَ[٥] الإسلام من عنقه، إلَّا أن يراجِع، ومن ادَّعى دعوى الجاهلية فإنه[٦] من جُثَى[٧] جهنم، فقال رجل: يا رسول الله[٨]، وإن صلى وإن[٩] صام؟ قال: وإن صلى وإن[١٠] صام، فادْعُوا بدَعْوَى الله الذي[١١] سمَّاكم المسلمين/ المؤمنين عبادَ الله»[١٢]. [٨٣/أ]

---

(١) في (د): مُسْرِعًا.

(٢) في (د): فإنه.

(٣) في (ل) و(د) و(ص): شبرًا.

(٤) سقط من (س).

(٥) في (س) و(د): زِيق، وزِيقُ القميص: ما أحاط بالعنق منه، تاج العروس: (٢٥/٤٢٩).

(٦) سقط من (س).

(٧) في (س): الحُثَى، والجُثَى: التراب المجموع.

(٨) قوله: «يا رسول الله» لم يرد في (س).

(٩) لم ترد في (س) و(د) و(ص) و(ز).

(١٠) لم ترد في (س) و(د) و(ص) و(ز).

(١١) في (س) و(د).

(١٢) أخرجه الترمذي في جامعه عن الحارث الأشعري رضي الله عنه: أبواب الأمثال عن رسول الله ﷺ، بابُ ما جاء في مثل الصيام والصلاة والصدقة، رقم: (٢٨٦٣-بشار).

قال الإمام الحافظ أبو بكر[١] رضي الله عنه: هذا حَدِيثٌ[٢] صَحِيحٌ مَلِيحٌ، جمع أُصُولًا عظيمة من «القِسْمِ الرابع»[٣]، وفيه من «القِسْمِ الأوَّل»[٤]: أنَّ كبائر الذنوب تَرْجَحُ الصلاةُ[٥] والصيام، وصاحبُها في المشيئة، والله أعلم[٦].

ولن يُوَفِّيَ العبدُ العبادة حقَّها حتى لا يبقى له مُبَاحٌ إلَّا يَرُدُّه[٧] بالنيَّة طاعةً، فيأكل ويشرب ليَعْبُدَ، ويلبسُ ليَسْتُرَ عَوْرَتَه، ويأخذُ نفسَه في كلِّ أَمْرِهِ المُبَاحِ بأن يَقْصِدَ به وَجْهًا من الفَضْلِ والأَجْرِ.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «بَضْعُ الرَّجُلِ أَهْلَه صَدَقَةٌ، قيل له: أيقضي أحدُنا شهوته ويؤجر؟ قال: أرأيت لو وضعها في حرام، أليس يأثم؟ قالوا: نعم، قال: فكذلك يؤجر»[٨].

يعني: بما يَنْوِي من عِصْمَةِ نَفْسِهِ وأَهْلِه، وبِنَاءِ بَيْتٍ في الإسلام، ووَلَدٍ يَعْبُدُ الله[٩]، وغَيْرِ ذلك.

---

(١) في (د) و(ل): قال الإمام الحافظ، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.

(٢) في (س): هذا صحيح حديث مليح.

(٣) أي: قسم التذكير.

(٤) أي: قسم التوحيد.

(٥) في (د): بالصلاة.

(٦) قوله: «والله أعلم» سقط من (د).

(٧) في (س): ردَّه.

(٨) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم: (١٠٠٦-عبد الباقي).

(٩) قوله: «يعبد الله» سقط من (س).

وقد قال جبريل للنبي ﷺ: «ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إلَّا[١] تراه فإنه يراك»[٢]، فشَرَطَ في العبادة العِلْمَ باطِّلَاعِ المولى وعِلْمِه بالعَمَلِ ورؤيته له.

وبذلك يكون العَبْدُ «مُحْسِنًا».

* * * * *

---

(١) في (ف): فإن لم تكن.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، رقم: (٥٠-طوق).

المُحْسِنُ: وهو الاسمُ العاشر

قال علماؤنا[١]: الحَسَنُ[٢] في العربية عبارةٌ عن كل معنًى لا يتطرَّق إليه نَهْيٌ، ولا يتعلَّق به نَقْدٌ، ولا يؤخذ عليه عَيْبٌ، ولا يوجد فيه نَقْصٌ، وبقَدْرِ ما يَسْلَمُ من هذه المعاني يكون حُسْنُه، وقد تكون هذه الآفات مُؤَثِّرَةً في أَصْلِ العَمَلِ[٣]، وفي رُكْنٍ من أركانه، أو في شَرْطٍ من شرائطه، فيسقط جميعُه[٤]، وقد يكون في غيرها فيُحْتَمَلُ[٥]، وسيأتي ذلك مَبْثُوثًا في الكتاب كله[٦].

وقد ضَرَبَ جبريلُ عليه السلام[٧] لِلْوَجْهِ الذي يَحْسُنُ به العمل مَثَلًا؛ هو تنزيلُ العامل نفسَه أنَّ الله يراه، فإذا عَلِمَ ذلك لم يَرَهُ حيثُ نهاه، وإنما يكون التقصير بحسب التشكيك في اطلاع الله تعالى عليه، أو بحسب الغفلة

---

(١) بعده في (س) و(د) و(ص) و(ف): وهو الاسم العاشر: المحسن.

(٢) في (س) و(د) و(ص) و(ز) و(ف): هو، وضرب عليها في (ل).

(٣) في (د) - أيضًا -: في خـ: العلم.

(٤) قوله: «تكون هذه الآفات مُؤَثِّرَةً في أَصْلِ العَمَلِ، وفي رُكْنٍ من أركانه، أو في شَرْطٍ من شرائطه، فيسقط جميعُه» سقط من (ص).

(٥) في (س): فيحمل.

(٦) سقط من (س).

(٧) في (س) و(ف): للنبي ﷺ.

عنه، أو بتعجيز المَوْلَى(١)، أو بالتقحم على نقمته(٢)، أو بالاتكال على ما عُهِدَ من(٣) عفوه، فهذه خمسةُ وجوه لا سادس لها ينفصل(٤) عنها.

فأمَّا الشكُّ في اطِّلَاعِ المولى أو بتعجيزه(٥) عن الانتقام فكُفْرٌ(٦) لا يُغْفَرُ.

وأمَّا غيرها فمغفورٌ إذا شاء، إلَّا أن بعضها أَشَدُّ من بعض، والغفلة أخفُّها، ويليه الاتكال على عفوه، وأشدُّ هذا الأخف التَّقَحُّمُ رِضًى بالنقمة، ونعوذ بالله من سوء القضاء.

قال الإمام(٧) رضي الله عنه: ولا يَتِمُّ الإحسانُ إلَّا بأن يَنْتَظِمَ القَوْلُ والعَمَلُ؛ فلا ينطق إلَّا بما يفعل، ولا يأمر إلا بما يمتثل، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٢]. / [٨٣/ب]

وذلك في قَوْلٍ: «النبيُّون»(٨)، وهذا ما(٩) لا ريب فيه.

(١) في (س) و(ف): المولى له.
(٢) في (س): نفسه.
(٣) قوله: «ما عهد من» سقط من (س).
(٤) في (د) و(ز): تنفصل.
(٥) في (د) - أيضًا -: وبتعجيزه، وفي (س) و(ص) و(ف): أو تعجيزه.
(٦) في (س): فكفره.
(٧) في (د): قال الإمام الحافظ القاضي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، وفي (ل): قال الإمام الحافظ، وفي (ف): قال الإمام.
(٨) لطائف الإشارات: (٣٣١/٣).
(٩) في (س) و(د): ممَّا.

وقيل: «هُمُ الأئمة الذين يقتدى بهم»[١].

وقيل: «المؤذنون»[٢].

وقيل: «هو الذي لا يرى غير الله»، وسيأتي تمامُه إن شاء الله.

وقد قال الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

قال أهلُ الزهد: «خَلَقَ الله كل شيء فَذَكَرَهُ، ثمَّ عَطَفَ من جملة ما خلق على تَحْسِينِ الإنسان دون سائر الأعيان، وكذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]»[٣].

قال: أنا[٤] أبو الحُسَين الأَزْدِي الصُّوفي[٥] قال: أنا[٦] أبو بكر بن ثابت الحافظ قال: أنا[٧] أبو محمد الحسن الخلَّال: «حملني أبي إلى بعض شيوخ الصوفية ليدعُوَ لي، فقال لي: ما اسمك؟ قلت له: حسن، قال: إن الله قد حَسَّنَ اسمك فحَسِّنْ فِعْلَك»[٨].

---

(١) لطائف الإشارات: (٣/٣٣١).

(٢) لطائف الإشارات: (٣/٣٣١).

(٣) لطائف الإشارات: (٣/٣١٤).

(٤) في (س) و(د) و(ص) و(ف) و(ز): لنا.

(٥) هو الإمام الحافظ المبارك بن عبد الجبَّار الصيرفي، عُرِف بابن الطُّيُورِي، تقدَّم التعريف به في السِّفْرِ الأوَّل.

(٦) في (س) و(د) و(ص) و(ف) و(ز): لنا.

(٧) في (س) و(د) و(ص) و(ف) و(ز): لنا.

(٨) تاريخ بغداد: (٢/٩٧).

قال الحافظ أبو بكر[١] رضي الله عنه: ولعائشة رضي الله عنها كَلَامٌ ذكره البخاريُّ عنها، هو خاتمة الباب وفِقْهُ المسألة، أَدْرَكَتْهُ بفضل علمها: «إذا أَعْجَبَك حُسْنُ عَمَلِ امرئٍ فقل له: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٦]»[٢].

يراه الله مُشَاهَدَةً وإِحَاطَةً، ويراه النبيُّ والمؤمنون ظاهرًا، فيحكمون له بحُكْمِ الظاهر، ومَرَدُّه إلى الله، فينبئكم أجمعين بخفاياه وبواطنه، وعليه يقع المجازاة[٣].

وقال أحمد عن ابن مسعود: «الناس كلهم قد أحسنوا القول، فمن وافق قولُه فِعْلَه فذلك الذي أصاب حظَّه، ومن خالفه فإنما يُوتِغُ[٤] نفسَه»[٥].

وإذا فَهِمْتَ الإحسان فهو الإخلاصُ[٦] بعينه[٧]، أو قُلْ: فائدتُه.

---

(١) في (د): قال الإمام الحافظ القاضي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، وفي (ل): قال الإمام، وفي (ف): قال أبو بكر.

(٢) ذكره البخاري في صحيحه مُعَلَّقًا: كتاب التوحيد، باب قوله الله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾.

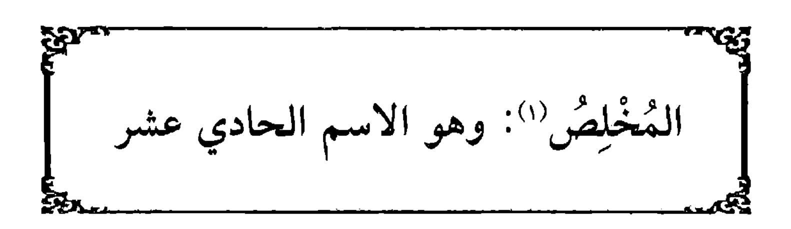
(٣) في (س) و(ف): الجزاء.

(٤) في (د) و(س) و(ص) و(ف) و(ز): يوبخ، ومرَّضها: وفي (د)- أيضًا -: في خـ: يرتع، وفي طرة بـ (ل): يُوتِغ: أي: يَهلك، يقال: وَتِغَ الرجل وتغًا: هَلَكَ.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في الزهد: (ص٢٠٠).

(٦) في (د): في خـ: المخلص، وبعده في (ل): به، وضرب عليها في (د).

(٧) في (س) و(ف): نفسه.



المُخْلِصُ[١]: وهو الاسم الحادي عشر

فإنَّ كلَّ[٢] عَمَلٍ خَلُصَ من الآفات فهو حَسَنٌ، ولا يكون حَسَنًا حتى يكون خَالِصًا لم يَشُبْهُ ما يُكْرَهُ.

قال الله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل:٦٦].

يعني: ليس فيه شَوْبٌ ممَّا جاوره، وهو حَسَنُ اللَّوْنِ، حَسَنُ الرَّائِحَةِ، حَسَنُ الطَّعْمِ[٣]، فكلُّ خالص حَسَنٌ، وكلُّ حَسَنٍ خالصٌ[٤]؛ عُمُومًا في الوجوه كُلِّها أو خُصُوصًا[٥].

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣]، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١١]، وهو قَوْلُ النبي ﷺ للذي سأله: «قل: آمنت بالله، ثم استقم»[٦]، فإن الاستقامة هو استفعالٌ من قام، وهو العَمَلُ بحدود

(١) سقط من (س) و(د) و(ص) و(ز) و(ف).

(٢) في (ص): كان.

(٣) في (س): المطعم.

(٤) بعده في (س) و(ف): كله.

(٥) ينظر: قانون التأويل: (ص٣٨٠-٣٨٣).

(٦) تقدَّم تخريجه.

الله دائمًا، وهو قَصْدُ السبيل، وهو الذي قيل له ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود:١١٢]، وهذا خطابٌ له وللجميع؛ خصوصًا وعمومًا.

وقد اختلف الناسُ فيه بحَسَبِ مَوَاقِعِ «اسْتَفْعَلَ» في اللغة:

فقيل: معناه: سَلِ الاستقامة[١].

أي[٢]: أن يُقِيمَكَ الله على الحق.

وقيل/: معناه: أَقِمْ[٣] على ما أمرناك به. [٨٤/أ]

أي: داوم وواظب من غير إِخْلَالٍ بها[٤]، ولا انحراف عنها.

وقال أهل الزهد: «الاستقامةُ أَنَّ من سلك الطريق إلى الله لا ينحرف ولا يقف حتى يصل إلى الله، فإن وقف فلينظر ما أوقفه، وليجهَد في دفعه حتى ينفُذ، فإنه إن رجع هلك، وإن انحرف هوى[٥]، وربما أغوى، وإن وقف لم يُعذر».

وربما كان موقفُه غَيْرَ تَامٍّ ولا كافٍ، وكان أمامه ممَّا حُجِبَ عنه ما يَعْتَرِضُ عليه ويطلب منه، ومُوقَفه[٦] من الآفات سيأتي في بقية الأسماء والصفات إن شاء الله.

---

(١) لطائف الإشارات للقُشَيري: (٢/١٦٠).
(٢) سقطت من (س) و(د) و(ص) و(ز) و(ف).
(٣) في (د): في خـ: اقتصر.
(٤) سقطت من (س).
(٥) في (د): أهوى.
(٦) في (س) و(ف): مواقعه، وفي (د) و(ص): ومواقفه، ومرَّضها في (ل).

وقال لي[١] أبو الفضائل الصُّوفِي[٢]: قال لنا ابنُ هوازن شيخُ الطريقة: «المستقيم من لم يرجع عن طريق الله ولا انحرف عنها ما لم يصل إلى الله، ووصل سَيْرَه بسُراه، ووَرَعَه بتَقْوَاه، وبالغ في ترك هواه»[٣].

وقال أبو سعد[٤] الزنجاني[٥] عنه[٦]: «إن الاستقامة هي استقامة النفوس بنَفْيِ الشهوة، واستقامة القلوب بنَفْيِ الغفلة، واستقامة الأرواح بنَفْيِ العَلاقة[٧]»[٨].

---

(١) في (س): لنا.

(٢) هو أبو الفضائل بن طَوق، يروي ابنُ العربي من طريقه «لطائف الإشارات» للإمام القُشَيري، تقدَّم التعريف به في السِّفْرِ الأوَّل.

(٣) لطائف الإشارت للقشيري: (٢/١٦٠).

(٤) في (س) و(ف) و(ص): سعيد.

(٥) الإمام العلَّامة، محمد بن طاهر الزنجاني، أبو سعد الخراساني، نزيل بيت المقدس، أخذ عن إمام الحرمين، وأبي المظفر الإسفراييني، وأبي القاسم القُشَيري، روى ابنُ العربي عنه كتاب «الإرشاد» و«الشامل» و«البرهان» لأبي المعالي، وكتاب «الأوسط في الاعتقاد» لأبي المظفر، و«لطائف الإشارات» لأبي القاسم، لقيه ببيت المقدس عام ٤٨٧هـ، وأفاد منه، وروى عنه مجالسه في التفسير والفقه والتذكير، ونشر كثيرًا منها في كتابه هذا؛ «سراج المريدين»، ويظهر لي -والله أعلم- أنه من جملة من استُشهد عند دخول الصليبيين بيت المقدس عام ٤٩٢هـ، ويدل على ذلك نعتُ ابن العربي له بالشهيد، ينظر: قانون التأويل: (ص٩٧)، وفهرس ابن خير: (ص٣١٩).

(٦) سقطت من (س).

(٧) قوله: «بنفي العلاقة» سقط من (ز).

(٨) لطائف الإشارت للقشيري: (٢/١٦٠).

قال الإمام الحافظ أبو بكر[١] رضي الله عنه: هذه هي[٢] صفة محمد صلى الله عليه وسلم.

قَالَا[٣] في خبرهما فيما نحن فيه: «فاستقامة العابد أن لا يُؤْثِرَ نفسَه على العبادة، ولا يُخِلَّ بأدائها، بل يفعلها بعُسْرِها ويُسْرِها، واستقامةُ الزاهد أن لا يرجع إلى الدنيا، بل ينبذ قليلَها وكثيرَها[٤]، واستقامةُ التائب ألَّا يُلِمَّ بعد التوبة بذنب»[٥].

قال الإمام أبو بكر[٦] رضي الله عنه: والفائدةُ العُظْمَى قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود:١١٣]، في وجه اتصال[٧] نَظْمِها بما قبلها، وقد أفضنا في ذلك في «أنوار الفجر» بكَثِيرٍ، وبيَّنَّا ما فيها من القليل والكثير.

والمقدارُ الذي يتعلق بهذه الاستضاءة: النَّهْيُ عن تعلق القلوب بحَالٍ غير ما بيَّنَّاه، فلا يَتَعَلَّقْ لِلْعَابِدِ قَلْبٌ بحال المُهْمِلِ، ولا الزَّاهِدِ بحال

---

(١) في (د): قال الإمام الحافظ القاضي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ، وفي (ز) قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، وفي (ل): قال الإمام رحمه الله.

(٢) سقطت من (س) و(ص) و(د) و(ف) و(ز).

(٣) أي: ابن طوق والزنجاني، فيما يرويانه عن الإمام القشيري.

(٤) بعده في (س) و(ص) و(ز) و(ف): «كما روي»، وضرب عليه في (د)، وبعده بياض في (د) و(ز).

(٥) لطائف الإشارت للقشيري: (٢/١٦٠).

(٦) في (د): قال الإمام الحافظ القاضي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ، وفي (ز) قال الإمام أبو بكر بن العربي، وفي (ل): قال الإمام رحمه الله.

(٧) في (س): اتصالها بما قبلها.

المُنْهَمِكِ[١] في الدنيا، ولا التَّائِبِ[٢] بحال العاصي، فيرى كلَّ وَاحِدٍ[٣] من أهل الخير المتقدمين أَوَّلًا[٤] المُتَخَلِّينَ مع شهواتهم في حال سلامة ونعمة، وكرامة في الدنيا وعافية، فيتعلَّق لهم[٥] بهم قَلْبٌ، أو تكون لهم[٦] إليهم صُحْبَةٌ، فيَجُوزُوا[٧] بهم عن طريقهم، وتَفْسُدُ[٨] بهم أحوالهم، وتنفر منهم قلوبهم، يستأنسون بهم في الدنيا، وهم لا ينتصرون[٩] بهم في الأُخْرَى[١٠].

قال الإمام الحافظ أبو بكر[١١]: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت:٢٩].

قالوا: استقاموا في التوحيد فلم يشركوا[١٢]، واستقاموا على العلم فلم[١٣] يقلدوا، واستقاموا على الطاعة ولم يعصوا، فأمَّا من استقام ولم

---

(١) في (د): المنهمل.
(٢) في (د) و(ص): للتائب.
(٣) في (س) و(ف): أحد.
(٤) في (س): أو.
(٥) في (د) - أيضًا -: له.
(٦) في (د): له.
(٧) في (س) و(ص) و(ف): فيجُوزون، ومرَّضها في (ل).
(٨) في (س): وتُفْسِدُهم.
(٩) في (س): ينصرون.
(١٠) في (س): الآخرة.
(١١) في (د): قال الإمام الحافظ القاضي رضي الله عنه، وفي (ص): قال الإمام الحافظ رضي الله عنه، وفي (ز) قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي رضي الله عنه، وفي (ل): قال الإمام رحمه الله.
(١٢) في (س) و(ص) و(ز): يشكوا.
(١٣) في (س) و(د) و(ص): ولم.

١ يشرك فقد أَمِنَ من الخلود في النار بأصل الاستقامة، ويأمن من دخول النار [٨٤/ب] بكمال/ الاستقامة.

وقد كنت قَيَّدْتُ في ذلك كلمات مفيدات في الباب، وشرحناها مبسوطةً[1] في «أنوار الفجر»، ثم رأينا الآن في هذه الاستضاءة أن نُورِدَها مُجْمَلَةً بألفاظ مفسرة، تُلْمِحُ بالغرض منها، وتُلِيحُ على نهج الطريق إليها، وهي أربع[2]:

الأولى[3]: في قوله: ﴿ٱسْتَقَـٰمُوا﴾: استقاموا بصفاء عَقْدِهم فلم يُكَدِّرُوه، ووفاء عَهْدِهم فلم يَنْقُضُوه، لا سيما وقد وَكَّدُوه[4].

الثانية: استقاموا في قَصْدِهم بصِحَّةِ وُدِّهِم، رُوِيَ أن النبي ﷺ قال له رجل: «متى الساعة؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كبير عَمَلٍ؛ إلَّا أني أحب الله ورسوله، قال: المرء مع من أحب، قال راويه أَنَسٌ: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فَرَحَهم بهذا»[5].

الثالثة: استقاموا بحالهم، في وقتهم ومآلهم.

الرابعة: هُمُ[6] الذين أقاموا على طاعته، واستقاموا على معرفته، وعَقَدُوا على محبته، وقاموا بشروط خدمته، فكانوا أهلًا لجنته[7].

---

(١) في (س) و(ص) و(ز) و(ف): مبسوطًا.

(٢) في (س) و(ف): عبارات أربع، وفي (د) أربع عبارة، وفي (ص): عبارة العبادة.

(٣) قبلها في (س) و(د) و(ف): العبارة، ومرَّضها في (ل).

(٤) في (ص): وكروه.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم: (٢٦٣٩-عبد الباقي).

(٦) في (س) و(ز): وهم.

(٧) لطائف الإشارات للقشيري: (٣/٣٢٨).

ومن أوقع معنًى في الباب، ما قاله أهل اللباب - زائدًا على ما قدَّمناه في الباب -: إن الزاهد لا يستقيم إلَّا بأن لا يحرص ولا يفرح ولا يتمتع بجاه الدنيا؛ فإن الجاه مِلْكُ القلوب، والقلوبُ أشرف من الأموال، فالجاهُ أشرف معاني الغنى[١] وأفتنُها.

واستقامةُ المُتَعَبِّدِ بأن يَفِرَّ عن الرياء إِنْ فَعَلَ، ويجتنب الفترة إذا هَمَّ أن يترك.

واستقامةُ العَالِم أن لا يختلف قولُه وفِعْلُه، ولا يخلط عِلْمَه بالتوحيد بعِلْمِه[٢] بأحكام الدنيا، بل يَفِرُّ عنها كما فعل مالك ﷺ، وقد صُودِرَ على أن يَحْكُمَ ويُفْتِي ويُصْحَبَ فتفادى من الكلِّ، وأراد الخُمول فأظهره الله وقدَّمه، وقد رُوِيَ: «أنه وجَّه المهديُّ إليه لمَّا قَدِمَ المدينة بثلاثة آلاف دينار، ثم مضى وحجَّ، فلمَّا قَفَلَ وجَّه إليه الرَّبِيعَ وقال: إن أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام، ويقول لك: تُعَادِلُه إلى مدينة السَّلَام، فقال له: أقرئه السلام، وقل له: قال النبي ﷺ: «والمدينة خَيْرٌ لهم لو كانوا يعلمون»[٣]، والمالُ عندي على حاله»[٤].

ومع الإحسان - كما قُلْنَا - يكونُ الإخلاص، وهُوَ هُوَ، ولكنَّه يتخصَّص عن جميع ما تقدَّم بأنه مَعْنًى يوجدُ بالقلب، ويحصلُ في الباطن؛ فتظهرُ آثاره وهو كامن.

---

(١) في (س): المعنى.

(٢) في (س): علمه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم: (١٣٣٦- عبد الباقي).

(٤) الانتقاء لابن عبد البر: (ص٨٤)، وترتيب المدارك: (٢/١٠٠).

أخبرني[١] الحافظ أبو الفضل إسماعيل بن الفضل الأصبهاني[٢] بمكة، وكتبه لي بخطه، وأظنه كان ذلك في الكعبة، وأغلبُ ظنِّي أنه بالمسجد الحرام بقراءته علينا، وسألته عن الإخلاص فقال: نا الشيخ أبو بكر أحمد بن علي بن خلف، وسألته عن الإخلاص[٣]، قال: نا أبو عبد الرحمن السُّلَمِي، وسألناه عن الإخلاص قال: سمعت علي بن سعيد/ الثَّغْرِي وأحمد بن محمد بن زكرياء، وسألتهما عن الإخلاص، قالا: سمعنا علي بن إبراهيم الشَّقِيقِي، وسألناه عن الإخلاص، قال: سمعت محمد بن جعفر الخصَّاف، وسألته عن الإخلاص، قال: سألت أحمد بن بشَّار[٤] عن

١ [٨٥/أ]

---

(١) في (س): أخبرنا.

(٢) الإمام الحافظ، المحدث العلَّامة، قِوَامُ السنة، إسماعيل بن محمد بن الفضل القُرَشي التَّيْمِي، أبو الفضل الأصبهاني، عُرف بالجُوزِي، ومعناه -بلسان أهل أصبهان-: الطير الصغير، (٤٥٧-٥٣٥هـ)، من أعيان العلماء، ومن أكابر المفسرين، قال فيه أبو عامر العَبْدَرِي: «ما رأيت أحدًا قط مثل إسماعيل، ذاكرتُه فرأيتُه حافظًا للحديث، عارفًا بكل علم، متفننًا»، لقيه ابن العربي عام ٤٨٩هـ بمكَّة المعظَّمة، وكذلك ببغداد، وسمع منه وأفاد، وسمع منه «الأحاديث المسلسلة» من تأليفه، له من المصنفات الشيء الكثير، من أحفلها كتابه في التفسير، وسمَّاه «الجامع»، في ثلاثين مجلدًا، و«سير السلف»، و«الحجة في بيان المحجة»، و«الترغيب والترهيب»، وهذه الثلاثة منشورة، وله أيضًا: «شرح الصحيح»، حُقِّقَ في رسالة جامعية بالمغرب، وغير ذلك من الكتب والتواليف، ترجمته في: الأنساب: (٣٦٨/٣)، وسير النبلاء: (٢٠/٨٠-٨٨)، وينظر: القبس: (٨٠٧/٢).

(٣) قوله: «بقراءته علينا، وسألته عن الإخلاص فقال: نا الشيخ أبو بكر أحمد بن علي بن خلف، وسألته عن الإخلاص» سقط من (س).

(٤) في (س) و(د) و(ف): يسار، ومرَّضها في (ص).

الإخلاص ما هو[1]؟ قال: سألت أبا يعقوب الشَّرِيطِي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن غسَّان[2] عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن عطاء الهُجَيْمِي[3] عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت الحسن البصري عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حُذَيفة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت جبريل عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت ربَّ العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: «هو سِرٌّ من سِرِّي، استودعته قَلْبَ من أحببتُ من عبادي»[4].

قال لنا الحافظ أبو الفضل إسماعيل: «هذا حديث[5] غريب، ما كتبناه إلَّا من حديث الشيخ أبي عبد الرحمن السُّلَمِي، وقع لي عاليًا بحمد الله ومَنِّهِ».

وأنا أبو الفضائل بن طوق عن ابن هوازن: «قال البُوشَنْجِي: الإخلاص ما لم يكتبه الملكان».

---

(١) قوله: «ما هو» سقط من (د) و(ص).

(٢) في (س): عقيل.

(٣) في (د): الهجمي.

(٤) أخرجه ابن العربي - أيضًا - في مسلسلاته، ومن طريقه ابنُ الطيلسان في الجواهر المفصَّلات (ق٥/ب)، وأخرجه أبو القاسم القُشَيري في رسالته عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي: (ص٢٤٠)، وأورده الثعلبي في الكشف والبيان: (٢/٦)، وذكر الواحدي أنه حدَّثه به بإسناده مسلسلًا، البسيط: (٣/٣٦٨)، وهو حديث منكر، وينظر: فتح الباري: (٤/١٠٩)، والجواهر المكلَّلة للسَّخاوي: (ص٢٧٠).

(٥) قوله: «هذا حديث» سقط من (د) و(ص).

وقد دَخَلَ[١] مع حديثه حديثُ غيره.

قال الفُضَيْل: «العملُ من أجل الناس رياء، وترك العمل من أجلهم شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما[٢]»[٣].

وقال البُوشَنجي: «الإخلاص ما لم يكتبه الملكان، ولم يفسده الشيطان، ولا يطلع عليه الإنسان»[٤].

وهذا بابٌ من العلم الذي تصدَّينا له.

وقال رؤيم: «ألا يرى الفعل»[٥].

وقال حذيفة المرعشي[٦]: «هو أن يستوي الفعل ظاهرًا وباطنًا»[٧].

وقال أبو يعقوب المكفوف: «هو أن يكتم حسناته كما يكتم سيئاته».

وقال سهل: «هو الإفلاس».

وقال الدَّارَانِي: «للمُرائي ثلاث علامات؛ يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان مع الناس، ويزيد في العمل إذا مُدِحَ».

---

(١) في (ف): ذكر.

(٢) قوله: «أن يعافيك الله منهما» سقط من (س) و(ف) و(ز).

(٣) الرسالة للقشيري: (ص٢٤٠).

(٤) الرسالة للقشيري: (ص٢٤١).

(٥) الرسالة للقشيري: (ص٢٤١).

(٦) في (س): المرتعشي.

(٧) الرسالة للقشيري: (ص٢٤١).

وقيل: «الإخلاصُ ما يُقصد به الصدق، ويراد به الحق سبحانه»[(١)].

وقيل: «هو ما لا تشوبه الآفات، ولا يترخص فيه بالتأويلات»[(٢)].

وقيل: «هو ما سُتِرَ عن[(٣)] الخلائق، وصَفَا[(٤)] من العلائق[(٥)]»[(٦)].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، فقرر الإخلاص بالعبادة لأنه شرطها ووصفها، وروحها ومعناها.

وقال تعالى: ﴿أَلاَ لِلهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣].

وقال: ﴿إِلاَّ ٱلذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلهِ﴾ [النساء:١٤٥].

وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَداً﴾ [الكهف:١٠٥].

فأمركم[(٧)] سبحانه أن تعبدوه مخلصين له الدين، والإخلاص ألا يكون شيء من حركات العبد ولا من سكناته، في جوارحه ومفاصله، وكلامه

---

(١) الرسالة للقشيري: (ص٢٤١).

(٢) اللمع لأبي نصر السرَّاج: (ص٣٠٧).

(٣) في (د): من.

(٤) في (د): صُفِّيَ.

(٥) قوله: «وأنا أبو الفضائل بن طوق عن ابن هوازن .. وقيل: هو ما سُتِرَ عن الخلائق، وصَفَا من العلائق» سقط من (ص).

(٦) الإحياء: (ص١٧٥٢).

(٧) في (د) - أيضًا -: وأمرهم.

وسكناته؛ إلا لله، مُصَفًّى من الخلل، حَنِيفًا إلى الحق، بعيدًا[١] من الباطل، غير خارج عن سَنَنِ الحق، وحينئذ يكون/ لله؛ كما قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، وقد قال الله: «إني لا أقبل عَمَلًا أُشْرِكَ معي فيه أَحَدٌ[٢] غيري، أنا أغنى الأغنياء عن الشريك»[٣]. [٨٥/ب]

وأمَّا إن قَصَدَ به دُنْيَا فإنَّه لم يكن لله حتى يُقال فيه: إنه إخلاص[٤]، ولكنه كما قال النبي ﷺ عن القارئ: «يقال له: كذبت، بل أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قِيلَ»[٥].

وربَّما قَصَدَ ذلك ولم يَجْرِ[٦] ذلك على أَلْسِنَةِ الناس، بل يكون مُحَقَّرًا فيهم، فهذا قد خَسِرَ الدنيا والآخرة، ومن كان يرجو لقاء ربه ليَصِلَ إلى رؤيته وثوابه ورضاه في جواره فليُصْلِحْ عملَه وليُخْلِصْ قصدَه.

وأمَّا قوله: ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، أي: استوى ظاهرُهم وباطنُهم ليزول عنهم نفاقُهم، والله أعلم.

وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم:٥١]، قُرِئَ بفتح اللَّام، يشهد له قوله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه:٤١]،

---

(١) سقطت من (د).

(٢) سقط من (س) و(ص) و(ز) و(ف).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم: (٢٩٨٥-عبد الباقي).

(٤) في (د) و(ص) و(ز): خالص.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، رقم: (١٩٠٥-عبد الباقي).

(٦) في (س): يجد.

وقرئ بكَسْرِ اللَّام، وهو بهما جَمِيعًا: أَخْلَصَهُ الله وأَخْلَصَ لله، لم يكن فيه لغير الله حَظٌّ، ولا أخذته في الله لومة لائم، ولا استفزه طَمَعٌ على إيثار حَظٍّ على طاعته[١]، ولم يُغْضِ في الله على شيء، حتى إن مَلَكَ الموت لمَّا جاءه - دون المقدمة التي كانت بينه وبين الله - صَكَّهُ ففَقَأَ عينَه[٢].

ومن أراد[٣] غَيْرَ الله مُطْلَقًا بعمله كله أو بعض[٤] عمله دَخَلَ في الحديث الصحيح عن عائشة ﵂: أن معاوية كتب إليها لتكتب له[٥] بما سمعت من رسول الله ﷺ، فكتبت إليه بفِقْهِها وثاقب فَهْمِها وعظيم عِلْمِها: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله إليهم، ومن التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس»[٦].

وما كان أحوج معاوية إلى هذه الوصية! فإنه كانت له فَضْلَةُ حِلْمٍ تَسَعُ أخلاق الناس؛ فخَشِيَتْ عليه أن يَنْسَحِبَ حِلْمُه على مسامحةٍ فيما لا يجوز، فما نبَّهت منه غافلًا، ولا ذَكَّرَتْ نَاسِيًا، ولقد ساد وساس، حتَّى وَجَدَ الناسُ فَقْدَه، ولم يَجِدُوا بعده مثله[٧]، فإيَّاكم ثم إيَّاكم أن تسمعُوا فيه قَوْلَ المؤرخين! فهُم عن الحَقِّ جِدُّ نَاكِبِينَ.

---

(١) في (د) و(ص): طاعة.

(٢) تقدَّم تخريجه في السفر الأوَّل.

(٣) في (د) و(ص): وهو إذا أراد.

(٤) في (د): ببعض.

(٥) في (د) و(ص) و(ز): إليه.

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، بابٌ منه، رقم: (٢٤١٤-بشار).

(٧) في (د) و(ص) و(ز): مثله بعده.

وإذا عَلِمْتُم هذه المقدمة بجميع معانيها في هذا الاسم، وتحقَّقتم أنه سِرٌّ لا جَهْرٌ، ومن قَبِيلِ أعمال القلوب لا من اكتساب الجوارح، فتحقَّقوا أنَّ عنه تَنْشَأُ الأفعال، وعليه ينبني عَمَلُ الجوارح.

وفي «مصنف عبد الرزاق»: وذكر في الجامع عن أبي هريرة قال: «القَلْبُ مَلِكٌ وله جنوده، فإذا أَصْلَحَ الله الملك صَلَحَتْ جُنُوده[(١)]، وإذا أَفْسَدَ[(٢)] الله المَلِكَ فَسَدَتْ جنوده، الأُذُنَانِ قِمْعٌ[(٣)]، العينان مَسْلَحَةٌ[(٤)]، اللسان تُرجمان، اليدان جناحان، الرجلان بَرِيدٌ، الكَبِدُ رحمةٌ، الطِّحَالُ ضَحِكٌ، الرئة نَفَسٌ، / فإذا صَلَحَ المَلِكُ صَلَحَتْ جنوده، وإذا فَسَدَ الملك فَسَدَتْ جنوده»[(٥)]. [٨٦/أ]

وهذا لا يُحتاج إليه مع كلام النبوَّة ويَنْبُوعِ الحكمة، قال محمَّد ﷺ: «ألَا وإنَّ في الجسد مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[(٦)].

ويليه اللسان؛ وهو تُرْجُمَانُه، فإذا اتَّفقَا في قَصْدٍ حَسَنٍ انتظم الأمرُ واطَّرَدَ الخَيْرُ، وإذا اضطربَا اختلَّ الكُلُّ جملة وتفصيلًا.

---

(١) في (د) و(ص) و(ز): جنود.

(٢) في (د): فسد الملك.

(٣) ينظر تاج العروس: (٨٢/٢٢).

(٤) المَسلحة: هي موضع كالثغر أو المَرْقَبِ، يكون فيه أقوام يرقبون العدو لئلَّا يطرقهم على غفلة، تاج العروس: (٤٧٩/٦).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه: كتاب الجامع، بابُ القلب، رقم: (٢٠٣٧٥).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم: (٥٢-طوق).

وفي الحديث: «إذا أصبح ابنُ آدم كَفَّرَتْ أعضاؤه اللسان، تقول له: اتق الله فينا، فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعْوَجَجْتَ اعوججنا»[١]، وقد بيَّنَّا حقيقة هذا المَثَلِ في كتاب «قانون التأويل»[٢] فليُطْلَبْ فيه.

بديعة:

والأَفْعَالُ وإن كانت تصدر[٣] عن إشارة القلب، ومُرَكَّبَةً[٤] على المعاني القائمة به؛ فإنها تؤثر في إدامة حال القلب إذا تصرَّفت على مقتضى صَدَرِها[٥] منه، فإن كان في الخير فهي عادة، وإن كان في الشر فهي لجاجة، ألا ترى إلى عظيم تأثير السجود في تأكيد خضوع القلب، ويَعْضُدُ هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وسيأتي بيان ذلك في اسم «المُصَلِّي» إن شاء الله.

تحقيق: [في حقيقة النية]

ولمَّا كان حال الأعمال تنبني[٦] على القلب وتَصْدُرُ عن المعاني القائمة به؛ نبَّه النبي ﷺ على[٧] الحقيقة فيه فقال: «الأعمال بالنيات،

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم: (٢٤٠٧-بشار)، ورجَّح أبو عيسى وَقْفَه.

(٢) قانون التأويل: (ص١٦٦).

(٣) في (س): صادرة.

(٤) في (د): وهي مركبة.

(٥) في (ص) و(س): صدره.

(٦) في (د): ينبني.

(٧) في (د): عن.

ولكل امرئ ما نوى»[١]، وصار هذا الحديث - وإن كان من الآحاد[٢] - ثُلُثَ الإسلام في قَوْلٍ[٣]، ورُبُعَه في قَوْلٍ[٤]، وجُمْلَتَه عند قَوْمٍ آخرين، والأوَّلان أَصَحُّ من الثالث، والثاني أصحُّ من الأوَّل، وقد بيَّنَّا ذلك في «شرح الحديث».

والنِّيَّةُ عندهم - مُطْلَقًا -: هي القَصْدُ[٥].

وفي العبادات: هي قَصْدُ التقرب[٦] إلى المعبود[٧]، ولها مقام عظيم في الدين.

قال ابن مسعود: «النجاة في اثنتين، والهَلَكَةُ في اثنتين، النجاةُ في النية والنُّهَى، والهَلَكَةُ في القُنوط والإعجاب»[٨].

والتقريبُ في حقيقة النية ما نُورِدُه عليك:

وهو أن الله خلق العَبْدَ وخلق له مُلَائِمًا، وخلق له مُبَايِنًا، وخَلَقَهُ لا يعلم شيئًا، وإن كان مُهَيَّئًا لِأَنْ يَعْلَمَ، فإذا خَلَقَ له العِلْمَ بالشيء مثلًا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم: (١-طوق).

(٢) في (ص): الأحاديث.

(٣) شرح الصحيح لابن بطال: (٣٢/١).

(٤) قوت القلوب: (١٣٤٨/٣)، وفتح الباري: (١١/١).

(٥) شرح الصحيح للخطابي: (١١٢/١).

(٦) في (س): التقريب.

(٧) ينظر: الحدود لابن فُورَك: (ص١١٦).

(٨) أخرجه هنَّاد في الزهد: (ص٤٣٩)، رقم: (٨٦٩).

موجودًا وخَلَقَ[١] له العِلْمَ به مُلَائِمًا خَلَقَ له إليه مَيْلًا، وعليه إقبالًا، وخَلَقَ له التردد في الملاءمة:

هل هي من جميع الوجوه أو من بعضها؟

أو هل[٢] هي ملائمة المبدأ والمآل جميعًا أم تختلف حال الملاءمة فيهما[٣]؟

ولا تزال الخواطر تتعارض، والنَّظَرُ يَزِنُ مقاديرها في مجاريها، حتى إذا خَلَقَه له معلومًا ملائمًا من كل وَجْهٍ في كلِّ حال، ومَنَعَ[٤] العوارض القاطعة، خَلَقَ له عليه القُدرة، وكان الإقدامُ منه على الفِعْلِ بالقدرة الأوَّلية، وحَصَلَ/ الوجود. [٨٦/ب]

فالخاطر الأوَّلُ من المَيْلِ: تُسَمِّيه العَرَبُ هَمًّا.

والثاني: تُسَمِّيه إِرَادَةً وعَزْمًا.

والثالث: المُتَجَرِّدُ عن الوساوس والعوارض والقواطع تُسَمِّيه نِيَّةً؛ مأخوذٌ من النَّوَى، وهو البُعْدُ، أي بَعُدَتْ عن كل ما يعارض ويمنع.

ولمَّا كانت هذه كلها صفات حدوث وحالَ تَغَيُّرٍ؛ تَنَزَّهَ القَدِيمُ عنها، وكانت له الإرادة التي هي صِفَةٌ شَأْنُها تَمْيِيزُ الشيء عن مثله؛ قَدِيمَة أَوَّلِيَّة تتعلق بكل مخلوق مُحْدَثٍ، ووقعت في المخلوق دَلِيلًا على الخالق بما

---

(١) في (س): أو خلق.

(٢) في (س) و(ص): وهل.

(٣) في (ص) و(ز): فيها، وسقطت من (س).

(٤) في (د) - أيضًا -: ومع.

هي عليه من هذه الأحوال الناقصة، كسائر صفاته الناقصة فيه؛ وإن كانت كَمَالًا، الكاملةُ في حَقِّ الله على الإطلاق، المُتَقَدِّسَةُ عن الآفات[١].

مَجْهَلَةٌ:

وقد ظنَّ بعضُ المُتَزَهِّدَةِ[٢] أن النية لا تدخلُ تحت الاختيار، قالوا: «لأنها انبعاثُ النفس ومَيْلُها إلى مَالَهَا فيه غَرَضٌ، والانبعاثُ والمَيْلُ إذا لم يمكن[٣] اختراعه ولا اكتسابه بمجرد الإرادة فذلك[٤] كقول الشبعان: نويتُ أن اشتهي الطعام»[٥]، في تَطْوِيلٍ مُمِلٍّ، وقَوْلٍ مُخْتَلٍّ.

مَعْلَمَةٌ:

وليست النية ما أشاروا إليه، وإنما هي ما بينَّاه، وهذا إنَّما بَنَوْهُ على قَوْلِ بعضهم في تأويل قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٤]: «إن من وقع في المعصية أو في المَهْلَكَةِ باختياره لا يكون مُضْطَرًّا»، وسنُبَيِّنُ فساد[٦] هذا في اسم[٧] «الدَّاعي» إن شاء الله.

---

(١) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص١٩٨).

(٢) هو الإمام أبو حامد الطوسي.

(٣) في (ص) و(س) و(ز): يكن.

(٤) في (س) و(ص) و(ز): فإن ذلك.

(٥) الإحياء: (ص١٧٤٣).

(٦) سقطت من (س) و(د) و(ص).

(٧) في (ص): أسماء.

وأمَّا[١] قولهم عن الشبعان: «نويتُ أن أشتهي الطعام»، فلا يماثل مسألة النية، واقْرُنْهَا بما قدَّمناه حتى ترى أن هذا كلامٌ في غير كُنْهِه؛ نِبَالٌ دُونَ نِصَالٍ، وبَدَنٌ بغير أَوْصَالٍ، وقد بيَّنَّا أنه لا تكون نيَّة إلا بعد تَقَدُّمِ مَيْلٍ.

وقولهم: «إن الانبعاث لا يُمْكِنُ اختراعُه ولا اكتسابُه» دَعْوَى، المَيْلُ فِعْلٌ من الأَفْعَالِ التي ليست بضرورية، ولذلك تَرَكَّبَتْ عليه النية، ولو كانت النية لا تدخل تحت الاختيار لمَا كانت شرطًا في صحة الأعمال الاختيارية، وهذا أَبْيَنُ من إِطْنَابٍ فيه.

تَوْكِيدٌ:

وقد اتفقت الأُمَّةُ والعقلاء من كل طائفة على التكلم في الترجيح بين النية والعمل، ولو كانت النيةُ ضروريةً والعملُ اختياريًا ما وقع بينهم ترجيح، وأيُّ حاجة تدعو إلى أن يقال: «إن النية لا تدخل تحت الاختيار»[٢]، ويُفَسَّرُ ذلك [٣]بما شاء الله من التأويل، حتى إنهم قد أكثروا عن النبي عليه السلام أنه قال: «نية المؤمن خَيْرٌ من عمله»[٤]، ولم يَصِحَّ من ذلك حَرْفٌ عنه.

---

(١) في (س): وأمَّا عن.

(٢) الإحياء: (ص١٧٤٣).

(٣) في (د) - أيضًا -: من.

(٤) أخرجه الطبراني في أكبر معاجمه عن سهل بن سعد السَّاعدي ﷺ: (١٨٥/٥)، رقم: (٥٩٤٢)، وضعَّفه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: الإحياء: (ص١٧٣٥)، هامش رقم (١).

أَمَا إِنَّها مسألة واقعة، فلا بد من بيان[1] معناها؛ لأنه موجود في الدين، مُشْكِلٌ بين المسلمين، وإيضاحُه في معالم الدين موجود مشكل[2]، قالوا فيها سبعة أقوال[3]:

الأوَّل: إن[4] النية سِرٌّ، والعَمَلُ جَهْرٌ، والسِّرُّ أَفْضَلُ من الجَهْرِ.

١ [٨٧/أ] الثاني: إنَّ العمل لا يدوم، والنية/ تدوم.

الثالث: إن معناه: نية المؤمن خَيْرٌ من جُمْلَةِ عَمَلِه الخَيِّرِ.

الرابع: إن النية بمجردها خير من العمل بمجرده.

الخامس: إن النية تكتب وحدها حسنة دون عمل، ولا يكتب العملُ دون نية.

السَّادس: إن النية لها في تبديل صفات الأعمال شرعًا تأثيرٌ ما، فإنها تَرُدُّ المُبَاحَ طاعةً حتى يكون فيه حَظٌّ، بل حُظُوظٌ من الثواب، ولم تُوضَعْ في الأصل لذلك.

السَّابع: إن الجزاء في القيامة يقع على النية لا على العمل؛ لأن العبد يُطِيعُ في الدنيا - مثلًا - ثمانين عامًا، فيُثِيبُه الله في الجنة ثوابًا دائمًا أَضْعَافَ مُدَّةِ طاعته، ويزيده ما لا تحصيل له ولا نهاية، وذلك فيما يقابل النية، لأنه كان من نيته: أنه لو عُمِّرَ دهره كلَّه من غير انقطاع لكان في طاعة

---

(١) سقطت من (س).

(٢) مرَّضها في (د).

(٣) أورد هذه الأقوال أبو حامد في الإحياء: (ص١٧٣٥-١٧٣٦)، وأصلُها في قُوتِ القلوب: (٣/١٣٤٥-١٣٤٦).

(٤) سقطت من (ص) و(س) و(ز).

ربه أبدًا، فأعطاه الله على هذه النية المُنْسَحِبَةِ على[١] آماد لا نهاية لها، ولم يُعْطِه على عَمَلِه المحصور المقدَّر.

إيضاحُه:

قُلْنَا: ليس هذا الذي قلتم كله[٢] - لو كان مُسَلَّمًا - يَقْتَضِي[٣] ما قُلْتُم[٤] من تفضيل النية على العمل، وإنما هي صُوَرٌ صَحِيحَةٌ وأحكامٌ بَيِّنَةٌ رَكَّبْتُمُوهَا على غير أدلتها ونَسَبْتُمُوهَا إلى دَعَاوٍ.

أمَّا قولهم: إنَّ عَمَلَ السِّرِّ أفضلُ من عمل العلانية؛ فهو أَمْرٌ غير مُسَلَّمٍ على الإطلاق، وإنما فيه تفصيلٌ؛ يأتي في موضعه من اسم «المُتَصَدِّقِ» إن شاء الله.

وأمَّا قولهم: إن النية تدوم والعمل لا يدوم؛ فليس بصحيح، فإن نية الرجل عَمَلٌ من جُمْلَةِ أعماله؛ فما[٥] دام موجودًا فنيتُه[٦] وسائرُ أعماله موجودة، وإذا عُدِمَ عُدِمَ ذلك كله، وإن أشاروا به إلى القول السابع؛ وهو: اعتقاده[٧] العمل الدائم لو أبقاه الله، وعليه يقع الجزاء لا على عمله، فذلك القول ضعيف؛ فإن الجزاء لا يقع على العمل ولا على النية، وإنما هو

---

(١) في (س): عن.

(٢) سقط من (س) و(ف).

(٣) في (د): بمقتضِي، وفي (ص): بمقتضٍ.

(٤) قوله: «ما قلتم» سقط من (س).

(٥) في (س): ما.

(٦) في (ص): فبنيته.

(٧) في (س): اعتقاد.

فَضْلُ الله على ما تقدَّم في حديث ابن عمر في مُحَاجَّةِ اليهود والنصارى، وقول الله تعالى لهم: «هل ظلمتكم من أجركم[١] شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فَضْلِي أوتيه من أشاء»[٢]، ولو كان الجزاء على قَدْرِ النية ما أُعْطِي الجنة، فإن عمل أهل الأرض لا يكافئ جُزْءًا منها، ولو كان الجزاءُ على قَدْرِ العمل مُسْتَحَقًّا لكان لله تعالى أن يحاسبه بنِعَمِه عليه، فنِعْمَةُ البصر وحدها تأخذ جميع أعماله، فهذه الوجوه كلها تُضْعِفُ هذا القول وتُسْقِطُه.

وأمَّا قوله في الثالث؛ فلا مُتَعَلَّقَ لهم في غرضهم.

وأمَّا الرابع؛ فلا يصح أن تكون النية خَيْرًا من العمل، ولا يكون العملُ خَيْرًا من النية؛ لأن شَرْطَ الشيء الذي يقع الاعتدادُ به فيه لا يصح أن يقال: إنه خير منه أو مثله، كما لا يصح أن يقال: إن الطهارة خَيْرٌ من الصلاة، ولا الصلاة خَيْرٌ من الطهارة، أَمَا إنَّ في أعمال القلوب ما هو خَيْرٌ من جميع الأعمال، وهو الإيمان.

[٨٧/ب] وأمَّا قولهم:/ إن النية تكتب مفردة، ولا يكتب العمل دونها؛ فصحيح، ولكن هذا لا[٣] يُوجِبُ فَضْلَ النية على العمل، ألا ترى أنه قد رُوي: «أنه لا يُنظَر في عَمَلِ عبد حتى يُنْظَرَ في صلاته»[٤]، ولكنه يُكْتَبُ له العمل دونها، ويُثاب عليه آخِرًا في الشفاعة.

---

(١) في (س): أحدكم.

(٢) تقدَّم تخريجه في السفر الأوَّل.

(٣) سقطت من (س).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ بلاغًا: كتاب الصلاة، جامع الصَّلاة، (١/٢٣٣)، رقم: (٤٨٢-المجلس العلمي الأعلى).

وأمَّا قولهم: إن النية لها تبديل في الأعمال؛ فذلك لا يوجب تقدمها عليها، وإنما ذلك بمنزلة الطهارة، فإن لها تبديلًا في الأحوال.

وإذا[1] فَهِمْتُمْ حقيقة النية؛ فالإخلاصُ فيها أن لا يمتزج القَصْدُ بها إلى الله مع شيء سواه كما قدَّمناه، وذلك لا يكون إلا مع قوة العلم بالله، وصريح الإيمان، وقوة الإسلام.

وقال بعضُ المُتَعَبِّدِينَ - وهو رُؤَيْمُ بن أحمد[2] -: «لا يكون الإخلاصُ إلَّا لرَجُلٍ لم يَقْصِدْ بعَمَلِه عِوَضًا؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإنما يَنْوِي الخِدْمَةَ لحَقِّ المَوْلَى خاصَّةً»[3].

ومن فَهِمَ المَوْلَى لم يَقُلْ هذا؛ لأنه يتعالى عن الحظوظ، وإن كانت تجب له الحقوق، قال النبي ﷺ: «قال الله تعالى: لو أن أهل الأرض اجتمعوا على أتقى قَلْبِ رَجُلٍ ما زاد ذلك في مُلْكِي، ولو أن أهلَ الأرض اجتمعوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ ما نقص ذلك من مُلْكِي»[4]، وما يقصد أَحَدٌ بطاعته إلَّا حَظَّ نَفْسِه في خَلَاصٍ من عقاب، أو[5] اجتلاب ثواب، ولذلك خُلِقَتِ السماواتُ والأرضُ.

وقد قال القاضي أبو بكر: «إنَّ هذا كُفْرٌ»[6]، وصَدَقَ.

---

(١) في (س) و(ز): فإذا.

(٢) في (س) و(ص): رؤيم بن ماتع.

(٣) الرسالة للقشيري: (ص٢٤١)، والإحياء: (ص١٧٥٢).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم: (٢٥٧٧-عبد الباقي).

(٥) في (د): و.

(٦) الإحياء: (ص١٧٥٢).

وقال بعض الصوفية[١]: «هذا الذي ذكره القاضي حَقٌّ، ولكن الذي أراده رؤيم: أن يتبرأ العاملُ من حظوظ النفس الشهوانية في الجنة؛ التي هي الأكل والشرب والجماع، فأمَّا التلذذ بمعرفة الله ورؤيته فذلك غاية الآمال عندهم، وحَظُّهم معبودُهم لا غير».

قال الإمامُ الحافظ أبو بكر[٢] رضي الله عنه: وهذا غَيْرُ مَنْكُورٍ، ولكن النيات في ذلك تختلف، فمن كان أَمَلُه نَعِيمَ الجنة ورؤيةَ الله فهو في غاية الإخلاص، ومن كان أملُه رؤية الله خاصَّة فهو أشرف؛ وذلك لأن الساكن بالجنة يستغني عن الطعام والشراب، وإنما يفعله لَذَّةً لا عن حاجة، ورؤية الله في الجنة ليست دائمة، وهي إذا كانت لا يُعَادِلُها نَعِيمٌ، كما لا يعادلُ رضاه ثواب، وفي ألفاظ القوم اختلاطٌ يُوجِبُ الإيهام، فهذا تخْلِيصُه.

وقد قال بعضهم: «الإخلاصُ ما استتر عن الخلق وصَفَا من العُلَقِ[٣]»[٤].

وهذا لا يلزم، بل يكونُ الإخلاص مع عِلْمِ الخَلْقِ بالإيمان[٥] والصلاة والصيام.

---

(١) هو الإمام أبو حامد الطُّوسِي، ينظر: الإحياء: (ص١٧٥٢).

(٢) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.

(٣) في (د): في خـ: العلائق.

(٤) الإحياء: (ص١٧٥٢).

(٥) في (س) و(ص): في الإيمان.

وقال آخرون: « الإخلاصُ[١] تَصْفِيَةُ الأعمال من الكَدُورَاتِ»[٢].

وخَصَّصَهُ المُحَاسِبِي فقال: «الإخلاصُ إخراج الخَلْقِ عن معاملة الرب»[٣].

المعنى: إذا عملت عَمَلًا لله فلا تُدْخِلْ فيه قصد عُلْقَةٍ[٤] من عَلَائِقِ الخَلْقِ.

وقال الفُضَيْلُ كلمة حسنة جمع فيها المراد وهي: «ترك العمل من أجل الناس رِيَاءٌ، والعملُ لأجلهم شِرْكٌ،/ والإخلاصُ أن يعافيك الله منهما»[٥]. [٨٨/أ]

[مسائل في الإخلاص من كتاب «النوادر» للمحاسبي[٦]]:

ويَكْشِفُ لك القناع في ذلك صُوَرٌ[٧] نَازِلَةٌ في مسائل مخصوصة؛ ذَكَرَهَا في كتاب «النوادر»[٨]، وهي[٩] متفرقة متشعبة، جماعُها اثنتا عَشْرَةَ صُورَةً:

---

(١) سقط من (س) و(ز) و(ص) و(ف).

(٢) الإحياء: (ص١٧٥٢).

(٣) الإحياء: (ص١٧٥٢).

(٤) في (س): علاقة.

(٥) الرسالة للقشيري: (ص٢٤١).

(٦) أفاد من هذه المسائل أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات: (٢/٣٦٢-٣٦٣).

(٧) في (د): صورة.

(٨) وهو من كتب المُحاسبي، طالعه القاضي بالفُسطاط، وأفاد منه كما نبَّه إلى ذلك في مقدمة «السِّرَاجِ».

(٩) في (د): هي.

الأولى:

صلاة الجماعة في المسجد للأُنْسِ بالجيران، أو بالليل لمُرَاقَبَةٍ، أو مُرَاصَدَةٍ[١]، أو مُطَالَعَةٍ لأَحْوَالٍ[٢].

الثانية:

صيامُه توفيرًا للمال، أو استراحةً من عَمَلِ الفِطْرِ، أو احتماءً من أَلَمٍ وَجَدَه، أو مَرَضٍ يتوقعه، أوبِطْنَةٍ تقدَّمت له.

الثالثة:

صدقَتُه لمَا يَجِدُ في نفسه من لَذَّةِ إِفَاضَةِ المال والفَضْلِ على الخَلْقِ.

الرابعة:

حَجُّه لرؤية البلاد، والاستراحة من الأنكاد الثائرة في الأوطان.

الخامسة:

الهِجْرَةُ مخافة الضرر بالعدو[٣]، أو بالمال، أو الأهل والولد، أو إلحاح الفَقراء[٤].

السَّادسة:

تَعَلُّمُ العِلْمِ ليحتمي به من الظلم، أو ليستجلب[٥] له حظًّا من الدنيا.

---

(١) في (س) و(ز): لمراصدة.

(٢) في (د) و(ص): ومطالعة الأحوال.

(٣) في (د): في خـ: بالجسد، وفي خـ: بالبدن.

(٤) في (س) و(ص) و(ز) و(ف): الفَقْر.

(٥) في (د): وليستجلب، وفي (س): أو يستجلب.

السَّابعة:

حجُّه ماشيًا ليتوفَّر له الكراء.

الثامنة:

كَتْبُه مُصْحَفًا ليَصْلُحَ خَطُّه.

التاسعة:

أن يتوضأ تَبَرُّدًا.

العاشرة:

الاعتكافُ فِرَارًا من الكراء.

الحادية عشر:

أن يَعُودَ المرضى ليُعاد، وكذلك الصلاة على الجنائز ونحوه[1].

الثانية عشر:

أن يفعل ذلك كلَّه ليُنظر إليه بعين الصلاح.

[الجوابُ عن هذه المسائل]:

فهذه أُمَّهاتٌ تكشفُ لكم كَثِيرًا من النازلات من أمثالها، وقد قال جُمْلَةٌ من الزهاد: «إن هذه النوازل إذا وقعت هكذا خرجت عن الإخلاص»، ونحن نُبَيِّنُ لكم حقيقتها على رَسْم الزهد، وحقيقتَها في الشَّرْع، على ما تقع عليه عند الله، على ما فَهِمْنَاهُ عن الله ورسوله وصحابته، فنقول:

---

(١) في (س) و(ص) و(ز): وغيره.

أَمَّا صلاةُ الجماعة فلها فوائدُ جَمَّةٌ تَبْلُغُ خَمْسًا[1] وعِشْرِينَ؛ ما أَعْلَمُ أَحَدًا على وجه الأرض[2] يعرفها[3]، أَمَا إِنَّه قد جمعها من جمعها بدَعَاوٍ واعتداء، فمن جُمْلَتِها:

إظهارُ الدين، والإعلان بشعائر الإسلام حتى تَنْغَمِرَ[4] الأرضُ بالطاعة، ويشترك جميع الخلق ويتألفون على العبادة، وهو المقصود الأكبر من الدِّينِ، وبه يتضاعف الثواب، فمن خرج إلى المسجد بهذه النية، أو بنية الاعتكاف به، أو انتظار الصلاة فيه، أو بقَصْدٍ هو لله؛ فهو في طاعة، ومن خرج لغير ذلك كُتبت له صلاةُ فَذٍّ، ولا يبطلُ أَجْرُ صلاته بنية[5] ما خرج إليه[6]، لأنَّها نِيَّةٌ في غير العبادة، فلا يَنْقُصُه ذلك من أجرها، وإنما هو محرومٌ بفَوَاتِ أُجُورٍ كثيرة.

وأَمَّا من ارتقب أَمْرًا بليل أو نهار؛ فترك نَوْمَه أو شُغْلَه، وقال: ريثما أنتظر مَطْلَبِي أقرأ وأصلي، فثوابه كامل؛ لأنه رَجُلٌ أقام على حاجته، وقام بعبادة ربه، ويَا مَا أَحْسَنَ هذا فِعَالًا.

وأَمَّا من صام للوجوه التي تقدَّمت فصومُه أيضًا صحيح، وتلك المقاصدُ صحيحةٌ؛ فإنه من[7] وَفَّرَ الغداء للعَشَاءِ/ لئلَّا يَتْعَبَ بتَكَسُّبِهَا، [٨٨/ب]

(١) في (س) و(ص): خَمْسة.

(٢) سقط من (س) و(ص) و(ز) و(ف).

(٣) في (ص) و(س) و(ز) و(ف): عرفها.

(٤) في (س) و(ف): تنعم، وفي (ز): تنهز.

(٥) في (س) و(ص) و(ز): منه.

(٦) في (س) و(ص) و(ز): إليها.

(٧) في (د): إن.

واحتمى احتراسًا من الألم، أو استراحةً من العمل؛ فهي كلها مقاصد دينية.

وأمَّا من تصدَّق مُتَلَذِّذًا بالعطاء لما في سِنْخِه[1] من الكرم؛ فذلك حَسَنٌ جِدًّا، ودالٌّ على باطنة جميلة، وما أجدر هذا بإفاضة كَرَمِ الله عليه، ما لم يَقْصِدْ مَحْمَدَةً أو مِلْكَ قَلْبِ أَحَدٍ، فيعودُ ذلك كله للدنيا، ولا يكون منه شيء لله تعالى.

وأمَّا حَجُّه لرؤية البلاد فلا يخلو أن يقصد به راحة النفس؛ فهو حَظٌّ عاجلٌ لا ثواب له في خُطاه، وإنما يُكْتَبُ له أَجْرُ عَمَلِ الحج إذا حَصَلَ بمكة.

خرج أبو بكر بن دَاوُد[2] من بغداذ مُشَيِّعًا لصاحب له[3]، حتى بلغ ذات عِرْقٍ[4]، وهو لا يستطيع فراقه، فلمَّا لَبَّى النَّاسُ بالحج سَكَتَ، فقيل له: «أَلَا تُلَبِّي؟ فقال[5]: لا أفعل، لأني خرجت مُشَيِّعًا لهذا».

---

(١) السِّنْخُ: السَّجِيَّةُ.

(٢) الإمام الحافظ، والأديب الشَّاعر، العلَّامة المتفنن، محمد بن داود بن علي الأصبهاني، أبو بكر الظاهري، تـ ٢٩٧هـ، له من الكتب: «كتاب الوصول إلى معرفة الأصول»، و«كتاب الإيجاز»، وغيرها، وطبع له منها: «كتاب الزَّهْرَة»، ترجمته في: الفهرست: (٦٣/١)، وتاريخ بغداد: (١٥٨/٣-١٦٧)، والدر الثمين لابن أنجب: (١٣٨/١-١٤٠)، وسير النبلاء: (١٠٩/١٣-١١٦).

(٣) لعل صاحبه هذا هو محمد بن جامع الصيدلاني، وكان كَلِفًا به، ينظر: تاريخ بغداد: (١٦٣/٣).

(٤) ذات عِرْقٍ: هو ميقات أهل العراق، تبعد عن مكة المعظمة باثنين وأربعين ميلًا، فتح الباري: (٣٨٩/٣).

(٥) في (د): قال.

وقد أخطأ؛ فإنه قد كان قضى حَقَّ التَّشْيِيعِ، فكان من حقه أن يقضي حَقَّ البلوغِ إلى موضع الزيارة والكفَّارة، ولو خرج بنية الحج ورؤية البلاد للاعتبار لكانت نِيَّتَيْنِ، ولتضاعف[١] له الأجرُ مرَّتين.

وأمَّا استراحته من الأنكاد بالخروج للحج أو للهجرة فهو دَأْبُ المرسلين، وسُنَّةُ الماضين، قد قال الخليل ﷺ[٢]: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩]، وقال كليم الله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:٢٠]، وكلُّ إِذَايَةٍ قَلَّتْ أو كَثُرَتْ؛ كانت في الدين أو في البدن أو في المال، إذا توارى عنها المرءُ بالله آجَرَه الله وكَفَاهُ.

وأمَّا إذا خرج من الفقر لئلَّا يُعَيَّرَ به في بلده، أو لتعذُّر أسباب المعاش عليه فيه؛ فإن ذلك جائزٌ له، ولا يُعَارَضُ هذا بنيَّة الحج ولا نيَّة الهجرة.

فأمَّا تَعَلُّمُ العِلْمِ ليَحْتَمِيَ به من الظلم فنِيَّةٌ جميلةٌ؛ لا تؤثر في مثوبة ولا تنقص من أجر، وأحقُّ ما وفَّى المرءُ به[٣] نفسَه طاعةُ الله وعِلْمُه وكلامُه[٤]، فالاستغناءُ بالقرآن والعِلْمِ عن كلِّ شيء أَصْلٌ في الدِّين.

---

(١) في (س) و(ز): لضُوعِف به، وما أثبتناه صحَّحه بطرة بـ (س)، وهو كذلك في (د) و(ص).

(٢) في (س) و(ص) و(ز): خير البرية، ومرَّضها في (د).

(٣) في (س) و(ص) و(ز) و(ف): به المرء.

(٤) سقطت من (د) و(ص).

وأمَّا حَجُّه ماشيًا ليَتَوَفَّرَ مالُه؛ فقد روى البخاري: «أن أَنَسًا حَجَّ على رَحْلٍ رَثٍّ[١] ولم يكن شحيحًا»[٢]، يريد: أنه لم يَحُجَّ بأُبَّهَةٍ ولا في رفاهية؛ لأنه مَوْضِعُ تَوَاضُعٍ واختصار، وبَذَاذَةٍ ورِثَّةٍ.

فإن قَصَدَ توفير المال ليصرفه في وَجْهٍ آخَرَ من البِرِّ في هذه المسألة وغَيْرِها فهو مأجورٌ في الوجهين، وإن كان حَبَسَه حُبًّا للمال وكثرة فهو مأجورٌ في حَجِّهِ ومَشْيِه، فإن[٣] أَعْطَى صدقة المال وحَبَسَه بعد إخراج الصدقة فهو مَغْبُونٌ في ذلك، مُرْبِحٌ في حَجِّه ومَشْيِه[٤].

وأمَّا إن توضَّأ تَبَرُّدًا فلا ينقص من أجره شيء، وله ما نَوَى من الطهارة.

وأمَّا الاعتكاف فِرَارًا من الكراء/ فكمسألة الحجِّ المتقدِّمة آنِفًا سواء. [٨٩/أ]

وأمَّا أن يَعُودَ ليُعاد، ويَحْمِلَ الموتى ليُحْمَلَ، ويُصَلِّي ليُصَلَّى عليه؛ فذلك أفضلُ النيات، وأكملُ القُرُبَاتِ، ومن أَفْضَلِ الأعمال التعاونُ على الصالحات.

وأمَّا أن يفعل ذلك كلَّه ليُنظر إليه بعَيْنِ الصَّلَاح؛ فإني سألتُ شيخنا الإمام أبا منصور الشِّيرَازِي الصُّوفِي[٥] عن قوله: ﴿إِلاَّ ٱلذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ

---

(١) سقطت من (د) و(ص).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الحج، باب الحج على الرَّحْلِ، رقم: (١٥١٧-طوق).

(٣) في (س) و(ص): وإن.

(٤) قوله: «وإن أَعْطَى صدقة المال وحَبَسَه بعد إخراج الصدقة فهو مَغْبُونٌ في ذلك، مُرْبِحٌ في حَجِّه ومَشْيِه» سقط من (ص).

(٥) الإمام أبو منصور الشيرازي، من علماء بغداد ووُعَّاظِها، وكان له مجلس =

وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة:١٥٩]، ما بَيَّنُوا؟ قال: «أظهروا أفعالهم للناس بالصَّلاح والطاعات، قلت: ويلزم ذلك؟ قال: نعم؛ لتثبت أمانتُه، وتَصِحَّ إمامتُه، وتُقبل شهادتُه»(١).

قلتُ أنا: ويَقْتَدِي غيرُه به.

فإذا انتهى إلى هذه المرتبة كان مُخْلِصًا «صَادِقًا».

* * * * *

= يُذَكِّرُ فيه الناس، قال الإمام ابنُ العربي -في اسم «القاصّ»-: «وحضرتُ يومًا مجلس شيخنا الإمام أبي منصور الشيرازي بنهر مُعَلَّى، وعادةُ الوُعَّاظِ ألَّا يرقى المنبر إلَّا عالم يجيب عن كل سؤال»، ونهر المُعَلَّى هو الموضع الذي كان فيه دَسْتُ الخلافة ومحلها، وفيه نزل ابن العربي مع والده، ينظر: معجم البلدان: (٣٢٤/٥).

(١) أفاد من هذا أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات: (٣٦١/٢-٣٦٢).

[الصَّادِقُ]: وهو الاسمُ الثاني عَشَرَ

وهو من الأسماء الخاصَّة، والأوصاف الشريفة، ووَصَفَ الله به نفسَه ورسولَه، وخاصَّةَ عبادِه من أنبيائه وأوليائه، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر:٣٢]، وهو[١] مُحَمَّدٌ ﷺ نَصًّا، وهو كل مُسْلِمٍ تنبيهًا.

أوَّلهم: أبو بكر الصديق[٢].

وآخرُهم: عيسى عليه السَّلام.

وهو من خصائص محمد ﷺ ومناقبه، وقد سُقْنَا ذلك على وَجْهٍ[٣] من التفسير في «أنوار الفجر»، فإنه كما قال محمد ﷺ: «ينزل فيكم عيسى[٤] حَكَمًا مُقْسِطًا، يكسرُ الصليب، ويقتلُ الخنزير، ويضع الجزية، ويؤمكم منكم»[٥].

---

(١) قوله: «وهو» سقط من (س) و(ز).

(٢) في (د) و(ص): أبو بكر.

(٣) في (د) و(ص): وجهه.

(٤) سقطت من (س) و(ص) و(ز) و(ف).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكمًا بشريعة نبيِّنا ﷺ، رقم: (١٥٥-عبد الباقي).

وفي رواية: «وإمامكم[1] منكم»[2].

وفي بعض الروايات: «أنه يصلي وراء إمامنا»[3].

والأوَّل أصح.

وينكح ويتزوج، ويموت ويُدفن في الروضة إلى جنب محمد ﷺ، قال الراوي: «بقي في البيت مَوْضِعُ قَبْرٍ»[4]، وعليه تقوم الساعة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴾ [مريم: ٥٦].

وقال في إسماعيل: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم:٥٤]، وعد من نفسه الصبر على ذَبْحِ أبيه له، فَآلَ ذلك إلى نزول الفداء، وصِدْقُ الوَعْدِ دليلٌ على صِحَّةِ العهد.

وقال النبي ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البِرِّ، وإن البِرَّ يهدي إلى الجنة»[5].

---

(١) قوله: «مُقْسِطًا، يكسرُ الصليب، ويقتلُ الخنزير، ويضع الجزية، ويؤمكم منكم، وفي رواية: وإمامكم» سقط من (ص).

(٢) الصحيح لمسلم: (١/١٣٦-عبد الباقي).

(٣) الصحيح لمسلم: (١/١٣٧-عبد الباقي).

(٤) الجامع: (٦/١٢-بشار)، والقائل هنا هو: أبو مودود المدني.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾، رقم: (٦٠٩٤-طوق).

فـلا جَـرَمَ أثنـى الله علـى قَـوْمٍ فقـال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣]، وهو أَنَسُ بن النَّضْرِ؛ نزل ذلك فيه حين غاب عـن بَـدْرٍ، فقال: «غِبْتُ عـن أَوَّل مَـشْهَدٍ شَـهِدَهُ رسـول الله ﷺ، لـئن أشـهدني الله مـع النبي ﷺ ليَرَيَنَّ الله ما أَصْنَعُ، فقاتَل يوم أُحُدٍ بعد ذلـك بعـام فقُتِـلَ، فوُجِـدَ فيه نَيِّفٌ على ثمانين؛ من بين[1] ضربة بسيف، ورمية بسهم، وطعنة برُمح، قالت أختهِ: فما عرفتُه إلَّا ببَنانِه»[2].

[٨٩/ب] وأعظمُ الصِّدْقِ منزلةً/ الصِّدْقُ على الله وعلى رسوله، وأعظمُ الكَـذِبِ دَرَكَةً الكَذِبُ على الله وعلى رسوله، ولم يُكْذَبْ على أَحَدٍ ما كُـذِبَ[3] علـى الله وعلى رسوله؛ بقَصْدٍ وبغير قَصْدٍ، بما سَوَّلَ لهم[4] الشيطان.

وفي الحديث الصحيح عن أبـي هريـرة: قـال رسـول الله ﷺ: «يـأتي علـى النـاس زمـانٌ يحـدثونكم بمـا[5] لـم تـسمعوا أنـتم ولا آبـاؤكم، فإيَّـاكم وإيَّاهم»[6].

---

(١) سقطت من (د) و(ص).

(٢) أخرجـه البخـاري فـي صـحيحه عـن أنـس ﷺ: كتـاب الجهـاد، بـاب قـول الله تعالى: ﴿من المـؤمنين رجـال صـدقوا مـا عاهـدوا الله عليـه﴾، رقـم: (٢٨٠٥-طوق).

(٣) قوله: «ما كذب» سقط من (س).

(٤) سقط من (د) و(ص).

(٥) في (س) و(ص) و(ز): ما.

(٦) أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح عن أبي هريرة ﷺ: باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط في تحملها، رقم: (٦-عبد الباقي).

والوعيدُ في ذلك مشهور شديد، وأكثرُ ما يجري على ألسنة القَوْمِ الموسومين بالصلاح[١]؛ لغفلتهم وطلبهم الفضائل من غير مَعْدِنِها، وسترى ذلك مُنَبَّهًا عليه في مواضع[٢] إن شاء الله.

وحقيقةُ الصِّدْقِ قد بينَّاها في غير موضع[٣]، وهو: الثبوتُ في جميع الأحوال[٤] والأعمال على قَدَمِ الحق، والاستمرارُ في جميع الأحوال على حُكْم الشَّرْع، وذلك في ثلاثة وجوه؛ صِدْقٌ في القلب، وصِدْقٌ في القول، وصِدْقٌ في الفعل[٥].

فأمَّا صِدْقُ القلب فهو بالنية الخالصة كما قدَّمنا، قال[٦] النبي ﷺ: «من قَاتَلَ لتكون كلمةُ الله هي العُليا فهو في سبيل الله»[٧].

وكما قال[٨] ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مُخْلِصًا من قلبه، - وفي رواية: صادقًا من قلبه، أي: ثابتًا لم تُزَعْزِعْهُ شُبْهَةٌ ولا أَثَّرَتْ فيه رِيبَةٌ - دخل الجنة»[٩].

(١) ينظر: مقدمة الصحيح لمسلم: (١/١٧-١٨).
(٢) قوله: «في مواضع» سقط من (س) و(ز).
(٣) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/١٧٣).
(٤) في (س) و(ص): الأعمال والأحوال.
(٥) في (س) و(ز): صدق في القلب، وصدق في الفعل، وصدق في اللسان.
(٦) في (س): كما قال.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ﷺ: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم: (١٩٠٤-عبد الباقي).
(٨) في (ص): وكما قال أيضًا عليه السَّلام.
(٩) أخرجه البخاري في صحيحه عن معاذ ﷺ: كتاب العلم، بابُ من خصَّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم: (١٢٨-طوق).

وقال عليه السَّلام: «من سأل الشهادة صادقًا من قلبه بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[١].

وأمَّا الصدق في اللسان فبأن[٢] لا يكون خَبَرُه بخلاف عمله في الماضي، فأمَّا المُستقبَل فيدخل في قِسْمِ الوفاء بالوَعْدِ، وهل هو كَذِبٌ أم لا؟ فيه خلافٌ، ودَعْ عنك الاسم؛ فإنه كَذِبٌ مَعْنًى، وفيه إِثْمُ الكاذب، إذ لا يجوز خُلْفُ الوَعْدِ إلَّا لعُذْرٍ[٣]، كما لا يجوز الإخبارُ عن الشيء بخلاف ما هو عليه إلَّا لعُذْرٍ[٤].

فإذا احتاج إلى الكذب فله في المعاريض مندوحةٌ؛ فينطق بلسانه بما[٥] لا يعتقده بقلبه، مثل أن يُكره على الكفر فينطقُ بلسانه، ومثل أن يُدَارِي أميرَه ومن يتوقَّعه، وصديقَه وزوجَه وولدَه وجارَه، فيقول لهم كلامًا مُحْتَمِلًا، يقصدُ به بقَلْبِه خلافَ ما يُورِدُه بلسانه، فيفهمون عنه ما أرادوا، وهو قد نَوَى ما خَلَصَ به في اعتقاده[٦].

وأمَّا الصِّدْقُ في الأعمال فبأن[٧] يكون على وَفْقِ الاعتقاد والقول.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه عن سهل بن حُنَيف ﷺ: أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، بابُ ما جاء فيمن سأل الشهادة، رقم: (١٦٥٣-بشار).

(٢) في (د): فأن.

(٣) في (د): بعذر.

(٤) ينظر: الإحياء: (ص١٧٥٩).

(٥) في (س): ما.

(٦) ينظر: الإحياء: (ص١٧٥٩).

(٧) في (د): فأن.

وأمَّا الصدق في الاستمرار فهو الذي عليه المُعَوَّلُ في خاتمة[١] الأمر كله؛ فإن الاختلافَ في الأقوال والتناقضَ في الابتداء والانتهاء يدلُّ على أنَّ العَقْدَ في أَصْلِه مختل[٢]، والاطِّرادُ على حال واحدة في ذلك كُلِّه يَدُلُّ على قُوَّةِ العَقْدِ واستحكامه.

ومن شَرَفِ الصِّدْقِ أنه من صفات الباري تعالى وأسمائه الحسنى[٣]، قال سبحانه: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٩٥].

[٩٠/أ] ووَصَفَ الصادقين من عباده بصفاتهم التي وَاظَبُوا عليها/ واعتَمَلُوا بها، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ ٱلذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱلْبِرُّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالْكِتَٰبِ وَالنَّبِيِّـِٔنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِے ٱلْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَابْنَ ٱلسَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَالصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٦].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٨].

---

(١) في (د): في خـ: عائد.

(٢) في (س) و(ز): مختل في أصله.

(٣) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١٧٣/١).

وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾؛ فبيَّن أنَّ الإيمانَ الذي يُوجِبُ الأَمَانَ لصاحبه ما كان على وَصْفِه[1].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، يعني: أولئك الذين صَدَّقَ فِعْلُهم قَوْلَهم وعَقْدَهم، ولم تُبْقِ هذه الآية خَيْرًا[2] إلَّا تَضَمَّنَتْهُ؛ نَصًّا أو مُقْتَضًى، وقد بينَّاها في «أنوار الفجر».

وأما قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾؛ فأولئك هم العصبة الأولى، والذين هُمْ بهذه الصفة أَحْرَى وأَوْلَى؛ كانوا مقدار مائة رجل، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، رَدًّا على رُؤَيْمٍ ومن قال بقوله؛ من أنه لا يَبْتَغِي بالعمل ثَوَابًا[3].

والفَقِيرُ الصَّادِقُ هو الذي تَرَكَ كُلَّ سَبَبٍ[4]؛ من أَهْلٍ ومَالٍ وعِلَاقَةٍ، وفرَّغ أوقاته للعبادة، ولم يَعْطِفْ بقلبه على شيء سِوَى الله تعالى، ووقف مع الحق راضيًا بجَرَيَانِ حُكْمِه فيه.

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾؛ بَيِّنٌ فيه.

وقد عَقَدَ الباب كلَّه قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد:١٨].

---

(١) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٤٥٧).

(٢) في (ص): خبرًا.

(٣) قولُ رؤيم بن أحمد قد تقدَّم في اسم «المخلص».

(٤) مرَّضها في (د).

يعني: أنه إذا طَلَبَ الأَمَانَ بالله في توحيده، وبالرسول في تصديقه، وشَهِدَتْ له أفعاله بصِدْقِهِ؛ فهو الصِّدِّيقُ[١]، مبالغةً في صِفَةِ الصِّدْقِ، وبذلك تَصِحُّ له صِفَةُ «الصَّالِحِ[٢]».

* * * * *

---

(١) في (س): الصالح.

(٢) في (س): الصدِّيق.

[الصَّالِحُ]: وهو الاسمُ الثَّالث عشر

فإنه الذي[١] لم يَدْخُلْ[٢] في عَقْدِه[٣] رَيْبٌ، ولا في نِيَّتِه شَوْبٌ، ولا في قَوْلِه خُلْفٌ، ولا في عَمَلِه آفَةٌ، فاشتمل على الصَّلَاحِ من جميع نواحيه، ولَوَى عليه أَطْرَافَه.

وأَشَدُّه - ما تقدَّم مِنْ أَنَّ أَصْدَقَ الشهادة على تَصْحِيحِ ما تدعو إليه الخَلْقَ - أن لا تخالف بِفِعَالِك[٤] ما تَنْطِقُ به من مَقَالِك، ألا ترى/ إلى قول صالح مَدْيَنَ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨]، ولا إِصْلَاحَ إلَّا من صَلَاحٍ. [٨٩/ب]

ويُروى عن جعفر الصادق أنه قال: «الصِّدْقُ هو[٥] مجاهدة النفس على مخالفة هواها من الشهوات والراحات، حتى لا يختار على الله غيرَه، كما لم يختر عليك غيرك حين قال لكم: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج:٧٦]»[٦].

---

(١) سقط من (ص) و(س) و(ز) و(ف).

(٢) سقط من (ف).

(٣) في (س) و(ص) و(ز) و(ف): عهده.

(٤) في (د) و(ص) و(س) و(ز) و(ف): بأفعالك، ومرَّضها في (د)، وما أثبتناه من طرتها.

(٥) مرَّضها في (د).

(٦) الإحياء: (ص١٧٦٤).

قال الحافظ أبو بَكْرٍ[١]: ويتمادى الصِّدْقُ إلى الوفاة، وبعمومه في الاعتقاد والأفعال والأقوال تَحْصُلُ[٢] الصِّدِّيقِيَّةُ؛ فيكونُ «صِدِّيقًا».

* * * * *

---

(١) في (د): قال أبو بكر بن العربي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ رضي الله عنه، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي رضي الله عنه.

(٢) في (د): فتحصل.

[الصِّدِّيقُ]: وهو الاسمُ الرَّابع عَشَرَ

ولمَّا لَمْ[١] يَبْلُغْ ذلك[٢] إلَّا بشِقِّ النَّفْسِ، ولم يَنَلْهُ إلَّا بغاية الجُهْدِ، سُمِّيَ «المُجَاهِد[٣]».

* * * * *

(١) في (س) و(ز) و(ف): ولم يبلغ.

(٢) سقطت من (س).

(٣) في (س): وسمي مجاهدًا.

[المُجَاهِدُ]: وهو الاسمُ الخامس عشر

وعليه مَدَارُ ما تقدَّم من الأسماء، نعم؛ وما يأتي بعده، فإن العبد بالمجاهدة يبدأُ أَمْرَه، وعليها يَسْتَمِرُّ، وبها يَخْتِمُ[١]، قال الله تعالى فيها عُمُومًا مُؤَبَّدًا: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]، وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج:٧٦].

قال علماؤنا: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، قال: «جَاهَدُوا أَوَّلًا بتَرْكِ المحرمات، وثانيًا بتَرْكِ الشبهات[٢]، وثالثًا بتَرْكِ الفَضَلَاتِ، ورابعًا بقَطْعِ العَلَاقات، وخامسًا بتَوَقِّي[٣] الأشغال في جميع الأوقات»[٤].

وقال بعضُهم في ذلك عبارةً مُوجَزَةً مُوعِبَةً من كَلِمَتَيْنِ، أخذت الطَّرَفَيْنِ، وجمعت الأوساطَ: «الجِهَادُ حِفْظُ الحَوَاسِّ لله، وعَدُّ الأَنْفَاسِ مع الله»[٥].

---

(١) ينظر: العارضة: (٨/٩٤).

(٢) في (س) و(ف): الشهوات.

(٣) في (د): بتوفي.

(٤) لطائف الإشارات: (٣/١٠٦).

(٥) لطائف الإشارت: (٣/١٠٦).

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، فجاؤوا فيها بالمعنى الوافي، قالوا: «حَقُّ الجهاد هو مُوَافَقَةُ الأَمْرِ في القَدْرِ[١] والوَقْتِ والنَّوْعِ، فإذا حَصَلَ في شيء منه مخالفةٌ لم يَنْطَلِقْ عليه اسمُ المجاهدة كمالًا ولا تحقيقًا»[٢].

والمجاهدةُ على أقسام: المجاهدة بالنفس، والمجاهدة بالقلب، والمجاهدة بالجوارح، والمجاهدة بالمال[٣].

فالمجاهدةُ بالنفس[٤] أن لا يَدَّخِرَ شَيْئًا، وسيأتي تفسيرُ ذلك، وحالُ النبي ﷺ وفِعْلُه فيه إن شاء الله، فإن ادَّخَرَ فليَبْذُلْهُ في طاعة الله، وليَتَحَمَّلِ المَشَاقَّ، ولا يَطْلُبِ الرُّخَصَ والاِرْتِفَاقَ.

وأمَّا المجاهدةُ بالقلب فرَفْعُ الخواطر الفاسدة، ورَدُّ الوسوسة بذكر الله والاستعاذة، وقد سأل عن ذلك رَسُولَ الله ﷺ حنظلةُ[٥]، وقد قال رسول الله[٦] ﷺ[٧]: «إن الشيطان يأتي أَحَدَكم فيقول: من خَلَقَ كذا؟ من خلق كذا؟ فيقول: الله، حتى يقول له: من خلق الله؟ فإذا وَجَدَ ذلك أحدُكم فليقل: لا إله إلا الله»[٨].

---

(١) في (د): القيمة.
(٢) لطائف الإشارات: (٢/٥٦٤).
(٣) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٥٦٤).
(٤) في (س) و(ف): للنفس.
(٥) تقدَّم تخريجه.
(٦) قوله: «رسول الله» لم يرد في (س) و(ص) و(ز) و(ف).
(٧) بعده في (س) و(ص) و(ز) و(ف): «ما تقدَّم»، وضرب عليها في (د).
(٨) تقدَّم تخريجه.

وأمَّا المجاهدةُ بالمال فبِقَطْع العلائق[1] بَيْنَهُ وبَيْنَه؛ حتى يَبْذُلَه في سبيل الله، ويُفَرِّقَه آناء الليل والنهار، ويقول به في الصدقة: هكذا وهكذا[2]، / ويُهْلِكَه في الحق، ويَتَحَقَّقُ ذلك بتقديم الأَشَقِّ على الأَخَفِّ متى تَعَارَضَا، ولا يَفْتُرْ عن مجاهدة النفس لحظةً، وهذا كلُّه لِمَا اجتباك، وما[3] اصطفاك حتى عَلِمَ فِعْلَكَ.

١ [٩٠/أ]

قال بعضُ شيوخ الفقراء: «كما لم يَمْنَعْهُ ما عَلِمَ فيك من عَيْبٍ أن يَجْتَبِيَكَ للإسلام، كذلك لا يَمْنَعُه ما عَلِمَ فيك من عَيْبٍ أن يغفر لك بفَضْلِه ورَحْمَتِه»[4].

نكتة[5]:

قال الإمام أبو بكر بن العربي[6] ﵁: قالوا: فلمَّا كانت[7] المجاهدةُ مَهُولَةَ السَّمَاعِ في الأَسْمَاعِ؛ قال - مُبَيِّنًا سُهُولَةَ المسالك، وهَوْنَ المدارك -: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[8] [الحج:٧٦]، قد قام بها قبلكم، وعَمِلَ بها سواكم؛ لأنه لم يتجاوز ما ذُكِرَ طَوْقَ المأمور، ولا خَرَجَ عن سَبِيلِ التَّيْسِيرِ.

---

(١) في (د) و(ص) و(ز): العلاقة.

(٢) في (س) و(ص) و(ف): هكذا وهكذا في الصدقة.

(٣) سقطت من (د) و(ص).

(٤) لطائف الإشارات: (٥٦٤/٢).

(٥) سقطت من (س) و(ص) و(ز) و(ف).

(٦) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.

(٧) بعده في (س) و(ص) و(ز) و(ف): هذه، وضرب عليها في (د).

(٨) في (س): «﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾، هي ملة أبيكم إبراهيم»، وفوق «هي» رمز التضعيف في (د).

[نَزَغَاتُ الشيطان وسُبُلُ العصمة منها]:

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣٢]، وذلك يكون - كما تقدَّم - بِبَذْلِ الطاعة، واستعمال غاية[1] القوة، والاستمرار على ذلك طُولَ المدة، حَسَبَ مَا يأتي في اسم «الصابر» إن شاء الله عز وجل، ومُكَافَحَةِ العَدُوِّ بغاية الشِّدَّةِ، وهُوَ في الأصل الشَّيْطَانُ الذي يأمر بالفحشاء والمنكر، ويَنْتَصِبُ للعبد في كُلِّ سَبِيلٍ من سُبُلِ الطاعة، ويَطْمِسُ عليه وجوه الخير.

وقد قال النبي ﷺ: «قَعَدَ الشيطانُ لابن آدم في طريق الإسلام فقال له: أَتُسْلِمُ وتَذَرُ دِينَكَ ودِينَ آبائك؟ فَخَالَفَهُ فَأَسْلَمَ، ثم قَعَدَ له في طريق الهجرة فقال له: أَتُهَاجِرُ وتَذَرُ أَهْلَكَ ووَلَدَكَ ومَالَكَ؟ فخالَفه فهاجر، ثُمَّ قَعَدَ له في طريق الجهاد فقال له: أُتَجَاهِدُ فتُقْتَلُ فتُنْكَحُ أَهْلُكَ ويُقْسَمُ مَالُكَ؟ فخالَفه فقُتِلَ، فحَقٌّ على الله أن يُدْخِلَه الجنة»[2].

ودخل ﷺ على أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِهِ يوم مات أَبُو سَلَمَةَ، وهي تريد أن تَبْكِيَه، فقال لها: «أتريدين أن تُدْخِلِي الشيطانَ بَيْتًا أَخْرَجَه الله منه؟ مَرَّتَيْنِ»[3].

---

(١) في (س) و(ص) و(ز): عامة.

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم: (٩٢٢-عبد الباقي).

وعن عائشة في حَدِيثٍ: أن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أَحَدٍ إلَّا وله شيطانٌ، قالت له: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، حتى أعانني الله عليه فأسلم»[١].

وفي بعض طُرُقِه: «ولا يأمرني إلَّا بخير»[٢].

وقد قال الله تعالى للشيطان: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:٦٤].

وهذا أَمْرُ تَهْدِيدٍ لا أَمْرُ تكليف، أفادنا الله به الإعلامَ بأنَّه سَيَفْعَلُ ذلك كلَّه، وأنه سَيَعْصِمُ منه عباده الذين استخلصهم لنفسه، إذ لا سلطان له على أَحَدٍ، أي[٣]: لا تَسَلُّطَ ولا حُجَّةَ[٤]، الحُجَّةُ لله تعالى، والقدرة له، والمقدور له، وفِعْلُ إبليس لا تأثير له إلَّا إظهارُ العلامة على حُكْمِ الله تعالى في العبد، إذ المقدورُ بالقدرة الحادثة لا يتجاوز مَحَلَّ القدرة، ومَنْعُه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان، وبعث سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينًا، رقم: (٢٨١٥-عبد الباقي).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود ﷺ: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان، وبعث سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينًا، رقم: (٢٨١٤-عبد الباقي).

(٣) سقطت من (س).

(٤) قال الإمام ابن عطية (٥/٥١٠): «وتفسيرُه هنا بالحجة قَلِقٌ»، كأنه لم يرتض ما ذهب إليه ابنُ العربي في تفسير «السلطان» الوارد في هذه الآية.

سُلْطَانَ الشيطان بأن لَّا يَخْلُقَ له قُدْرَةً، وذلك مُبَيَّنٌ في «كُتُبِ الأصول»[١]، مَبْنِيٌّ على أنَّ من/ اصطفاه لعبادته في الأوَّل بعِلْمِه وكتابه المكنون، وجدَّد له[٢] الاصطفاء عند الوقاع بأن خَلَقَ الذِّكْرَ[٣] لأبيه؛ ليقول ما قال النبي ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهلَه قال: اللهم جَنِّبْنَا الشيطان، وجَنِّبِ الشيطان ما رزقتنا، فقُضِي بينهما وَلَدٌ لم يَضُرَّه الشيطانُ»[٤]. [٩٠/ب]

وقال ﷺ: «ما من مولود يُولَدُ إلا يَمَسُّه[٥] الشيطان في جَنْبِه فيَسْتَهِلُّ صارخًا، إلَّا مَرْيَمَ وابنَها، لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٦]»[٦].

ويَعْصِمُه الله منه عند النوم؛ إذا آوى إلى فراشه أن يقرأ آية الكرسي، فلا يقربه شيطانٌ[٧].

---

(١) المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٢٧٣)، والأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٣٦٩/١).

(٢) سقط من (د) و(ص).

(٣) في (س) و(ص): الذكرى، ومرَّضها في (د).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، رقم: (١٤٣٤-عبد الباقي).

(٥) في (د) و(ص): مسه.

(٦) أخرجه. البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب التفسير، ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾، رقم: (٤٥٤٨-طوق).

(٧) يقصد به حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي؛ لن يزال معك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح»، أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل البقرة، رقم: (٥٠١٠-طوق).

وقال النبي ﷺ: «يَعْقِدُ الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَدٍ؛ يَضْرِبُ مكان كُلِّ عُقْدَةٍ: عليك لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فإن استيقظ فذَكَرَ الله انحلَّت عُقْدَةٌ، وإن توضَّأ انحلَّت عُقدة، وإن صلَّى انحلَّت عقدة؛ فأصبح نشيطًا طَيِّبَ النَّفسِ، وإلَّا أصبح خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَان»[١].

وقال ﷺ في رَجُلٍ نام عن الصلاة: «بَالَ الشَّيْطَانُ في أُذُنِه»[٢].

ودواؤه في الوسوسة بالاستعاذة[٣]، قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

فإن قيل: نَرَى أَنْفُسَنا إذا وَجَدْنَا من الشيطان وَسْوَاسًا نستعيذُ؛ فلا نَجِدُ له عنَّا انصرافًا، فكيف هذا مع ما[٤] تَلَوْتَه علينا آنِفًا مُذَكِّرًا به؟

قُلْنَا: عنه ثلاثةُ أجوبة:

الأوَّل: أنَّ هذا خطابٌ[٥] للنبي ﷺ في قَوْلٍ، وهو الذي يَرْتَدِعُ الشيطانُ عن وَسْوَاسِه بذِكْرَى رَبِّه، لضَعْفِ[٦] وَسْوَسَتِه له، وقُوَّةِ ذِكْرِ النبي ﷺ لربه تعالى وحاله في مرتبته ومنزلته[٧].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب التهجد، بابُ عَقْدِ الشيطان على قافية الرأس إذا لم يُصَلِّ بالليل، رقم: (١١٤٢-طوق).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه: كتاب التهجد، باب إذا نام ولم يُصَلِّ بالَ الشيطان في أُذُنِه، رقم: (١١٤٤-طوق).

(٣) في (ص): الاستعاذة.

(٤) بعده في (س) و(ص) و(ز): نتلوه، وضرب عليها في (د).

(٥) في (س) و(ف): الخطاب.

(٦) في (س): أضعف.

(٧) سقطت من (س).

وهذا على هذا القَوْلِ كان[1] قبل أن يُعينه الله عليه[2] فيُسلم، فلمَّا أسلم لم يَأْمُرْه[3] إلَّا بخَيْرٍ، وغَيْرُه من الشيطان لم يكن له إليه سبيل إلَّا في مرة واحدة.

في الصحيح: «أنَّه[4] تَفَلَّتَ عليه وهو في الصلاة، فأوثقه إلى سارية من سواري المسجد، ثم قال: ذكرتُ قول أخي سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص:٣٤]»[5]، فردَّه الله تعالى خاسئًا، ولولا ذلك لأصبح يَلْعَبُ به وِلْدَانُ المدينة، فهذا حالُ النبي ﷺ.

الثاني: أن هذا خطاب للنبي عليه السلام والمُرَادُ به[6] أُمَّتُه.

الثالث: أن أمته قد خُوطبت بعده وبُيِّنَ لهم حالهم كما بُيِّنَ له حالُه، فقيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ [الأعراف:٢٠١] - يعني: من الشياطين - ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٢]، والذين لا يتقون الله يكونون معهم أَمْدَادًا في المعصية لهم.

فأخبر تعالى أن النبي ﷺ يكفيه مُجَرَّدُ الاستعاذة في فراره منه إذا تَطَلَّعَ إليه، وأخبر أن المُتَّقِينَ من الأمة إذا مسَّهم منه طائف[7] استعاذوا بالله

---

(١) في (س): «وهذا على هذا القول وهذا كان»، وهي عبارة مضطربة.

(٢) سقطت من (س).

(٣) في (س): يأمر.

(٤) سقطت من (س) و(ص).

(٥) تقدَّم تخريجه في السفر الأوَّل.

(٦) سقطت من (د) و(ص).

(٧) في (ص) و(د): طيف.

١ منه، وتَذَكَّرُوا أن ذلك مَسٌّ من عنده؛ فاستبصروا وارتدعوا وزَهَقَ عنهم، ومن كان من إخوانه، / [٩١/أ] مَشَى مع الشيطان في ميدانه.

وعلى القَوْلِ بأن إخوانهم - يعني: من الشياطين -، يكون المعنى: أن الشياطين لا يألون في النَّزْغِ، وهم لا يألون في الاستعاذة، ويتعاركون حتى يغلب حُسْنُ القضاء أو سُوءُ القَدَرِ فيَنْفُذُ الحُكْمُ.

والصحيحُ - عندي - أن المراد به: وإخوانهم، أي: إخوان الشياطين من العصاة؛ يَمُدُّونَ بالمعصية معهم، ولا يستبصرون[(١)]، ولا يستعيذون، ولا يرجعون، وإن استعاذوا فبألسنتهم، وقلوبهم مشحونة بطاعتهم، مملوءة من مادَّتهم في الشهوات، فهُم إليهم[(٢)] راجعون، ومعهم مرتبطون.

وإنَّما الحكمة في ذلك أن الله أَعْلَمَ أنه لا بد أن يكون للشيطان مجال في قلوب [المؤمنين[(٣)]]، مع كلِّ أَحَدٍ حالٌ؛ فلكل صَارِمٍ نَبْوَةٌ، ولكل عالم[(٤)] هَفْوَةٌ، ولكل عابد شِرَّةٌ، ولكل عامل[(٥)] فَتْرَةٌ، ولكل سائر وَقْفَةٌ، ولكل قائل[(٦)] حُجَّةٌ، وهذا سَيِّدُ البشر ﷺ يُغَانُ على قلبه الشريف فيتُوبُ من كل ذنب في اليوم مائة مرة[(٧)]، فكيف بأمثالكم مع ما أنتم عليه في أحوالكم؟

---

(١) في (د): يستقصرون، وفي (ص): يُقْصِرون.

(٢) في (س): إليه.

(٣) قوله: «مجال في قلوب المؤمنين» سقط من (س) و(ص) و(ز) و(ف).

(٤) في (د): حليم.

(٥) في (د): عالم.

(٦) في (ص): عالم، وفي (س): عامل.

(٧) تقدَّم تخريجه.

[من فضائل عمَّار بن ياسر رضي الله عنه]:

قال القاضي أبو بكر[١]: وممَّن أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه ﷺ عَمَّارُ بن يَاسِرٍ، وبهذا استَدَلَّ المُحَقِّقُون على أن الطائفتين اللَّتين تَبَاغَتَا تطلبان الحق؛ أن طائفة عمَّار كانت أَقْرَبَ إليه وأَحَقَّ به لبُعْدِ الشيطان عن عمَّار، وما جَذَبَهُ إلَّا المَلَكُ، إذ لم يكن للشيطان عليه[٢] سَبِيلٌ.

[منزلةُ علي رضي الله عنه عند ابن العربي]:

ولو أَدْرَكْتُ الحال في صَبْوَتِي لكُنْتُ مع عَمَّارٍ وعَلِيٍّ، ولو أَدْرَكْتُه في مَشْيَخَتِي لَلَزِمْتُ غَنَمِي أو[٣] ضَيْعَتِي، ولخَاصَمْتُ مُعَاوِيَةَ مَعَ عَلِيٍّ، وأنا لهما مُحِبٌّ ومُعَظِّمٌ، ولِعَلِيٍّ مُقَدِّمٌ؛ لِعَظِيم مَنْزِلَتِه، وعُلُوِّ دَرَجَتِه، وإنَّ أَحَدًا بعد الثلاثة الخُلَفَاء[٤] لا يُدْرِكُ شَأْوَه، ولا يَلْحَقُ مَنْزِلَتَه، ولا خِلَافَةَ بعده.

وكذلك كان عُمَرُ رضي الله عنه منه مُجَارًا[٥]، ففي الصحيح: أن النبي ﷺ قال له: «ما سَلَكْتَ قَطُّ فَجًّا إلَّا سَلَكَ الشيطانُ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»[٦].

---

(١) لم ترد في (ص) و(س).

(٢) في (س) و(ف): عليه للشيطان.

(٣) في (س) و(ف): و.

(٤) في (س) و(ف): الخلفاء الثلاثة.

(٥) في (س): مجار.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه، رقم: (٣٦٨٣-طوق).

وأبو بكر الصديق[١] ﷺ أَعْظَمُ منه ؛ لأنه وُزِنَ بجميع الأمة - وفيهم عُمَرُ - فرَجَحَهُم أبو بكر[٢].

وأمَّا عثمان وعلي فمعصومان منه ؛ ما تَطَرَّقَ قَطُّ إليهما ، ولا دار حولهما ، ولقد كانت أبوابُهما مسدودةً عنه ، وخَيْلُه ورَجْلُه مهزومةً دونهما.

[العصمةُ من الشيطان]:

وقد يتَّفق أن يكون - مَعْشَرَ المُرِيدِينَ[٣] - بينكم وبينه حجاب ، فقد صحَّ من كل طريق ، وعند كل فريق: أن النبي ﷺ قال: «من قال[٤]: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ؛ في يَوْمٍ مائة مرة كانت له عِدْلَ عَشْرِ رقاب ، وكُتبت له مائة حسنة ، ومُحِيَتْ عنه مائة سيئة[٥] ، وكانت له حِرْزًا من الشيطان يَوْمَه ذلك حتى يُمْسِي ، ولم يأت أَحَدٌ بأفضل ممَّا جاء به إلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أكثر من ذلك»[٦].

ويستجيرُ منه بيتُك بالتسمية ، في الصحيح عن جَابِرٍ: قال النبي ﷺ: «إذا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ فكُفُّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب

---

(١) سقط من (س) و(ف) و(ص).

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة: (١/٣٧٨) ، رقم: (٨٢١) ، والبيهقي في شعب الإيمان موقوفًا على عمر ﷺ: (١/١٤٤) ، رقم: (٣٥) ، وصحَّح إسناده الحافظ السخاوي ، ينظر: المقاصد الحسنة: (ص٣٤٩).

(٣) في (س) و(ز) و(ف): معشر المريدين أن يكون.

(٤) قوله: «من قال» سقط من (س).

(٥) في (س) و(ز): خطيئة.

(٦) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي هريرة ﷺ: ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى ، (١/٢٦١) ، رقم: (٥٦٢-المجلس العلمي الأعلى).

سَاعَةٌ من العشاء/ فخَلُّوهم، وأَغْلِقْ بابَك واذكر اسم الله، وأَطْفِ مصباحَك واذكر اسم الله، وأَوْكِ سِقَاكَ واذكر اسم الله، وخَمِّرْ إناءك واذكر اسم الله، ولو أن تَعْرُضَ عليه شيئًا»(١). [٩١/ب]

أَمَا إنه يَتَطرَّقُ إلى العباد بالشهوات؛ وهي مُرَكَّبَةٌ في طِبَاعِ البَشَرِ، وبالآمال؛ ولها علاقة بالقلوب، وهي مركبة عليها، والشهوات مَذْمُومَةٌ على ألسنة الشرائع، ما وردت في حديث عن النبي ﷺ ولا عن أَحَدٍ من الصحابة ﵃.

قال النبي ﷺ: «حُفَّتِ الجنة بالمكاره، وحُفَّتِ النَّارُ بالشهوات»(٢)، فلا يتمنَّاها أَحَدٌ لأنها على شَفِيرِ جَهَنَّمَ، وإنَّما تُتَمَنَّى الطاعاتُ والخيراتُ والكُفْأَةُ(٣) والكفاية، وأمَّا غير ذلك فلا ينبغي لأَحَدٍ أن يَتَمَنَّى بَلَاءَ الله، قال النبي ﷺ: «اسألوا الله العفو والعافية»(٤).

وكان سُمْنُونٌ(٥) قد غلب عليه مقامُ المَحَبَّةِ فقال:

ولَيْسَ لي في سواك حَظٌّ ... فكَيْفَ ما شِئْتَ فاخْتَبِرْنِي(٦)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم: (٣٢٨٠-طوق).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﵁: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم: (٢٨٢٢-عبد الباقي).

(٣) في (د): الكِلاءة، وفي (ز): المكافأة.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي بكر ﵁: أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٣٥٥٨-بشار).

(٥) في طرة بـ (س) ومن خط القاضي: بخطه: سُمنون من شيوخ الصوفية.

(٦) البيت من مخلع البسيط، وهو لسُمنون، كما في ترجمته في رسالة القُشَيري: (ص٧٠)، وطبقات الأولياء لابن الملقن: (ص١٦٧).

فابتُلِيَ بعُسْرِ البَوْلِ، فلم يستطع الصبر، فكان يمشي على المكاتب ويقول للصبيان: «ادعوا لعَمِّكم الكذَّاب»[١].

ومعنى قوله ﷺ: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمكاره، وحُفَّتِ النَّارُ بالشهوات»، أي: جُعِلَتْ على حَفَافَيْهَا[٢]؛ وهي جوانبُها، وتَوَهَّمَ الناس أنها[٣] ضُرِبَ فيها المثل بجَعْلِهَا في جوانبها من خارج، ولو كان ذلك ما كان مثلًا صحيحًا، وإنَّما هي من داخل، وهذه صورتها:

الجَنَّة

الصبر		الألم
	المكاره	
الفقر		العدو

النَّار

المال		النساء
	الشهوات	
الجاه		المطاعم

---

(١) رسالة القُشَيري: (ص٧٠).

(٢) في (ز): حِقَاقَيْهَا.

(٣) في (ص): أنما.

وعن هذا عبَّر ابنُ مسعود لقوله: «الجنة حُفَّتْ بالمكاره، والنَّار حُفَّتْ بالشهوات، فمن اطَّلَعَ الحجاب واقع[١] ما وراءه»[٢]، وكلٌّ من تصوَّرها من خَارِجٍ ضلَّ عن معنى الحديث وعن حقيقة الحال.

فإن قيل: فقد قال: «حُجِبَتِ النارُ بالشهوات».

قُلْنَا: المعنى واحد؛ لأن الأعمى عن التقوى الذي قد أخذ سَمْعَه وبَصَرَه الشهواتُ، يراها ولا يرى النار التي هي فيها[٣]، وإن كانت فيها باستيلاء الجهالة ورَيْنِ الغفلة على[٤] قلبه، كالطائر يرى الحبة في داخل الفخ وهي محجوبة به، ولا يرى الفخَّ لغلبة شهوة الحبة على قلبه وتَعَلُّقِ باله بها، وجهله بما جُعلت فيه وحُجبت به.

واختصارُ ذلك نَبْذُ ثلاثة[٥] مَعَانٍ - والله أعلم -:

المَنْبُوذُ الأَوَّلُ: الدُّنْيَا

إلَّا ما لا بدَّ منه[٦]؛ فإنك إن عَلَّقَتْ أَمَلَكَ بها أَذْهَلَتْكَ، وإن تَنَاوَلْتَها نَبَذَتْكَ وأَلْهَتْكَ، وليس يمكنك أن تكون فيها[٧] قائمًا ولا بينهما سالمًا،

---

(١) في (س) و(ز) و(ف): وافق.

(٢) أخرجه أبو داود في الزهد: (ص١٥٣)، رقم: (١٦١).

(٣) في (س) و(ز): معها.

(٤) في (س) و(ز): عن.

(٥) في (د): ثلاث.

(٦) في (ز): له منه.

(٧) في (د): بها.

وفَضْلُ القوَّة على القيام بها لم يُؤْتَ إلَّا لمَخْصُوصِينَ[١]؛ كداود وسليمان، وأيوب ويوسف.

١ ألا ترى إلى احتراز النبي ﷺ عنها في شأن الخَمِيصَةِ حين صلَّى بها ولها عَلَمٌ، فلمَّا أَكْمَلَ صَلَاتَه قال: «أَلْهَتْنِي/ هذه آنِفًا عن صلاتي، فاذهبوا بهذه الخَمِيصَةِ إلى أبي جَهْمٍ، وائتوني بأَنْبِجَانِيَتِه»[٢]. [٩٢/أ]

وكذلك صلَّى العصر ثم خرج مُسْرِعًا ودخل بيته، وأخرج[٣] ذُهَيْبَةً[٤] وقسَّمها، وقال: «خَشِيتُ أن يَبِيتَ عندي منها شيء»، يعني: ولم يَصِلْ إلى مُسْتَحِقِّه.

وكذلك فعل الأنصاري؛ فإنه صلَّى في حائط له وطَفِقَ دُبْسِيٌّ[٥] يطير في أثناء الحائط ويتردَّد فأعجبه، فلمَّا نظر إليه ورجع إلى صلاته فلم يَدْرِ كَمْ صَلَّى، فجعل ذلك الحائط صدقة كِفَاءً لما فاته من تلك اللَّمْحَةِ في الصلاة[٦].

---

(١) في (س): مخصوص.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن عائشة ﵂: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة في ثوب له أعلام، رقم: (٥٥٦-عبد الباقي).

(٣) في (د) و(ص) و(ز): ثم أخرج.

(٤) في (د): ذَهيبة، وفي (ص): ذَهَبَة.

(٥) الدُّبْسِيُّ: طائر في لونه دُبْسَةٌ، وهي حمرة وسواد، التعليق على الموطأ للوقشي: (١٤٤/١).

(٦) أخرجه الإمام مالك من حديث أبي طلحة الأنصاري ﵁: كتاب الصلاة، النظر في الصلاة إلى ما يشغلك عنها، (١٧٣/١)، رقم: (٢٦٣-المجلس العلمي الأعلى).

ولو كان لَزَبْرَجِها آخِرٌ أو لشهواتها[١] وَقْفٌ لعَسُرَ ضبطُه، فكيف ولا نهاية لها[٢].

المنبوذُ الثاني: الخَلْقُ

وهُمْ على قِسْمَيْنِ:

أحدهما: أَهْلُ جِلْدَتِك.

والثاني: من يُخالفك في مِلَّتِك.

فأمَّا الذين يخالفونك في مِلَّتِك فتدعوهم إلى الدخول فيها.

وأمَّا الذين يكونون على مِلَّتِكَ ويَتَلَبَّسُونَ بجِلْدَتِكَ فالسنةُ مخالطتُهم، والمحافظةُ على حدود الله معهم، والتعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم، وسيأتي ذلك كله مشروحًا إن شاء الله.

وقد كانت معرفتُهم نِعْمَةً، وصُحْبَتُهم خَصْلَةً، وائتلافُهم مِنَّةً، ثم انقلبت[٣] الحال حسبما أَنْذَرَ به الصَّادِقُ فقال: «يأتي على الناس زَمَانٌ يكونُ خَيْرَ مال المسلم غَنَمٌ يتبعُ بها شَعَفَ الجبال ومواقع القَطْرِ، يَفِرُّ بدينه من الفتن»[٤].

---

(١) في (س) و(ز): ولشهواتها.

(٢) في (ص) و(ز): له.

(٣) في (س): انقلب.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كتاب الفتن، باب التعرب في الفتن، رقم: (٧٠٨٨-طوق).

وذُكِرَ عن[١] أَنَسٌ عن النبي ﷺ قال، قال عُمَرُ في حديث آخَرَ: «نعوذ بالله من سوء الفتن»، فقال النبي ﷺ: «ما رأيت في الخير والشر كاليوم»[٢].

وقال حذيفة: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يُدْرِكَنِي، فقلتُ: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شَرٍّ؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، قال: وفيه دَخَنٌ، قلت: وما دَخَنُه؟ قال: قَوْمٌ يُهْدُونَ بغير هُدًى، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دُعَاةٌ على أبواب جهنم، ومن أجابهم إليها قَذَفُوه فيها، قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: هُمْ[٣] من جِلْدَتِنَا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلتُ: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كُلَّها، ولو أن تعض بأصل شجرة؛ حتى يُدركك الموتُ وأنت على ذلك»[٤].

---

(١) سقطت من (س).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الفتن، باب التعوذ من الفتن، رقم: (٧٠٨٩-طوق).

(٣) سقطت من(س) و(ص) و(ز).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الفتن، باب كيف الأمرُ إذا لم تكن جماعة؟ رقم: (٧٠٨٤-طوق).

ودخل سَلَمَةُ بن الأَكْوَعِ على الحجَّاج ؛ وقد كان خرج إلى الرَّبَذَةِ حين قُتِلَ عثمان ﷺ، وتزوج امرأة هناك[١] ، ووَلَدَتْ له أولادًا ، فلم يَزَلْ بها حتى كان[٢] قبل أن يموت بلَيَالٍ فنزل المدينة ، فقال له الحجَّاج: «ارتددت على عَقِبَيْكَ[٣] ، قال: لا ، ولكن رسول الله ﷺ أَذِنَ لنا في البَدْوِ»[٤].

ومازال الناس يعتزلون ويخالطون ، كل وَاحِدٍ على[٥] ما يعلمُ من نفسه ويَتَأَتَّى له من أمره.

وقد كان العُمَرِيُّ[٦] بالمدينة مُعْتَزِلًا/.

[٩٢/ب]

وكان مالكٌ ﷺ مخالطًا ، وكُلٌّ على طريقة ، ثم اعتزل مالكٌ في[٧] آخِرِ عُمُرِه ، فيُروى أنه أقام ثمان عشرة سنة لم يَخْرُجْ إلى المسجد ، فقيل له في ذلك ، فقال: «ليس كل أَحَدٍ يُمكن أن يُخْبِرَ بعُذره»[٨].

واختلف الناس في عذره على ثلاثة أقوال:

---

(١) في (س): هنالك.

(٢) سقطت من (د) و(ص).

(٣) في (س): عقبك.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الفتن، باب التعرب في الفتنة، رقم: (٧٠٨٧-طوق).

(٥) في (س) و(ف): و.

(٦) العُمَري: هو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله، من ولد عمر بن الخطاب، الجامع لأبي عيسى: (٤١٣/٤-بشار)، وصحيح ابن حبان: (٥٤/٩-إحسان).

(٧) سقطت من (د) و(ص) و(ز).

(٨) ترتيب المدارك: (٥٥/٢).

فقيل: لئلَّا يرى المناكير[١].

وقيل: لئلَّا يمشي إلى السلطان.

وقيل: كانت به[٢] إِبْرِدَةٌ[٣]، فكان يرى تنزيهَ المسجد عنها[٤].

وقال النبي ﷺ: «يُوشِكُ أن يضرب الناس أَكْبَادَ الإبل فلا يجدون أعلم من عالم المدينة»[٥].

فقيل: هو العُمَرِيُّ[٦].

وقيل: هو مالك[٧].

وهو الأصح؛ لأنه لم يظهر للعُمَرِيِّ عِلْمٌ، وعِلْمُ مالك طَبَّقَ الآفاق.

وكان القاضي أبو بكر[٨] خَلُوطًا، وتولَّى الأحكام.

---

(١) ترتيب المدارك: (٢/٥٥).

(٢) في (س): له.

(٣) الإبردة - بكسر الهمزة والراء -: بَرْدٌ في الجوف ورطوبة غالبتان، ويقال: رجل به إِبْرِدَةٌ، أي: يَقْطُرُ بوله ولا ينبسط إلى النساء، تاج العروس: (٧/٤١٤).

(٤) ترتيب المدارك: (٢/٥٥).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أبوابُ العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في عالم المدينة، رقم: (٢٦٨٠-بشار)، وقال: «هذا حديث حسن»، وأخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم: (٣٧٣٦-إحسان).

(٦) الجامع لأبي عيسى: (٤/٤١٣-بشار).

(٧) الجامع لأبي عيسى: (٤/٤١٣-بشار)، وصحيح ابن حبان: (٩/٥٤-إحسان).

(٨) الإمام النظَّار، شيخ السنة، ولسان الأمة، محمد بن الطيب بن محمد البصري، القاضي أبو بكر بن الباقلاني الأشعري المالكي، قال فيه أبو عمران الفاسي: =

وكان الأستاذ أبو إسحاق[1] مُعْتَزِلًا.

وكان أبو بكر بن فُورَكٍ[2] مُتَبَتِّلًا؛ حتى انتهى إلى أن يُكَلِّمَه المَلَكُ في اليقظة.

= «كان سَيِّدَ أهل السنة في زمانه، وإمام مُتكلمي أهل الحق في وقتنا»، وأثنى عليه جماعة، منهم الإمام الحافظ أبو الحسن الدارقطني، وغيره ممن هم في منزلة مشيخته، وله جلالة عظيمة، ومصنفاته كثيرة جدًّا، اعتنى بها الناس؛ وتناقلوها وشرحوها واختصروها، منها: «هداية المسترشدين»، يوجد بعضه، وأصله في عشرين مجلدًا، واختصره ابن الخطَّاب الإشبيلي في ستة عشر سِفْرًا، كانت منه نسخة بالقيروان في القرن الحادي عشر، ومنها: «إكفار المتأولين»، توجد نسخة منه وحيدة في الخزانة العامة بالرباط، من كتب الفقيه الحافظ عبد الحي الكتاني، وعليها طُرَرٌ بخط الإمام أحمد بن المبارك السجلماسي، توفي ﷺ عام ٤٠٣هـ، ترجمته في: تاريخ بغداد: (٣/٣٦٤-٣٦٩)، وترتيب المدارك: (٧/٤٤-٧٠)، وتبيين كذب المفتري: (ص٢١٧-٢٢٦)، وسير النبلاء: (١٧/١٩٠-١٩٣).

(١) الإمام الحافظ النظَّار، جامع أشتات العلوم، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفراييني، أحد الأفراد في معرفة الكلام، وعمدة من عُمَدِ المذهب الأشعري، وصاحب المصنفات الجليلة، توفي عام ٤١٨هـ، له «عقيدة» في ورقات، و«الجامع الجلي» و«الجامع الخفي»، في عشرة أسفار، وهو من الكتب التي أدخلها أبو بكر بن العربي إلى الأندلس، و«مسائل الدَّوْرِ»، منها نسخة بالحمزاوية في ورقات، ترجمته في: طبقات الفقهاء للشيرازي: (ص١٢٦-١٢٧)، وتبيين كذب المفتري: (ص٢٤٣-٢٤٤)، والسير للذهبي: (١٧/٣٥٣-٣٥٦)، ، وطبقات الشافعية للتاج: (٤/٢٥٦-٢٦٢).

(٢) الإمام الجليل، شيخ المتكلمين، وأستاذ المحققين، أحد الأفراد في زمانه، صاحب التصانيف، أبو بكر محمد بن الحسن بن فُورَك الأصبهاني، بلغت =

ونادى الله عز وجلَّ أبو[١] إسحاق في المنام، وقال[٢] له: «إني أسألك التوبة منذ أربعين سنة ولم تتيسر[٣] لي، فقال[٤] له: سألتني عظيمًا[٥]»، وذكر حديثًا طويلًا.

[التعريفُ بالإمام نَصْرِ بن إبراهيم المقدسي[٦]]:

وقد رأيتُ من أهل التَّبَتُّلِ جماعةً؛ لم أَرَ فيهم أَحَدًا يَعْدِلُ أبا الفَتْحِ نَصْرَ بن إبراهيم، الإمامَ الزاهدَ، لَقِيتُه في جمادى الآخرة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكان ابتداءُ حاله أن أصله[٧] من «نابُلُس»؛ قَرْيَةِ حريق إبراهيم، خَيْفٌ بين جبلين، أنهارًا وثمارًا وظِلَالًا، ومياهًا باردة، ونِعْمَةً سابغة، وأَمْنًا مُطَّرِدًا.

= مصنفاته في أصول الفقه وأصول الدين ومعاني القرآن قريبًا من مائة مصنف، منها «مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري»، و«مشكل الحديث وبيانه»، وهما منشوران، و«تفسيره للقرآن»، يوجد ما يقارب النصف منه، و«طبقات المتكلمين»، و«أسماء الله تعالى»، وهما مفقودان، توفي -رحمه الله- مسمومًا، في طريق عودته من غزنة عام ٤٠٦هـ، ينظر: تبيين كذب المفتري: (ص٢٣٢-٢٣٣)، وسير النبلاء: (١٧/٢١٤-٢١٧)، والوافي بالوفيات: (٢/٢٥٤)، وطبقات الشَّافعية للسبكي: (٤/١٢٧-١٣٥).

(١) في (س) و(ص): أَبا.

(٢) في (س) و(ص) و(ف): وقد قال، وضرب على «قد» في (د).

(٣) في (د) - أيضًا -: في خـ: تيسَّر.

(٤) في (س): وقال.

(٥) في (س): في عظيم، وفي (ص): في عظيمة.

(٦) تقدَّم التعريف به وبمصادر ترجمته في السِّفر الأوَّل.

(٧) في (س) و(ص): أصلهم.

ونَشَأَ مع أبيه «ببيت المقدس»، وكانت لهم[١] دُورٌ وضِيَاعٌ، فتوفي أبوه وهو شابٌّ، فبقي مُدَّةً، ثم جَذَبَتْهُ سَابِقَةٌ سَعِيدِيَّةٌ، فخطفت من قلبه المحبة الدنياوية، وخرج حاجًّا، ثم جاهد ورجع إلى الموطن، فحَبَّسَ إحدى دَارَيْهِ على الطلبة مع مُعْظَم ماله، وجَعَلَ النَّظَرَ فيها[٢] إلى يحيى بن مُفَرِّج[٣] شَيْخِ أصحابه، وشَرَطَ أنَّ نَصِيبَه منها[٤] كأَنْصِبَائِهِمْ، وحبَّس الدار الأخرى على الأيتام الذين لا أَبَ لهم، وضَيْعَةً من ضِيَاعِهِ ليُنْفَقَ عليهم منها، حتى يتعلَّموا القرآن.

وخرج إلى «دمشق» لأجل كونها حينئذ في طاعة المصريين[٥]، واعتكف «بجامع دمشق» أربعين عامًا، وكان يأتيه نصيبُه مع الطلبة فعَيْشُه منه، وتَبَتَّلَ هذه المدة العُظْمَى، وانقطع إلى الله عَالِمًا مُتَعَلِّمًا مُعَلِّمًا، حتى توفي سنة تسعين وأربعمائة، وعليه جُبَّةُ سِمْطٍ سوداء - أخبرني بعضُ

---

(١) بعده في (س) و(ص) و(ز) و(ف): به، ومرَّضها في(د).

(٢) في (س) و(ز): فيه.

(٣) الإمام العلَّامة، يحيى بن مُفَرِّج المقدسي، القاضي الرشيد، صاحب المدرسة الشافعية، من كبار أصحاب الإمام نصر بن إبراهيم، وهو من شيوخ ابن العربي، حضر عنده في المناظرة بمدرسته؛ ومعه فيها من جاور المسجد الأقصى من علماء الآفاق، وكان استخلفه الفقيه نصر على مدرسته تلك، وتسمى أيضًا بالمدرسة الناصرية، ينظر: قانون التأويل: (ص٩١)، والعواصم: (ص٣٧٢)، والأُنس الجليل: (٢/٧٦).

(٤) في (س) و(ف): فيها.

(٥) يقصد بهم دولة بني عُبَيد الإسماعيلية.

أصحابنا[(١)] أنه بها دَخَلَ مُعْتَكَفَه -، ودَوَاةٍ، وسَطلٍ[(٢)] صُفْرٍ كان يشرب به ويتوضأ، قال لي: حَجَّ معي وغزا، ونَيَّفَ على التسعين وهو يَكْتُبُ في «المِزْهَرِيِّ» ثمانين سَطْرًا بخطٍّ دقيق، لكنَّ أسنانه تساقطت، ومات وما تلَبَّس بالدنيا ولا صَحِبَ من أهلها أحدًا، ولا رأى إلَّا من دخل إليه مُتَعَلِّمًا، وملأ أصحابُه الآفاق وأنجب، فنِعْمَ ما نَجَبَ[(٣)].

[المجاورةُ بالمسجد الأقصى - طهَّره الله -]:

[٩٣/أ] وأمَّا «المَسْجِدُ الأقصى»/ فكان منهم مَمْلُوءًا - كان - «بالسَّكِينة»[(٤)]، و«بمحراب زكرياء»[(٥)]، و«بباب التوبة والرحمة»[(٦)]، و«بمَهْدِ عيسى»[(٧)]،

---

(١) في (س): أصحابه.

(٢) في (د) - أيضًا -: سَيْطل.

(٣) في (ز): أنجب.

(٤) باب السَّكينة: هو أحد أبواب المسجد الأقصى، وهو من عُمَدِ أبوابه، ومنه يخرج إلى الشارع الأعظم، ينظر: الأنس الجليل: (٧٢/٢).

(٥) محراب زكرياء عليه السَّلام: هو بجوار الباب الشرقي من المسجد الأقصى، ينظر: الأنس الجليل: (٤٨/٢).

(٦) باب التوبة وباب الرحمة: هما من الأبواب غير المُشْرَعَةِ، ويقال: إن الذي أغلقهما هو سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، وبجوار باب الرحمة مدرسة نصر بن إبراهيم المقدسي شيخ ابن العربي، ينظر: الأنس الجليل: (٦٨/٢).

(٧) مهد عيسى عليه السَّلام: هو مسجد تحت الأرض، أسفل سوق المعرفة، ويقال: إنه كان محراب مريم عليها السَّلام، ينظر: الأنس الجليل: (٥٢/٢).

و«بِقُبَّةِ السِّلْسِلَةِ»[١]، و«بِقُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ»[٢]، و«بِقُبَّةِ جِبْرِيلَ عليه السلام»[٣]، و«بالصخرة المقدَّسة»[٤]، و«بمحراب داود»[٥]، و«بباب حِطَّة»[٦]، و«بباب الأَسْبَاطِ»[٧]، بِكُلِّ وَاحِدٍ رَجُلٌ عالمٌ منقطعٌ إلى الله، لم يخرج من المسجد مُذْ دخل إليه حتى استُشْهِدَ به[٨].

---

(١) قبة السلسلة: هي على صفة قبة الصخرة، وهي شرقيها، بين الباب الشرقي ودرج البُراق، ينظر: الأنس الجليل: (٢/٥٦).

(٢) قبة النبي سيدنا مُحَمَّدٍ ﷺ: هي قبة المعراج، على يمين الصخرة والصحن من جهة الغرب، ينظر: الأنس الجليل: (٢/٥٨).

(٣) قبة جبريل عليه السَّلام: كانت بجوار قبة المعراج قبة لطيفة، ثم أُزِليت، فلعلها هي، ينظر: الأنس الجليل: (٢/٥٨).

(٤) الصخرة المقدسة: في وسط المسجد، على الصحن الكبير المرتفع في أرض المسجد، ينظر: القبس: (٣/١٠٧٦)، والأنس الجليل: (٢/٥٣).

(٥) محراب داود عليه السَّلام: هو بظاهر الجامع في صحن المسجد من جهة الشرق، بالقرب من مهد عيسى، ويقال غيره، ينظر: الأنس الجليل: (٢/٥١)، و(١/٤٨٥).

(٦) باب حطة: في جهة الشمال من المسجد، سُمِّيَ بذلك لأن الله أمر بني إسرائيل أن يَدخلوا منه ويقولوا: حِطَّة، ينظر: الأنس الجليل: (٢/٧٠).

(٧) باب الأسباط: نسبة لأسباط بني إسرائيل، وهو قريب من باب الرحمة وباب التوبة، في مؤخرة المسجد، في آخر جهة الشمال من جهة الشرق، ينظر: الأنس الجليل: (٢/٦٩).

(٨) في كتاب العبر لابن خلدون (٥/١٨٤): «أُحْصِيَ القتلى من الأئمة والعلماء والعُبَّاد والزهَّاد المُجاوِرين بالمسجد فكانوا سبعين ألفًا أو يزيدون».

وكان «ببيت رَامَـةَ»[١] مُتَعَبَّدِ إبـراهيم، وبقريـة «حَبْـرُون[٢]»[٣]؛ حيـث قبـرُه، و«بحُلَحُول[٤]»[٥] قريـة يـونس حيـث تُـوُفِّيَ[٦]، و«بسَبَسْطِيَّة»[٧] قريـة يحيـى، و«بنـابُلُس» - برابطـة المنجنيـق تتخـذ[٨] لإبـراهيم عليـه الـسَّلام - جماعةٌ لا يُحْصَوْنَ؛ مشتغلين بالله، مقبلين عليه، خُرُوجًـا[٩] عـن الـدنيا وإن كانوا فيها، معرضين عنها وإن كانوا منها.

[الإقامة بالمُنَسْتِير[١٠]]:

ورأيت «بمُنَسْتِير إفريقية» جماعةً على الطريقة المُثلى فـي العزلـة عـن الـدنيا، أَقَمْـتُ عنـدهم عـشرين يومًـا فكَـأَنِّي فـي الآخـرة؛ طِيـبُ عِيـشَةٍ[١١]،

---

(١) بيت رامة: قرية مشهورة بين غور الأردن والبلقاء، معجم البلدان: (١/٥٢٠).

(٢) في (س): جيرون، وفي (ز): حيرون.

(٣) حَبْرون: هـي القريـة التـي دُفـن بهـا إبـراهيم عليـه الـسَّلام، وغلـب علـى اسـمها الخليل، قريبة من بيت المقدس، معجم البلدان: (٢/٢١٢)، وينظر في صفة قبر إبراهيم الخليل عليه السَّلام ومن جاوره من الأنبياء: أحكام القرآن: (٣/١١٠٣).

(٤) في (س): جلجول، وفي (ص): حلحلول.

(٥) حلحول: قرية بين بيت المقدس ومدينة الخليـل، بهـا قبـر يـونس عليـه الـسَّلام، وضبطها ياقوت بالفتح ثم سكون، معجم البلدان: (٢/٢٩٠).

(٦) ينظر: القبس: (٣/١١٥٨).

(٧) سَبَسْطِية: بلـدة قريبـة مـن بيـت المقـدس، بهـا قبـر زكريـاء وابنـه يحيـى عليهمـا السَّلام، معجم البلدان: (٣/١٨٤).

(٨) سقطت من (س) و(ص) و(ز) و(ف)، وكذلك قرأتها في (د)، فلعـل الـصواب فيها: الذي اتخذ.

(٩) في (س) و(ص): خروجٌ.

(١٠) كان ذلك عام ٤٩٤هـ، في صَدَره من المشرق.

(١١) في (د): عيش.

وسلامةُ دِينٍ، ثم جَذَبَتْنِي صِلَةُ الرحم، فَقَطَعَتْنِي عن الله مقادير[١] سماوية، فَاعْجَبْ - فَدَيْتُكَ - من قَطْعٍ بوَصْلٍ، ومن أَجْرٍ بذَنْبٍ، ومن إِعْرَاضٍ بإِقْبَالٍ، وذلك بضَرْبٍ من العَجْزِ والتقصير، وغَلَبَةِ حُبِّ الدنيا على القلب، ومسامحة في استدراج، وإلَّا فما أَسْهَلَ الجَمْعَ بين معاقد التقوى، وأَقْرَبَ التَّحْصِيلَ لوجوه الخلاص، ولكن بحَذْفِ العلائق وقَطْعِ الشهوات، وذلك يَعْسُرُ مع الإقبال عليها، ويَسْهُلُ مع التوفيق للإعراض عنها، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

ولقد قال لي شيخي[٢] في العبادة: «لا يَذْهَبْ لك الزمان في مصاولة الأقران ومواصلة الإخوان».

ولم أَرَ للخلاص شيئًا أَقْرَبَ من طريقين:

إمَّا أن يُغلق المرء على نفسه باب بيته.

وإمَّا أن يَخْرُجَ إلى مَوْضِعٍ لا يُعرف فيه.

فإن اضطُرَّ أَحَدٌ إلى مخالطة الناس فليكن معهم ببدنه، وليفارقهم بقلبه ولسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، ولا يفارقُ السكوت.

أنشدني محمد بن عبد الملك الصُّوفِي[٣] قال: أنشدني أبو الفضل الجَوْهَرِي:

---

(١) في (س) و(ف): بمقادير.

(٢) لعله الفقيه أبو بكر الطُّرطوشي تـ ٥٢٠هـ، تقدَّم التعريف به في السِّفر الأوَّل.

(٣) هو محمد بن عبد الملك التِّنِّيسِي، لقيه ابنُ العربي بمدينة بغداد، ولم أهتد إلى ترجمته بعد طول بحث، ويُكْثِرُ ابنُ العربي عنه رواية نوادر أبي الفضل الجوهري، ينظر: المطرب لابن دحية: (ص٢١٤)، ورحلة ابن رُشَيد: (١٣٩/٥)، ونفح الطيب: (٤٢/٢).

الخَيْرُ أَجْمَعُ في السكوتْ وفي ملازمة البيوتْ[١]

وقُلْتُ:

حَازَ السَّلَامَةَ مُسْلِمٌ يَأْوِي إلى سَكَنٍ وقُوتْ
ماذا يُؤَمِّلُ بعد أَنْ يَأْوِي إلى بَيْتٍ وبِيتْ

وقال أحمد: قال ابن مسعود لابنه: «يا بني؛ لِيَسَعْكَ بيتُك، وامْلِكْ عليك لسانك، وابْكِ من ذِكْرِ خطيئتك»[٢].

فإن قلتم: فالعالم ماذا يصنع؟ أيختفي فلا يهتدي به أحدٌ ولا يقتدي؟

قلنا: نعم؛ فإنه إن ظَهَرَ سُعِيَ عليه في أن يُخْمَلَ أو يُقْبَرَ، وقد تستَّر الأنبياء والأولياء، ورأيتُ لعبد الغني بن سعيد الحافظ[٣] «كتاب

---

(١) البيتان من مجزوء الكامل، وهو لمنصور بن إسماعيل الفقيه الشافعي المعروف، وبعده بيت آخر وهو:

فإذا تأَتَّى ذا وذ لك فاقتنع بأقلِّ قوت

وأسندهما البيهقي إليه في شعب الإيمان: (١٠٠/٧)، وذكرهما ابن عبد البر له في التمهيد: (٤٤٣/١٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في الزهد: (ص١٩٥)، وفي معناه حديث أخرجه الترمذي عن عقبة بن عامر ﷺ مرفوعًا: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم: (٢٤٠٦-بشار)، وقال: «هذا حديث حسن».

(٣) الإمام الحافظ، المحدث العلَّامة، الناقد النسَّابة، عبد الغني بن سعيد بن بشر بن مروان المصري، أبو محمد الأَزْدِي، (٣٣٢-٤٠٩هـ)، أفاد من أبي الحسن الدارقطني، وشهد له بعُلُوِّه في الحديث والنقد، ويروي عنه بالإجازة حافظ المغرب ابن عبد البر، له من المصنفات: «المؤتلف والمختلف»، و«مشتبه النسبة»، و«التنبيه على أوهام كتاب المدخل» لأبي عبد الله الحاكم، وكتابه =

المَسْتُورِينَ» بخَطِّه بالفُسْطَاط[١]، لم أر كتابًا مثله، بَدَأَ/ بإبراهيم إلى زمانه، [٩٣/ب] في عدة أجزاء.

فإن قلتم: قد قال النبي ﷺ: «عليكم بالجماعة، فإن يد الله عليها، فإن الشيطان ذِئْبُ الإنسان، يأخذُ الشاة القاصية»[٢].

قلنا: هذا حديثٌ باطلٌ، والمعنى حق، والجماعة[٣] لا تُفَارَقُ في الاعتقاد والعمل إذا كانوا على حَقٍّ وفي هدنة، وإذا رأيتَ الباطل والفتنة فالْبَسْ حُلَلَ النَّوَى، وانتَوِ فيمن انتَوَى.

وبالجملة؛ فإن البلاد المشرقية أَمْكَنُ للعزلة من البلاد المغربية؛ لسعة أقطار تلك وتمهُّد[٤] أمورها، وضِيقِ هذه عن آمال أهلها، وتلك لسعتها[٥] يَقِلُّ فيها الحاسد، ويكثُر المُساعد، ولا يُعدَم المُساند.

= هذا الذي ذكره له الإمام ابن العربي يوجد بعضه باسم «كتاب المُتَوارين»، منه قطعة في ظاهرية دمشق في سبع ورقات، وزعم العلَّامة الدكتور محمد فؤاد سزكين أنه كتاب مُفْرَدٌ فيمن اختفى خوفًا من الحجَّاج، وليس بذاك، بل هو قطعة من كتابه الكبير فيمن تستَّر وتوارى، والله أعلم، ينظر: سير النبلاء: (١٧/٢٦٩-٢٧٣)، وتاريخ التراث العربي: (١/٤٦١).

(١) في (د) و(ص): رأيت بخط عبد الغني بن سعيد الحافظ كتاب المستورين بالفسطاط.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل ﷺ: (٣٦/٣٥٨)، رقم: (٢٢٠٢٩-شعيب).

(٣) قوله: «فإن يد الله عليها .. والمعنى حق والجماعة» سقط من (ف).

(٤) في (س) و(ف): تمهيد.

(٥) في (س) و(ز) و(ف): لسعة أقطارها.

وفي مدارس العلم هناك مَنَالٌ[١]، وبروابط الصوفية مَجَالٌ رَحْبٌ للعبد[٢] مع خُلُوصِ النية، وإن انفردتَ اليوم لم تجد أصحابًا[٣]، وإن وجدتهم تَطَرَّقَتْ إليهم التهمة، وتعرَّضوا بأنفسهم إلى الهَلَكَةِ[٤].

قال لي بعض أشياخي: «إذا أردتَ أن تزهد في لقاء الناس فأَقْبِلْ على الفرائض، فإنك إذا لَزِمْتَها لم تجد لنفسك وَقْتًا خَالِيًا لهم».

فاختبرتُ ذلك في الصلاة؛ فوالله ما وجدتها تُبْقِي[٥] من الزمان للعِلْمِ[٦] إلَّا أقلَّه، ويا أَسَفِي أن أقبلتُ على طَلَبِ العِلْمِ ولم أُقْبِلْ على العمل.

[الدعواتُ الثلاث لابن العربي]:

وقد كنت بمكَّة في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمائة؛ فكنت أَبِيتُ بين المقام وزمزم وأعتكفُ فيه، وأَتَذَكَّرُ قَوْلَ النبي ﷺ: «ماءُ زمزم لِمَا شُرِبَ له»[٧]، فكنتُ أَشْرَبُه بنِيَّةِ العِلْمِ آناء الليل والنهار، فوَهَبَنِي الله ما

---

(١) سقطت من (ص) و(د).

(٢) في (د) و(ص): لله، وفي (س) و(ف): رحب لله للعبد.

(٣) في (د) -أيضا-: صاحبًا.

(٤) في (د) و(ص): للهلكة.

(٥) بعده في (س) و(ف): لي، ومرَّضها في (د).

(٦) سقط من (س) و(ز).

(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن جابر رضي الله عنه: (١٤٠/٢٣)، رقم: (١٤٨٤٩-شعيب)، وابنُ العربي في العارضة عن ابن عباس رضي الله عنهما: (٢٣٣/٤)، قال ابن حجر: «رجاله مُوَثَّقون، إلا أنه اختُلف في إرساله ووصله، وإرسالُه أصح»، الفتح: (٤٩٣/٣)، وذكر السخاوي أن ممَّن صحَّحه ابن عُيينة والدِّمْياطي =

شاء، ولم أشربه بنية العمل، ودعوتُ الله بالملتزم ثلاث دعوات، فَرَأَيْتُ الاثنتين وبَقِيَتِ الواحدة، والله يَمُنُّ بها عليَّ، فهي العُمْدَةُ[1].

= والمنذري، المقاصد الحسنة: (٣٥٧)، وضعَّفه ابنُ القطان الفاسي، ينظر: بيان الوهم: (٣/٤٧٨).

(١) قال الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي الأشيري - رحمه الله -: «أذكر من هذه الدعوات التي ذكر شيخُنا الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي ﷺ ما رجوتُ أنه نال بركتها، وصادف عند ربه خيرَها:

أمَّا **العلم**: فكتبه وتواليفه تشهد له؛ فإن له في علوم القرآن: من «التفسير»، و«الأحكام»، و«الناسخ والمنسوخ»، و«المشكل»، و«معاني أسماء الله تعالى»، و«معاني أسماء المؤمن»، وهو هذا الكتاب، وغير ذلك من علوم القرآن؛ ما تشهد بتبحره فيه. وأمَّا علوم الحديث فله «كتاب النَّيِّرَيْنِ في شرح الصحيحين»؛ ما لم يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إلى مثله، وله «عارضة الأحوذي في شرح الترمذي»، إلى غير ذلك من علوم الحديث، وله في أصول الفقه مصنفات عدة، وفي أصول الديانات مثلها. وله في النحو «ملجئة المتفقهين»؛ ما أعرب عن تقدمه فيه. وله نَيِّفٌ على ثلاثين تأليفًا؛ بين كبير ومتوسط وصغير، أكبرها ما يفي بنحو خمسة آلاف ورقة؛ وهو «النيرين في شرح الحديث»، و«أنوار الفجر في علوم الذكر»، إلى غير ذلك ممَّا يطول ذكره.

وأمَّا الدعوة الثانية: فهي -والله أعلم- **الظهور في القيام بالحق**، فقد وَلِيَ القضاءَ ببلده إشبيلية وأقام فيها العدل؛ حتى حسده من كان مساعدًا، ونابذه من كان معاندًا، ثم امتُحن فيه فصَبَرَ صَبْرَ أُولِي العزم؛ حتى انجلت محنته عن دين تَقِي، وعِرْضٍ نَقِي.

وأمَّا الثالثة -والله أعلم-: فهي **الشهادة**، فقد رُزِقَها -رحمه الله-، أُشخص عن بلده، وغُرِّبَ عن أهله وولده، حتى مات في غير وطنه، على خير سَنَنِه، فرحمة الله عليه ورضوانه، فلقد كان أَوْحَدَ زمانِه، وفردًا في جميع شانِه»، انتهى من طرة بالنسخة الآصفية من سراج المريدين: (ق١٠٧/ب).

فكانت الأولى: أن يجعلني من العلماء؛ حتى لا يتكلم أَحَدٌ بشيء مِنْ فَنٍّ مِنَ العِلْم؛ إن كان حقًّا إلَّا عَلِمْتُه، وإن كان باطلًا إلَّا قَدَرْتُ عليه[١]، إثباتًا للأوَّل، ونَفْيًا للثاني، فآتاني الله ذلك.

وآتاني الثانية، وبقيت الثالثة.

فيا ليتني كنتُ شَرِبْتُ ماء زمزم للعَمَلِ، ودعوت الله فيه في المُلْتَزَمِ.

ومن يستطع[٢] أن يَتَجرَّدَ ويُجَرِّدَ زمانه للعبادة[٣]؛ باجتناب نواهي الفرائض، وامتثال أوامرها، ويبقى له منه جُزْءٌ لشيء؟

ما أَظُنُّ ذلك ممَّا[٤] يُطاق في وقتنا إلا مع غَمْضِ العينين عن الخلق.

[الاعتصامُ بالقرآن]:

وقد قال النبي ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»[٥]، فإذا افتقرتَ فهو غِنَاكَ عن المال، وإن[٦] اشتقت إلى الأَهْلِ والوَلَدِ فهو يُغنيك عنهم، وإذا تطَّلعت إلى الناس فهو أُنْسُكَ دونهم، وإذا أردت لقاء من مضى أو من يأتي ففيه أنباؤهم، وإذا أردتَ الأنبياء فليس لك سَنَدٌ إليهم مثله، وإن أردتَ الله فهو كلامُه وصِفَتُه، وأحكامُه وسُنَّتُه في خلقه وأَمْرِه، مُذْ خَلَقَ[٧]

(١) في (د): قرَّرت.

(٢) في (س) و(ف): يستطيع.

(٣) في (ص): للعمارة، وسقطت من (ز).

(٤) سقطت من (س).

(٥) تقدَّم تخريجه.

(٦) في (س) و(ص) و(ف): إذا، ومرَّضها في (د).

(٧) قوله: «مذ خلق» سقط من (س) و(ز).

إلى أن ينتهي إلى الثواب والعقاب، وعَلِّقْ قلبك بما شِئْتَ/ من الهُدى [٩٤/أ] والضلال والخير والشرِّ؛ ففيه شفاؤه.

المنبوذُ الثالث: النَّفْسُ

وهي[١] أوَّلُ[٢] الشواغل وآخِرُها وأَوْسَاطُها، ولها ثلاثةُ أوصاف:

الأوَّل: وصفُها الأَوْلَى[٣] بسِنْخِها المُعْتَلِّ؛ فإنَّها من طِينٍ، أو في طِينٍ، وهي الأمَّارة بالسوء.

الثاني: اللوَّامة؛ وهي التي إذا عَثَرَتْ استقلَّت، وإذا طَغَتْ رَجَعَتْ، وإذا عَصَتْ استغفرت، وهي أبدًا في اضطراب.

الثالثة: النفس المطمئنة، وهي التي سارت على الجادَّة، واستقرت في مَوْطِنِ الطاعة.

وبين ابتداء حالها الأوَّلِ[٤] وبلوغها الثالثة بَلَايَا ونُوَبٌ[٥] وتَرْدَادَاتٌ[٦]، لا يُخَلِّصُ منها إلَّا السابقةُ الحُسْنَى.

[براءةُ يوسف عليه السَّلام]:

وقد غَلِطَ بعضُ[٧] الناس في أَنْ ظَنَّ بيوسف الصديق عليه السَّلام؛ أنها حَمَلَتْهُ على أن يأتي[٨] مَحْظُورًا، وسبحان الله، ﴿ما يَكُونُ لَنَآ أن

---

(١) في (س) و(ف): هو.

(٢) في (د): أولى.

(٣) سقط من (س) و(ز)، وفي (ص): الأول.

(٤) في (ص) و(ز): الأولى.

(٥) في (س): في خـ: ذنوب.

(٦) في (س) و(ص) و(ف): ترددات.

(٧) ينظر: تفسير ابن أبي زَمَنِين: (٣٢١/٢).

(٨) في (س) و(ف) و(ص): باشر.

نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦]، ما فعل يوسف إلَّا ما أخبر الله عنه؛ من أنَّ المرأة لَجَّتْ[١] في مطالبته على نفسه، ولَجَّجَتْ في بحار المنازعة، وهجمت عليه، ومزَّقت ثيابه، وهي مالكةُ أمره، فثبت بطِيبِ الأصل وطهارة الجَيْبِ، وخَطَرَ له هَمُّ الآدمية، فدفعه بالسَّابقة الإلَهية، وما أتى فُحْشًا[٢] ولا سُوءًا، وما[٣] كان منه إلَّا الهَمُّ الذي لا يؤاخذ به أَحَدٌ، فهو هَمٌّ وما تَمَّ، وهي هَمَّتْ وتَمَّتْ، واجتهدتْ في بَذْلِ نفسها، وجَذْبِهِ إليها، وهَتْكِ[٤] حجاب الحياء بينها وبينه، ورَفْعِ الخوف عن العاقبة في ذلك، والخلوة التي لا يُؤمن معها العار، فغَلَبَ الجِدُّ الجَدَّ[٥]، وما تجاوز يوسفُ الأَمْرَ والحَدَّ[٦].

وكان ما[٧] قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ [يوسف:٢٤]، يعني: جاءت بهذا كله، ويعني[٨] ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: خَطَرَ على باله الأَمْرُ بحُكْمِ البشرية، ورأى برهان ربه، يعني: ذكَّره الله الإيمانَ وما يلزم، وتَحْرِيمَ الله، ومجانبة المأثم، وهذا هو البُرهان الأعظم، وغيرُ ذلك ممَّا ذَكَرَ النَّاسُ

---

(١) في (س): لحت.

(٢) في (س): فحشاء.

(٣) في (ص): لا، وأشار إليها في (د).

(٤) في (د): هتكت، وأشار إليها في (س)، وبعدها لحق، وطرة بغير خط الأصل، وفيها: سِتْرَ، ومرَّض: الحياء.

(٥) في (س): الجَدّ الجَدَّ، وفي (ص): الجَدَّ الجِدَّ.

(٦) ينظر: لطائف الإشارات: (١٧٨/٢).

(٧) في (س) و(ف): كما.

(٨) في (د) و(ص) و(ز): يعني، ومرَّضها في (د).

تَخَرُّصٌ وتَوَهُّمٌ[١]، واستطالةٌ على أنبياء الله وكتابه، فحَذَارِ منهم ثُمَّ حَذَارِ[٢].

وأمَّا النفس اللوَّامة فتَوَهَّمَ بعضُ الناس أنها المرادة في قوله عليه السلام: «مَثَلُ المؤمن كمَثَلِ الخَامَةِ من الزرع، تُفيئها الرِّيحُ مَرَّةً هاهنا، ومَرَّةً هاهنا، ومَثَلُ الكافر كمَثَلِ الأَرْزَةِ المُجْذِية[٣]، حتى يكون انجعافُها مَرَّةً»[٤].

وقالوا: إن قوله: «إن الريح تُفيئها مرَّة ومرَّة»: أنه إِقْبَالُه على الذنب، ورجوعُه إلى التوبة.

وليس به، وإنما هُوَ: ما هو المؤمن عليه من الكَوْنِ في حال العافية مرَّة، وفي بلاء الله أُخرى.

والنَّفْسُ عَدُوٌّ مُبينٌ، قال عمر بن الخطاب بحضرة النبي عليه السلام: «أَيْ عَدُوَّاتِ أنفسهن، أَتَهَبْنَنِي ولا تَهَبْنَ رسول الله ﷺ؟ فقلن له: أنت أَغْلَظُ وأفظُّ[٥]»[٦].

---

(١) في (س): توهيم.

(٢) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/١٧٨).

(٣) سقطت من (د) و(س) و(ز).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن كعب بن مالك رضي الله عنه: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، بابُ مَثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز، رقم: (٢٨١٠-عبد الباقي).

(٥) في (س) و(ص) و(ف) و(ز): أفظ وأغلظ.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، رقم: (٢٣٩٦-عبد الباقي).

[٩٤/ب] وكان أبو بكر ﷺ ممَّن يَرُبُّ[١] رَسُولَ الله/ ﷺ، وكان عُمَرُ ممَّن يَذُبُّ عن رسول الله ﷺ، وحسَّانُ ممَّن يُنَافِحُ عن رسول الله ﷺ، وسائرُ الصحابة على هذين القِسْمَيْنِ إلَّا الأوَّل[٢]؛ فلم يَنْزِلْ في منزلة أبي بَكْرٍ أَحَدٌ.

وللنَّفْسِ ثَلَاثَةُ أَعْوَانٍ؛ إبليس، والدنيا، والهوى، وليس لها إلَّا نَاصِرٌ واحدٌ؛ وهو العقل، والكلُّ من جُنْدِ الله، أولئك من حِزْبِ الشيطان، والعَقْلُ من حِزْبِ الرحمن، والقضاءُ مُسَيْطِرٌ على الكلِّ، يفصلُ بين تنازعهم، ويَمْضِي بكل أحد إلى ما كُتِبَ له، قال بعضُهم[٣]:

إنِّـي بُلِيـتُ بـأَرْبَعٍ يَرْمِينَنِـي ... بالنَّبْـلِ عـن قَـوْسٍ لها تَـوْتِيرُ
إبليسُ والدنيا ونَفْسِي والهوى ... يا ربِّ أنت على الخلاص قَدِيرُ

والنفسُ أشدُّها لأنها بعَيْنِ[٤] المحبوب، وفي لِبْسَتِه تتراءى بصِفَتِه، وتَتَلَبَّسُ بهيئته، وتُزَيِّنُ القبيح، وتستر الداء، وتَجْلُو كلَّ مكروه بِصِفَةِ[٥] المحبوب، كما قال القائل - وهو الفرزدق[٦] -:

وعَيْنُ الرِّضَا عن كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... ولكنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا[٧]

---

(١) في (د) و(س): يذب عن.
(٢) في (ص): الأولى.
(٣) البيتان من الكامل، وهما في تفسير القرطبي: (٢٠/٦٧)، والتذكرة له: (٢/٨٨٠)، وغيرها من كتب الوعظ غير منسُوبَين.
(٤) في (د): في خـ: بين المحبوب.
(٥) في (س) و(ف): فصفة.
(٦) قوله: «وهو الفرزدق» لم يرد في (ص) و(س) و(ز) و(ف).
(٧) البيت من الطويل، وهو لعبد الله بن معاوية في الأغاني: (١٢/٢٥٠)، والكامل: (١/١٧٢)، وغلط من ينسبه للمتنبي.

قال لي أبو القاسم بن[1] الخواتيمي[2] بالمسجد الأقصى وقد جَرَرْنَا ذَيْلَ المذاكرة على ما أدَّى إلى إنشادي هذا البيت له[3]، فقال لي: هذا حَسَنٌ، وأَحْسَنُ منه قَوْلُ الآخر[4]:

أَفْسَدْتُمْ نَظَرِي عَلَيَّ فلا أرى ... مُذْ غِبْتُمُ حَسَنًا إلى أن تَقْدَمُوا

ودَعُوا مَلَامِي لَيْسَ يَحْسُنُ أن تَرَى ... عَيْنُ الرِّضَا والسُّخْطِ أَحْسَنَ مِنْكُمُ

فإن قيل: كَلَامُ الوَرَعِ والزهد والتخويف ليس على طريق النسيب.

قلنا: قَلْبُ المعنى الحَسَنِ إلى معنى الحق والحقائق عِلْمٌ، ورَدُّ الكلام إلى السبيل القويم دِينٌ، ولا تُبَالِ[5] بمَقْصَدِ قائله.

ثبت أن عائشة ﵂ كانت من أحفظ الناس للأشعار والأخبار؛ هي وأبوها وأختُها أسماء، وكان أبو كَبير الهُذَلِي الشَّاعر قد وصف رَبِيبَه تَأَبَّطَ شَرًّا بقَصِيدٍ[6]، منها قولُه[7]:

---

(١) في (س): ابن أبي الخواتيمي.

(٢) عبد الجليل بن عمر بن محمد بن بكران المقدسي، ابن الخَوَاتِيمِي الطبيب، سمع ببيت المقدس الفقيه نصر بن إبراهيم، وقَدِمَ دمشق بعد أخذ بيت المقدس فاستوطنها، وبها توفي، وكان ينظر في وقوف الجامع، ويتولَّى البيمارستان، تاريخ دمشق: (٤١/٣٤).

(٣) سقطت من (س) و(ز).

(٤) من الكامل، وهما لسداد بن إبراهيم، المعروف بالطاهر الجزري، أوردهما له ياقوت في معجم الأدباء: (١٤١٥/٣)، والصفدي في الوافي بالوفيات: (٧٨/١٥)، وابن شاكر في فوات الوفيات: (٤٥/٢).

(٥) في (د): أُبال.

(٦) في (د): قصيدة.

(٧) البيت من البسيط، لأبي كبير الهذلي، من قصيدة يصف فيها تأبَّط شرًّا، وهي في ديوان الهذليين: القسم الثاني: (ص٩٤).

وإذا نَظَـرْتَ إلـى أَسِـرَّةِ وَجْهِـه   بَرَقَـتْ كبَـرْقِ العـارض المُتَهَلِّـلِ

فدَخَلَ رسولُ الله ﷺ على عائشة فنَظَرَتْهُ وقالت: أنت يا رسول الله أَحَقُّ بقَوْلِ أبي كبير الهُذَلِي:

وإذا نَظَـرْتَ إلـى أَسِـرَّةِ وَجْهِـه   بَرَقَتْ كبَرْقِ العَارِضِ المُتَهَلِّلِ[١]

فأخذت الأمر من يَدِ غَيْرِ مُسْتَحِقِّهِ ووَضَعَتْهُ في حَقِّهِ.

وقال الهُذَلِي في قَصِيدٍ له[٢]:

وعَيَّرَهـا الواشـون أنِّـي أُحِبُّهـا   وتلـك شَكَاةٌ ظَـاهِرٌ عنـك عارُهـا

فلمَّـا قَتَـلَ الحَجَّـاجُ عبد الله بـن الزُّبَيْـر ابـنَ أسـماء بِنْـتِ أبي بَكْـرٍ الصديق؛ المُسَمَّاة بذات النِّطَاقَيْنِ، كان يقول له[٣]: يا ابـنَ ذات النِّطَـاقَيْنِ، فبلغ ذلك أسماءَ فقالت: إِيهًا والله[٤]:

وتِلْكَ شَكَاةٌ ظَـاهِرٌ عـنك عـارُها[٥]

أي: هذا قَوْلٌ ليس فيه عَيْبٌ.

وأخذته من العشق والغزل فرَدَّتْهُ إلى الحق.

أي[٦]: هذا قَوْلٌ زال عارُه، وذهب عيبُه، بل فيه غايةُ الشَّرَفِ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق محمد بن إسماعيل البخاري: (٤٩/٢).

(٢) البحر من الطويل، وهو لأبي ذؤيب الهذلي، من قصيدة في ديوان الهذليين: القسم الأول: (ص٢١).

(٣) في (س): لها.

(٤) في (د) و(ص): والإله.

(٥) طبقات ابن سعد: (٢٣٨/١٠).

(٦) سقطت من (س).

١

قالت أسماء[١]: «سمَّاني رسول الله ﷺ بذات النِّطَاقَيْنِ؛/ فإنه لمَّا أراد الهجرة مع أبي بكر صَنَعَتُ لهما سُفْرَةً، وأردت شدَّها فلم أجد، فشَقَقْتُ نِطَاقِي بنِصْفَيْنِ؛ وشَدَدْتُه بأحدهما وانتَطَقْتُ بالآخر، فقال لي رسول الله ﷺ: أَنْتِ ذاتُ النِّطَاقَيْنِ»[٢]. [٩٥/أ]

فصار هذا أَصْلًا في رَدِّ المعاني من مقاصد البطالة إلى الجلالة، ومن طُرُقِ الباطل إلى وجوه الحق، ومن المخلوق الذي ليس له عَمَلٌ إلى الخالق الذي له الأمر كلُّه.

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي[٣] رضي الله عنه: ولِي[٤] في ذلك نُكْتَةٌ بديعة؛ وهي أن النفس تَميلُ إلى اللَّهْوِ، وتُسْرِعُ إلى الغزل، فيُنْشِدُ المرءُ الأشعار[٥] الغزلية تَأْنِيسًا لها[٦]، ويَقْصِدُ بها الحقائق الإلَهية والشمائل النبوية تحقيقًا معها، حتى يُرِيها أنَّ صَغْوَهُ مَعَهَا أوَّلًا، ويَرُدُّهَا إلى الحقيقة آخِرًا، والأشعارُ الغَزَلِيَّةُ من سلاح الشيطان، فإذا قُوتِلَ بها يرى أن الغلبة في كل حَالٍ عليه.

وللنَّفْسِ خُدْعَةٌ أُخْرَى، وهي: أنَّها مُخَالِطَتُكَ، وإذا كان بينك وبين العَدُوِّ مسافةٌ أو حجابٌ كُنْتَ من ضَرَرِهِ آمَنَ وأَبْعَدَ، فإذا[٧] نزل معك في

---

(١) سقطت من (د) و(ص).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، (٣٩٠٧-طوق).

(٣) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

(٤) سقط من (س).

(٥) في (ز): إلى الأشعار.

(٦) مرَّضها في (د).

(٧) في (ص) و(د): فأمَّا إذا.

بلدك أو سَاكَنَكَ في بيتك لم يُمْكِنْكَ الاحتراسُ منه بحال، ولو تَحَرَّزْتَ لغَلَبَكَ بطُولِ المجاهدة، وقد قال العبَّاسُ بن الأَحْنَفِ أو غيرُه[1]:

نَفْسِي إلى ما ضرَّني داعي ... تُكْثِرُ أَسْقَامِي وأَوْجَاعِي

لقُلَّ ما أَبْقَى على ما أرى ... يُوشِكُ أن يَنْعَانِيَ النَّاعِي[2]

كَيْفَ احْتِرَاسِي من عَدُوِّي ... إذا كان عَدُوِّي بين أَضْلَاعِي

فإن جَهِلْتَها فقد تَعَجَّلَ هَلَاكُك، وإن عَلِمْتَها وقَاسَيْتَها فقد طال تَعَبُك، فانظر لِمَا يُخَلِّصُك، فإنه قريب لمن أعانه الله بتوفيقه.

رياضةُ النَّفْسِ:

ومن الحَقِّ عليك أن تحملها على مَكَارِهِ العبادة طاقةً، حتى تأنس بها فتفعلها طاعةً، فإنَّ التدريب في العبادة والتمرين في الطاعة[3] سُنَّةٌ قائمة، وسِيرَةٌ شَرْعِيَّةٌ.

في الصحيح: عن الرُّبَيِّع بِنْتِ مُعَوِّذِ بن عَفْرَاءَ قالت: «أرسل النبيُّ ﷺ غَدَاةَ عاشوراء إلى قُرَى الأنصار: من أَصْبَحَ مُفْطِرًا فليُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِه، ومن أصبح صائمًا فليَصُمْ، قالت: فكُنَّا نَصُومُه بَعْدُ، ونُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا، ونجعلُ لهم اللعبة من العِهْنِ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذلك حتَّى يكون عند الإفطار»[4].

---

(١) الأبيات من السريع، وهي لأبي الفضل العباس بن الأحنف في ديوانه: (ص١٧٨-١٧٩)، وفيه: قلبي إلى ما ضرني.

(٢) سقط هذا البيت من (د) و(ص).

(٣) في (س): الطاعات.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب صوم الصبيان، رقم: (١٩٦٠-طوق).

[أسماءُ النفس وأحوالها]:

ولها أَسْمَاءٌ في أحوال، وهذه إشارةٌ إليها:

اعلموا - وفَّقكم الله - أنَّ بِنَاءَ «ن ف س» في لسان العرب يَتَصَرَّفُ على مَعَانٍ قد بينَّاها في «الأَمَدِ»[1] وغيرِه.

أَصْلُها: أنَّها ذَاتُ الشيء، ورُوحُه، ورَفِيعُه[2]، ودمُه، ويرتبط بهذه الأربعة غيرُها[3]، وربَّما رجعت إلى اثنتين[4]، وقد تكون - كما قدَّمنا - مَمْدُوحَةً، وقد تكون مَذْمُومَةً.

وقد عبَّر الله بها عنه فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٨].

حتَّى قال بعض الغافلين: «إنَّ الأوَّلَ هُوَ الثاني بعَيْنِه».

وهو/ غباوة أو تعسف. [٩٥/ب]

وإنَّما معناه: تَعْلَمُ غَيْبِي ولا أَعْلَمُ غَيْبَكَ، وضَرَبَ له مَثَلًا ما في نَفْسِ الإنسان، أي: ما في ذاته مَطْوِيًّا، أَلَا تراه كيف بَيَّنَهُ بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]، أي: صفاته؛ لأنها قائمة به، وذلك غضبُه وسَخَطُه، وأفعالُه من نقمته وعقابه، وأُضِيفَ الكُلُّ إلى النَّفْسِ لأنها تقوم به وتَصْدُرُ عنه، كما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي

---

(١) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١/٢٦٧-٢٦٩).

(٢) في (ص): رفعته.

(٣) بعدها في (ز) سَقَطٌ بمقدار ورقتين.

(٤) في (د) و(ص): اثنين.

أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٣]، أي: يَعْلَمُ غَيْبَكم ويَطَّلِعُ على سرائركم[(١)]، ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٥].

وقد قال: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف:١٨٨].

المعنى: «تَسْلِيمُ الأقدار والأفعال لله بالتَّبَرِّي عن الحَوْلِ والقُوَّةِ، وأنَّ أَمْرَه كُلَّه لله، وتصرُّفَه بأجمعه بطَوْلِ رَبِّه، ولذلك تختلف عليه الأحوالُ بغير مراده؛ ما بين يُسْرٍ وعُسْرٍ، وذِكْرَى ونسيان، ولو كان الأَمْرُ بمُرَادِي ولم يَكُنْ بِيَدِ غَيْرِي لتشابهت أحوالي، وتناسقت[(٢)] أعمالي»[(٣)]، فهذا شأن البشرية فاعلموه.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف:١٨٩].

أي: «ذات واحدة، وموجود واحد، وأخلاقكم مختلفة، وهِمَمُكم متباينة، وصوركم متفاوتة، ومنازلكم متغايرة، وأطواركم متعاقبة، ومقاصدكم شتَّى متنافرة»[(٤)].

ألا ترى إلى[(٥)] النطفة وهي ذاتٌ واحدةٌ؛ كيف تَشَكَّلَتْ بأشكال، وتعاقبت عليها أحوال، فبعضُها لَحْمٌ، وبعضها عَصَبٌ، وبعضُها شَعَرٌ، وبعضها ظُفْرٌ، وبعضها عِرْقٌ، وبعضها جِلْدٌ، وبعضها مُخٌّ، وبعضها صُلْبٌ،

---

(١) في (س): سرائكم، وهو سبق قلم.
(٢) في (د): تناسبت.
(٣) لطائف الإشارات للقُشَيري: (٥٩٤/١).
(٤) ينظر: لطائف الإشارات: (٥٩٤/١-٥٩٥).
(٥) في (س) و(ف): أن.

وبعضها رَخْوٌ، كلٌّ بهيئة مخصوصة، وكيفية معلومة، ورُكِّبَ عليها السَّمْعُ والبَصَرُ، وجُعِلَ فيها الفِكْرُ والغَضَبُ، والقدرة والعلم، والشجاعة والجُبْنُ والحقد، والأوصاف التي يَقْصُرُ عنها العَدُّ، وذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤]، وقد بيَّناه في كتاب «أنوار الفجر»، في سِفْرٍ يَحْمِلُه فَرَسٌ، ويُضِيءُ كالقَبَسِ.

والنَّفْسُ حيث ما رَدَّدْنَاهُ نُريد به الجُمْلَةَ الآدمية بذاتها وصفاتها، وروحها ونَفْسِها، وجميع ما تشتمل عليه ظاهرًا وباطنًا.

وللآدمي ثلاثُ حالاتٍ أخبر الله عنه[1] بثلاثة أخبار:

أحدها: أن تكون المعصية شأنَه كلَّه.

الثانية: أن يكون مُطِيعًا من وَجْهٍ وفي حال، عاصيًا من وَجْهٍ وفي حال.

الثالثة: أن يكون مُطِيعًا في كل حال أو في أكثر الأحوال، بحيث يغلب خيرُه شرَّه، دُنياه وأُخراه[2].

فالنَّفْسُ الأولى[3]: هي الأمَّارة بالسوء.

والنفس الثانية: هي اللوَّامة كما قدَّمنا[4].

والثالثة: هي[5] المطمئنة.

---

(١) في (د): عنها.

(٢) في (س): دنيا وآخرة.

(٣) في (د): الأوَّل.

(٤) في (ص) و(د): قدَّمناه.

(٥) سقطت من (س).

[منازلُ النفس المطمئنة]:

وذلك في ثمانية[١] منازل:

المنزلة الأولى: أن تطمئن بالتوحيد حتى لا يلحقها رَيْبٌ.

الثانية: أن تطمئن بالذِّكْرِ حتى/ لا ترى لسواه لذة، ففي الصحيح: «أن النبي عليه السَّلام مشى في بعض أسفاره فعَلَا جَبَلًا فقال: هذا جُمْدَان، سِيرُوا، سَبَقَ المُفَرِّدُون، وهم الذين أُهْتِرُوا[٢] بذِكْرِ الله، يَضَعُ الذِّكْرُ عنهم أوزارهم»[٣]. [٩٦/أ]

الثالثة: أن يستقرَّ اليقين في قلبه بحيث لا يتطرَّق إليه وسواس؛ وهذا للأنبياء، فإن تطرَّق دَفَعَهُ بالتوحيد؛ وهذا للأولياء، فإن تطرَّق دَفَعَهُ بالمجاهدة؛ وهذا للمؤمنين.

قالت الصحابة: «يا رسول الله، إنَّا نَجِدُ في أنفسنا ما أن نَخِرَّ من السماء فتَخَطَّفُنَا الطَّيْرُ أَخَفُّ علينا[٤] من ذلك، قال: أَوَ قَدْ وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان»[٥].

---

(١) في (د) و(ص): ثماني.

(٢) في (د): اهتزوا.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﷺ: أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٣٥٩٦-بشار)، وأصله في الصحيح، أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم: (٢٦٧٦-عبد الباقي).

(٤) في (د): إلينا.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقول من وجدها، رقم: (١٣٢-عبد الباقي).

يعني: مجاهدة دَفْعِه، فجعله الله بفضله صريح الإيمان.

الرابعة: الطُّمأنينة بطاعة الله، حتى لا تجري على جوارحه معصية.

الخامسة: الطمأنينة بالتوبة، وهذا مُمْكِنٌ للناس في الكبائر، مُتَعَذِّرٌ في الصغائر، إلَّا على الأولياء.

السَّادسة: الطمأنينة بالتوبة، حتى لا يبقى للمعصية أَثَرٌ في النفس.

السَّابعة: الطمأنينة بالبشارة، كقول الصادق: «فلان في الجنة»، وكقوله: «ما من أَحَدٍ يَشْهَدُ أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدًا رسول الله صِدْقًا من قلبه إلَّا حَرَّمَهُ الله على النار»[١]، وذلك إذا قالها آمِنًا في نفسه، حاضرًا بعقله، وتصديقًا من قلبه.

الثامنة[٢]: الطمأنينة بالبشارة عند الموت من جِهَةِ المَلَكِ القابض لرُوحِه.

ويَتَرَكَّبُ عليه ما بيَّناه في «قانون التأويل»، فخُذْ منه ورَكِّبْ عليه سائر الأحوال يأتك منه أَمْرٌ عظيمٌ قَوْلًا وعملًا.

ولشَرَفِ النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ أَقْسَمَ الله تعالى بها في كتابه تعظيمًا لها؛ إذ هي أَكْثَرُ أحوال العبد، قال النبي ﷺ: «لو لم تُذْنِبُوا لجاء الله بقوم يُذنبون فيغفر[٣] لهم»[٤].

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) في (د): المنزلة الثامنة.

(٣) في (س) و(ز) و(ف): حتى يغفر.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب التوبة، باب سقوط =

وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧ - ٨]، وفيها خَمْسَةُ أقوال[١]:

الأوَّل: أَلْهَمَهَا طَرِيقَ الخَيْرِ وطَرِيقَ الشَّرِّ، وهو قوله في السُّورة التي قبلها: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، ثم قسَّمه فريقين، وخلق فيه مُتعارِضين؛ الشهوة والعقل، ورتَّب عليه عَسْكَرَيْنِ؛ الملائكة والشياطين، وسَلْطَنَ عليهم فِعْلَيْنِ؛ التوفيق والخذلان، ورَدَّدَهُمْ[٢] على كتابين؛ أُمٌّ فوق العرش، وبِنْتٍ فوق الفرش، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٠]، فطوبى لمن خرج في قِسْمِ السعادة وحُسْنُ مآب، ووَيْلٌ للأخيرَين[٣] وسُوءُ العذاب.

والأوصافُ والأخلاقُ مكتوبة، والمقادير ماضية[٤]، والأسباب مقدَّرة، وسترون تَرْتِيبَهَا في بقية الكتاب إن شاء الله.

ونَبْذُ[٥] النَّفْسِ عِصْيَانُها في الشهوات أَوَّلًا، ويتركَّب عليه[٦] عِصْيَانُها في المحرَّمات، فمن مَلَكَها في الشهوة لم يَخْطُرْ/ له المُحَرَّمُ على بال، ومن [٩٦/ب]

= الذنوب بالاستغفار، رقم: (٢٧٤٩-عبد الباقي)، ولفظه فيه: «لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيَغْفِرُ لهم».

(١) تنظر في: تفسير الطبري: (٢٤/٤١٥-التركي)، ولطائف الإشارات للقشيري: (٣/٧٣٣).

(٢) في (س): ردهم.

(٣) في (ص) و(د): للآخرين.

(٤) في (ص) و(د): مرضية.

(٥) في (د): بيد، وهو تصحيف.

(٦) في (د): عليها.

ساعدها في الشهوة وجرى معها عليها سَاوَرَتْهُ وجَرَّتْهُ حتى تُوقِعَه في المحرَّم، فإن الشهوة للمُحَرَّمِ حِمًى وشُبْهَةٌ[١]، والرَّاتِعُ حول الحِمَى يُوشِكُ أن يُوَاقِعَه[٢].

والطِبُّ لهذا الداء إذا وقع بالتوبة، والاحتراسُ منه السَّعْيُ في اكتساب الأخلاق[٣] المحمودة والصفات الشريفة، وتطهيرُها عن الرذائل والآفات بالأخلاق الممدوحة، وفي هذا كان النبي ﷺ يدعو فيقول: «ربِّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خَيْرُ من زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها»[٤].

ويقول عليه السلام: «اللهم إنِّي أعوذ بك من شَرِّ نَفْسِي»[٥]، ويُوعِزُ بذلك إلى المؤمنين.

ومن فَعَلَ ذلك منكم وحاز ذلك وصار به فهو «الصَّالِحُ»، وتفسيرُ ذلك: أن يكتسب أَوَّلًا من هذا صِفَةَ «المُصَلِّي».

* * * * *

---

(١) مرَّضها في (د).

(٢) في (د): وقع فيه، وما أثبتناه أشار إليه في طرته.

(٣) في (ص) و(د): الأسماء.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم ﵁: كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عُمِل، رقم: (٢٧٢٢-عبد الباقي).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﵁: أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، بابٌ منه، رقم: (٣٣٩٢-بشار).

[المُصَلِّي]: وهو الاسمُ السَّادس عشر

والصَّلَاةُ مقرونةٌ بالشهادتين، وهي تَأْدِيَةُ الطَّاعَةِ، وجُمْلَةُ العبادة؛ على ما تقدَّم بيانُه.

وقد جعلها الله من خصال إسماعيل فقال تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾ [مريم:٥٥].

ومن دعوة أبيه إبراهيم عليه السَّلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم:٤٢].

ولا يُوصَفُ بالكفر من تَرَكَ شيئًا من الأعمال الصَّالحة سواها، قال النبي ﷺ: «من تَرَكَ الصلاة كَفَرَ»[١]، «وبين العبد وبين الكفر تَرْكُ الصلاة»[٢].

ومَن امتنع مِن أداء الزكاة أُخِذَتْ منه كَرْهًا، ومن امتنع من الوضوء وُضِّئَ، ومن امتنع من الصيام حُبِسَ في بَيْتٍ مُوثَقًا حال وجوب الإمساك، [ومَن امتنع مِن] الصلاة قُتِل[٣].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم: (٢٦٢١-بشار).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم: (٢٦٢٠-بشار).

(٣) قوله: «الصلاة قُتل» سقط من (ص) و(س) و(ف).

وكـلُّ عبـادة مـن زكـاة[١] وحـج وصـيام تَـسْقُطُ عـن العبـد بأعـذار، وتتبعَّضُ[٢] بأسباب، والصلاةُ ملازمة له في كل حال؛ قائمًا وقاعـدًا، وعلى جَنْبٍ، وراكبًا وماشيًا، وبالإشارة.

وقد قال النبي ﷺ[٣]: «من فاتته صلاة العصر وُتِرَ أهلَه ومالَه»[٤].

وقال ﷺ: «من تَرَكَ صلاة العصر حَبِطَ عَمَلُه»[٥].

وما رأيتُ فيها رجاءً إلَّا حديث عُبادة، قال: قـال النبـي ﷺ: «خَمْـسُ صلوات كتبهنَّ الله على العبـاد فـي اليـوم والليلـة، مـن جـاء بهـنَّ لـم يُـضَيِّعْ منهن شيئًا استخفافًا بحقِّهن كان له عند الله عَهْدٌ أن يُدخلـه الجنـة، ومـن لـم يأت بهنَّ فليس له عند الله عَهْدٌ، إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له»[٦].

ولا تدخل المشيئة على كافر.

---

(١) في (د): وزكاة.

(٢) في (س) و(ف) و(ز): تتعذر.

(٣) في (س): عليه السَّلام.

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن ابن عمر رضي الله عنهما: كتـاب وقـوت الـصلاة، جـامع الوقوت، (١/١٠٤)، رقم: (٢١-المجلس العلمي الأعلى)، ولفظه فيه: «كأنمـا وتر أهله وماله».

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن بُرَيدة رضي الله عنه: كتاب مواقيـت الـصلاة، بـاب مـن ترك العصر، رقم: (٥٥٣-طوق).

(٦) أخرجه أبو داود فـي سـننه عـن عبـادة بـن الـصامت رضي الله عنه: كتـاب الـصلاة، بـاب المحافظة على الوقت، رقم: (٤٢٥-شعيب).

وقال النبي ﷺ: «لو أنَّ نَهْرًا بباب أحدكم يغتسلُ فيه كلَّ يوم خَمْسًا، هل[1] يُبْقِي[2] من دَرَنِه شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك مَثَلُ الصلوات الخمس، يمحو الله بهنَّ الخطايا»[3].

وأصاب رَجُلٌ من امرأة قُبْلَةً فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]،/ فقال الرجل: «يا رسول الله، أَلِي هذا خاصَّة؟ فقال: بل[4] لمن عَمِلَ بها من أُمَّتِي»[5]. ١ [٩٧/أ]

وقال له رجل: «يا رسول الله[6]، أَصَبْتُ حَدًّا فأَقِمْ عَلَيَّ، فقال[7] له: أليس قد صلَّيت معنا؟ قال: نعم، قال: فإنَّ الله قد غفر لك حَدَّكَ»[8].

وقال ابنُ مسعود: «أوَّلُ ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخِرُ ما تفقدون منه الصلاة»[9].

---

(١) بعده في (د) علامة اللحق، ولا يظهر شيء.

(٢) في (د): يبقين.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفَّارة، رقم: (٥٢٨-طوق).

(٤) في (د): بلى.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي عثمان النهدي ﷺ: كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفَّارة، رقم: (٥٢٦-طوق).

(٦) قوله: «يا رسول الله» لم يرد في (د) و(ص).

(٧) في (د) و(ص): قال.

(٨) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي أمامة ﷺ: كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، رقم: (٢٧٦٥-عبد الباقي).

(٩) أخرجه بنحوه الإمام أحمد عن حذيفة ﷺ في الزهد: (ص٢٦٥).

وأنا أقول: آخِرُ ما يُفْقَدُ منه الأَمْرُ بالمعروف، ثم التوحيد.

وقد اتَّفَقَ الفقهاء على قَتْلِ من تَرَكَ الصلاة، وإنما اختلفوا في صِفَةِ قَتْلِه[١].

فقال بعضهم: يُقتل بالسيف.

وقال أهل العراق: يُقتل بالسَّوْطِ[٢].

وقد سئل النبي ﷺ: «أَيُّ الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة لوقتها»[٣].

وثبت عنه أنه قال: «الصلاة لأوَّل وَقْتِها»[٤].

وكما أنها أَفْضَلُ الأعمال، كذلك هي في تَرْكِها أَشَدُّ الكبائر[٥].

وروى أحمد بن حنبل عن أبي الدرداء: «إني لأَعْلَمُ بشِرَارِكُم من البَيطار بالخيل؛ هم الذين لا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا، ولا يسمعون القرآن إلا هُجْرًا، ولا يُعْتَقُ مُحَرَّرُهم[٦]»[٧].

---

(١) ينظر: التمهيد: (٤/٢٢٥)، ونهاية المطلب: (٢/٦٥١)، والمقدمات: (١/١٤٤)، والعواصم: (ص٢٦٣-٢٦٤).

(٢) العواصم: (ص٢٦٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم: (٥٢٧-طوق).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه عن أم فروة ﵂: أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الوقت الأول من الفضل، رقم: (١٧٠-بشار)، وأشار أبو عيسى إلى ضعفه.

(٥) في (س): كذلك تركها أشد الكبائر، وفي (ص): هو أشد.

(٦) قوله: «ولا يعتق محررهم» سقط من (س) و(ص) و(ف) و(ز)، وبعده في (د) - أيضًا - ما لم أتبيَّنه، وظهر لي منه: «أي: .. لم يطلقوه»، وبعدها كلمتان لم أستطع قراءتهما، والله أعلم.

(٧) أخرجه أبو نُعَيم في الحلية: (١/٢٢١)، ولم أجده في الزهد للإمام أحمد.

وقد رُوِيَ في الحديث الحسن: «إنَّ أَوَّل ما يُقضى فيه من الحقوق الدِّمَاءُ»[١]، «وأَوَّلُ ما ينظر فيه من الأعمال الصلاةُ، فإن جاء بها نُظِرَ في سائر عمله، وإن لم يأت بها لم يُنظر له[٢] في شيء»[٣].

وقال ﷺ - في الصحيح -: «تَرَوْنَ ربَّكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تُضَامُونَ في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[٤] [ق:٣٩]»[٥].

[مراعاةُ أوقات الصلاة بالآلة الشمسية]:

وقد قال أبو الدرداء: «سبعة في ظل الله يوم القيامة؛ فذكر منهم[٦]: ورَجُلٌ يراعي الشمس لمواقيت الصلاة»[٧].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم: (٦٥٣٣-طوق).

(٢) سقط من (د) و(ص).

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ بلاغًا: جامع الصلاة، (١/٢٣٣)، رقم: (٤٨٢-المجلس العلمي الأعلى).

(٤) في (س) و(ز) و(ف): وقبل غروبها، وفي جميع النسخ: ﴿فسبح﴾، وكذلك هي في صحيح البخاري.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن جرير رضي الله عنه: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم: (٥٥٤-طوق).

(٦) في (س) و(ص) و(ف): منها.

(٧) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد عن سلمان رضي الله عنه موقوفًا: (ص١٨٩).

ويُرِيدُ به: ببَصَرِه، لا بآلَةٍ؛ فإن النَّظَرَ في «الآلَةِ» مُحْدَثٌ، لم يكن قَطُّ في القرون الثلاثة المُثْنَى عليها، فاقذفُوها من قلوبكم قبل أن تَرْمُوا بها من أيديكم، فإن الشيطان لمَّا رأى الناس يزهدون تَدَيُّنًا عن «الإِسْطِرْلَاب» هَجَمَ عليهم في «آلَة» سمَّاها «مِيزَانًا»، فاغترَّ الناس بها، ولم يعلموا في أي كِفَّةٍ توضع من[1] الميزان، وما أنزل الله بها من سلطان، ولا كان عليها السَّلَفُ في سائر الأزمان.

وكان آخِرُ ما أوصى به النبيُّ ﷺ: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم»[2].

[فرائضُ وسُنَنُ وفضائلُ الصلاة]:

وهي فريضةٌ، ولها فرائضُ وسُنَنٌ وفضائلُ في قول العلماء.

قال لي ذَانَشْمَنْد[3]: «إذا صلَّى المرءُ فليأت بهيئة الصلاة المعلومة، وليس يحتاج أن يَنْوِيَ بها فَرْضًا من سُنَّةٍ، ولا يُعَيِّنُه في النيَّة، وإنما ينوي الصَّلَاةَ مُطْلَقًا على هيئتها المعلومة الكاملة».

وهذا صحيحٌ؛ لأنه[4] لا يَخْلُو أن يكون نَظَّارًا/ أو مُقَلِّدًا، وأيهما كان [٩٧/ب] فليس يَخْلُصُ له عِلْمُ الفَرْضِ منها من النفل إلَّا بعد عناء؛ لاختلاف الأدلة في ذلك، واختلاف الروايات، فلا النَّظَّارُ يخلصُ له دليل، ولا المُقَلِّدُ تصحُّ له رواية.

---

(١) في (د): في.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه عن علي رضي الله عنه: كتاب الأدب، بابٌ في حق المملوك، رقم: (٥١٥٦-شعيب).

(٣) في (س) و(ص): ذانشمند، ويعني به الإمام أبا حامد الطوسي رحمه الله، ومعناه: عالم العلماء، كذا في طرة بـ (س).

(٤) سقط من (س).

وهذا النَّبِيُّ ﷺ لـم يُبَيِّنْ للأعرابـي فَرْضًـا مـن سُـنَّةٍ، وإنمـا قـال لـه: «صَلِّ»، وعَلَّمَـه مُطْلَـقَ الهيئـة، فقـال لـه: «كَبِّرْ، واقـرأ مـا تيسَّـر معـك مـن القرآن»، وفي رواية: «فاتحة الكتاب، وما تيسر معك مـن القـرآن»، والأَوَّل أصح، «ثم اركع حتى تطمئنَّ راكعًا، ثم ارفع حتى تستويَ قائمًا، ثم اسـجد حتى تطمئنَّ ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئنَّ جالسًا، ثـم اسـجد حتـى تطمـئن سـاجدًا، ثـم ارفـع حتـى تطمـئن جالسًا[١]، ثـم افعـل فـي صـلاتك[٢] كلهـا ذلك»[٣]، فلَمْ يَسْتَوْفِ له هيئة الصلاة، وقد كان نَزَلَ كَمَالُهَا.

ووصَـفَ عَشَرَةٌ مـن أصـحاب النبـي ﷺ صـلاتَه؛ روى محمـد بـن عمرو بن عطاء[٤] عن أبي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، قال: سمعته وهو في عشرة مـن أصحاب النبي عليه السَّلام - أحدُهم أبو قتادة - يقول: «أنا أَعْلَمُكم بصلاة رسول الله ﷺ، قالوا: ما كنت أَقْدَمَنا له صحبة، ولا أكثرنا لـه إِتْيَانًـا، قـال: بلـى، قـالوا: فـاعرض[٥]، فقـال: كـان رسـول الله ﷺ إذا قـام إلـى الـصلاة اعتدل قائمًا، ورفع يديه حتى يُحَاذِيَ بهمـا مَنْكِبَيْـهِ، فـإذا أراد أن يركـع رَفَـعَ يَدَيْه حتى يُحاذي بهما منكبيه، فإذا أراد أن يَرْفَعَ رَفَعَ يَدَيْه حتى يحاذي بهما

(١) قوله: «ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفـع حتـى تطمـئن جالـسًا» سـقط مـن (س) و(ف) و(ص).

(٢) فـي (س) و(ف) و(ز): صـلواتك، ومرَّضـها فـي (د)، وأثبـت فـي الطـرة: صلاتك، وصحَّحها.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريـرة ﷺ: كتـاب الأذان، بـاب اسـتواء الظهر في الركوع، رقم: (٧٩٣-طوق).

(٤) في (س) و(د) و(ف): فقالوا: عن عمرو بن عطاء.

(٥) في (س): فأعرض.

منكبيه، ثم قال: الله أكبر، وركع ثم اعتدل، فلم يَصُبَّ رأسَه ولم يُقْنِعْ، ووضع يديه على ركبتيه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ورفع يديه واعتدل حتَّى يرجع كلُّ عَظْمٍ في موضعه مُعْتَدِلًا، ثم أَهْوَى[١] إلى الأرض، ثم قال: الله أكبر، ثم جَافَى عَضُدَيْه عن بطنه، وفَتَخَ أصابع رجليه، ثم ثَنَى رِجْلَه اليُسرى وقَعَدَ عليها، ثم اعتدل حتى يرجع كلُّ عَظْمٍ في موضعه مُعْتَدِلًا، ثم أَهْوَى ساجدًا، ثم قال: الله أكبر، ثم ثَنَى رِجْلَه وقَعَدَ واعتدل حتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَظْمٍ في موضعه، ثم نهض، ثم صنع في الركعة الثانية مثل ذلك، حتى إذا قام من السجدتين كبَّر ورَفَعَ يديه حتى يُحاذي بهما منكبيه؛ كما صنع حين افتتح الصلاة، ثم صنع كذلك حتى كانت الركعة التي تنقضي فيها الصلاة أخَّر رِجْلَه اليسرى وقعد على شِقِّهِ مُتَوَرِّكًا، ثم سَلَّم»[٢].

قال الإمام الحافظ أبو بكر[٣] رضي الله عنه: فالحديثُ الأوَّل في أَمْرِه، والثاني في فِعْلِه، وليس في واحد منهما استيفاءٌ للفرائض على رأيكم، ومنها فَرْضٌ[٤]، ومنها ما ليس بفَرْضٍ، والخَطْبُ في ذلك مُعْضِلٌ، وما رأيتُ من كَشَفَ هذه الكُرْبَةَ، وقد بيَّنتُها في «شَرْحِ الحَدِيثِ» و«المسائل»[٥].

---

(١) في (د) و(ص): هوى.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في وصف الصلاة، رقم: (٣٠٤-بشار).

(٣) في (د) و(ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.

(٤) قوله: «ومنها فرض» سقط من (د) و(ص).

(٥) ينظر: القبس: (٢١٧/١).

١ والذي أَجْمَعَتْ عليه الأمة في الصَّلَاةِ النِّيَّةُ عند الدخول، دون تكبير وقراءة آية واحدة بالعجمية، والركوع دون الطمأنينة، والسجود/ كذلك، [٩٨/أ] والخروجُ عن الصلاة بِنِيَّةٍ دون سَلَامٍ بأي فِعْلٍ كان ممَّا يضادُّ الصلاة، فلو اقتصر أَحَدٌ على ما أجمعت[١] عليه الأمة في فرائض الصلاة لجاء بصورة لَعِبٍ لا بصورة عبادة، وإذا جاء بما وَصَفَ أبو حُمَيْدٍ جاء بصفة حسنة، وليست[٢] بفَرْضٍ بالإجماع، فلذلك قال: «إنَّ عليه أن يأتي بالصلاة على أكمل الأوصاف، ولا يُعِيِّنَ في نِيَّتِهِ فَرْضًا من سُنَّةٍ»[٣]، وإنما عليه الاقتداء بالنبي عليه السَّلام.

فإن قيل: فما يفعل إذا سَهَا؟

قلنا: لم يُبْنَ[٤] الكتابَ لمن سَهَا.

يُروى أن أحمد بن حنبل كان يمشي إلى شيبان الراعي[٥] العابد زائرًا، فقال له الشافعي: «يا أبا عبد الله؛ أريد أن أزور معك شيبان، فقال له أحمد بن حنبل: أخاف أن تُكَلِّمَه بما يَكْرَهُ، قال: لا[٦]، فتَوَاعَدَا ومَشَيَا إليه، فلمَّا بلغاه أَلْفَيَاهُ قد جعل الغَنَمَ في القِبْلَةِ يَحْرُسُها وهو[٧] يُصَلِّي، فلمَّا سَلَّمَ

---

(١) في (د): اجتمعت.

(٢) في (ف) و(س): ليس.

(٣) يقصد قول الغزالي المتقدِّم.

(٤) في (س) و(ف): نَبْنِ.

(٥) العابد الزاهد، شيبان الراعي، توفي في حدود السبعين ومائة، أخباره في: الحلية: (٣١٧/٨)، وتاريخ الإسلام: (٤/٤١٠-٤١١)، والوافي بالوفيات: (١١٨/١٦).

(٦) سقطت من (س).

(٧) سقط من (س) و(ص).

قصداه وسلَّما عليه، وتحدَّثا، فلمَّا أرادَا الانقلاب عنه قال له الشافعي: من نسي سجدة من صلاته لا يدري من أي ركعة هي؟ قال له شيبان: ولِمَ نَسِيَ؟ هذا قَلْبٌ غَافِلٌ عن الله، فكَرِهَ أحمدُ مقالته، وقال له: قد كنتُ نَهَيْتُك عن هذا»[١].

فلهذا[٢] لم نَبْنِ[٣] هذا[٤] الكتاب على هذا الباب.

صلاةُ الجماعة:

والجماعة معنى الدين، وشعارُ الإسلام، وهي فرض كفاية، وليست من فرائض الأعيان، ولو لم يكن فيها إلَّا تَضْعِيفُ الأجر أو الدرجات؛ من عَشْرٍ، إلى خَمْسٍ وعشرين درجة، إلى سَبْعٍ وعشرين جُزْءًا.

ولو تركها أَهْلُ مِصْرٍ قُوتِلُوا، أو أَهْلُ حَارَةٍ أُجْبِرُوا[٥] عليها وأُكْرِهُوا.

وقد تطرَّق الخَلَلُ إليها اليوم بفساد الناس وفساد الأئمة؛ فأمَّا عامةُ الناس فلا يُمَكَّنُوا من التَّخَلُّفِ عنها، ولا حُجَّةَ لهم في إمامهم أن يكون غير رِضًى[٦] عندهم، فإنه مِثْلُهم، وإنما يَطْلُبُ الأَفْضَلَ الأَفْضَلُ، وإنَّما يكون

---

(١) رسالة القُشَيري: (ص٤٣٥)، والسائلُ فيها أحمد لا الشافعي، ويبعد أن تكون هذه الحكاية صحيحة، فوفاةُ شيبان الراعي كانت قبل أن يلقى الإمامُ أحمدُ شيخَه الشافعي، والله أعلم.

(٢) في (د) و(ص): فلذلك.

(٣) في (ص): يُبْنَ.

(٤) سقط من (س).

(٥) في (س) و(ف): جُبِروا.

(٦) في (د): رَضِيّ.

إمامُك مِثْلَك، وتقول: «لا أصلي خلفه»، فلا تُصَلِّ أنت إذًا، فإنَّ ما يَقْدَحُ في صلاتك يَقْدَحُ في صلاته، وما تَصِحُّ به صلاتُه تَصِحُّ به صلاتُك.

[إمامةُ الفاسق]:

ومسألةُ إمامة الفاسق ذَهَبَتْ بما فيها لعُموم هذه الصفة، ولو لم يتقدَّم اليوم للإمامة إلَّا عَدْلٌ؛ ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

«والصَّلَاةُ أَحْسَنُ ما يَفْعَلُ الناس، فإذا أَحْسَنُوا فأَحْسِنْ معهم، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم»[1]، إلَّا أن يَجُوزَ الرَّجُلُ مَرْتَبَتَه، وتَشْتَهِرَ للعَالِمِ منزلتُه، ويتخلَّف عن المسجد، فيَذْكُرُ عُذْرًا أو لا يذكره، فيُقْبَلُ ذلك منه ويُخَلَّى[2]، كما فَعَلَ مَالِكٌ وغيرُه من العلماء.

وقد قال عثمان بن أبي العاص: «لولا الجُمُعَةُ وصلاةُ الجماعة لبَنَيْتُ في أعلى داري هذه بَيْتًا، فلم أخرج منه حتى أخرج إلى قبري»[3].

فإن خاف فساد حاله تَرَكَ ذلك كلَّه؛ ودَخَلَ في سِرْبٍ، وعَضَّ على أَصْلِ شجرة.

---

(١) أخرجه البخاري من قول عثمان ﵁: كتاب الأذان، باب إمامة المفتون والمبتدع، رقم: (٦٩٥-طوق).

(٢) سقط من (س)، وبعده في (س) و(ص) و(ف): وما رأى، وضرب عليه في (د).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في الزهد: (ص١٩٠).

ا [٩٨/ب]

وروى البخاري/ - في كتاب الصلاة - عن أبي هريرة قال: «يُصَلُّونَ لكم، فإن أصابوا فلكم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم»[(١)].

[الرفعُ قبل الإمام]:

وأشدُّ ما على الناس[(٢)] في[(٣)] القدوة أنهم يضعون قبل الإمام ويرفعون استعجالًا؛ لأن نواصيهم بيد شيطان[(٤)]، وهلَّا تفكروا في أنهم لا يُسَلِّمُونَ قبله، وينبغي لهم أن لا يضعوا رؤوسهم للركوع حتى يَرَوْهُ راكعًا مطمئنًا، فإن لم يكونوا بحيث يَرَوْنَه فحتَّى يُتِمَّ[(٥)] تكبيره، وكذلك لا يرفعوا حتى يُتِمَّ تكبيره، ولا يُكَبِّرُوا للإحرام حتى يُتِمَّ تكبيره، ولا يُسَلِّمُوا حتى يُتِمَّ تسليمه.

وفي صحيح الحديث: «أمَا يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يُحَوِّلَ الله صُورَتَه صُورَةَ حِمَارٍ؟»[(٦)].

قال علماؤنا: يعني به: «صورة الحمار الباطنة من البلادة»[(٧)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأذان، باب إذا لم يتم الإمام وأتم من خلفه، رقم: (٦٩٤-طوق).

(٢) في (د): الإنسان، ومرَّضها.

(٣) في (س): من.

(٤) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي هريرة ﷺ موقوفًا: كتاب الصلاة، ما يفعل من رفع رأسه قبل الإمام، (١/١٦٨)، رقم: (٢٤٧-المجلس العلمي الأعلى).

(٥) في (د): يتمم.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الأذان، باب إثم من رفع رأسه قبل الإمام، رقم: (٦٩١-طوق).

(٧) الإحياء: (ص١٢٠).

ولا بَلَادَةَ أَعْظَمُ من أن يَرْبِطَ معه نِيَّةَ الاقتداء به ثم يُلْزِمُ نفسه أَلَّا يَعْقِدَ[١] الصلاة قبله، ثم يخالفه ويَحُلُّ[٢] ما رَبَطَ من الاقتداء به.

وفيه: «أن أَحَدًا منَّا ما كان يَحْنِي ظهره حتى يَسْتَتِمَّ النبيُّ ﷺ ساجدًا، ثم نقعُ سُجُودًا بعده»[٣].

صِفَةُ النِيَّةِ:

بَعَثَ الله مُحَمَّدًا ﷺ بالحنِيفيَّة[٤] السَّمحة فقال: «صلُّوا الظهر والعصر، وكذا وكذا»، فهو الذي يفتقر المرء إليه.

وقال بعضهم - مُتَنَطِّعًا -: «يَنْوِي فَرْضَ الوَقْتِ»[٥].

وهذا إنما هو لمن كانت عليه صلاةٌ[٦] مَنْسِيَّةٌ فهو يَقْضِيها، فيفتقرُ إلى التمييز.

وتنطَّع بعضهم فقال: «أقولُها بلساني»[٧].

---

(١) في (د) - أيضًا -: يُتِم.

(٢) في (د): يُخِل بما.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن البراء ﷺ: كتاب الأذان، باب متى يسجد من خلف الإمام، رقم: (٦٩٠-طوق).

(٤) في (د): الحنفية.

(٥) ذَكَرَ ذلك الإمامُ أبو المعالي في نهاية المطلب: (١١٧/٢)، وأحال على كتابه «الأساليب»، ولعلَّ ابن العربي أخذه من هذا، فهو من جملة الكتب التي أدخلها إلى الأندلس، وينظر: الإحياء: (ص١٨٠).

(٦) سقطت من (س) و(ص).

(٧) نهاية المطلب: (١٧٠/٢).

وليستْ حينئذ بنِيَّةٍ[١]، ولم يُشْرَعْ عندنا افتتاحُ قَوْلٍ قبل النية.

وبعد التكبير؛ اختلف الناس فيما يُقال ويُقرأ.

وجاء بعضهم بالدَّرْدَبِيسِ[٢] فقال: «يُجَرِّدُ الإيمان، ويُحْضِرُ التَّوْحِيدَ»[٣].

وهذا باطلٌ قَطْعًا، فإن هذا يَلْزَمُ في كُلِّ فِعْلِ طَاعَةٍ أو تَرْكٍ، ولا يمكن هذا، فلم يَبْقَ إلَّا أنَّ حُكْمَ الإيمان عليه مُسْتَرْسِلٌ، وتكفي نِيَّةُ القُرْبَةِ للآمِرِ بها، أو نِيَّةُ التَّرْكِ للنَّاهِي عنه، وقد قال تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٤ - ١٦٥]، فليس على العبد أكثر من ذلك.

[نَقْدُ قول ابن رشد في تقديم النية على التكبير]:

وتَعَدَّى حَدَّه من ليس من أهل الفِقْهِ فقال: «يجوز تقديمُها قبل التكبير»[٤]، حَمْلًا على مسألة في الطهارة - ليس لها أَصْلٌ في الرواية - في الحمَّام والنَّهْرِ، ولو صَحَّتْ لَمَا حُمِلَ أَصْلٌ متفق عليه؛ وهو النية في الصلاة، على فَرْعٍ مُخْتَلَفٍ فيه؛ وهو النية في الوضوء، فهذا عَكْسُ الإسلام، وقَلْبُ الأدلة، ولا يَفْعَلُ هذا إلَّا منكوس القَلْبِ[٥].

---

(١) في (س): نية.

(٢) الدردبيس: الداهية، تاج العروس: (٦٣/١٦).

(٣) ولأبي المعالي قولٌ قريبٌ منه، ذكره ابن العربي في المسالك: (٣٤٥/٢)، والقبس: (٢١٠/١).

(٤) هذا قَوْلُ الإمام ابن رُشْدٍ الكبير رحمه الله، ذَكَرَه في المقدمات الممهدات: (١٥٦/١، ١٧٠).

(٥) ينظر: القبس: (٢٠٩/١-٢١٠)، والمسالك: (٣٤٥/٢).

صِفَةُ القراءة:

١ يَقْرَأُ الإمامُ والفَذُّ بغير خلاف، وأمَّا المأموم فيما جَهَرَ فيه الإمامُ فلا[١] يَحِلُّ له أن يَقْرَأَ؛ لأنَّ فَرْضَه/ الاستماعُ والإنصاتُ. [٩٩/أ]

وأمَّا الذي يُسِرُّ فيه الإمام أَوْ لَا يَسْمَعُه المأموم[٢] فليقرأ فيه ضرورةً، فإن لم يَقْرَأْ بَطَلَتْ صَلَاتُه عندي، ولا يقرأ إلَّا بقلبه، فإن قَرَأَ بلسانه وقَلْبُه ذاهلٌ لم تُكْتَبْ[٣] له، ولا أَقْبَلَ الله عليه؛ لأنه يُعْرِضُ عنه، ومن أَعْرَضَ أَعْرَضَ الله عنه.

قال النبي ﷺ - في صحيح[٤] الصحيح -: قال الله تعالى: «قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نِصْفَيْنِ؛ فنِصْفُها لي ونصفُها لعبدي، ولعَبْدِي ما سأل، قال رسول الله ﷺ: اقرأوا، يقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، يقول الله: حَمِدَنِي عَبْدِي، يقول العبد: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يقول الله: أثنى عَلَيَّ عَبْدِي، يقول العبد: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، يقول الله: مَجَّدَنِي عبدي، يقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فهذه الآيةُ بَيْنِي وبين عبدي، ولعَبْدِي ما سأل، يقول العبد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، وقرأ إلى آخرها، فهؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل»[٥].

---

(١) في (س): لا.
(٢) في (د): في خـ: المأمومون.
(٣) في (د): تكتب.
(٤) مرَّضها في (د)، ولا معنى لتمريضه، فصحيح الصحيح عند الإمام ابن العربي هو كتاب «الموطأ» للإمام مالك رضي الله عنه.
(٥) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الصلاة، القراءة خلف الإمام فيما لا يجهر فيه الإمام، (١/١٦١)، رقم: (٢٢٦-المجلس العلمي الأعلى).

وهذا إنَّما يكونُ لسالم القَلْبِ حَاضِرِ النِّيَّةِ، فهو الذي يَتَّصِفُ بأنه حَمِدَ ومَجَّدَ وأَثْنَى، ولذلك قال النبي ﷺ: «أمَا يخشى الذي يَرْفَعُ رأسه إلى السماء في الصلاة أن يُخْطَفَ بصرُه»[١]، وذلك أن النبي عليه السَّلام أخبر «أن الله تعالى تِلْقَاءَ وجهه»[٢]، فإذا صار الربُّ في قِبْلَتِه، وكان - كما صَحَّ - تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فكيف يرفع بصره إلى غيره[٣]؟

والسماءُ قِبْلَةٌ للدعاء، والكعبة قِبْلَةٌ للصَّلاة، والله فيهما جميعًا؛ تعظيمًا وعِلْمًا، وليس فيهما إحاطةً ومكانًا[٤].

وليَعْلَمْ أنه قائمٌ بين يَدَيِ الله، وهو عليه مقبل[٥]، فلا يلتفت ولا يعبث، وليُقْبِلْ عليه بقلبه، فإنَّ النية تُحَرِّمُ الكلام والأفعال والأقوال، إلَّا فيما[٦] كان من[٧] الصلاة في اليَسِيرِ؛ ضَرُورَةَ البشرية، ونَفْيًا للحرج عن الأمة في هذه المِلَّةِ.

فإذا ركع فليُمَكِّنْ يَدَيْه، وليَهْصِرْ ظهره، ولا يَرْفَعُ رأسه ولا يَخْفِضُه، وإنما يكون نِصْفُه الأسفلُ قائمًا، ونصفُه الأعلى نائمًا مُعْتَدِلَ النَّوْمِ؛ بحيث

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الصلاة، باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة، رقم: (٤٢٩-عبد الباقي).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما: كتاب الصلاة، باب حك البزاق باليد من المسجد، رقم: (٤٠٦-طوق).

(٣) في (س) و(ف): السماء.

(٤) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص١٦٤)، والأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٤٣٩/١).

(٥) في (د): مقبل عليه.

(٦) في (د): ما.

(٧) في (د): ما كان في.

لو جُعِلَ على ظهره كُوزُ مَاءٍ لم يَنْكَفِ منه شَيْءٌ، ثم يَفْعَلُ كما في حديث النبي ﷺ آمِرًا وفَاعِلًا[١]، وكلُّ فِعْلٍ منها بخشوع وملاطفة وتَمَلُّقٍ، حتى إذا سَجَدَ عَلِمَ أنه أَقْرَبُ ما يكون من رَبِّه، فليُكْثِرْ من تعظيمه ومسألته، ولا يَنْقُرُ أَرْبَعًا؛ لا يَذْكُرُ الله فيها إلَّا قَلِيلًا، وإذا[٢] ركع قال: «سبحان الله العظيم[٣] وبحمده»، ثلاثًا، فإذا رفع رأسه من الركوع قال: «ربَّنا ولك الحمد حَمْدًا كثيرًا طَيِّبًا مباركًا فيه»، فإذا سجد قال: «سبحان ربي الأعلى»، ثلاثًا، فإذا رفع رأسه من السجود[٤] قال بين السَّجدتين: «اللهم اغفر لي، وارحمني، وارزقني»، ولا يُخْلِي[٥] هذه الأحوال من[٦] ذِكْرِ الله؛ فإنها أجسادٌ، والذِّكْرُ فيها أَرْوَاحُها، وفي ذلك آثارٌ[٧] كثيرةٌ صِحَاحٌ،/ [٩٩/ب] اطلبوها واذكرُوا ما أمكنكم منها.

ويُبَكِّرُ في أَوَّل الوقت بها، فإن أفضل الأعمال الصلاة لأَوَّل وَقْتِها، والتأخيرُ جائز، ولكن إن مات عصَّاه[٨] قَوْمٌ وأَثَّمُوه، وفَاتَهُ عند الآخرين ما لا يَنْجَبِرُ له أبدًا.

وقد قال عمر ﷺ: «لا حَظَّ في الإسلام لمن تَرَكَ الصلاة»[٩].

---

(١) في (د): أمرًا وفعلًا.
(٢) في (د): فإذا.
(٣) في (د) و(ص): سبحان الله.
(٤) في (س) و(ف): السجدة.
(٥) في (ص): تخلي.
(٦) في (د) و(ص): عن.
(٧) في (د): أخبار.
(٨) في (د): عصَّوه.
(٩) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الطهارة، العمل فيمن غلبه الدم من جرح أو رعاف، (١٢٦/١)، رقم: (٩٥-المجلس العلمي الأعلى).

وقال: «من حفظها»؛ يعني: في نفسها، «وحافظ عليها»[١]؛ يريد: دَاوَمَ عليها.

ولا يأتي بها صُورَةً بلا رُوحٍ؛ فإنَّ المقصود بها إِصْلَاحُ الباطن وتَمْرِينُ الأعضاء في الظاهر؛ باكتساب الذِّلَّةِ، والاعتراف بالعِزَّةِ[٢] للعَلِيِّ المُتَعَالِي، فلا يستقبلُ القِبْلَةَ بجسده، ويستقبل بقَلْبِه المعاصي أو الدنيا؛ فيتناقض ظاهرُه وباطنُه، فيكون نوعًا من النفاق، أو إعراضًا[٣] محضًا عن الله وإقبالًا على غيره، كما قال بعضُ البَطَّالِين[٤]:

أراني إذا صَلَّيْتُ يَمَّمْتُ نحوها ... بوَجْهِي وإن كان المُصَلَّى وَرَائِيَا

ووالله ما أَدْرِي إذا ما قَضَيْتُها ... اثنتين صَلَّيْتُ الضُّحَى أم ثَمَانِيَا

وهذه حالُ الناس مع دنياهم في عبادتهم اليوم، إلا أن الرجل قد يَتَدَبَّرُ ما يقرأ أو يَعْرِضُ له ذِكْرٌ من أَمْرِ الأُخْرَى[٥] فيَلْحَقُه سَهْوٌ، وهذا عند الله عَفْوٌ، ولا يقدر على حَبْسِ القلب على فِعْلِ الصلاة إلَّا صَابِرٌ، كما لا يقدرُ على الدخول فيها إلَّا صَابِرٌ، ولأَجْلِ هذا قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ من قول عمر ﷺ: كتاب وقوت الصلاة، وقوت الصلاة، (١/١٠٠)، رقم: (٧-المجلس العلمي الأعلى).

(٢) في (د): بالعز.

(٣) في (د) و(ص): وإعراضًا.

(٤) البيتان من الطويل، ووقع في نسبتها وألفاظها وترتيبها خلاف، فهي للمجنون في ديوانه (ص١٢٤) بترتيب آخر، وهما في الأمالي: (١/٢١٤) منسوبان له أيضًا بتأخير وتقديم، ونَسب الثاني له ابن حجة في قصيدة في خزانة الأدب: (١/٤٢٤)، ونُسب الثاني لذي الرُّمَّة، وهو في ديوانه: (٢/١٣٠٩).

(٥) في (د): الآخرة.

بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٤]، وقد قال النبي ﷺ: «إن المصلي يناجي ربه»[١]، وما تجلَّى الله لشيء إلَّا خَشَعَ له، إلَّا قلب الغافل.

ومن حِفْظِ الصَّلَاةِ أن تدخل فيها بالهَيْبَةِ[٢] وبالتعظيم، وتقوم فيها بحالة الأدب.

ونَعْتُ الخشوع تَفْرِيغُ القلب لها، ولذلك قال الله - إذ كانت الخمرُ حَلَالًا -: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]، لأنه يَفُوتُ معه[٣] رُوحُ الصلاة؛ من حضورِ النيَّة، وفَهْمِ القراءة، ولُزُومِ الخُشُوعِ، وتحقيقِ قَصْدِ القُرْبَةِ.

قال الحَارِثُ وأصحابُه: «وسُكْرُ الغَفْلَةِ أَشَدُّ من سُكْرِ الخَمْرَةِ[٤] إذا استولى حُبُّ الدنيا على النفس، وتراكمت شُغُوبُها[٥] على القَلْبِ؛ لأن سُكْرَ الخَمْرِ منه إِفَاقَةٌ، وهذه لا إفاقةَ منها[٦]».

طهارةُ الصلاة:

وقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٧]، فَأَمَرَ بالطهارة للصَّلاة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ: كتاب الصلاة ومواقيتها، باب المصلي يناجي ربه عز وجل، رقم: (٥٣١-طوق).

(٢) في (د) و(ص) و(ف): تدخل فيها، مرَّضها في (د)، وفي (س): تخرج فيها، وفي (ز): منها.

(٣) في (س) و(ف): منه.

(٤) في (د): الخمر.

(٥) في (د): شعوبها، وفي (ز): شغوفها.

(٦) في (س): لها.

وقال علماؤنا: «إن طهارة العلانية هذه الآية، وطهارةُ السرائر مشروعةٌ مثلُها وآكَدُ[١]»[٢].

وكما أن طهارة الأبدان الماءُ، فكذلك طهارة السرائر التقوى، فإن فاتت فالتوبة، وما جُعِلَتْ هذه[٣] الطهارة/ في هذه الأعضاء إلَّا أنها مَحَلُّ الخطايا، فإذا قَارَفَتْهَا طَهَّرَها الماءُ بالنيَّة؛ فنَظَّفَها عن الذي تَرَحَّضَتْ[٤] به، وغسلها ممَّا توسَّخت منه، ولو لم تكن نيَّة ما كانت طهارة، ولا وقعت كفَّارة، وإن لم تجد ذلك وَقَعَتْ دَرَجَاتٍ وقُرْبَةً. [١٠٠/أ]

قالوا[٥]: وكما عليك غَسْل وجهك إذا أردت استقبال الله به فاغْسِلْهُ بالنية عن بَذْلِه للأَشْكَالِ المحتاجين مثلك؛ الذين لا يقدرون على شيء لك إلَّا به[٦]، وأَقْبِلْ بوجهك الذي هو القَصْدُ إلى الله وحده دون مَزْجِه بغيره، فإنه قد أَقْبَلَ عليك، واغْسِلْ يديك عن ملامسة الحرام، حتى ترفعهما إلى الله طاهرتين عن نَتْنِ[٧] الآثام، وأنت[٨] تَسْتَعْظِمُ وتَسْتَنْكِفُ عن رَفْعِهما[٩] إليه مملوءتين نَتْنًا، وما تَنَاوَلْتَ بهما وجَمَعْتَ فيهما أَنْتَنُ ممَّا اسْتَنْتَنْتَ،

---

(١) في (د): وأكثر، وفي (ص) و(ز): وأكبر.

(٢) لطائف الإشارات للقُشَيري: (٤٠٥/١).

(٣) سقطت من (د) و(ص).

(٤) في (س): ترخصت.

(٥) لطائف الإشارات للقُشَيري: (٤٠٥/١)، وزاد عليه ابن العربي زيادات.

(٦) في (س) و(ف): بك.

(٧) سقطت من (د) و(ص).

(٨) في (د) و(ص) و(ز): فأنت.

(٩) في (د): رفعها.

وكما تَطْهُرُ الرَّأْسُ عن قَتَرَةٍ[١] تَعْلَقُ[٢] به، فتطهيرُه عمَّا في باطنك من نَخْوَةِ كِبْرٍ[٣]، وعَجْرَفِيَّةِ عُجْبٍ، أو تَوَاضُعٍ لمَلِكٍ، أو لغَنِيٍّ، أو لظالم، أو في غَرَضٍ من الدنيا أوكد عليك[٤]؛ فإنَّ الله قد شَرَّفَهُ وشرَّفك به، فلا يكونُ لك عَمَلٌ إلَّا طاعةَ من شَرَّفكُما، وأنَّ الله أَمَرَكَ بغَسْلِ الرجلين، وهُما بَرِيدَاكَ، فصُنْهُما عن النَّقْلِ فيما لا يَحِلُّ لك.

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة:٧]، فأَوْجَبَ غَسْلَ جميع البدن، فطَهِّرْ أنت سِرَّكَ كلَّه عن عُمُومِهِ بالمُحَرَّمَاتِ، أو عِمَارَتِه بالبطالات، أو انسيابه في أَوْدِيَةِ الغَفَلَاتِ.

وكما إذا لم يَجِدِ المُتَطَهِّرُ[٥] الماءَ وأُعْطِيَ التراب بَدَلًا منه، فكذلك إذا لم يَجِدِ المُكِبُّ على المعاصي مُحَمَّدًا يَسْتَغْفِرُ له فَلْيَلْجَأْ إلى استغفار الله، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣]، أو يستعين بإشارات الصَّالحين، وسيرة[٦] العلماء الراسخين، فلن يَعْدَمَ من عندهم تَسْدِيدًا، ولن[٧] يَفْقِدَ من لدنهم مَزِيدًا إن كان مُرِيدًا[٨].

---

(١) في (د): قتر.

(٢) في (د): عن قَتَرٍ يتعلق.

(٣) في (د): وكبر.

(٤) سقطت من (س).

(٥) ضبَّب عليها في (د).

(٦) في (د): بسيرة.

(٧) في (س) و(ف) و(ص): لا.

(٨) ينظر: لطائف الإشارات: (١/٤٠٥).

أخبرني أبو بكر الصوفي[1] - شيخي الأوَّل - قال[2]: «جاءني رجلٌ فقال لي: إنه لم يَبْقَ ذَنْبٌ في الدنيا إلَّا ارتكبته، ولا معصية إلا أتيتُها، ولا كبيرة إلا تلبَّست بها، فماذا ترى لي؟ قال: ورأيتُ في وجهه سُفْعَةَ إصرار، وبَشَرَةَ تَمَادٍ واستمرار، فقلت له: يا هذا، وهلَّا أَبْقَيْتَ للصلح مَوْضِعًا، فبَدَرَنِي بالجواب قبل أن أُتِمَّ الكلام، وقال لي: وأَيُّ مَوْضِعٍ للصُّلْحِ أَعْظَمُ مِنْ أنَّ[3] وَجْهِي لم يَسْجُدْ قَطُّ لسواه، ولا مَرَّغْتُه في التراب لغيره، فهالني قولُه، وأعجبني لُبُّه[4]، وقلت له: أرجو لك الخير، والتَّوْبَةُ تَمْحُو جميع ما ذكرتَ، ولا يَتَعَاظَمُ معها ذنبٌ ممَّا وَصَفْتَ».

وقال[5] شيوخُ نيسابور: «إذا عَدِمَ المُريد صحة الإرادة فليُقْبِلْ على وظائف العبادة، فإن جوارحه إذا تمرَّنت بها سَكَنَ/ قلبُه إليها، فاستنار له ما كان أَظْلَمَ، وانشرح ما أُبْهِمَ عليه واسْتَعْجَمَ، فهي شِفَاءُ العليل[6]، وأُنْسُ المُسْتَوْحِشِ[7]». [١٠٠/ب]

كان النبي ﷺ يقول: «يا بلال، أَرِحْنَا بالصلاة»[8]، فأخبر أنه ما كان

---

(١) هو الإمام أبو بكر الطُّرطوشي، تقدَّم التعريف به في السِّفْرِ الأوَّل.

(٢) في (س): فقال.

(٣) سقطت من (س).

(٤) في (د) و(ص): نُبْلُه.

(٥) في (س) و(ف): قال.

(٦) في (س) و(ص) و(ف): الغليل.

(٧) في (س): المتوحش.

(٨) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، رقم: (٤٩٨٥-شعيب).

يَجِدُ راحةً إلَّا فيها، ولم لا؟ وهي مناجاةُ المولى بأسرار البلاء والابتلاء، وهي غايةُ لَذَّةِ الآدَمِيِّينَ، ومُنْتَهَى أُمْنِيَةِ الطَّالِبِينَ.

وإيَّاها عَنَى بَعْضُ البَطَّالِينَ حين قال[١]:

وإنـي لأَسْتَغْـشِي ومـا بـيَ نَعْـسَةٌ   لعـلَّ خَيَـالًا مِنْـكِ يَلْقَـى خَيَالِيَـا
وأَخْرُجُ من بين الجُلُوسِ لعلَّـني[٢]   أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفسَ باللَّيْلِ[٣] خاليَا[٤]

أخبرني أبو بكر النَّجِيب بن الأسعد[٥] الصُّوفِي[٦]، قال[٧]: أخبرنا[٨]

---

(١) في (س) و(ف): فقال.
(٢) في (د): لعلي.
(٣) في (د): يا ليل.
(٤) الأبيات للمجنون، وتقدَّم تخريجها.
(٥) في (س) و(ف): الأشقر.
(٦) الإمام المحدث العلَّامة، محمد بن طَرْخَان بن يَلْتكين بن مُبارِز بن بَجْكَم التركي، أبو بكر النَّجِيب بن الأسعد الصُّوفِي البغدادي، (٤٤٦-٥١٣هـ)، والطَّرْخَان: اسمٌ للرئيس الشريف في قومه، وضبطه السيِّد الزَّبيدي بالفتح، وغلَّط من ضبطه بغير ذلك، فقال: «ولا تَكْسِرْ وإن فَعَلَه المحدثون، والصوابُ الاقتصار على الفتح»، تاج العروس: (٧/٣٠٢)، وكان ذا حظ من عبادة وتأله وزُهْدٍ، لقيه ابن العربي ببغداد، وسمع منه الكثير، ومن طريقه يتصل بكتاب «جذوة المقتبس» لابن فَتُّوحٍ الأندلسي، قرأه عليه بدرب نُصَيْرٍ، وروى عنه أيضًا: «المغازي والسِّيَر» لابن إسحاق، و«أدب الدنيا والدين» للماوَردي، و«كتاب الغريبين» للهَرَوي، وغيرها، ينظر: قانون التأويل: (ص٢٩١) -ولم يَعْرِفْهُ مُحَقِّقُه، فلم يذكر فيه شيئًا-، وفهرس ابن خير: (ص٢٨١)، وسير النبلاء: (١٩/٤٢٣)، وطبقات الشَّافعية للتَّاج: (٦/١٠٦-١٠٧).
(٧) سقط من (س) و(ص) و(ف).
(٨) في (س): أخبرني.

أبو عبد الله الرُّصَافِي الصُّوفِي[١]: أخبرنا[٢] علي بن سعيد[٣]: أخبرنا أحمد بن محمد بن عبد الوارث قال: «رأيتُ يحيى بن مالك بن عائذ[٤] - وهو شيخٌ كبيرٌ - يُهَادَى إلى المسجد، وقد دخل والصلاة تُقام، قال: فسمعته يُنْشِدُ بأعلى صوته:

يا ربُّ لا تَسْلُبْنِي حُبَّها أبدًا ... ويَرْحَمُ الله عبدًا قال آمينَا[٥]

قال: فلم أَشُكَّ أنه يريد[٦] الصلاة»[٧].

قال علماؤنا: وهذا كلُّه إنما يريد الله به تَطْهِيرَنَا، وإنَّما يَرْجِعُ إلى منفعتنا؛ فإن الباري تعالى مُقَدَّسٌ أن يرجع إليه نَفْعٌ أو يَنَالَه مِنَّا خَيْرٌ، فيُطَهِّرُ أبداننا عن الأقذار ليجعل ذلك عُنْوَانًا لنا؛ لنُطَهِّرَ عن المعاصي ظَوَاهِرَنا، وعن الرذائل قُلُوبَنا، وعن الغفلات سَرَائِرَنا، ونُطَهِّرَ نِيَّاتِنَا عن التَّعَلُّقِ بالأمثال، وآمَالَنَا عن الإِكْبَابِ عليها في مُتَعَلَّقَاتِ الدنيا والاشتغال بها، ونُطَهِّرَ[٨] عقائدنا عن تَوَهُّمِه أو اتِّهَامِه[٩].

---

(١) هو الإمام العلَّامة المحدث، أبو عبد الله محمد بن فتُّوح الحُمَيدي الظاهري، توفي عام ٤٨٨هـ، لم يدركه ابن العربي، وإنما أدرك تلاميذه.

(٢) (س): أخبرني.

(٣) هو الإمام الحافظ أبو محمد علي بن سعيد بن حزم الظاهري، توفي عام ٤٥٦هـ بلَبْلة، ويتصل به ابن العربي وبمصنفاته من جهة والده الوزير أبي محمَّد، رحمهما الله ورضي عنهما.

(٤) في (ص) و(س): عائد.

(٥) البيت من البسيط، وهو لمجنون ليلى في ديوانه: (ص٣١).

(٦) في (د): أراد.

(٧) جذوة المقتبس: (ص١٥٨).

(٨) في (د): يطهر.

(٩) في (س) و(ف): واتهامه.

قال تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٧]، لإِتْمَامِ[1] النِّعْمَةِ وُجُوهٌ لا تُحْصَى[2]:

فمنها[3]: التيسير للاعتمال بها.

ومنها: التمادي فيها.

ومنها: المحافظة عليها.

ومنها: القَبُولُ لها.

ومنها: الاعتصام بها.

فإنَّ المصلي في ذمة الله، وذِمَّةُ الله لا تُخفَرُ، ولذلك ينبغي للعبد عَقْدُها حتى تشتد مرابطها، وتستحكم معاقدها، فلا يكون للشيطان مَدْخَلٌ إليها، ولا لسُوءِ[4] المقدار عَمَلٌ فيها، وهذا معنى قوله: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ حيث وَقَعَ.

أي: لَازِمُوا وأديموا[5] مناجاتي فيها، ولا تُخِلُّوا بشَرْطٍ، ولا تَلَبَّسُوا بسُوءِ أدب، وما تكرهونه فلا تأتونه.

أخبرنا الشيخ[6] أبو الحُسَين[7] الأَزْدِي[8]: أخبرنا الحسن بن

---

(١) في (س) و(ص): إتمام.

(٢) ينظر: لطائف الإشارات: (١/٤٠٦).

(٣) في (س) و(ف) و(ص): منها.

(٤) في (س): في خـ: لسوى الله، وصحَّحه.

(٥) في (س): داوموا.

(٦) في (س) و(ف): أنا.

(٧) في (ص): الحسن.

(٨) هو الإمام ابن الطُّيوري، تقدَّم التعريف به في السِّفرِ الأوَّل، ويروي عنه هنا كتاب «الزهد» للإمام أحمد بن حنبل.

علي[١]: أخبرنا ابنُ حمدان: أخبرنا عبد الله بن حنبل عن أبيه أحمد[٢]: حدَّثنا عمر بن أيوب: أخبرنا جعفر عن[٣] ميمون قال: «إنَّ[٤] حذيفة وسلمان نَزَلَا على قِبْطِيَّةٍ، فلمَّا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ قالا: أَهَاهُنا[٥] مكانٌ/ طاهر يُصَلَّى[٦] فيه؟ قالت: طَهِّرْ قلبك، قال أحدُهما للآخر: خُذْهَا كَلِمَةَ حِكْمَةٍ من قَلْبِ كَافِرٍ، وقال لها سلمانُ: فَقُهْتِ»[٧]. ١ [١٠١/أ]

زِينَةُ[٨] الصَّلاة:

ولقد أَمَرَ الله تعالى بالسُّتْرَةِ فيها، لما[٩] يَقْبُحُ مطالعته من المنظرة[١٠] إلى العورة، ومَنَّ بها على الخليقة فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف:٢٥]، فقَبَّحَها لنا، وأمرنا[١١] بسَتْرِها بلِبَاسٍ هَيَّأَ[١٢] مَنَافِعَه، وأَلْهَمَ استعماله.

---

(١) هو أبو محمد الجوهري، ينظر: فهرس ابن خير: (ص٢٨٧).

(٢) مرضه في (د)، وفي الطرة: ابن أحمد، وصحَّحه.

(٣) في (د): بن.

(٤) سقطت من (س) و(ص).

(٥) في (س) و(ص): هاهنا.

(٦) في (ص): نُصلي.

(٧) الزهد للإمام أحمد: (ص١٨٩).

(٨) في (د): رتبة، وفي (س): نية.

(٩) في (س) و(ف) و(ص): فيما تقبح.

(١٠) في (ص): النظر، في (س): النظرة.

(١١) في (د) و(ص): أمر.

(١٢) في (د) و(ز): مُبَيِّنًا.

ثم قال: وثوب التقوى - لاتخاذ[١] الوقاية به من الذنوب - خَيْرٌ؛ فإن لباس الدنيا يَقِي من آفاتها، ولباس التقوى يَقِي من آفات الدنيا والآخرة[٢].

وزِينَةُ المسجد الذي جُعِلَ عبارة عن الصلاة في الظاهر مَنْعُ الجاهلية من كَشْفِ العورة عند الطواف بالبيت.

وإذا كان العبدُ طائعًا لمولاه دائمًا، وطالبًا لجدواه مستمرًّا؛ فليتزيَّنْ باللِّبْسَةِ المُعَدَّةِ لذلك، وهي حُلَّةُ التقوى، وصيانة النَّجْوَى، والخروجُ إلى الحقيقة عن الدَّعْوَى.

مَزِيدُ فَضْلٍ:

ومن كَرَمِ المَوْلَى أنه ضَرَبَ لعباده ميقاتًا لمناجاته في مُعْظَم الأوقات إلَّا في ثلاثة؛ عند وقوف الشمس في كَبِدِ السماء، وبعد الصبح حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب.

وقد شرَّف موسى بأن ضَرَبَ له ميقاتًا للمناجاة، وواعده للملاقاة، وشرَّف مُوسَى بالمكاشفة[٣]؛ وأنت - أيُّها العَبْدُ - مُخَاطَبٌ أيضًا ومُكَلَّمٌ، ولكن سَتَسْمَعُه في ميعادك[٤] وميقاتك في الجنَّة.

موعظة:

واعلموا - معشر المريدين - أن الصلاة إن لم تكن بالقَلْبِ وتُقَامُ بالجهر والسِّرِّ[٥] كانت مردودةً على صاحبها، فإنَّها ناقصةٌ في ذاتها، ولو

---

(١) في (س): لاتحاد.

(٢) ينظر: لطائف الإشارات: (٥٢٨/١).

(٣) في (س) - أيضًا -: بالمكالمة.

(٤) في (س): معادك.

(٥) في (س): بالسر والجهر.

نَقَصَ شَرْطٌ من شروطها لكانت ناقضةً[١]، فكيف إذا ذهب روحها؟ ولو أن عَبْدَكَ يَخْدُمُكَ وقلبُه مع غيرك لاستحق عندك العقوبة، أَوْ لاسْتَوْجَبَ الخَيْبَةَ.

وقد دعاك ربُّك إلى استغراق أوقاتك في عباداته[٢] فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود:١١٤]، فإن إِخْلَاءَ لَحْظَةٍ من الزمان دون خِدْمَةٍ حَسْرَةٌ ونِقْمَةٌ.

وأنتَ - أيُّها العبدُ - تستكثر أو تستعظم أن تسجد أو تُمْضِي أوقاتَك كلَّها معمورة بالسجود له، وله ﴿يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ [الرعد:١٥]، وأَنْتَ إذا سجدت طَوْعًا فقد حُزْتَ المرتبة العليا، والذي يسجدُ كَرْهًا عند حلول البلاء به خاصَّةً هو الكافر.

فأنتَ تَجَنَّبْ أن تسجد تَقِيَّةً لشيء، أو اجتلابًا لشيء، وإنَّما تكون طاعةً وقُرْبَةً، ويكون سجودُك بقلبك قبل جِسْمِك، وبقَصْدِك قبل وجهك، وذلك بعد تَحَقُّقِكَ أنه/ هو[٣] الذي يَخْلُقُ سجودك وركوعك، وقَصْدَكَ ونِيَّتَكَ، وجميع أحوالك وصفاتك، فهذه عَقِيدَةُ الأَبِ الأكرم، وخَيْرِ البَرِيَّةِ المُعَظَّمِ، إِبْرَاهِيمَ المُقَدَّمِ، حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم:٤٠]، فسأله أن يَخْلُقَ له أفعال الصلاة، إذ الجَعْلُ: الخَلْقُ، وهو سبحانه خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، والأعمال التي تَقُومُ بأبدان العباد منها، وهذا دَلِيلٌ عظيمٌ[٤] في الردِّ على القَدَرِيَّةِ في دعواهم أن الله لا يَخْلُقُ أعمال

[١٠١/ب]

---

(١) في (ص) و(س) و(ف): ناقصة.

(٢) في (ص): عباداتك، وفي (س) و(ف): عبادتك.

(٣) سقط من (د) و(ص).

(٤) سقط من (س) و(ز).

العباد، وهم الذين يخلقونها، تعالى الله عن[1] أن يَشِذَّ شَيْءٌ عن عِلْمِه[2] وقُدْرَتِه[3].

وأَنْتَ تُناجيه وهو قِبَل وَجْهِك فلا تُعرض عنه، ولا تلتفت إلى سواه؛ فإن ذلك اختلاسٌ يَخْتَلِسُه الشيطانُ من صلاتك[4]، وكان النبي ﷺ لا يلتفت؛ لا في الصلاة ولا في غيرها، وكذلك كان أبو بَكْرٍ لا يلتفت في الصلاة[5].

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: «خرج النبي ﷺ لحاجته وكان لا يلتفت[6]»[7]، وقد تقدَّمت وَصِيَّةُ يحيى[8] عليه السَّلام عن الله: «بأن لا تلتفتوا في الصلاة»[9].

---

(١) سقط من (س) و(ز).

(٢) مرَّضها في (د)، وكتب في الطرة: خلقه، من غير تصحيح لها.

(٣) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٢٦١)، والأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٢٩٤).

(٤) حديث: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»؛ أخرجه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة ﵂: كتاب الأذان، باب الالتفات في الصلاة، رقم: (٧٥١-طوق).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي ﵁: كتاب الأذان، باب من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول، رقم: (٦٨٤-طوق).

(٦) قوله: «في الصلاة، وروى البخاري عن أبي هريرة قال: خرج النبي ﷺ لحاجته وكان لا يلتفت» سقط من (س).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الوضوء، باب الاستنجاء بالحجارة، رقم: (١٥٥-طوق).

(٨) في (ص): يحيى بن زكرياء عليهما السَّلام.

(٩) سبق تخريجه.

الاستراحةُ إلى الصلاة من أنكاد الدنيا وشُغُوبِها:

ولقد قال الله تعالى لنَبِيِّه وصَفِيِّه عليه السَّلام: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر:٨٨]، فقد آتيناك من القرآن ما هو خَيْرٌ[١] منهم، حتى قال بعض المُتَزَهِّدَةِ[٢]: «إن الله قَبَضَ بَصَرَ مُحَمَّدٍ عن الخَلْقِ، وأَرْسَلَ بَصَرَ موسى إلى الجبل».

وهذا تقصير؛ إنما أرسل الله بَصَرَ موسى على الجبل دِلَالَةً وعِبْرَةً، وقال لرسوله عليه السَّلام: ولا تحزن على ما فاتك منهم من إِقْبَالٍ عليك، وأَعْلِمْهُم بأنك[٣] نَذِيرٌ بعذاب ينزلُ بهم كنزوله بمن تَقَاسَمَ من قَوْمِ صَالِحٍ، وبمن قسَّم كتابنا إليك؛ فآمَنَ ببعضه وكَفَرَ ببعضه، واصْدَعْ بما تؤمر، وأعرض عمَّن لا يَقْبَلُ، فقد كفيناك من يستهزئ بك، ونحن عالمون بضِيقِ صَدْرِك بقولهم، فإن آذَوْكَ بالكلام القبيح فأَسْمِعْنا نَحْنُ مِنْكَ الكَلَامَ الحَسَنَ، ونَاجِنَا في سجودك، فذلك سَلْوَةٌ لك.

لمَّا عَلِمَ الله من استغراق قَلْبِ مُحَمَّدٍ وعِلْمِه، بأنه قد أَقْبَلَ عليه ولم يَبْقَ في قلبه مَحَلٌّ لغيره، قال الله له: قِفْ[٤] في هذا المقام واستمر على العبادة، فسيأتيك يَقِينُ ما عندك عِلْمُه، أو يَقِينُ ما أخبرناهم به، فيأتيهم يقينُهم على شَكٍّ، ويأتي يَقِينُ النبي ﷺ على يَقِينٍ سَابِقٍ يَرْدِفُ يَقِينَ مُشَاهَدَةٍ على يَقِينِ تَصْدِيقٍ، وكذلك قال له: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩].

---

(١) في (د) و(ص): خيرًا.

(٢) هو الإمام أبو القاسم القُشَيري، ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٢٨٠).

(٣) في (س): أنك. (٤) في (س) و(ص): وقف.

فإذا عَمَّتْ عبادتُك جميع الأوقات أَحْلَلْنَاكَ عندنا بأعلى الدرجات، فينبغي لكُلِّ من نزل به مَكْرُوهٌ، أو ضاق صَدْرُه بأَمْرٍ أن يلجأ إلى الصلاة؛ فإنها رَاحَةُ الفؤاد، ورَأْسُ الاعتماد.

[١٠٢/أ] وقال الله تعالى لموسى:/ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤].

قيل: «لتَذْكُرَني فيها وأذكرك بها»[١].

وقيل: «عند خَلْقِ الذِّكْرِ لك بها»[٢].

والكلُّ صحيح.

فالأوَّل: شَرَفٌ.

والثاني: شَرْطٌ.

وشَرَفُ الشيء بشَرْطِه، وبذلك يُدْرَكُ الفوزُ والنجاة، ويَحْصُلُ الفلاح والمُلْكُ، كما قال الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١ - ٢]، فتستوي في الشرف سرائرُهم وعلانيتُهم، و تخشعُ بواطنُهم بخُشُوعِ[٣] ظواهرهم.

كان النبيُّ ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي؛ يتأوَّل القرآن»[٤]، ويُكْثِرُ من ذلك.

---

(١) الكشف والبيان: (٦/٢٤٠).

(٢) الكشف والبيان: (٦/٢٤١).

(٣) في (س) و(ص): خشوع.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، رقم: (٨١٧-طوق).

وإنما يكون خاشعًا إذا كان قلبُه حاضرًا، ولسانُه ذاكرًا، فإن الصلاة جَسَدٌ ورُوحٌ ومَحَاسِنٌ، فجسدُها الأفعال، وروحُها الخشوع والإخلاص، ومحاسنُها الذِّكْرُ.

كان النبيُّ ﷺ إذا كَبَّر يقول: «﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٨٠]، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٤ - ١٦٥]»[١]، فإذا قالها أحدُكم فليَقُلْ: «وأنا من المسلمين»[٢].

ويقرأ[٣] فاتحة[٤] الكتاب وسورة، وإذا مرَّ بآية رحمة سأل، وإذا مرَّ بآية عذاب استعاذ، فإذا ركع لم يقرأ، ولكنه إن شاء سبَّح، وإن شاء قال ما رُوِيَ قَبْلُ، وإذا سبَّح فليَقُلْ كما[٥] ثَبَتَ عن النبي ﷺ: «سبحان ربي العظيم وبحمده»[٦]؛ ثلاث مرات، وقد تمَّ رُكُوعُه، وذلك أدناه.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: كتاب الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، رقم: (٧٦٠-شعيب).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن عن ابن المنكدر وابن أبي فروة من قولهما: كتاب الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، رقم: (٧٦٢-شعيب).

(٣) في (س) و(ف): فيقرأ.

(٤) في (د) و(ص): الفاتحة.

(٥) في (س): ما.

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه عن ابن مسعود ﷺ: أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في التسبيح في الركوع والسجود، رقم: (٢٦١-بشار)، والحديث منقطع، وصحَّ من حديث حذيفة ﷺ، أخرجه الترمذي: رقم: (٢٦٢-بشار)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم: (٨٧١-شعيب).

وإذا رَفَعَ رأسه من الركوع قال: «ربَّنا ولك الحمد؛ ملء السماوات والأرض، وملء ما بينهما[١]، وملء ما شئت من شيء بعد، أنت أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد[٢]، وكلنا لك عبد: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[٣]، وهو إذا قال ذلك ووافق[٤] قَوْلُه قَوْلَ الملائكة غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه.

وإذا سَجَدَ فليَقُلْ في سجوده: «سبحان ربي الأعلى؛ سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشَقَّ سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين»[٥].

وقال النبيُّ ﷺ في سجوده: «اللَّهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[٦].

ولتُكْثِرُوا من الدعاء في سجودكم، قال أبو هريرة: «أَقْرَبُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»[٧].

---

(١) قوله: «ملء ما بينهما» سقط من (س).
(٢) قوله: «أحق ما قال العبد» سقط من (س).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، رقم: (٤٧٦-عبد الباقي).
(٤) في (د): فوافق.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم: (٧٧١-عبد الباقي).
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم: (٤٨٦-عبد الباقي).
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم: (٤٨٢-عبد الباقي).

وقد ثبت في الصحيح أنه كان يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كلَّه، دِقَّه وجِلَّه، وأوَّلَه وآخرَه، وعلانيتَه وسِرَّه»(١).

والسجودُ أفضل أحوال الصلاة، فقد روى أبو فراس ربيعة بن كعب الأَسْلَمِي حديثًا(٢) ليس له في الصحيح لمُسْلِمٍ(٣) غيرُه، قال: «كنتُ أَبِيتُ مع النبي ﷺ فأتيتُه بوَضُوءٍ(٤)/وحاجته، فقال لي: سَلْ، قلتُ: أسألُك مرافقتك في الجنة، قال: فأَعِنِّي على نفسك بكثرة السجود»(٥).

[١٠٢/ب]

وروى مَعدان بن أبي طلحة قال: «لَقِيتُ ثوبان فقلتُ: أخبرني بعمل يُدخلني الله به الجنة، فسكت، ثم سألتُه فسكت، ثم سألتُه الثالثة، فقال: سألتُ عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: عليك بكثرة السجود؛ فإنك لا تسجد لله سَجْدَةً إلَّا رَفَعَكَ الله بها درجة، وحَطَّ بها عنك(٦) خطيئة، قال معدان: ثم لَقِيتُ أبا الدرداء فسألته، فقال لي مِثْلَ ما قال ثَوْبَانُ»(٧).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم: (٤٨٣-عبد الباقي).

(٢) سقط من (س).

(٣) سقط من (د) و(س).

(٤) في (د) و(ص): وضوئه.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، رقم: (٤٨٩-عبد الباقي).

(٦) في (د) و(ص): عنك بها.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، رقم: (٤٨٨-عبد الباقي).

وكان النبي عليه السَّلام يُطِيلُ القيام، قال ابنُ مسعود: «صَلَّيْتُ وراءه فأطال؛ حتى هَمَمْتُ بأَمْرِ سُوءٍ، قال الراوي: فقلت له: وبِمَ هَمَمْتَ؟ قال: هَمَمْتُ أن أدعه وأنصرف»[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:١٠][٢]، ولم يذكر الركوع.

وقيل: هو القنوت قبلهما[٣].

والصحيحُ: أن السجود أفضلُ من الركوع، والركوعُ أفضلُ من القيام، وما شُرِعَ القيامُ عند أهل التأويل إلَّا ليكون الركوع، والسُّجُودُ ينبني[٤] عليه حقيقةً وحُكْمًا.

تَتْمِيمٌ:

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المومنون:٣]، وقد يكون اللَّغْوُ في الاعتقاد والقَوْلِ والعَمَلِ، والاعتقادُ أَشَدُّه، وما شَغَلَ عن الله فهو لَغْوٌ، والسَّهْوُ لَغْوٌ مَعْفُوٌّ عنه، محمودٌ إذا كان على سُنَّةٍ[٥].

وقد يكون اللَّغْوُ كُفْرًا إذا كان في الاعتقاد عن الله، وعليه يَحُومُ الشيطان؛ فإنه يبتدئ بالوسوسة في شُغُوبِ الدنيا، لعلَّه أن يتعلَّق بجُزْءٍ من اللَّغْوِ في جَنْبِ الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل، رقم: (١١٣٥-طوق).
(٢) في (د) و(ص): ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا﴾.
(٣) في (س): قبلها.
(٤) في (د): يبنى.
(٥) في (ص) و(ز): أعلى منه، في (س): بأعلى منه.

وقد يكون اللَّغْوُ لَهْوًا من الدنيا، فيشغل عن الذِّكْرِ خاصَّة، وعن الحَقِّ فِعْلًا، والاعتقادُ سَلِيمٌ، ولكنه مغمورٌ، فالأوَّلُ كُفْرٌ، وهذا هُجْرٌ.

وإذا كان العبدُ بين سَهْوٍ ولَغْوٍ ولَهْوٍ وهُجْرٍ كان ممَّن قال الله فيه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، إلَّا أن تتداركه خاتمةٌ أو حُرمة سابقة.

[منافعُ الصلاة]:

ومنفعةُ الصلاة القِيَامُ بحَقِّ العبادة؛ فإنها تُستخدم فيها الأعضاءُ كُلُّها؛ ظاهرُها وباطنُها، ولذلك قال النبيُّ ﷺ لمولاه أَفْلَحَ - وقد حَجَزَ بين وجهه[1] التُّرَابُ[2] -: «تَرِّبْ وَجْهَكَ يا أَفْلَحُ»[3]، حديث حسن.

وانصرف النبيُّ ﷺ - في الصحيح - من الصلاة وعلى أنفه وأَرْنَبَتِه أَثَرُ الماء والطين[4].

وقال النبي عليه السَّلام: «أُمِرْتُ أن أسجد على سبعة أَعْظُمٍ؛ الوَجْهِ، - وأشار بيده على أنفه -، واليدين، والرِّجْلَيْنِ، والرُّكْبَتَيْنِ»[5].

---

(١) في (س) و(ص) و(ف): بينه وبين وجهه الأرض.

(٢) سقط من (ص) و(س).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه عن أم سلمة رضي الله عنها: كتاب الصلاة، باب ما جاء في كراهية النفخ في الصلاة، رقم: (٣٨١-بشار)، وضعَّفه أبو عيسى.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كتاب الأذان، باب السجود على الأنف والسجود على الطين، رقم: (٨١٣-طوق).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: كتاب الأذان، باب السجود على الأنف، رقم: (٨١٢-طوق).

[١٠٣/أ] وحَرَّمَ الله على النار[١] أن تأكل من ابن آدَمَ/ أَثَرَ السُّجُودِ[٢].

كَوْنُه في خُفارة الله:

فيَأْمَنُ الخُفْرَةَ، قال النبي ﷺ: «من صلَّى الصبح لم يزل في ذِمَّةِ الله»[٣].

الوفاءُ بالعهد:

كما في حديث عُبادة المتقدم[٤]، وكما في حديث مُسْلِمٍ: «العَهْدُ الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»[٥].

إِدْرَارُ الرِّزْقِ:

قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣١].

حِمَايَةُ الدَّمِ:

قال النبي ﷺ: «أليس يصلي؟ قال: بلى، ولا صلاة له، قال: أولئك الذين نهاني الله عنهم»[٦]، أخذته العامَّة من الفقهاء فقالوا: قال النبي ﷺ: «نُهِيتُ عن قَتْلِ المصلين».

---

(١) في (س): الأرض.
(٢) تقدَّم تخريجه في السِّفرِ الأوَّل.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة، رقم: (٦٥٦-عبد الباقي).
(٤) تقدَّم تخريجه.
(٥) تقدَّم تخريجه.
(٦) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الصلاة، جامع الصلاة، (٢٣١/١)، رقم: (٤٧٦-المجلس العلمي الأعلى).

الارْعِوَاءُ عن الفحشاء والمنكر:

ومن فوائد شيخنا[١] الشهيد أبي سَعْدٍ[٢] محمد بن طاهر الزَّنْجَانِي - رحمه الله - بالمسجد الأقصى - طَهَّرَهُ الله[٣] - قال: «معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، المعنى: ينبغي أن تَنْهَى عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٥]، أي: ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله، فإن رَأَيْتَ أَحَدًا لا يتوكَّل فلا يُخْرِجُه ذلك عن الإيمان، كذلك صَلَاةٌ لا تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ لا تخْرُجُ عن أن تكون صَلَاةً»[٤].

قال الإمام الحافظ[٥] أبو بكر بن العربي ﷺ: وكما قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[٦]، ولا يُخْرِجُه ذلك عن[٧] الإيمان.

قال علماؤنا المُتَزَهِّدَةُ: «إنَّ الصلاة الحقيقية هي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وخَبَرُ الله حَقٌّ، وحَقِيقَةٌ وصِدْقٌ، فكلُّ صلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر فليست بصلاة تامَّةٍ، كما أنَّ كل إيمان لا يَعْرَى عن الكبائر فليس بإيمان كامل، ولا يَخْلُصُ إلى الإيمان[٨]، وهي صُورَةُ صلاة، دون رُوحٍ ولا معنًى»[٩].

---

(١) سقط من (د) و(ص).
(٢) في (س) و(ف): الشهيد أبي سعيد .. الشهيد.
(٣) في (ص): عمره الله بالإسلام، وبعدها في (د) و(ص): رحمه الله.
(٤) لطائف الإشارات: (٣/٩٨).
(٥) في (د): قال الإمام الحافظ.
(٦) تقدَّم تخريجه.
(٧) في (د): من.
(٨) مرَّضها في (ص) وفي الطرة: ظ - أي: الظاهر -: أمان.
(٩) لطائف الإشارات: (٣/٩٨-٩٩).

وروى[1] أحمد بن حنبل عن عبد الله -يعني: ابن مسعود -: «من لم تأمره الصلاة بالمعروف وتنهاه عن المنكر لم تَزِدْهُ من الله إلَّا بُعْدًا»[2].

وقال أَنَسٌ: «كان بعضنا يدعو لبعض: جَعَلَ الله عليكم صلاة قوم أبرار؛ يقومون الليل ويصومون النهار، ليسوا بآثِمَةٍ[3] ولا فُجَّارٍ».

وقال قَوْمٌ: «الفحشاءُ: الدنيا، والمنكر: النفس»[4].

وقيل: «الفحشاء: المعاصي، والمنكر: الاعتقادُ أنك صَلَّيْتَ أو عَمِلْتَ، أو أن ترى لنفسك عَمَلًا»[5].

وغلا قَوْمٌ[6] من الصوفية فقالوا[7]: «إن[8] الفحشاءَ رُؤْيَتُها، والمنكرَ طَلَبُ العِوَضِ عليها»[9].

وعَظُمَ ذلك على قَوْمٍ، والأَمْرُ فيه قريبٌ:

إن أرادوا بطَلَبِ العِوَضِ عليها اعتقادَهم أن لا ينوي أَحَدٌ بعمله ثوابًا فلا أراه.

---

(١) في (د) و(ص): وقد روى.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره: (١٨/٤٠٩-التركي)، ولم أقف عليه في الزهد للإمام أحمد.

(٣) في (ص): بأَثَمَةٍ.

(٤) لطائف الإشارات: (٣/٩٩).

(٥) لطائف الإشارات: (٣/٩٩).

(٦) في (س) - أيضًا -: بعضهم.

(٧) في (س) و(ز): فقال.

(٨) سقطت من (د) و(ص).

(٩) لطائف الإشارات: (٣/٩٩).

وإن أرادوا بها استحقارَها، ويا ليتها تخَلِّصُ من العقاب، فكيف أن يُرجى عليها ثَوَابٌ؟ فهو الدينُ القَويمُ، والاعتقادُ السَّليمُ.

[١٠٣/ب] وأمَّا/ الذي[1] يُشِيرُونَ إليه[2] بما تقدَّم عنهم من عبادة الله لذاته لا لنَعيمه[3] وثوابه؛ فهو بَاطِلٌ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٠].

وقيل: المعنى: أَقِمِ الصلاة بحقيقتها، فلا يبقى معها فحشاء ولا منكر، فتكون أهلًا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال الحكيمُ لولده: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [لقمان:١٦]، فإذا فَعَلْتَ ذلك كُنْتَ كما قال الحَكِيمُ الإِسْلَامِيُّ[4]:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتَأْتِيَ مِثْلَه ... عَارٌ عليك إذا فَعَلْتَ عَظِيمُ[5]

ابْدَأْ بنفسك فانْهَهَا عن غَيِّهَا ... فإذا انتهتْ عنه فأنت حَكِيمُ

فهناك يَنْفَعُ إن وَعَظْتَ[6] ويُقْتَدَى ... بالعِلْمِ منك ويَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

---

(١) في (س): الذين.

(٢) في (ص): إليهم.

(٣) في (د): نعمه، وفي (ص): نعمته.

(٤) الأبيات من الكامل، ونَسب الأوّل منها سيبويه إلى الأخطل: (٤١/٣)، وليس في ديوانه، ونُسب إلى غيره، قال البغدادي: «والمشهور أنه لأبي الأسود»، ثم ساق القصيدة برمتها، ينظر: الخزانة: (٥٦٦/٨).

(٥) سقط هذا البيت من (س) و(ص) و(ز).

(٦) في (د) - أيضًا -: ما تقول، ويقتدى بالفعل، وفي (ص): في خـ: بالقول.

ويَصِحُّ ذلك في نفسك وفي غيرك، فإنك إذا كسرتْ شهوة من شهواتك انكسرت سَوْرَةٌ[١] أخرى، وتَدَاعَى الكُلُّ للذهاب، وإذا كَسَرْتَ شهواتك تعدَّى ذلك منك إلى غيرك بالاقتداء والتغيير.

رِبْحُ العُمُرِ:

لا سيما والمَرْءُ بين عبادة[٢] وعادة، يُعِينُ عليها سَعْيٌ في الرزق، ومَعَاشٌ للقوة، وعَوْدٌ إلى الأصل بالعبادة، فإذا أَفْنَيْتَ عُمُرَكَ في هذه العادة وفي[٣] هذه العبادة كان رِبْحًا كله، وكان محسوبًا لك لا عليك، والإقلالُ من النَّوْمِ رِبْحٌ بالإِقْلَالِ من الأَكْلِ؛ فإنه مَوْتٌ قاطعٌ عن العمل، إلَّا ما لا بدَّ منه؛ فإنه يُكتب له نومُه ويقظتُه.

في الحديث الصحيح: «أقوم وأنام، وأرجو في نَوْمِي ما أرجو في يقظتي[٤]»[٥]، وهذا صحيح، كما يَرْجُو من الأَجْرِ في يَوْمِ فِطْرِه ما يَرْجُو[٦] في يوم صَوْمِه.

ويجب أن يكون صَغْوُه إلى التَّعَبِ أكثر من الراحة، ألا ترى كيف وَصَفَ الله قَوْمًا فقال: ﴿إِنَّمَا يُومِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ

---

(١) في (د) - أيضًا -: شهوة.

(٢) في (س): عادة، وهي سبق قلم.

(٣) في (د) و(ص): وهذه.

(٤) في (ص) - أيضًا -: قَوْمَتِي.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ موقوفًا: كتاب المغازي، بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، رقم: (٤٣٤١-طوق).

(٦) في (د) و(ص): يرجوه.

ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٥ - ١٧]، فأخبر الله تعالى أن المؤمن هو الذي[١] إذا ذُكِّرَ بالله وآياته أَقْبَلَ على صلاته وخَرَّ لله خاشعًا، وذَكَرَ السجود لأنه مُعْظَمُ الصلاة كما قدَّمنا، فيسجدون بأبدانهم خُضْعَانًا في المحاريب، وأَعْظَمُ من ذلك ما اشتملت عليه القلوب والسرائر، ولم يستكبر عن ذلك بأن يراه مَذَلَّةً كما فَعَلَ إبليسُ.

قال النبي ﷺ: «إذا سجد ابنُ آدَمَ اعتزل الشيطانُ يبكي، يقول: يا ويلتاه[٢]، أُمِرَ ابنُ آدم بالسجود فسَجَدَ فله الجنة، وأُمِرْتُ بالسجود فأَبَيْتُ فَلِيَ النار»[٣].

ويكونُ[٤] سجودُه في وَقْتٍ يُلَائِمُ فيه/ [١٠٤/أ] المَضْجَعُ الجَنْبَ فيُجَافِيه[٥] هو عنه، يَنْبُو بلَحْمِهِ عن الفراش قيامًا بحق التعبد، ووفاءً بوظيفة التهجد، وفي الباطن تتجافى القلوب عن مِهَادِ الآمال والتنعم، بجَوَلَانِ الخواطر في صلاح الأحوال، واقتضاء التنعم[٦] بالبُكَرِ والآصَالِ.

«كان عُمَرُ بن الخطاب ﷺ يصلي صلاة العشاء ثم يأمرنا أن نضع عند رأسه تَوْرًا[٧] من ماء، فيَتَعَارُّ من الليل فيَضَعُ يده في الماء فيَمْسَحُ يَدَه

---

(١) قوله: «هو الذي» سقط من (س).

(٢) في (د) و(ص): يا ويلاه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم: (٨١-عبد الباقي).

(٤) في (د): في خـ: ويُكَرِّرُ.

(٥) في (س): فيجافي.

(٦) في (د) و(ص): النعم.

(٧) في (س) و(ف): كوزًا.

ووجهه[١]، ثم يذكر الله حتى يُغْفِي، ثم يَتَعَارُّ حتى تأتيه السَّاعة التي يقوم فيها»[٢].

وكان أبو هريرة وعمرو بن دينار جَزَّآ[٣] اللَّيْلَ ثلاثة أجزاء؛ جُزْءٌ يُصَلِّي - ثُلُثٌ -، وجُزْءٌ ينام - ثُلُثٌ -، وجزءٌ يَذْكُرُ فيه حديث النبي[٤] ﷺ - ثُلُثٌ[٥] -.

واللَّيْلُ أُنْسُ الأَحباب[٦]، ومِيقَاتُ مُنَاجَاةِ رَبِّ الأَرْبَابِ، قال أبو سعد[٧] محمد بن طاهر في «فوائده المَقْدِسِيَّةِ»: «قال الله: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس:٦٧]، أي[٨]: عن كُلِّ شُغْلٍ وحَدِيثٍ سِوَى حَدِيثِ من يُحِبُّونَ النَّهَارَ - زَمَانَ الدُّنْيَا - مَعَاشًا، قال الله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠]».

واللَّيْلُ وَقْتُ الحُزْنِ أو وَقْتُ السرور، فأمَّا من غَلَبَ عليه الرَّجَاءُ فلَيْلُه في لَذَّةِ المناجاة وطَرَبِ المَسَرَّةِ، كما قال شاعرُهم[٩]:

---

(١) في (س): بوجهه، وفي (ص): وجهه ويده.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في الزهد: (ص١٤٨).

(٣) في (ص): جزؤوا.

(٤) في (د) و(ص): رسول الله.

(٥) الزهد للإمام أحمد: (ص٢٢١)، والحلية: (٣/٣٤٨).

(٦) في (س): الأخيار.

(٧) في (س) و(ف): سعيد.

(٨) سقطت من (س) و(ص) و(ز).

(٩) البيت من الخفيف، ونسبه العسكري في ديوان المعاني: (١/٣٥٣)، والراغب في المحاضرات: (٢/١٠٦)، لإبراهيم بن العباس، ونسبه الزمخشري في ربيع الأبرار: (١/٦٩)، وابن حمدون في التذكرة: (٥/٣٣٥)، لأبي نواس، وليس في ديوانه.

لَيْلَــةٌ كـــاد يلتقـــي طَرَفَاهَـــا   قِـــصَرًا وهـــي ليلـــةُ المـــيلادِ

وأمَّا من غَلَبَ عليه مَقَامُ الخَوْفِ فلَيْلُه أَسَفٌ وحُزْنٌ، كما يقولُ شَاعِرٌ[١]:

كَـمْ ليلـة منـك لا صَبَاحَ لهـا   أَفْنَيْتُهـا قَابِـضًا علـى كَبِـدِي

قد غَصَّتِ العينُ بالدموع وقد   وَضَعْتُ خَدِّي على بَنَانِ يَدِي

وهُمُ الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾.

وأمَّا من غَلَبَ عليه حالُ الجهالة، وخُتِمَ على قلبه بِرَيْنِ البَطَالَةِ فهو كما قال الآخَرُ[٢]:

نَهَـارُكَ بَطَّـالٌ وليلُـك نـائمُ   كذلك في الدُّنيا تَعِيشُ البهائمُ

ومن فوائدها في وَقْتِ اللَّيْلِ نَيْلُ المنازل، والتَّرَقِّي إلى شَرَفِ[٣] المطالب، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، فأعطاهُ الله بما[٤] خَصَّه به من فَرْضِ قيام الليل المَقَامَ المَحْمُودَ بالشفاعة، وجعله للأمة ميقاتًا للإجابة.

---

(١) هما لأحمد بن يوسف الكاتب كما في تاريخ دمشق: (٦٨/٢٣٣)، وفي بغية الطلب لابن العديم: (٣/١٢٧٤).

(٢) البيت من الطويل، وهو في بعض كتب التفاسير؛ كالمحرر الوجيز: (٣/٢٦٠)، وتفسير الثعلبي: (٣/١٨١).

(٣) في (د): شريف، وضبَّب عليها، وأثبت في الطُّرة ما أثبتنا، وفي (ز): أشرف.

(٤) في (د): مما.

فإذا انتصف الليلُ نَزَلَ الله إلى السَّماء الدنيا يقول: «هل من داع فأستجيب له؟ هل من سائل فأُعطيه؟ هل من مُسْتَغْفِرٍ فأَغفر له؟ حتى يطلع الفَجْرُ»[(١)].

وفي رواية: «إذا ذهب ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلِ»[(٢)].

وفي رواية: «الآخِرِ[(٣)]».

والكُلُّ صحيح.

[١٠٤/ب] وكما أُعْطِيَ لمُحَمَّدٍ[(٤)] ﷺ المقامُ المحمود/ بصلاة الليل؛ كذلك[(٥)] قال لهؤلاء المُتَجَافِينَ غَيْرِ الجَافِينَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً﴾[(٦)] بعملهم ذلك، وهُم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات:١٧]، واقتَدَوا برسوله حين قيل له: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُۥٓ﴾ [المزمل:١ - ٢]، فكان قيامُ الليل - قالت عائشة: - «فَرْضًا[(٧)] على جميع الأمَّة حَوْلًا»[(٨)]، ثم نَسَخَهُ الله تعالى بقوله: ﴿عَلِمَ أَن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم: (٧٥٨-عبد الباقي).

(٢) أخرجها والتي تليها مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم: (٧٥٨-عبد الباقي).

(٣) قوله: «الأَوَّلِ، وفي رواية: الآخر» سقط من (س).

(٤) في (د): مُحَمَّد.

(٥) سقطت من (س).

(٦) [السجدة:١٧].

(٧) في (د): فُرِضَ.

(٨) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، رقم: (٧٤٦-عبد الباقي).

لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ [المزمل:١٨]، وبَقِيَتْ فَرِيضَتُه[١] على مُبَلِّغِه ﷺ لِيَنَالَ به دَرَجَتَه الموعود بها.

ومن فوائدها: الاستغناءُ من الفَقْرِ، كان النبيُّ ﷺ إذا رأى أَهْلَه جاعُوا قال: «الصَّلَاةَ[٢] الصَّلَاةَ»[٣]، ذَكَرَه أحمد.

[فضائلُ صلاة الجمعة]:

وممَّا ينبغي أن تحافظوا عليه[٤] صلاةُ الجمعة؛ فإنها خِصِّيصَةُ هذه الأمة، قال النبي ﷺ: «نحن الآخِرون السَّابقون يوم القيامة، بيد أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا وأُوتيناه من بعدهم، فهذا اليوم الذي اختلفُوا فيه، فهدانا الله له، فاليهود غدًا، والنصارى بعد غَدٍ»[٥].

وفَضِيلَتُها بيَوْمِهَا، وسَاعَتُها لا[٦] تُوَازَى، والسَّاعةُ التي فيها خَفِيَتْ على[٧] كَثِيرٍ من الصحابة، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «أنها من حِين يَصْعَدُ الإمامُ على المنبر إلى أن يَفْرُغَ منها»[٨]، وهذا حديثٌ صحيحٌ مشهورٌ، خَفِيَ على أصحابنا المُتَوَلِّينَ القَوْلَ في شَرْح الحديث؛ لأنهم جُهَّالٌ بالصحيح، فيُقْبِلُونَ على ما لا ينفعهم الله به من سواه[٩].

---

(١) في (س): فرضيته.　　(٢) في (س): وا أهلاه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في الزهد مرسلًا: (ص١٥).

(٤) في (س) و(ف): يحافظ عليها.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم: (٨٥٥-عبد الباقي).

(٦) في (د) و(ص): ولا.　　(٧) في (د) و(ز): عن.

(٨) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: كتاب الجمعة، بابٌ في السَّاعة التي في يوم الجمعة، رقم: (٨٥٣-عبد الباقي).

(٩) ينظر: المسالك: (٤٤٦/٢)، والعارضة: (٣٩٩/٢).

ولا تُخَصُّ ليلتُها[١] بقيام، ولا نهارُها بصيام، فقد ثبت النَّهْيُ عن النبي ﷺ في ذلك[٢]، وإنما هي عبادةُ صلاة، وما رُوي أن النبي ﷺ صامها[٣] قط، وإنَّما رُوِيَ أنه كان يصوم الإثنين والخميس ويندب إليهما[٤]، وفي غيرهما أحاديثُ حِسَانٌ لم تصحَّ.

وأمَّا يومُ الجمعة فالنَّهْيُ فيه صحيحٌ فلا ترتكبوه، وهي بَدَلٌ عن الظُّهر؛ فإن جبريل عليه السَّلام نزل بصلاة الظهر وصلَّاها النبيُّ ﷺ وأصحابُه[٥] مُدَّةً[٦]، وبعد ذلك عَيَّنَ له الجمعة، فالأُولَى[٧] هي الأصل، والأُخْرَى هي[٨] بَدَلٌ عنها[٩].

ومعنى تَسْمِيَتِها بَدَلًا شيئان:

أحدهما: أنهما لا يجتمعان، وهذا حُكْمُ البَدَلِ والمُبْدَلِ منه[١٠].

---

(١) في (د): يُخَص ليلُها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الصوم، باب صوم يوم الجمعة، رقم: (١٩٨٥-طوق).

(٣) في (د) و(ص): صامه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه: كتاب الصيام، بابُ استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس، رقم: (١١٦٢-عبد الباقي).

(٥) سقط من (س) و(ز)، وبعده في (د): مرة.

(٦) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه: كتاب وقوت الصلاة، وقوت الصلاة، (١/٩٨)، رقم: (١-المجلس العلمي الأعلى).

(٧) في (د): الأوَّل.

(٨) سقط من (س).

(٩) ينظر: العارضة: (٢/٤١٤)، وأحكام القرآن: (٤/١٨٠٣).

(١٠) سقطت من (س) و(ص).

والثاني: أن الجمعة إذا تَعَذَّرَتْ رجعنا إلى الأَصْلِ؛ وهي الظُّهر.

ولِلْمُفَرِّعِينَ في ذلك كَلَامٌ لَغْوٌ لا يُفِيدُ حُكْمًا، ولا يَتَعَلَّقُ به مَعْنًى، وقد وَقَعَتْ مسائلُ ظَنُّوا أنها تنبني على هذا الأصل، وليس كذلك، وقد بينَّاها في «مسائل الفروع».

حِكَايَةٌ:

ولقد كُنْتُ بالمسجد الأقصى - طهَّره الله - مع المُتَعَبِّدِينَ والمُرِيدِينَ نَعْتَمِدُ[1] الجمعة بالدعاء، ويُقِيمُونَ النهار كلَّه في المسجد لا/ [١٠٥/أ] يُكَلِّمُونَ أَحَدًا، وكان هناك رَجُلٌ يُعَضِّهُ[2] الجُمُعَاتِ؛ فيأخذُ عِضَةً في يومٍ إلى الضحى، وفي آخَرَ عِضَةً إلى الزوال، وفي آخَرَ عِضَةً إلى العصر، وفي آخَرَ عِضَةً إلى اللَّيْلِ، فتكلَّمنا في ذلك يَوْمًا مع شيخنا أبي بَكْرٍ القُرَشِي الصُّوفِي[3] فقال: «ولعلها في اليوم الذي عِضَتُه فيه[4] من الصبح إلى الضحى تَكُونُ من الضحى إلى الظهر، وكذلك تَتَبَدَّلُ في الجُمَعِ كما تَتَبَدَّلُ لَيْلَةُ القَدْرِ في العَشْرِ الأواخر[5] في الأعوام، فتكون[6] في عامٍ ليلة، وفي آخَرَ سواها؛ على ما وردتْ به الآثار»، ونَحْنُ في ذلك كُلِّه غَفَلَةٌ، حتى قَرَأْنَا «كتاب مُسْلِمٍ» بمكة وبغداد، فأَلْفَيْنَاهَا فيها[7].

---

(١) في (د): نعتدُّ.

(٢) عضَّه الجمعات: فَرَّقَها، مِنْ عَضَّيْتُ الشيء إذا فَرَّقْتَه، تاج العروس: (٣٦/٤٤٤).

(٣) هو الإمام أبو بكر الطُّرطوشي.

(٤) سقط من (س).

(٥) سقطت من (ص) و(س) و(ز).

(٦) في (س): فيكون.

(٧) سقطت من (س).

وقلتُ له: فهذا المعتكفُ نهارَه طالبًا لساعة الجمعة؛ إنْ خرج لوضوء فكانت تلك السَّاعة فيها؟

قال لي أبو بكر المذكور: تحصل له بَرَكَتُها؛ لأنه خَرَجَ في ضَرُورَةٍ لا بُدَّ له منها.

[تَشْدِيدُ الوعيد على من تَرَكَ الصَّلاة]:

وقد تَشَدَّدَ الوعيدُ على من تركها، ألا ترى إلى قوله تعالى مُخْبِرًا عن سؤال المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر:٤١ - ٤٢].

وفي الصحيح أن النبي ﷺ رأى رَجُلًا يُرْضَخُ رأسُه بحَجَرٍ، ثم يعودُ صَحِيحًا، ثم يُرْضَخُ هكذا أبدًا، فقال: «يا جبريل، ما هذا؟ قال: هذا[1] الذي ينام عن الصَّلاة المكتوبة»[2].

فَإِذْ[3] تُوُعِّدْتَ على فِعْلِها فالزمها، ففي ذلك نَزَلَتْ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ عَبْداً إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩ - ١٠]، إلى قوله: ﴿كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق:٢٠]، والوَيْلُ لمن تركها، أو كان ساهيًا عنها مع فِعْلِها، فأتى بها صُوَرًا لا معاني لها؛ إنَّه ليُخَافُ عليه أن يكون كما قال الله تعالى مُخْبِرًا عن قَوْمٍ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية:٣].

---

(١) في (د) و(ص): هو.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب ﷺ: كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم: (٧٠٤٧-طوق).

(٣) في (س) و(ص) و(ف): فإنْ.

قال لنا أبو محمد عبد الله بن[١] عبد الرزاق بن فُضَيل[٢] الدمشقي في «فوائده»: إن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٥]: وَعِيدٌ لمن تركها، ليس لمن[٣] ذَهِلَ فيها[٤]، لقوله: ﴿عَن﴾، ولم يقل: «في صلاتهم».

وهذه مُلْحَةٌ[٥] ذكَرَها الخَطَّابِيُّ وغيرُه.

وأَشَدُّه - عندي - أن يَذْهَلَ عنها بعد التلبُّس بها، فإنه عَقَدَ الإِقْبالَ ثم أَعْرَضَ عن الله تعالى، ونسألُه سبحانه التوفيق.

فإن فَرَّطَ فيها فتوبتُه أن يَقْضِيَها، ولا يَجْعَلُ مع كُلِّ صَلَاةٍ صَلَاةً، ولا يَقْطَعُ النوافل لأجلها، وإنما يشتغل بها ليلًا ونهارًا، ويُقَدِّمُها على فُضُولِ مَعَاشِه، وأخبار دنياه، ولا يُقَدِّمُ عليها شيئًا إلَّا ضرورة المعاش، ولا يشتغل بأموره الزائدة على حاجته، حتى إذا جاء وَقْتُ الصلاة أَقْبَلَ على القضاء للفوائت وترك النوافل فهذا مَأْثُومٌ.

وقد قال أحمد بن حنبل: كانت عُثَامَةُ[٦] أُمُّ ابنِ[٧] أبي الدرداء دَخَلَ عليها ولدُها يومًا وقد كُفَّ بصرُها وقد صلى، فقالت: أصليتم يا بُنَي؟ قال: نعم، قالت[٨]: / [١٠٥/ب]

---

(١) قوله: «عبد الله بن» سقط من (ص) و(س) و(ز).

(٢) تقدَّم التعريف به في السِّفْرِ الأوَّل.

(٣) سقطت من (س).

(٤) في (س) و(ز): عنها.

(٥) في (ص): مَجَلَّةٌ.

(٦) في (ص): عَثَّامة.

(٧) سقطت من (ص).

(٨) الأبيات من مجزوء الكامل، وهي لعثامة أم بلال بن أبي الدرداء، نسبها لها =

عِثَامَ مَالَكِ لاهِيَهْ حَلَّتْ بِدَارِكِ دَاهِيَهْ

ابْكِ الصلاةَ لوَقْتِها إن كُنْتِ يَوْمًا بَاكِيَهْ

وابْكِ القُرَانَ إذا تُلِي قَدْ كُنْتِ يومًا تَالِيَهْ

تَتْلِينَهُ بتَفَكُّرٍ ودُمُوعُ عَيْنِكِ جَارِيَهْ

فاليَوْمَ لا تَتْلِينَهُ إلَّا وعندكِ تَالِيَهْ

لَهْفِي عَلَيْكِ صَبَابَةٌ ما عِشْتُ طُولَ حَيَاتِيَهْ

قال الإمام الحافظ[١] ﷺ: ومن زَعَمَ أنَّ من تَرَكَ الصَّلاة مُتَعَمِّدًا أنه لا يَقْضِيهَا فقد خرج عن الإسلام، يُسْتَتَابُ، وقد بيَّنَّاها في كتاب «العواصم»[٢] وغيرها، ووَيْلهم.

ثبت[٣] في الصحيح أنَّ النبي ﷺ قال: «ما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضتُه عليه»[٤]، فكيف يَتْرُكُ هو فرائضه ويشتغلُ بطلب الزائد على القوت[٥]؟ فإن قال: لعيالي، قيل[٦] له: فَرْضُك أَوْكَدُ من عيالك بإِجْمَاعٍ من الأمة، وبالله التوفيق.

= الإمام أحمد في الزهد: (ص٢١٣)، والسُّلَمي في طبقات الصوفية: (ص٣٩٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق: (٦٩/٢٦٧).

(١) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وفي (ز): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.

(٢) العواصم: (ص٢٦٠-٢٦٢).

(٣) سقطت من (د) و(ص).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم: (٦٥٠٢-طوق).

(٥) في (س): القرب.

(٦) في (س): قال.

[الصَّلَاةُ على رسول الله ﷺ]:

ومن جُمْلَةِ الصلاة تَخْصِيصُ مُحَمَّدٍ ﷺ بالدُّعَاءِ له والصَّلَاةِ عليه.

قال محمد بن المَوَّازِ ومحمد بن إدريس[١]: «هي من فرائض الصلاة»[٢].

وهو الصحيح، وقد بيَّنَّاهُ في «مسائل الخلاف»[٣].

وصُورَتُه ما في «الموطأ»: «اللهم صَلِّ على مُحَمَّدٍ، وعلى آل مُحَمَّدٍ، كما صليت على إبراهيم، وبارك على مُحَمَّدٍ، وعلى آل مُحَمَّدٍ، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد»[٤].

والروايات في ذلك كثيرةٌ، ولا أصل لها.

وذِكْرُ الرَّحْمَةِ في الصَّلاة على النبي ﷺ بِدْعَةٌ؛ فإن الصحابة سألوه كيف نُصَلِّي عليك فلم يجبهم حتى أُوحِيَ إليه بهذا النَّصِّ؛ خَالِيًا عن التَّرَحُّمِ عليه، فذِكْرُها فيه اسْتِقْصَارٌ عليه[٥]، وذلك لا يَحِلُّ، أَمَا إنَّه يُتَرَحَّمُ على النبي ﷺ في كل حين[٦].

---

(١) بعده في (س) و(ص) و(ف) و(ز): المُطَّلِبِي، ومرَّضها في (د).

(٢) ينظر: الاستذكار: (٦/٢٥٦).

(٣) ينظر: المسالك: (٢/٣٨٩).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه: كتاب قصر الصلاة، ما جاء في الصلاة على النبي ﷺ، (١/٢٢٦)، رقم: (٤٥٩-المجلس العلمي الأعلى).

(٥) سقطت من (د) و(ص).

(٦) ينظر: العارضة: (٢/٣٩٠).

والحِكْمَةُ في ذلك[١] وفي تَرْكِ التَّرَحُّمِ عليه في الصَّلاة أنه قد تقدَّم التَّرَحُّمُ عليه في التشهد، فلا فائدة في تكْرَارِه[٢].

تَقُولُ: «التحيات لله، الزَّاكيات لله، الطيِّبات الصلوات لله، السَّلام عليك أيُّها النبيء ورحمة الله وبركاته، السَّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدًا عبدُه ورسولُه»[٣]، «اللهم صلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آل محمد، أو: على أزواجه وذريته»[٤]، حسب ما تقدَّم، وإيَّاكَ والزيادةَ على هذا، فإن الأمة أَجْمَعَتْ على ذلك.

وقد غَلِطَ فيه أبو مُحَمَّدِ بن أبي زَيْدٍ - رحمه الله - غَلَطًا عَظِيمًا[٥]؛ فإنه مَزَجَ تَشَهُّدَ الصَّلَاةِ بتَشَهُّدِ الوصية، فخَلَطَ من وجهين:

أحدهما: أنه مَزَجَ سَقِيمًا بصحيح.

والثاني: أنه لم يُرَاعِ ما أجمعتْ عليه الأمَّة، وما عَلِمَتْهُ الصحابةُ، حتى زَادَ هو فيه من قِبَلِ نَفْسِه ما لا أصل له[٦].

---

(١) قوله: «في ذلك» سقط من (د) و(ص).

(٢) في (د) و(ص): تكرارها.

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن عمر بن الخطاب ﷺ: كتاب الصلاة الأوَّل، التشهد في الصلاة، (١/١٦٦)، رقم: (٢٤٢-المجلس العلمي الأعلى).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي حُمَيد السَّاعِدي ﷺ: كتاب قصر الصلاة، ما جاء في الصلاة على النبي ﷺ، (١/٢٢٦)، رقم: (٤٥٨-المجلس العلمي الأعلى).

(٥) كتاب الرسالة في واجب أمور الديانة: (ص٣٧-أصل ابن الأزرق).

(٦) ينظر: القبس: (١/٢٤١)، والاستذكار: (٦/٢٦٢).

وفي الصَّلَاةِ على النبي ﷺ وفَضَائِلِها أَحَادِيثُ كثيرةٌ لم يَصِحَّ منها شَيْءٌ، ولا شَكَّ في أنَّ له فَضْلًا لا يُحْصَى، لكنه لم يَرِدْ فيه سَنَدٌ يُعْتَمَدُ عليه[1]/. [١٠٦/أ]

ذِكْرُ الدُّعَاءِ:

ولمَّا كانت الصَّلَاةُ مَوْضُوعَةً دِينًا، مَحْفُوظَةً شَرْعًا، مَأْمُورًا بها مِلَّةً، مُعَظَّمَةً عبادةً؛ لاشتمالها - كما قدَّمنا - على عقائد وأقوال وأفعال، وكان من جُمْلَتِها «الذِّكْرُ» و«الدُّعَاءُ»، وكانَا اسْمَيْنِ من أَخَصِّ[2] الأسماء وأَفْضَلِها[3] وأَرْفَعِها عند الله، وأَدْنَاهَا منه[4] مَكَانَةً؛ اشتملت عليها أَجَلُّ[5] العبادات قَدْرًا، فهُمَا:

* * * * *

(١) قَصْدُ ابن العربي من هذا أن الأحاديث التي وَرَدَتْ فيها المبالغة في ذِكْرِ فضلها كثيرٌ منها لا يصح، وليس معناه إنكار ثبوت الفضل مطلقًا، فقد صحَّح بعضًا منها، ينظر: العارضة: (٢/٣٩٠).

(٢) في (ص): أحظ.

(٣) في (د): أفضلهما.

(٤) مرَّضها في (د).

(٥) في (ص): أخص.

الدَّاعِي: وهو الاسمُ السَّابع عشر
والذَّاكِرُ: وهو الاسمُ الثَّامن عشر

ولمَّا كان معناهما أو أَحَدُ معانيهما[١] - على ما بينَّاه في «كُتُبِ الأصول والحديث والفقه» - الدُّعَاء[٢]؛ عَطَفْنَا عليه عِنَانَ البَيَانِ، وأقبلنا عليه بنَوْعٍ من تخصيص الإيضاح والشرح والتنبيه عليه.

وهو في أَصْلِ العربية: عبارةٌ عن النداء[٣].

وفي عُرْفِ الشَّرْعِ والعربية: عبارةٌ عن الطَّلَبِ.

وقد ذَهَبَ بَعْضُ غُلَاةِ الصوفية إلى أنَّ الدعاء لا ينبغي، وإنما حَقُّ العَبْدِ أن يستسلم إلى مَجَارِي الأقدار[٤]، ولا يختار على الله شيئًا، وذلك ممَّا يُحْكَى عن أبي مَنْصُورٍ، وقد كان غَيْرَ مُحَقِّقٍ ولا منصور[٥]، ورَأَى أنَّ ما جاء من ذلك في لسان الشَّرْعِ القصدَ به رِفْقُ الخَلْقِ، فكل من حَقَّقَ

---

(١) في (د) و(ص) و(ز): معانيها.

(٢) ضبب عليها في (د).

(٣) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٣٠٦-٣٠٧)، والأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١٧٥/٢)، والعارضة: (٤٩٥/١٠).

(٤) في (د) و(ص): القدر.

(٥) حكاه أبو القاسم القُشَيري عن أبي بكر الواسطي، الرسالة: (ص٢٩٦)، وينظر: شأن الدعاء للخطابي: (ص٦).

القضاء والقدر فينبغي له أن يستسلم ويستأسر، وهذه سخافةٌ تَجُرُّ إلى تَرْكِ العَمَلِ، فإن القضاء قد سَبَقَ، والعمل زيادةٌ.

وقد بيَّنّا أنَّ الصحابة سألت النبيَّ ﷺ عن ذلك، وأجابها بالحقيقة هنالك[١]، وقد قيل للنبي ﷺ: «أَيَرُدُّ الدعاءُ من قَدَرِ الله شيئًا؟ قال: الدعاءُ من القَدَرِ»[٢].

المعنى: أن الله إذا أراد بعَبْدٍ خَيْرًا يَسَّرَهُ للدُّعاء، فدَفَعَ عنه به[٣] البلاءَ، وكان ذلك من جُمْلَةِ القَدَرِ والقضاء.

ولهذا المعنى قال النبي ﷺ: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت[٤]، لِيَعْزِمِ المسألة؛ فإنه لا مُكْرِهَ له»[٥].

وفي رواية: «فإن الله[٦] لا يتعاظمه شيء»[٧].

---

(١) يقصد به حديث: «اعملوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له»، وقد تقدَّم تخريجه.

(٢) في جامع الترمذي من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه: «لا يرد القضاء إلَّا الدعاء»، أبوابُ القدر عن رسول الله ﷺ، بابُ ما جاء لا يرد القدر إلَّا الدعاء، رقم: (٢١٣٩-بشار).

(٣) في (ص): به عنه، وسقطت من (س).

(٤) قوله: «اللهم ارحمني إن شئت» سقط من (س).

(٥) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه: ما جاء في الدعاء، (٢٦٣/١)، رقم: (٥٧٠-المجلس العلمي الأعلى).

(٦) في (ص): قال الله تعالى، ولم يرد في (س).

(٧) أخرجها مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء، رقم: (٢٦٧٩-عبد الباقي).

وقال: «يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَلْ، قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لي، يَسْتَحْسِرُ عند ذلك ويَدَعُ الدُّعَاءَ»[1].

وقال ﷺ: «دَعْوَةُ الرجل لأخيه بظَهْرِ الغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عند رَأْسِه مَلَكٌ، كلَّما دعا لأخيه بخَيْرٍ قال المَلَكُ المُوَكَّلُ: آمين، ولك بمِثْلِ ذلك[2]»[3].

وقال ﷺ: «اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها[4] وبين الله حجابٌ»[5].

وقال ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا على أولادكم، ولا على أموالكم، لا تُوَافِقُوا سَاعَةً يُسْأَلُ فيها[6] عطاء فيُستجاب لكم»[7].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، رقم: (٢٧٣٥-عبد الباقي).

(٢) سقطت من (د) و(ص)، وفي (س): في خـ: «المُوَكَّل: ولك بمثله».

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أم الدرداء رضي الله عنها: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم: (٢٧٣٣-عبد الباقي).

(٤) في (س): بينه.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: كتاب المظالم، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم، رقم: (٢٤٤٨-طوق).

(٦) في (س) و(ف): فيه.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه: كتاب الزهد والرقاق، بابُ حديث جابر الطويل، وقصة أبي اليسر، رقم: (٣٠٠٩-عبد الباقي).

وقد قال النبي ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مستجابة، فتَعَجَّلَ كلُّ نبيءٍ دعوته، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأُمَّتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله من مات من أُمَّتِي لا يُشرك بالله شيئًا[(١)]»[(٢)].

[١٠٦/ب] وثَبَتَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال:/ «الدُّعَاءُ هو العبادة»[(٣)]، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

وثبت أنه قال: «ما من دَاعٍ يَدْعُو إلَّا كان بين إحدى ثلاث؛ إمَّا أن يُستجاب له، وإمَّا أن يُعَوَّضَ، وإمَّا أن يُدَّخَرَ له[(٤)]»[(٥)].

وثَبَتَ أن عمر رضي الله عنه قال: «استأذنتُ النبي ﷺ في العمرة فأَذِنَ لي وقال: أشركنا يا أُخَيَّ في دُعائك»[(٦)].

---

(١) بعده في (د) و(ص): وقال: «دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة»، وقد تقدَّم هذا الحديث.

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه: ما جاء في الدعاء، (٢٦٣/١)، رقم: (٥٦٨-المجلس العلمي الأعلى).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: أبوابُ الدعوات عن رسول الله ﷺ، بابُ ما جاء في فضل الدعاء، رقم: (٣٣٧٢-بشار).

(٤) سقط من (س).

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (٣٧٤/١)، رقم: (٧١٠).

(٦) أخرجه أبو داود في السنن عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم: (١٤٩٨-شعيب).

إِجَابَةُ المُضْطَرِّ(١):

وقال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٤].

وللعَبْدِ حالتان؛ حالة اختيار، وحالة ضرورة، وكل واحدة مَحَلٌّ للعبادة، ومن عبادات الاختيار(٢) الشُّكْرُ، ومن عبادات الضرورة الصَّبْرُ، وكل واحدة - أيضًا - مَحَلٌّ للدعاء، فالرخاءُ مَحَلٌّ دعاء العافية، والضرورة مَحَلٌّ دعاء الكشف، وأكثرُ ما ينفع الدعاءُ في الضرورة بما تقدَّم من الرخاء.

قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٦ - ٨٧]، وليس هاهنا صَرِيحُ دعاء، وإنما هو مضمونُ قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاعترف بالظلم لأنه استعفى(٣) منه، فكان تلويحًا، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: نُخَلِّصُهم من هَمِّهم بما سَبَقَ من عَمَلِهم، وذلك قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣ - ١٤٤]، وهذا حِفْظٌ من الله لعبده يونس؛ لأنه راعى له حَقَّ تعبده، وحَفِظَ ذِمَامَ ما سَلَفَ له في طاعته، فقال: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

---

(١) قوله: «إجابة المضطر» سقط من (د) و(ص).

(٢) في (د) - أيضًا -: الاختيار، وفي (ص): الرجاء.

(٣) في (س): استغفر.

قال الأستاذ أبو القاسم: «صَحِبَ ذا النون الحُوتُ أيامًا قلائل، فإلى يوم القيامة يقال له: ذو[١] النون، فما ظنُّك بعَبْدٍ عَبَدَه سبعين سَنَةً، أَيَبْطُلُ[٢] هذا عنده[٣]؟ لا يُظَنُّ به ذلك»[٤].

وقال أبو المعالي: «قوله: لا تُفَضِّلُوني على يونس بن متَّى[٥]، المعنى: فإنِّي لم أكن[٦] وأنا في سِدْرَةِ المنتهى بأَقْرَبَ إلى الله منه وهو في قَعْرِ البحر في بَطْنِ الحوت، وهذا يدلُّ على أن الباري سبحانه وتعالى ليس في جِهَةٍ»[٧].

---

(١) في (د) و(ص): ذا.

(٢) في (ص) و(س) و(ف): يبطل.

(٣) في (س): عمره.

(٤) لطائف الإشارات: (٢/٥١٩).

(٥) تقدَّم تخريجه.

(٦) في (د): نكن.

(٧) قال ابنُ العربي (الأحكام: ٤/١٦٢١): «أَخْبَرَنِي غَيْرُ وَاحِدٍ من أَصْحَابِنَا عن إمَامِ الحَرَمَيْنِ أَبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجُوَيني أَنَّهُ سُئِلَ: هل الباري تعالى في جِهَةٍ؟ فَقَالَ: لا، هو يَتَعَالَى عن ذَلِكَ، قِيلَ له: ما الدَّلِيلُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: الدَّلِيلُ عَلَيْهِ قولُه ﷺ: «لا تُفَضِّلُونِي على يُونُسَ بن مَتَّى»، فقيل له: ما وَجْهُ الدَّلِيلِ من هذا الخَبَرِ؟ قال: لا أَقُولُهُ حَتَّى يَأْخُذَ ضَيْفِي هذا أَلْفَ دِينَارٍ يَقْضِي بها دَيْنَهُ، فقام رجلان فقالا: هي علينا. فقال: لا يَتْبَعُ بها اثْنَيْنِ؛ لأَنَّهُ يَشُقُّ عَلَيْهِ، فقال وَاحِدٌ: هي عَلَيَّ، فَقَالَ: إنَّ يُونُسَ بن مَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ في البَحْرِ، فَالتَقَمَهُ الحُوتُ، وَصَارَ في قَعْرِ البَحْرِ في ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ، وَنَادَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، كما أَخْبَرَ الله عنه، ولم يَكُنْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِأَقْرَبَ من الله من يُونُسَ حين جَلَسَ على الرَّفْرَفِ الأَخْضَرِ، وارْتَقَى به، =

وقال النبي عليه السَّلام - واللفظ لابن عمر -: «بينما ثلاثةٌ يمشون إذ أصابهم مَطَرٌ فآوَوا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصِّدْقُ، فليَدْعُ كلُّ رَجُلٍ منكم بما يعلم أنه قد صَدَقَ فيه، فقال أحدُهم: اللهم إن كنتَ تَعْلَمُ أنه كان لي أَجِيرٌ عَمِلَ لي على فَرَقٍ من أَرُزٍّ فذهب وتركه، وإني عَمَدْتُ إلى ذلك الفَرَقِ فزرعتُه، فصار من أمره أنّي[1] اشتريتُ فيه[2] بَقَرًا، وإنه أتاني يطلب أَجْرَه، فقلت له: اعمِد إلى تلك البَقَرِ فسُقْهَا، فقال لي: إنما لي عندك فَرَقٌ من أَرُزٍّ، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر فإنها[3] من ذلك الفَرَقِ،/ فَسَاقَهَا، فإن كنتَ تَعْلَمُ أنِّي فعلتُ ذلك من خشيتك فافرُج عنا، فانساخَت الصخرةُ عنهم، وقال الآخَر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنتُ آتيهما كل ليلة بلَبَنِ غَنَمٍ، فأبطأتُ عنهما ليلة فنأى بي[4] الشجر، فجئتُ وقد رَقَدَا[5]، وأهلي يَتَضَاغَونَ من الجوع، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، وكرهتُ أن أُوقظهما، وكرهتُ أن أدعهما فيستكينا لشربتيهما[6]، فلم أزل

[١٠٧/أ]

= وصَعِدَ حَتَّى انْتَهَى به إلى مَوْضِعٍ يَسْمَعُ منه صرير الأَقْلَامِ، ونَاجَاهُ رَبُّهُ بما نَاجَاهُ، وأوحى إلى عَبْدِهِ ما أَوْحَى بِأَقْرَبَ من الله من يُونُسَ بن مَتَّى في بَطْنِ الحُوتِ وظُلْمَةِ البَحْرِ»، وأفاد من هذا النص الفقيه زَرُّوق في كتابه اغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد: (ص٩٣-٩٤).

(١) في (س) و(ف): إلى أن.

(٢) في (د) - أيضًا -: به.

(٣) في (س): فسقها فإنها.

(٤) في (س): نآ بأبي، وفي (ص): فأبي، ومرَّضها.

(٥) في (د): رقدوا.

(٦) في (د): لشربيهما.

أَنْتَظِرُهما[١] حتى طلع الفجرُ، فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتك ففَرِّجْ عنَّا، فانساخت عنهم الصخرةُ[٢] حتى نظروا إلى السماء، ولا يستطيعون الخروج، فقال الآخَر: اللَّهم إن كنت تعلم أنه كانت لي ابنة[٣] عَمٍّ من أَحَبِّ الناس إليَّ، وإني رَاوَدْتُها عن نفسها، فقالت: لا، إلا أن آتِيهَا بمائة دينار، فطلبتُها حتى قَدَرْتُ عليها، فأتيتُها بها فدَفَعْتُها إليها، فأَمْكَنَتْنِي من نفسها، فلمَّا قَعَدْتُ بين رِجْلَيْهَا قالت: اتق الله، ولا تَفُضَّ الخاتم إلَّا بحقه، فقُمْتُ وتَرَكْتُ المائة دينار، فإن كُنْتَ تَعْلَمُ أني فَعَلْتُ ذلك من خشيتك ففَرِّجْ عنَّا، فَفَرَّجَ الله عنهم وخَرَجُوا»[٤].

فهؤلاء قَوْمٌ دَعَوا وتَوَسَّلُوا.

وحَقِيقَةُ الاضطرار: أن تَنْزِلَ الشِّدَّةُ ولا تكونُ وَسِيلَةٌ إلَّا الإقرار له بالربوبية، وإن كانت وقعت المخالفات.

وإني لأَعْجَبُ من قَلْبٍ غَافِلٍ تَفَطَّنَ لهذه الحقيقة فقال[٥]:

إن كان لا يَدْعُوكَ إلَّا مُحْسِنٌ　　　فمن ذا الذي يَدْعُو ويَرْجُو[٦] المُجْرِمُ

---

(١) في (س) و(ف): أَنْظُرُهما.

(٢) في (س) و(ف): الصخرة عنهم.

(٣) في (د): بنت.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأنبياء، حديث الغار، رقم: (٣٤٦٥-طوق).

(٥) هذا البيت والذي بعده من الكامل، وهما لأبي نواس في ديوانه: (ص٦١٨).

(٦) في (د): فمن الذي يرجو المسيئ المجرم، وفي (ص): فمن ذا الذي يدعو إليه المجرم.

وصَدَقَ، ثم قال:

أَدْعُوكَ رَبِّي كما أَمَرْتَ تَضَرُّعًا فإذا رَدَدْتَ يَدِي فمَنْ ذَا يَرْحَمُ

وكَذَبَ، ما دَعَاهُ كما أَمَرَ، وإنَّما[1] دعاه كما قَدَرَ وقُدِّرَ.

والخطباءُ يقولون على المنابر: «اللهم إنَّا قد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا، إنك لا تخلف الميعاد»، وصدق والله.

وأمَّا هُمْ فأخاف أن تكون دَعْوَى؛ فإن شروط الدعاء معلومة، وهي عندنا معدومة.

واختلف الناسُ في إجابة المضطر على أربعة أقوال[2]:

الأوَّل: أن الإجابة بالقول، وأمَّا كَشْفُ السوء فبالطَّوْلِ[3].

الثاني: أن الإجابة بالكلام، وكشف السوء بالإنعام.

الثالث: أن دعاء المضطر والمظلوم لا مَرَدَّ له، ولكن لكُلِّ أجل كتاب، كما يُرْوَى في دعوة المظلوم أن الله يقول: «لأنصرنَّك ولو بعد حين»[4].

الرابع: قال الأستاذ أبو القاسم: «للجِنَايَةِ سِرَايَةٌ، فمن كان للجناية مختارًا فليس تَسْلَمُ له دعوى[5] الاضطرار عند سِرَايَةِ جُرْمِه[6] الذي سَلَفَ

---

(١) في (د) و(ص): إنما.

(٢) تنظر في: لطائف الإشارات للقشيري: (٣/٤٤).

(٣) في (د) و(ص): فهو بالطول.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الرقائق، باب الأدعية، (٣/١٥٨)، رقم: (٨٧٤-إحسان).

(٥) في (د): دعوة. (٦) في (س): جُرْحِه.

وهو مختارٌ فيه، فأكثرُ الناس يتوهَّمون أنهم مضطرون، وذلك الاضطرارُ سِرَايَةٌ[١] ما بَدَرَ منهم/ في حال وَهَمِ[٢] اختيارهم[٣]، وما دام العبدُ يتوهَّم من نفسه شيئًا من الحَوْلِ والحِيلَةِ، ويرى لنفسه شيئًا من الأسباب[٤] يعتمد عليه أو يستند إليه؛ فليس بمضطر، إلَّا أن يرى نفسه كالغريق في البحر، والضال في المتاهة، والمضطر يرى عِنانه بيد سَيِّدِه، وزِمامه في قبضته؛ كالمَيِّتِ بيد غاسله، ولا يرى لنفسه استحقاقًا [للنَّجاة[٥]]؛ لأنه يخاف أن يَقرأَ[٦] اسمَه في ديوان الشقاوة، فلا ينبغي للمضطر أن يستعين بأَحَدٍ في أن يدعو له؛ لأنَّ الله وَعَدَ[٧] الإجابةَ له، لا لمن يدعو له»[٨].

١ [١٠٧/ب]

ثم كما وَعَدَ المضطر الإجابة وكَشْفَ السُّوءِ وَعَدَهُ أن يجعله خليفةً في الأرض، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥]، لم يقل: إزالة، ولكن قال: ﴿مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، كذلك قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٤]، ثم قال[٩]: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٤]، فإن العبد إذا زال عنه عُسْرُه وكُشِفَ عنه ضُرُّهُ كان كما قال القائلُ:

---

(١) قوله: «جُرْحِه الذي سَلَفَ وهو مختارٌ فيه، فأكثرُ الناس يتوهمون أنهم مضطرون، وذلك الاضطرارُ سِرَايَةٌ» سقط من (ص).

(٢) سقطت من (ص) و(س).

(٣) ضبَّب عليها في (د).

(٤) في (س): الأشياء.

(٥) زيادة من لطائف الإشارات: (٣/٤٥).

(٦) في (س): يقر.

(٧) في (د): وعده.

(٨) لطائف الإشارات للقُشَيري: (٣/٤٥).

(٩) قوله: «ثم قال» سقط من (س).

كأن الفَتَى لم يَعْرَ يومًا إذا اكْتَسَى ولم يَكُ صُعْلُوكًا إذا ما تَمَوَّلَا[١]

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي[٢] رضي الله عنه: أمَّا الذي قاله الأستاذ: «من سِرَايَةِ الجناية»، فليس يُسَلَّمُ له؛ فإنَّ كل أَحَدٍ له ذَنْبٌ، وما أصابه فبذنبه، ويعفو عن كثير.

[حقيقةُ المُضْطَرِّ]:

والمُضْطَرُّ هو الذي يُوقِعُه ذنبُه في أُنْشُوطَةٍ، فيتطارحُ على ربه ويَتَمَلَّقُ له، ويرمي بنفسه بين يديه ويستسلم إليه، ويعترف بالذنب لديه، ولو كان إجرامُه يقطعُ دعاءه لكان ذلك يأسًا، و﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وأمَّا قوله: «إن حقيقة المضطر من يرى نفسه كالغريق في البحر، والضَّالِّ في المتاهة؛ الذي ليست[٣] له حيلة»، فصحيحٌ، وكذلك هو كلُّ مؤمن مع ربه؛ فإنه يعلم أنه لا يملك لنفسه شيئًا ولا لغيره، ويرى أنه إن عاقب فله ذلك بمُلْكِهِ، وإن عفا عنه[٤] فبفضله، وإن أجاب فبوعده، وإن لم يُجِبِ العَبْدَ فيما سَلَفَ من تقصيره في حقه؛ وهذا هُوَ المُضْطَرُّ.

---

(١) البيت من الطويل، وهو من قطعة لجابر بن ثعلب الطائي، وهو في ديوان الحماسة: (ص٥٦)، والكامل: (٣١١/١)، ولطائف الإشارات للقشيري: (٨٣/٢).

(٢) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

(٣) في (د) و(ص): ليس.

(٤) سقطت من (د) و(ص).

ولا تعجبُوا - معشر المريدين - من دُعاء ذي النون في بطن الحوت مُضْطرًّا، فإنه قد كان على درجة عظيمة من الاختيار؛ بأن أَبْقَى معه عقله وجنانه[١]، ودفع عنه الشيطان[٢]، فتمكَّن من التضرع إليه كما كان يَتَمَكَّنُ في البَرِّ في منزله.

[أوَّلُ المُضْطَرِّينَ]:

وأوَّلُ من دعا من المضطرين بعد ما قاسى البلاء المُبِين والكَرْبَ العظيم نُوحٌ عليه السَّلام، قال: ﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلاَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّاراً اِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوٓاْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح:٢٨ - ٢٩]، فاستجاب الله له، ويقول يوم القيامة: «لستُ لها - يعني: الشفاعة -؛ إني دَعَوْتُ على قَوْمِي»[٣].

[١٠٨/أ]

وقال بعضُ/ الناس: «إنه لم يَدْعُ عليهم حتى قال الله له: ﴿اَنَّهُۥ لَنْ يُّومِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدَ ـامَنَ﴾ [هود:٣٦]»[٤].

ولو كان[٥] هذا هكذا لم يكن في الدعاء ما يُوقِفُه عن التقدم في الشفاعة؛ فإنه كان يكون واضعاً للدعوة مَوْضِعَها.

ودعا مُوسَى وهارون صلى الله عليهما[٦] فقالا: ﴿رَبَّنَا اَطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُومِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلاَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨].

---

(١) في (د) و(ص): حياته.

(٢) سقط من (د) و(ص).

(٣) تقدَّم تخريجه في السفر الأوَّل.

(٤) لطائف الإشارات: (١٣٥/٢).

(٥) في (س): ولم يكن.

(٦) في (س) و(ف): عليهما السَّلام.

وقد قال بعضُ المُفَسِّرينَ[١]: «إن دعوة موسى هذه كانت بإِذْنٍ ؛ لأن الأنبياء ضُمِنَتْ لهم العِصْمَةُ».

فدلَّ على أن الدعاء بهذه الجملة كان[٢] بإِذْنٍ، ويَعْضُدُه قوله في التخلي عن الشفاعة: «إني قتلتُ نَفْسًا[٣] لم أُؤْمَرْ بقتلها»[٤]، ولم يقل: دَعَوْتُ على فرعون وقَوْمِه.

وقد حكى رسول الله ﷺ: أن نَبِيًّا من الأنبياء جَرَحَه قَوْمُه، فجَعَلَ يسيلُ الدم[٥]، وجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ ويقول: «اللَّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٦].

وأمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ فقال حين خرج فَارًّا إلى الطائف وطَرَدُوهُ: «اللهم إليك أشكو ضَعْفَ قُوَّتِي، وقِلَّةَ حيلتي، وهَوَانِي على النَّاسِ، يا أرحم الراحمين، اللهم أنت رَبُّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكِلُنِي، إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي، أو إلى عَدُوٍّ مَلَّكْتَه أَمْرِي، إن لم يكن بك عليَّ غَضَبٌ فلا أبالي، ولكن عَافِيَتُك أَوْسَعُ لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظُّلَمُ، وصَلَحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة ؛ أن تُحِلَّ غَضَبَك بي، أو تُنْزِلَ سَخَطَكَ عَلَيَّ، لك العُتْبَى حتى تَرْضَى، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بك»[٧].

---

(١) هو الأستاذ أبو القاسم القُشَيري، ذكره في لطائف الإشارات: (٢/١١٣).

(٢) في (د): كانت.

(٣) في (س): إني قتلت منهم نفسًا.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) في (س) و(ف): جعل الدم يسيل.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود ﷺ: كتاب الأنبياء، بابٌ، رقم: (٣٤٧٧-طوق).

(٧) أورده ابن هشام في السيرة: (٢/٦٨).

وقال ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وقد تَصَافُّوا: «اللهم أَحِنْهُم الغداة»[١]، فاستُجِيبَ له.

وقال عليه السَّلام[٢]: «اللهم الْعَنْ أبا جَهْلِ بن هشام، وعُتبة بن ربيعة، وشيبة[٣] بن ربيعة، والوليد بن عتبة، ورِعْلًا وذَكْوَان، وعُصَيَّةَ عَصَتِ الله ورسوله»[٤]، فاستجيب له، وفي ذلك كَلَامٌ بينَّاه في «الناسخ والمنسوخ»[٥] و«شَرْحِ الحديث».

وخَفِيَ على الأستاذ أبي القاسم أن الكافر المضطر[٦] قد يستجيب الله له إِمْلَاءً واستدراجًا، فكيف لا يستجيب لمن معه أَصْلُ الإيمان تَرْوِيحًا وانفراجًا؟

[دخولُ ابن العربي المُنَستير عام ٤٩٤هـ]:

لمَّا[٧] دَخَلْتُ المُنَسْتِيرَ[٨] سنة أربع وتسعين وأربعمائة؛ أخبرني[٩] رؤساؤها العابدون، ومشيختها الزاهدون: «أن الروم أَرْسَوا إليهم وطلبُوا

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة: (٢/٢٦٤).

(٢) في (س) و(ص): ﷺ.

(٣) في (د): عتبة، وسقط من (ص).

(٤) حديث: «اللهم عليك بأبي جهل» أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه: كتاب الوضوء، باب إذا أُلقي على المصلي قَذَرٌ أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، رقم: (٢٤٠-طوق)، وحديث «اللهم الْعَن بني لِحْيَان ورِعْلًا وذَكْوَان» أخرجه مسلم في صحيحه عن خُفاف رضي الله عنه: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، رقم: (٦٧٩-عبد الباقي).

(٥) الناسخ والمنسوخ: (٢/١١٤-١١٥).

(٦) في (س): المضطر والكافر.

(٧) في (د): ولما.

(٨) بعده في (س) و(ص) و(ف): رباط جُمَّة، وضرب عليه في (د).

(٩) في (ص): أخبروني.

شراء الماء منهم، على ما تفعله العرب معهم، فبذلوا لهم المال العظيم فيه فامتنعوا عليهم؛ لأنه عَوْنٌ لهم على غَزْوِ المسلمين، وحَبَسَتْهُم الرِّيحُ عندهم[١] أيَّامًا، حتى كادوا يموتون عَطَشًا، فأَخْرَجُوا أناجيلهم وفَتَحُوها، وجَأَرُوا واستسقَوا واستشفعوا[٢]، فأنشأ الله السَّحَابَ/ وأَلْقَحَها، وأمطرهم مَطَرًا عظيمًا، فسُقُوا وشُفِّعُوا، ونَصَبُوا الأنطاع، وجمعوا المياه[٣]، وملؤوا جِرَارَهم وجُرُبَهم»[٤]. [١٠٨/ب]

قالوا لي: «فلمَّا رأينا ذلك قامت المَشْيَخَةُ المُخْلِصَةُ وقالوا: معاشر المنقطعين إلى الله؛ إن هذه أمة كافرة أخلصت فاستُجِيب لها، فتعال نخلص فيهم لعله يُستجاب لنا، فنشرنا المصاحف وانتدبنا للدعاء؛ أن يمكننا الله منهم، ولا يفتنَّا بهم، ولا[٥] يفتنهم بنا، فأرسل الله رِيحًا بحرية؛ فمحت السَّحاب وأعصفت عليهم، وهَالَ البَحْرُ، وعَظُمَ المَوْجُ، واضطربت القطائع، فكلَّما زادوا مَرْسًى زادت الريحُ، حتى قَطَعَتْ حبالهم، ورَمَتْهُم إلينا واحدةً بعد أُخْرَى، ترمي الأمواجُ بالقِطْعَةِ على الحجارة فتنكسرُ، ويَخْرُجُونَ فتُضْرَبُ رِقَابُهم؛ واحدًا بعد آخَرَ، ويَقْذِفُ البَحْرُ جميع ما في القِطْعَةِ فنَغْنَمُه هكذا؛ واحدةً بعد أُخْرَى، حتى هَلَكَ جَمِيعُهم، والحمد لله رب العالمين».

---

(١) سقطت من (س).

(٢) سقطت من (ص) و(س) و(ز).

(٣) في (د) - أيضًا -: الماء.

(٤) وأورد هذه الحكاية أيضًا أبو بكر الفهري في سراج الملوك: (٢/٦٦٤).

(٥) في (س) و(ص): ويفتنهم.

[رِفْقُ إبراهيم عليه السَّلام]:

وقد قال الله تعالى مُخْبِرًا عن ناحية الرِّفْقِ وجِهَةِ اللِّينِ من الخليل إبراهيم صلوات الله عليه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٨].

قال المُفَسِّرُونَ[١]: «قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾، ولم يقل: «ومن عصاك»، فطَلَبَ الرَّحْمَةَ فيما كان من[٢] حَقِّ نفسه، ولم ينتصر لها».

وهذا ضعيفٌ؛ فإن عِصْيَانَه عِصْيَانُ الله حَقِيقَةً، وقد قال النبي ﷺ يوم بَدْرٍ لمَّا اختار أبو بكر الفداءَ وعُمَرُ القَتْلَ: «مِثْلُك يا أبا بكر مِثْلُ إبراهيم، في قوله[٣]: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي﴾ الآية، ومِثْلُك يا عمر كمِثْلِ نوح، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾، ومِثْلِ موسى، قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾»[٤].

[من شروط الدعاء]:

وقد قال الله لموسى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٩].

---

(١) هو الأستاذ أبو القاسم، وذَكَرَ هذا في لطائف الإشارات: (٢/٢٥٦).
(٢) في (س) و(ص) و(ز): حقَّ نفسه.
(٣) قوله: «في قوله» سقط من (س).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (٦/١٢٨)، رقم: (٣٢٣٢-شعيب)، والترمذي في جامعه مختصرًا: أبوابُ الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في المشورة، رقم: (١٧١٤-بشار)، وفيه انقطاع.

قيل: معناه: ولا[١] تَسْتَعْجِلَا[٢].

وقيل: من شَرْطِ الدعاء صِدْقُ الافتقار في الابتداء، وتَرْكُ العَجَلَةِ في الانتهاء، وكَمَالُ الرضا بالقضاء[٣].

وقيل: الاستقامةُ أن يَثِقَ بالإجابة من الثلاثة الأَوْجُهِ التي قال رسول الله ﷺ إنها تكون بها.

وما قاله الأستاذ «من أن المضطر لا يَسْأَلُ[٤] الدعاءَ له»؛ فغير صحيح، هذا النبي ﷺ - في الصحيح - قد قال لعمر: «يا أخي أَشْرِكْنَا في دعائك»[٥]، وهو غير محتاج إليه، ولكنها فَضِيلَةٌ لعُمَرَ، وسُنَّةٌ في الاستعانة بدُعاء الغَيْرِ، والآثارُ في ذلك كثيرةٌ أوردناها في «أنوار الفَجْرِ».

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]/. [١٠٩/أ]

وقد كُنَّا أَمْلَيْنا في «أَنْوَارِ الفَجْرِ» في تَفْسِيرِ قوله: ﴿أُجِيبُ﴾ عِشْرِينَ قَوْلًا، أَصَحُّها الوجوه الثلاثة التي تقدَّمت.

[المفاضلةُ بين الذِّكْرِ والدعاء]:

وقد اختلف الناسُ في الذِّكْرِ والدُّعَاءِ أيهما أفضل[٦]؟

(١) في (ص) و(د): لا.
(٢) لطائف الإشارات: (١١٣/٢).
(٣) لطائف الإشارات: (١١٣/٢).
(٤) في (ص): لا يقبل.
(٥) تقدَّم تخريجه.
(٦) ينظر: المسالك: (٤٣٨/٣)، والعارضة: (٥٣/١٠-٥٤).

فقال قَوْمٌ: الذِّكْرُ أَفْضَلُ، وذكروا في ذلك حديثًا: «من شَغَلَهُ ذِكْرِي عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أُعطي السائلين»[١].

وهذا ممَّا لم يَصِحَّ سندُه.

وردَّه[٢] قَوْمٌ إلى المسألة الأولى؛ من أن الدُّعَاءَ اختيارٌ على الله، والذِّكْرَ إقبالٌ على الله.

والذي أقوله: إن الدعاء ذِكْرٌ وتَذَلُّلٌ، فإن حَضَرَتْ نِيَّةٌ قَوِيَّةٌ في الذِّكْرِ والاستكفاء به والاستغناء به فإنِّي أَرْجُوها.

قال النبي ﷺ: «لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يذكرون الله إلا حَفَّتْهُم الملائكة، وغَشِيَتهم الرحمة، ونزلت عليهم السَّكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[٣].

وحديث: «هذا جُمدان؛ سِيرُوا، سَبَقَ المُفْرِدُون، الذين أُهْتِرُوا[٤] بذكر الله»[٥]، قد تقدَّم[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي سعيد رضي الله عنه: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٢٩٢٦-بشار)، ولفظه فيه: «من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي»، قال أبو حاتم: «هذا حديث منكر، ومحمد بن الحسن ليس بالقوي»، العلل: (٤/٦٩١).

(٢) في (س): رد.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم: (٢٦٩٩-عبد الباقي).

(٤) في (د): اهتزوا.

(٥) تقدَّم تخريجه.

(٦) قوله: «قد تقدم» سقط من (س) و(ص) و(ز).

وقال تعالى: «أنا عند ظَنِّ عَبْدِي بي، وأنا معه إذا ذكرني»[١].

وقال ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذِّكْرِ، فإذا وجدوا قَوْمًا يذكرون الله تنادَوا: هلمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السَّماء، فإذا تفرَّقوا عَرَجُوا إلى السَّماء، فيسألهم ربُّهم - وهو أعلم بهم -: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادك في الأرض، قال: فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم[٢] -: ما يقولُ عبادي؟ قالوا: يُسَبِّحُونَكَ ويُكَبِّرُونَكَ، ويحمدونك ويُهَلِّلُونَكَ ويُمَجِّدُونَكَ، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا، والله ما رأوك، فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك لكانوا[٣] أشد لك[٤] عبادةً، وأشدَّ تمجيدًا، وأكثر تسبيحًا، قال[٥]: فيقول: وما يسألون[٦]؟ فيقولون: الجنة، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، والله ما رأوها، فيقول: وكيف لو رأوها؟ قال: فيقولون: لو أنهم[٧] رأوها لكانوا أشدَّ عليها حِرْصًا، وأشدَّ لها طَلَبًا، وأعظم فيها رغبةً، قال: فممَّ يتعوَّذون؟ فيقولون: من النار، قال: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا، والله ما رأوها، قال: فيقول: وكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الذكر والدعاء، رقم: (٢٦٧٥-عبد الباقي).

(٢) قوله: «من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادك في الأرض، قال: فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم -:» سقط من (س) و(ص).

(٣) في (س): كانوا.

(٤) مرَّضها في (د).

(٥) سقطت من (س).

(٦) في (د) و(ص): يسألوني، وفي (ز): يسألونني.

(٧) سقطت من (ص) و(س) و(ز).

رأوها لكانوا[١] أشدَّ منها فِرَارًا، وأشدَّ لها مخافةً، قالوا: ويستغفرونك، قال: فيقول: أُشْهِدُكم أني قد غفرتُ لهم، وأعطيتُهم ما سألوا، وأَجَرْتُهم ممَّا استجارُوا، قال: فيقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فُلَانٌ، ليس منهم، إنما جاء لحاجته، - وفي رواية: فلانٌ خَطَّاءٌ، إنما مَرَّ فجلس معهم -، فيقول: وله قد غفرتُ، هُم القَوْمُ لا يشقى جليسهم»[٢].

وليس بعد هذا الحديث مَطْلَبٌ لأحد، وفيه فَضْلُ الدعاء والذِّكْرِ[٣] والاستغفار، وكلها مُرْتَبِطٌ بعضُها ببعض.

وثبت أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير أعمالكم»[٤]، الحديث.

وقال النبي ﷺ: «أفضل الكلام أربع:/ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولأن أقولها أَحَبُّ إليَّ ممَّا طَلَعَتْ عليه الشَّمْسُ»[٥]. [١٠٩/ب]

وقال ﷺ: «من قال سبحان الله وبحمده في يَوْمٍ مائة مَرَّةٍ غُفرت خطاياه وإن كانت مثل زَبَدِ البحر، ولم يأت أَحَدٌ بمثل ما جاء به إلا من عَمِلَ أكثر من ذلك»[٦].

---

(١) في (س): كانوا.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل مجالس الذكر، رقم: (٢٦٨٩-عبد الباقي).

(٣) سقط من (س).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي الدرداء ﷺ: ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى، (١/٢٦٢)، رقم: (٥٦٦-المجلس العلمي الأعلى).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم: (٢٦٩٥-عبد الباقي).

(٦) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي هريرة ﷺ: ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى، (١/٢٦١)، رقم: (٥٦٣-المجلس العلمي الأعلى).

وقال ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن؛ سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[١].

وقال ﷺ: «أيعجز أحدُكم أن تُكتب[٢] له كل يَوْمٍ ألف حسنة؛ يسبح مائة تسبيحة، فيُكتب له ألف حسنة»[٣].

وسئل النبي ﷺ: «أي الكلام أفضل؟ قال: ما اصطفى الله لملائكته؛ سبحان الله وبحمده»[٤].

وعن جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث: «أن النبي ﷺ خرج عنها بُكْرَةً حين صلَّى الصبح، ووجدها في مسجدها بعد أن أضحى وهي جالسةٌ، قال لها: مازلت على هذه الحال منذ[٥] فارقتك؟ قالت: نعم، قال لها: لقد قُلْتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات؛ لو وُزِنَتْ بما قُلْتِ اليوم لوَزَنَتْهُنَّ؛ سبحان الله العظيم وبحمده، عَدَدَ خَلْقِه، ورضا نَفْسِه، وزِنَةَ عَرْشِه، ومِدَادَ كلماته»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم: (٢٦٩٤-عبد الباقي).

(٢) في (د): يكتب.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن سعد ﷺ: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم: (٢٦٩٨-عبد الباقي).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي ذر ﷺ: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل سبحان الله وبحمده، رقم: (٢٧٣١-عبد الباقي).

(٥) في (د) و(ص): مذ.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم: (٢٧٢٦-عبد الباقي).

وقال ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، لَهُ المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو على كل شيء قدير، في يَوْمٍ مائة مرة كانت له عِدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وكُتِبَتْ له مائة حسنة، ومُحِيَتْ عنه مائة سيئة، وكانت له حِرْزًا من الشيطان يَوْمَه ذلك حتى يُمْسِي، ولم يَأْتِ أَحَدٌ بأفضل ممَّا جاء به إلَّا من عَمِلَ أكثر منه»(١).

وقال ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله كَنْزٌ من كنوز الجنة»(٢).

ومن الحديث الحسن: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إله إلا الله، وأَفْضَلُ الدعاء الحمدُ لله»(٣).

فاقتصروا على هذا الصحيح، ففيه كِفَايَتُكم.

وليكن استخدامُكم لجوارحكم(٤) في الطاعة أَكْثَرَ من استخدامكم لألسنتكم في الذِّكْرِ، فكونوا سُكُوتًا عُمَّالًا مُطِيعِينَ، ولا تقتصروا من العمل على ذِكْرِ اللِّسَانِ.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥١].

وقال عنه النبي ﷺ: «قال الله(٥): من ذَكَرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومن ذَكَرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خير من مَلَئِه، ومن جاء بالحسنة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم: (٢٦٩١-عبد الباقي).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ﷺ: كتاب الدعوات، باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله، رقم: (٦٤٠٩-طوق).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه عن جابر بن عبد الله ﷺ: أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، رقم: (٣٣٨٣-بشار).

(٤) في (س): بجوارحكم.

(٥) قوله: «قال الله» لم يرد في (س).

فله عشرُ أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاءُ السيئة بمثلها[١] أو أغفرُ، ومن تقرَّب مني شِبْرًا تقربتُ منه ذِرَاعًا، ومن تقرَّب مني ذراعًا تقربت منه باعًا[٢]، ومن آتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلَةً، ومن لَقِيَنِي بِقِرَابِ الأرض خطيئةً لا يشرك بي شيئًا لَقِيتُه بمثلها مغفرةً، ومن عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عَبْدٌ[٣] /بشيء أحبَّ إلي ممَّا افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطُش بها، ورِجْلَه التي يمشي بها، فلئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت في شيء أنا فاعلُه تَرَدُّدِي عن[٤] نَفْسِ عبدي المؤمن، يَكْرَهُ الموت وأنا أكره مَسَاءَته»[٥].

١ [١١٠/أ]

وفي «فوائد أبي الفضائل بن طَوْقٍ» التي أخبرنا بها بمدينة السَّلام، في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ جُمْلَةٌ كافيةٌ.

نُبْذَتُها: أن العبد يجبُ عليه[٦] - بحَقِّ الإلَهية وحُكْم العبودية - أن يكون دَائِمَ الذِّكْرِ لله[٧]، قائم الفِكْرِ في آياته، إلا أنَّ ذلك يَفُوتُ طَوْقَ البشرية، فجعل الله تعالى للذِّكْرِ أَوْقَاتًا، وضَرَبَ له مِيقَاتًا، وهو وإن كان يَفُوتُ طَوْقَ البشرية فإنه حَقُّ العبودية، فما للعبد وتَصرفه[٨] لنفسه التي هي مَمْلُوكَةٌ لغيره في عَمَلِ غيره.

---

(١) في (د) و(ص): مثلها.
(٢) قوله: «ومن تقرَّب مني ذراعًا تقربت منه باعًا» سقط من (س).
(٣) في (د): عبدي.
(٤) في (س): في، وضَرَبَ عليها في (د).
(٥) تقدَّم تخريجه.
(٦) في (د): له، وسقطت من (ص).
(٧) لم يرد في (د) و(ص).
(٨) في (د) و(ص): تصريفه.

[نَقْدُ قول من فرَّق بين العبادة والعبودية]:

ويُفَرِّقُونَ بين العبادة والعبودية:

فالعبادةُ عندهم هي[١] في قَوْلٍ وعَمَلٍ مخصوص.

والعبودية هو[٢]: خَلْعُ النَّفْسِ عن النَّفْسِ، والاستسلامُ بالكلية إلى الله تعالى.

وهذا وإن كان صحيحًا فلا يُمكن، وما لا[٣] يُمْكِنُ لا يؤمر به شرعًا، فلا يتعاطاه إلا ناقص، وأنَّ القَدْرَ المشروع لا يستطيعُه أَحَدٌ، فكيف بالزيادة عليه، ولو لم يتعرَّض للذِّكْرِ[٤] طَلَبُ الأَجْرِ لكان أفضلَ مطلوب، وأوفى مرغوب؛ لِمَا يُقابله من شَرَفِ المنزلة وعَظِيم[٥] المرتبة في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، فجعل جَزَاءَ ذِكْرِه[٦] ذِكْرَه بنَفْسِه لعبده.

[تفسيرُ قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾]:

وفي ذلك للناس عباراتٌ كثيرةٌ حَضَرَنا الآن منها[٧] جُمْلَةٌ من خَمْسِينَ قَوْلًا:

---

(١) سقطت من (س) و(ص).

(٢) في (د) - أيضًا -: هي.

(٣) سقطت من (س).

(٤) في (د): الذكر.

(٥) في (س) و(ف) و(ص): عِظَمِ.

(٦) في (د) و(ص): ذكر عبده.

(٧) في (د): حضرت الآن منه، وفي (س) و(ف) و(ز): منها الآن.

الأوَّل: اذكروني بطاعتي، أَذْكُرْكُم برحمتي، قاله ابن عبَّاس وابن جُبَيْرٍ[1]، يشهدُ له قولُه عز وجل: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2] [آل عمران:١٣٢].

الثاني: اذكروني بطاعتي، أذكركم بمَعُونَتِي[3]، شاهدُه قولُه: ﴿وَالذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]، ومن حديث أبي هِنْدٍ الدَّارِي: قال رسول الله: «قال الله: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، فمن ذَكَرَنِي وهو لي مطيع فحَقٌّ عليَّ أن أذكره بمغفرتي، ومن ذَكَرَنِي وهو لي عَاصٍ فحَقٌّ عليَّ أن أذكره بمَقْتٍ[4]»[5].

الثالث: اذكروني بالثناء بالنِّعْمَةِ، أذكركم بالثناء بالطاعة.

الرابع: اذكروني بالشكر، أذكركم بالثواب.

الخامس: اذكروني بالدعاء، أذكركم بالإجابة.

السَّادس: قال فُضَيل[6]: «اذكروني بالطاعة، أذكركم بالثواب»[7]،

---

(١) تفسير الطبري: (٣/٢١١-شاكر)، ولم يذكر ابن عبَّاس.

(٢) في (س) و(د) و(ص): وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون.

(٣) الكشف والبيان: (٢/١٩)، ونسبه لابن عبَّاس.

(٤) قوله: «ومن حديث أبي هند الداري: قال رسول الله: قال الله: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، فمن ذكرني وهو لي مطيع فحَقٌّ عليَّ أن أذكره بمغفرتي، ومن ذكرني وهو لي عاص فحَقٌّ عليَّ أن أذكره بمَقْتٍ» سقط من (س) و(ص).

(٥) أخرجه ابن لَال والديلمي وابن عساكر، ذَكَرَ ذلك جلال الدين السيوطي، ينظر: الدر المنثور: (٢/٣٧)، والإحالة على هؤلاء مشعرة بضعف هذا الأثر.

(٦) قوله: «قال فضيل» سقط من (س).

(٧) الكشف والبيان: (٢/١٩).

بيانُه قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:٣٠].

السَّابع: اذكروني بالتوحيد، أذكركم بالتسديد.

الثامن: اذكروني بالإيمان، أذكركم بثواب الجِنان[١]، شاهدُه قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [البقرة:٢٤] الآية.

التاسع: اذكروني بالشُّكْرِ، أذكركم بالزيادة[٢]، شاهدُه قولُه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٩].

العاشر: اذكروني على ظَهْرِ الأرض، أذكركم/ في بَطْنِها[٣]. [١١٠/ب]

الحادي عشر: اذكروني في الدنيا، أذكركم في العُقْبَى، قال الأصمعي: «وقفتُ بعرفات فرأيت أعرابيًّا واقفًا[٤] يقول: عَجَّتْ إليك الأصوات، بضروب اللغات، يسألونك الحاجات، وحاجتي إليك[٥] أن تذكرني عند البِلَى، إذا نَسِيَنِي أَهْلُ الدنيا»[٦].

الثاني عشر: اذكروني بإخلاص النية، أَذْكُرْكُمْ بأن أُحْيِيكم حياة طيبة، يشهدُ له قولُه عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

---

(١) الكشف والبيان: (١٩/٢).

(٢) الكشف والبيان: (١٩/٢)، ونسبه لكَيْسان.

(٣) الكشف والبيان: (١٩/٢).

(٤) في (س): قائلًا.

(٥) سقطت من (س).

(٦) الكشف والبيان: (٢٠/٢).

الثالث عشر: اذكروني في الخَلْوَةِ، أذكركم حيث الخَلْوَةُ حقيقةً، والعَدَمُ للخَلْقِ حقيقةً، والاختفاءُ والسرُّ حقيقةً[(١)].

الرابع عشر: اذكروني في الملأ، أذكركم في ملأ خَيْرٍ منهم[(٢)].

الخامس عشر: اذكروني في الرخاء، أذكركم في الشدة[(٣)]، دليلُه: حديث الغار: «أن ثلاثة نَفَرٍ[(٤)] آووا إليه[(٥)] من المطر، فَدَهْدَأَ المَطَرُ صَخْرَةً على فَم الغَارِ، ولم يقدروا على الخروج، وتوسَّل كل واحد منهم إلى الله بوسيلة تقدَّم ذكرُها فأخرجهم»[(٦)]، وقد بَقِيَ[(٧)] تمامُه في اسم «الدَّاعِي».

وقال في يونس: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

وقال في فرعون: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١].

السَّادس عشر: اذكروني بالنَّعْمَاءِ، أذكركم بالجزاء[(٨)].

السَّابع عشر: اذكروني بالتسليم لي والتفويض، أذكركم بالهداية والتعويض[(٩)].

---

(١) الكشف والبيان: (٢/٢٠).
(٢) في (د) و(ص): منه، ينظر: لطائف الإشارات: (١/١٣٧).
(٣) الكشف والبيان: (٢/٢٠).
(٤) سقط من (س) و(ص).
(٥) في (س) و(ص) و(ف): آووا إلى غار.
(٦) تقدَّم تخريجه.
(٧) في (د): مضى.
(٨) الكشف والبيان: (٢/٢٠).
(٩) الكشف والبيان: (٢/٢٠).

الثامن عشر: اذكروني بالمحبة، أذكركم بالقُرْبَةِ[١]، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٦].

التاسع عشر: اذكروني بالتَّوْبَةِ، أذكركم بغُفران الحَوْبَةِ[٢].

المُوَفِّي عشرين: اذكروني بالسؤال، أذكركم بالنَّوَالِ[٣].

الحادي والعشرون: اذكروني بلا غفلة، أذكركم بلا مُهْلَةٍ[٤].

الثاني والعشرون: اذكروني بالمعذرة، أذكركم بالمغفرة[٥].

الثالث والعشرون: اذكروني بالإرادة، أذكركم بالإعادة[٦].

الرابع والعشرون: اذكروني بالتنصل، أذكركم بالتفضل[٧].

الخامس والعشرون: اذكروني بالإخلاص، أذكركم بالخلاص[٨].

السَّادس والعشرون: اذكروني بقلوبكم، أذكركم بغُفران ذنوبكم.

السَّابع والعشرون: اذكروني باللِّسان[٩]، أذكركم بالإيمان.

الثامن والعشرون: اذكروني بالافتقار، أذكركم بالاقتدار[١٠].

---

(١) الكشف والبيان: (٢/٢٠).
(٢) الكشف والبيان: (٢/٢٠).
(٣) الكشف والبيان: (٢/٢٠).
(٤) الكشف والبيان: (٢/٢٠).
(٥) الكشف والبيان: (٢/٢٠).
(٦) الكشف والبيان: (٢/٢٠)، وفيه: الإفادة.
(٧) الكشف والبيان: (٢/٢٠).
(٨) الكشف والبيان: (٢/٢٠).
(٩) في (س) و(ص) و(ف) و(ز): بلا لسان، وفي الكشف (٢/٢٠): بلا نسيان.
(١٠) الكشف والبيان: (٢/٢٠).

التاسع والعشرون: اذكروني ذِكْرًا فَانِيًا، أذكركم ذِكْرًا باقيًا[١].

المُوَفِّي ثلاثين: اذكروني بالابتهال، أذكركم بالإفضال[٢].

الحادي والثلاثون: اذكروني بالاعتراف، أذكركم بمحو الاقتراف[٣].

الثاني والثلاثون: اذكروني بصفاء السرِّ، أذكركم بوفاء البِرِّ[٤].

الثالث والثلاثون: اذكروني بالتعظيم، أذكركم بالتقديم[٥].

الرابع والثلاثون: اذكروني بالتكبير،/ أذكركم بالضمير[٦]. [١١١/أ]

الخامس والثلاثون: اذكروني بالتحميد، أذكركم بالمزيد[٧].

السَّادس والثلاثون: اذكروني بالمناجاة، أذكركم بالنجاة[٨].

السَّابع والثلاثون: اذكروني بتَرْكِ الجفاء، أذكركم بحِفْظِ الوفاء[٩].

---

(١) الكشف والبيان: (٢/٢٠).

(٢) في (س) و(ص) و(ف) و(ز): بالاتصال، وينظر: الكشف والبيان: (٢/٢٠).

(٣) الكشف والبيان: (٢/٢٠).

(٤) الكشف والبيان: (٢/٢٠).

(٥) في (س) و(ف) و(ز): اذكروني بالتحميد، أذكركم بالمزيد، وفي الكشف والبيان (٢/٢١): بالتكريم.

(٦) في (س) و(ف) و(ز): أذكركم بالجزاء الكثير، وفي الكشف والبيان (٢/٢١): بالتطهير.

(٧) في (س) و(ف) و(ز): اذكروني بالتعظيم، أذكركم بالتكريم، وفي الكشف والبيان (٢/٢١): بالتمجيد.

(٨) الكشف والبيان: (٢/٢١).

(٩) الكشف والبيان: (٢/٢١).

الثامن والثلاثون: اذكروني بترك الخَطَا، أذكركم بفَضْلِ[١] العَطَا[٢].

التاسع والثلاثون: اذكروني بالجِدِّ في الخِدْمَةِ، أذكركم بنَفْيِ الحَدِّ في النِّعْمَةِ[٣]، يَعْضُدُه قولُه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:١٩].

المُوَفِّي أربعين: اذكروني من حيث أنتم، أذكركم من حيث أنا، ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٤] [العنكبوت:٤٥]، ويتفرَّعُ هذا على الوجوه المذكورة في «قانون التأويل» بجميع المتعلَّقات، مما يكمل للباري ويَجِبُ له، وممَّا يليقُ بالعبد وينبغي له، وقد بينَّاها في «أَنْوَارِ الفَجْرِ»، فالقطُوها منها فإنها طَوِيلَةٌ.

الحادي والأربعون: اذكروني بالقَبُولِ، أذكركم ببُلوغ المأمول وإيتاء السُّولِ.

الثاني والأربعون: اذكروني بالموافقة، أذكركم بالمُكَارَمَةِ[٥]، وما أحسن قول القائل[٦]:

وإنَّما المَرْءُ[٧] حَدِيثٌ بعده فكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لمن وَعَى

---

(١) في (س): بفعل.

(٢) الكشف والبيان: (٢/٢١).

(٣) الكشف والبيان: (٢/٢١)، وفي عبارة الكشف تحريف كثير.

(٤) الكشف والبيان: (٢/٢١).

(٥) لطائف الإشارات: (١/١٣٧).

(٦) البيت من الرجَز، وهو من مقصورة ابن دُرَيد، كما في شرحها للخطيب التِّبْرِيزي: (ص٧٤)، وشرحها المسمى الفوائد المحصورة في شرح المقصورة لابن هشام اللخمي: (٢/٥٦٣).

(٧) في (د): إنما الناس حديث حسن.

الثالث والأربعون: اذكروني بقَطْعِ العلائق، أذكركم بوَصْلِ الحقائق[١].

الرابع والأربعون: اذكروني بتَرْكِ كل خطيئة، أذكركم بتَرْكِ كل مؤاخذة، قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

الخامس والأربعون: اذكروني بلا حساب، أذكركم بلا عذاب.

السَّادس والأربعون: اذكروني بلا عدد، أذكركم بلا أَمَدٍ، وما أحسن قوله[٢]:

الله يعلم[٣] أنِّي لَسْتُ أَذْكُره   وكيف يذكرُه من ليس ينساهُ

السَّابع والأربعون: اذكروني لِذَاتِي، أُنِلْكُم لَذَّاتِي.

الثامن والأربعون: اذكروني بنِعَمِي، أذكركم بكَرَمِي.

التاسع والأربعون: اذكروني، أَذْكُرْكُمْ وإن لم تذكروني، قال علماؤنا[٤]: لأن نعمه دائمة عليه؛ وهو ذِكْرُه.

المُوَفِّي خَمْسِينَ: اذكروني كيف كنتم، أَذْكُرْكُمْ في كل حَالٍ منكم[٥].

أَمَّا المؤمن فيذكره بخير ما يُذْكَرُ[٦] به أَحَدٌ[٧].

---

(١) لطائف الإشارات: (١/١٣٧).

(٢) من البسيط، وهو من قطعة لعبد الصمد بن المعذل يعاتب بها أخًا له، وهي في العِقْدِ: (٢/٣٠٥)، ونَسَبَها في عيون الأخبار: (٣/٢٧) إلى علي بن الجَهْمِ.

(٣) في (س): أعلم.

(٤) في (د) و(ص): العلماء.

(٥) الكشف والبيان: (٢/٢١).

(٦) في (د) و(ص): يذكره.

(٧) سقط من (س).

وأمَّا الكافر فيَرِدُ عليه شر ما ذَكَرَهُ[1] به أَحَدٌ.

قال الرَّبِيعُ: «إني لأعلم إذا ذكرني الله، قيل له: ومن أين؟ قال: إذا ذكرتُه، لقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾»[2].

قال الحافظ أبو بكر[3] رضي الله عنه: وهذا يعني به ذِكْرَ الإحسان، وإلا فالباري تعالى يَذْكُرُ كلَّ أحد بعَمَلِه، ولأجله غَلَا بعضُ الزهَّاد وقد قيل له: «اذكر الله، فقال: ومِثْلِي يذكرُه؟ إذا غَسَلْتُ فَمِي بسبعين تَوْبَةً مُتَقَبَّلَةً ذكرتُه»[4].

[١١١/ب] وكان بعضُهم يُنْشِدُ إذا رأى ما هو عليه من المعصية وأَرَادَ الذِّكْرَ: /

ما إن ذَكَرْتُكَ إِلَاهُمَّ تَلْعَنُنِي ... جَوَارِحِي ولساني عند ذِكْرَاكَا
حتى كأنَّ رقيبًا منك يَهْتِفُ بي ... إِيَّاك ويحك[5] والتَّذْكَارَ إِيَّاكَا[6]

وكذلك اختلفُوا في الاستغفار مع الإصرار، فقال بعضهم:

أستغفرُ الله مِنْ أستغفرُ الله ... من لَفْظَةٍ صَدَرَتْ خالفتُ معناهَا
وكيف أرجو إِجَابَاتِ[7] الدُّعَاءِ وقد ... سَدَدْتُ بالذنب عند الله مَجْرَاهَا[8]

---

(١) في (د) و(ص): ذُكر.

(٢) الكشف والبيان: (٢/٢١)، ونسبه لأبي عثمان النهدي.

(٣) في (د): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

(٤) رسالة القشيري: (ص٢٥٦).

(٥) في (س) و(ف): إيَّاك، وفي (ص): إياك تذكره إياك إياكا.

(٦) من البسيط، وهما في الرسالة القشيرية: (ص٢٥٦)، وطبقات الأولياء لابن الملقن: (ص١٤٨)، وتاريخ دمشق: (٦٦/٦٦)، أنشدهما أبو بكر الشِّبْلِي.

(٧) في (د): إجابة.

(٨) من البسيط، وهما في تفسير ابن رجب: (١/١٥٢)، وجامع العلوم والحكم له: (٢/٤١٠).

وقال الآخرون[١]: «بل يستغفر».

ومن الحِكْمَةِ[٢]: «ما أَصَرَّ من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة».

وبه أقولُ.

ومن[٣] الحَقِّ لكل مُذْنِبٍ أن يستغفر، وإن عَلِمَ من نفسه أنه مُصِرٌّ، وإني لأعجبُ من تَوْفِيقٍ يُسِّرَ له شيخُ البَطَّالِينَ فقال:

إِنْ كان لا يدعوك إلَّا مُحْسِنٌ   فمن الذي يَدْعُو ويرجو المُجْرِمُ[٤]

وفي الحديث: «إذا أذنب العبدُ ثم استغفر قال الله تعالى: عَلِمَ عبدي أن له ربًّا يغفرُ الذنوب، قد غَفَرْتُ له»[٥]، ولم يَذْكُرْ تَوْبَةً؛ فدَلَّ على أن التوبة منزلةٌ أخرى، زائدةٌ عليها عالية.

فالتزموا - ألزمكم الله تحقيقه، ويسَّر لكم توفيقه - ما ألزمكم الشرع، وانتهجوا السبيل التي شَرَعَ لكم، وخُذُوا من الذِّكْرِ والدعاء الصحيح، وأعرضوا عمَّا سواه.

شِعْرٌ[٦]:

فالعُمْرُ أَنْفَسُ من أن تُنفقوه سُدًى   في غير ما صَحَّ من وَحْيٍ وقُرْآنِ

فاستنجِدوه لِمَا تَرْجُونَ من أَمَلٍ   واسْتَمْجِدُوه بغُفران ورِضْوَانِ

---

(١) في (ص): الآخر.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بابٌ، رقم: (٣٥٥٩-بشار)، وضعَّفه.

(٣) في (د) و(ص): فمن.

(٤) تقدَّم تخريجه.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكرَّرت الذنوب والتوبة، رقم: (٢٧٥٨-عبد الباقي).

(٦) سقطت من (س) و(ف) و(ص) و(ز).

واسْتَـسْمِنُوه وعُوجُـوا عـن غَثَاثَتِـه   كـلُّ ذلـك مـن تَلْبِيسِ شَيْطَانِ[١]

[الاعتداءُ في الدعاء]:

وقد انتدَبَ قَوْمٌ تَجَرَّدُوا للخير بزعمهم، لم يكن لهم عِلْمٌ بالحديث، فذَكَرُوا[٢] كـل[٣] مُتَرَدِّيَةٍ ونَطِيحَةٍ في الذِّكْرِ والأدعية وغير ذلك، كابن نَجَاحٍ[٤] والسَّمَرْقَنْدِي[٥]، ولا عجب إلَّا من إمامنا وشَيْخِ العَصْرِ نَصْرِ بن إبْرَاهِيمَ المَقْدِسِيِّ؛ فإنه جَمَعَ كتابًا في الزُّهْدِ[٦]، فجعل يُرَتِّبُ صلاة الأيام والأدعية، وهي كلها موضوعةٌ لا أَصْلَ لها، مناكيرُ لا يُعْرَفُ راويها[٧].

---

(١) من البسيط، ولعله من شعر ابن العربي رحمه الله.

(٢) في (س) و(ف): ذكروا.

(٣) في (د): لكل.

(٤) الفقيه العلَّامة، الواعظ الزاهد، يحيى بن نجاح القرطبي، أبو الحُسَين بن الفلَّاس، نزل مصر وبها توفي، وكانت وفاته عام ٤٢٢هـ، وكتابه الذي يشير إليه ابن العربي هو كتاب «سُبُل الخيرات»؛ في المواعظ والزهد والرقائق، انتشر بأيدي الناس في زمانه، وسُمِع منه بمكة المعظَّمة، ينظر: الصلة: (٢/٣١١)، وفهرس ابن خير: (ص٣٦٠).

(٥) الإمام الفقيه، العلَّامة الزاهد، نصر بن محمد بن إبراهيم الحنفي، أبو الليث السمرقندي، توفي عام ٣٧٥هـ، له من الكتب في الرقائق والزهد: «تنبيه الغافلين»، وهو منشور، ترجمته في: سير النبلاء: (١٦/٣٢٢-٣٢٣)، والجواهر المضية: (٣/٥٤٤-٥٤٥).

(٦) يقصد به كتابه «المصباح والداعي إلى الفلاح»، سمعه ابنُ العربي منه عام ٤٨٩هـ، قُبَيل وفاته بيسير، ينظر: العارضة: (٣/٣٠٨)، وفهرس ابن خير: (ص٢٠٣).

(٧) في (ص) و(د): لا تعرف رواتها.

واعتدى[١] الناس على شريعتهم، واغتدَوا[٢] إلى صحائف ليست في تأليف، «كدعاء[٣] فلان»، و«تسبيح فلان»، فاللهَ اللهَ عِبَادَ الله، أَقْبِلُوا على دينكم، واقبضوهُ بيده، وعَوِّلُوا على عُمَدِه، واقتدُوا بأئمته؛ مَالِكٍ، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وأبي داود، والنسائي، وهي تَوْصِيَتِي إليكم[٤]، وحُجَّتِي عليكم، وفَرِيضَتِي التي تَعَيَّنَتْ عليَّ أَدَّيْتُها إليكم، وفَائِدَةُ رِحْلَتِي التي نَأَيْتُ بها عنكم، والله خَلِيفَتِي عليكم، وهو حسبُنا ونِعْمَ الوكيل[٥].

نُكَتُ القرآن في الصلاة:

١ ومن غَرِيبِ مَنْزِلَتِها ما رَكَّبَ الله فيها وعليها في كتابه، وذلك كثيرٌ، الحاضرُ/ منها الآنَ قولُه تعالى: ﴿هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ ٱلذِينَ يُومِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:١ - ٢] الآية، فجعل الله القرآن هُدًى لمن أقام الصلاة وآتى الزكاة، كما جعله هُدًى للمؤمنين، وشِفَاءً لمن طَلَبَ[٦] الأمان، وحَقَّقَ ذلك بالقول والفعل فاهتدى، وكان ذلك له[٧] سِرَاجًا، فيُقِيمُ صُوَرَها[٨] بجسده، ويحفظ معانيها ومقاصدها بقلبه. [١١٢/أ]

---

(١) في (د): احتدى.

(٢) في (د): عَمَدُوا، وفي (ص): عَدَوا.

(٣) في (د): فدَعَا فلانٌ.

(٤) في (د) و(ص): لكم.

(٥) في (س) - أيضًا -: وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(٦) في (س) و(ص): فطلب.

(٧) في (س) و(ف): له ذلك.

(٨) في (د): صورتها.

وقد قَرَنَها الله بالصَّبْرِ في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٤]، فالصَّبْرُ فَطْمُ النفس عن المعتادات، والصَّلاةُ استخدام الجوارح في المشقَّات، والتردد بين اختلاف الحالات حتى تَتَمَرَّنَ بتَرْكِ الشهوات[١].

ومن تعظيمها اتخاذُ الأوطان لها؛ وهي المساجد، أَذِنَ اللهُ في ترفيعها، وقد ذكرنا فيها في «شرح الحديث» نَحْوًا من مائة حُكْمٍ، فلتُطْلَبْ[٢] هنالك.

ولم تَزَلِ الشرائع على هذا حتى أَكْرَمَ الله هذه الأمة بأن جعل الأرضَ لها مسجدًا، ولم يكن ذلك لمن قبلها، فالوقتُ كلُّه لها، والمحلُّ كلُّه لها، إلَّا ما استثنى من ذلك، وهو قليل، وجَعَلَ بَيْتَه[٣] قِبْلَةً، وما مَكَّنَ من ذلك أَحَدًا قبل هذه الأمة، وطَهَّرَه حين[٤] خَلَقَه، وأَوْعَزَ[٥] بذلك إلى خَلْقِه، وفي ذلك فوائدُ بينَّاها في «أنوار الفجر».

وكَرَّرَ الاستعانة بالصبر والصلاة عند حلول المكاره، والصَّبْرُ آخِرُ الأَمْرِ يَأْسًا[٦]؛ فقَدَّمَه الله بالأَمْرِ في أَوَّله أَجْرًا، وقَرَنَه بالصَّلاة استدفاعًا لغير ما نَزَلَ، وتَخْفِيفًا ممَّا[٧] وقع، فيُكَافَأُ بصلاة الله عليه، فما جَعَلَ الله جَزَاءَ الصَّلَاةِ إلَّا الصَّلَاةَ، كما جعل جَزَاءَ الذِّكْرِ الذِّكْرَ، فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي

---

(١) ينظر: لطائف الإشارات: (١/٨٧).

(٢) في (د): فليطلب.

(٣) في (ص): نَبِيَّه.

(٤) في (س): حتى.

(٥) في (د) و(س): أوعد.

(٦) في (س) و(ف): بأسًا.

(٧) في (د) - أيضًا -: لما.

﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥١]، وجَعَلَ جَزَاءَ[١] الإِنْفَاقِ الإِنْفَاقَ، قال النبي ﷺ: «يا بلالُ؛ أنفق، ولا تخش من ذي العرش إِقْلَالًا»[٢]، وقال الله تعالى: «أَنْفِقْ يُنْفَقْ[٣] عليك».

وبذلك يتمُّ الهُدى الذي قدَّمناه، كما قال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، ولذلك أَمَرَ بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة:٢٣٦]، والمحافظةُ عليها دُخُولُها بنيَّة الهَيْبَةِ، والخروجُ عنها بنيَّة التعظيم، وبيَّن أن فيها صَلَاةً[٤] مُعَظَّمَةً، وأَبْهَمَها حتى يَعُمَّهَا التعظيم، فقال: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[٥] [البقرة:٢٣٦].

ثم أخبر الله أنَّ آكِلَ الرِّبَا مُعْتَلُّ العَقْلِ[٦]، مُخْتَلُّ الأَمَلِ، مُتَصَرِّفٌ في خَبَلٍ، ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٤] الآية[٧].

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٦]،

---

(١) قوله: «فقال تعالى: اذكروني أذكركم، وجَعَلَ جَزَاءَ» سقط من (ص) و(س) و(ز).

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) في (ص) و(د): أنفق.

(٤) في (س): هيئة، وسقطت من (ص).

(٥) قوله: «فقال: والصلاة الوسطى» لم يرد في (س) و(ص) و(ز).

(٦) في (د): العمل، وأشار إليها في (س)، وصحَّحها.

(٧) قوله: ﴿الذين ياكلون﴾ الآية، ثم قال» لم يرد في (ص) و(س) و(ز).

أي(١): لَهُمُ الأمنُ والعِوَضُ عمَّا أنفقُوا، وهذا الذي تراه للمُرْبِي من نُمُوٍّ مَمْحُوقٌ، والذي ترى من عَدَمِ المُتَصَدِّقِ(٢) بَاقٍ مَوْجُودٌ، والمعاني بذواتها لا بصُوَرِها.

وكذلك رُدَّ من الكفر إلى الإيمان، ومن الخَوْضِ في الباطل إلى الصلاة؛ لترتفع الحَيْرَةُ، وتُغفر الزَّلَّةُ، كما قال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً﴾ إلى قوله/: ﴿وَأَنَ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الأنعام: ٧٠ - ٧٢]، أي: الزمُوا المناجاة والتقوى. [١١٢/ب]

وقال الخليل(٣): ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

وقال لمُحَمَّدٍ ﷺ(٤): ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٤ - ١٦٥]، يعني: في زمانكم.

وقال: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٥) [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]؛ على(٦) صراط مستقيم، وهو أن لا ترى من دونه شَيْئًا.

---

(١) قوله: ﴿إن الذين آمنوا﴾، أي» لم يرد في (ص) و(س) و(ز).

(٢) في (س): المُصَّدِّقِ.

(٣) بعده في (ص): صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه وعلى جميع النبيين.

(٤) في (د): عليه السَّلام.

(٥) في (س): دينا قيما ملة أبيكم على صراط مستقيم، وفي (ص) و(ز): دينا قيما ملة إبراهيم على صراط مستقيم.

(٦) في (د): إلى.

والدِّينُ القَيِّمُ: ما لا تَمْثِيلَ فيه ولا تعطيل؛

والحَنِيفُ: المائلُ إلى الحق، الزائلُ عن الباطل[١]، وهو من غَرِيبِ الأسماء؛ فإنه عند الناس في العاهات، وهو عند الله في أعلى الدرجات.

مسألة:

وقد حضرتُ مثله[٢] في بغداذ، في قصة غريبة ذكرتُها في كتاب «تَرْتِيبِ الرِّحْلَةِ للتَّرْغِيبِ في المِلَّةِ».

[عَظَمَةُ الصلاة]:

ولمَّا استقام النبيُّ[٣] ﷺ على الطريقة، وكُوشِفَ بالحقيقة، وارتقى إلى أعلى الدرجات؛ قال: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٤]، شهد أنَّ القَادِرَ[٥] عليه، والمُجْرِيَ لأموره، والمُصَرِّفَ له، والمُنَقِّلَ من حَالٍ إلى حَالٍ، ومن وَصْفٍ إلى وَصْفٍ، ومُصَرِّفَه في العبادات حَالَ الحياة، وفي الدرجات بعد الممات؛ هو اللهُ وحده، لا يُشاركه في ذلك أَحَدٌ، وهذه نهايةُ التَّوْحِيدِ وإِخْلَاصِ العبادة.

وقد وَصَفَ الله المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ

---

(١) معاني القرآن للزجاج: (٣/٢٢٢).

(٢) سقطت من (س).

(٣) في (س) و(ف) و(ز): استقام الأمر للنبي.

(٤) بعده في (ص): الآيتين.

(٥) في (ص) و(س): للقادر، ولم ترد أنَّ فيهما.

حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[١] [الأنفال:٢-٤] بأنهم إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قلوبهم، لغلبة مقام الخَوْفِ عليهم، وأَدْأَبُوا أنفسهم في العبادة بإقامة الصلاة، وأنفقوا المال من غير ادِّخار؛ لأن قلوبهم غَنِيَّةٌ من المعرفة، وأبدانهم مشتغلة بالخدمة، فمن أَحْسَنَ منهم فهو في أعلى الدرجات، ومن أساء فله مغفرة السيئات، وكذلك من أناب إليها بعد الفرار منها، كان مع من ابتدأ عملها، لقوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١١].

ومن فَضْلِها سُمِّيَتْ جَمِيعُ الأعمال بها، قال الله تعالى مُخْبِرًا عن حال شُعَيب عليه السَّلام: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود:٨٧]، أي: أعمالك الصالحة؛ وذلك أنه كثيرًا[٢] ما كان يصلي؛ بِحَمْلِ سائر فِعْلِه على مُعْظَمِه، وهي الصلاة.

وقيل: أُطْلِقَ على كُلِّ عَمَلٍ اسْمُ الصَّلَاةِ تَشْرِيفًا، كما أُطْلِقَ عليه اسمُ الإيمان، إذ المعنى في الكُلِّ وَاحِدٌ.

ولأنها عبادةُ الملائكة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وقال تعالى في جميع الخَلْقِ[٣]: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد:١٦]، ثم ميَّز[٤]

---

(١) لم ترد الآيتان في (س) و(ص) و(ف) و(ز)، واجتهدت في قراءتها، وإن كانت الطرة بـ (د) لا تُعِين؛ لسُوء التصوير.

(٢) في (ص) و(د): كان كثيرًا، وسقطت «ما» من (ص).

(٣) قوله: «في جميع الخلق» سقط من (س).

(٤) في (س) و(ف) و(ص): فسَّر.

بَعْضَهم وفصَّل في مَوْضِعٍ آخر، فقال: ﴿وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ﴾(١) [النحل:٤٩].

[١١٣/أ] والسُّجُودُ بالاعتقاد/ والقول والفعل والحال، وهي الدِّلَالَةُ على الوحدانية بحاله(٢)، فإذا حصَّلها رَجَعَ الأَجْرُ إلى الأوَّل فاستقرَّت في قلبه، وتحقَّق بها اعتقادُه، واستمرَّت(٣) صفاتُها على وَجْهٍ بيَّنَّاه من قبلُ، ويأتي مَزِيدُ بَيَانٍ فيما بعد ذلك من الأسماء والصفات إن شاء الله.

صَلَاةُ النَّافِلَةِ:

وإذا أَحْكَمَ الفرائض فليَعْطِفْ عِنَانَ الاجتهاد إلى النوافل، وأَوْكَدُها السُّنَنُ التي نَدَبَ النبيُّ ﷺ إليها أو(٤) أوجبها، على اختلاف العلماء، وليَعْطِفْ على مُجَرَّدِ الفَضْلِ بعد ذلك، وهي اثنتا عشرة ركعة: أَرْبَعٌ قبل الظهر، وركعتان بعدها، وركعتان قبل العصر، وركعتان بعد المغرب في بيته، وركعتان بعد الجمعة في بيته، وركعتان عند حلول الشمس من المشرق بالنسبة التي تَجِبُ صلاة العصر في كونها من المغرب؛ وهو الضحى؛ الذي من أتى بها(٥) كان من الأوَّابين(٦)، وحَمَى ثَلَاثَمِائَةٍ وسِتِّينَ عَظْمًا فيه من النار، قال النبيُّ ﷺ: «يُصْبِحُ على كل سُلَامَى من ابن آدم

---

(١) قوله: «فقال: ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة» لم يرد في (س) و(ص).

(٢) في (ص): بجلاله، وسقطت من (د).

(٣) في (د): استرَّت.

(٤) في (ص): تحت.

(٥) في (د): بهما.

(٦) في (س) و(ز): الأوَّلين.

صدقة»، وذَكَرَ الحديث: «فأمرُه بالمعروف صدقة، ونهيُه عن المنكر صدقة[1]»، وذَكَرَ خِصَالاً؛ إلى أن قال: «وركعتا الضحى تُجزئان من ذلك»[2]، فإن قَدَرَ فإحدى عشرة ركعة من الليل، وأقلُّها ثلاث؛ إن شاء أَوَّلَ الليل، وإن شاء آخِرَه، فقد كان أبو بكر ﷺ يُوتِرُ أَوَّلَهُ، ويقول: «واحَرَزَاهُ، وأبتغي النوافل»[3]، وكان عُمَرُ ﷺ يُوتِرُ آخره[4]، وكلٌّ على قَدْرِ ما يَعْلَمُ من نَفْسِه.

[صَلَاةُ الجنازة]:

وصَلَاةُ الجنازة فَرْضٌ على الكِفَايَةِ، يأخذها الناس هيئة، وما أعظمها، تجمعُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ خَصْلَةً:

العِبْرَة؛

النُّصْرَة؛

العِوَضِيَّة؛

التذكرة؛

الموعظة؛

الكرامة؛

---

(١) قوله: «وذَكَرَ الحديث: فأمرُه بالمعروف صدقة، ونهيُه عن المنكر صدقة» سقط من (س).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف: (٣/١٥)، ومن طريقه الخطَّابي في غريب الحديث: (٢/١٤).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب صلاة الليل، الأمر بالوتر، (١/١٩٤)، رقم: (٣٢٤-المجلس العلمي الأعلى).

الراحة ؛

المَثُوبة ؛

الدعاء ؛

الشَّرِكَة في الرحمة ؛

الأُنْس من الوحدة ؛

الوفاء بعد الوفاة ؛

التعزية.

فأمَّا العِبْرَةُ فهو مِثْلُك ، وكأنَّ بِكَ مِثْلَه:

فما نحنُ إلَّا مثلهم غير أنَّنا أَقَمْنَا قليلًا بَعْدَهُمْ وتَقَدَّمُوا[١]

وأمَّا النُّصْرَةُ فإن المسلم يَتَعيَّنُ على المسلم أن ينصره حيًّا فيما ينزلُ به من المكروه ، وبه كَلَامٌ وحِرَاكٌ وعَقْلٌ ، فكيف به[٢] إذا ذَهَبَ ذلك[٣] كلُّه ؟ فلم يُعَبِّرْ بلسانه عن حاجته[٤] ، ولا تحرَّك لمُنَاوَلَتِه[٥] ، ولا عَقَلَ شَيْئًا من الذي كان فيه في حياته.

وأمَّا العِوَضِيَةُ ؛ فإن غَسَّلْتَ غُسِّلْتَ ، أو حَمَلْتَ ودَفَنْتَ ، حُمِلْتَ ودُفِنْتَ ، لم أَرَ في تلك البلاد الكريمة[٦] اسْتِئْجَارًا على شيء من ذلك ،

---

(١) البيت من الطويل ، وهو في الأغاني: (٣٨٩/٢١) ، وكأنه نسبه للفرزدق ، وليس في ديوانه ، والكامل: (٣٧٠/٢) ، وعيون الأخبار: (٦١/٣).

(٢) سقط من (ص) و(د) و(ز).

(٣) سقط من (ص) و(س) و(ز) و(ف).

(٤) في (د): حاجة.

(٥) في (ص): لمثاوبته.

(٦) في (ص): المكرمة.

إنَّما يُغَسِّلُ الرَّجُلَ جارُه، أو صاحبُه، أو قريبُه، فإذا كُفِّنَ قال قائل: «احْمِلُوا تُحْمَلُوا»، فانتَدَبَ إلى حَمْلِه كلُّ من حَضَرَ أو عَبَرَ[١].

وأمَّا التذكرة فإن المَرْءَ في غَفْلَةٍ، حتى إذا رأى الجنازة ثَابَ إليه ذُكْرُه الذي ذَهِلَ عنه، وقد[٢] كان النبيُّ ﷺ/إذا رآها قام إليها، وقال: «إنها لنَفْسٌ[٣] أوانُها فَزَعٌ[٤]»[٥]، ثم نُسِخَ ذلك[٦]، وبقي القيامُ إليها بالقَلْبِ. ١ [١١٣/ب]

وأمَّا الموعظةُ؛ فبالحذر من أن ينزل بك[٧] مثلُ ذلك، فتُعِدَّ له بوصية وعَمَلٍ واستدراكِ فَائِتٍ من توبة واستغفار.

وأمَّا الكرامةُ؛ فله بستره[٨]، فإنه جِيفَةٌ كما سمَّاه النبي ﷺ في المؤمن، فكيف غيره؟

ولك بألَّا ترى ما تَكْرَهُ[٩] فيه أو منه، وبذلك تحصلُ الراحة لك وله؛ فإنك تَقْدُمُه إلى مدفنه؛ وهو موضع إِطْلَاعِه على منزله في الجنة.

---

(١) قال في العارضة (٤/٣٤٤): «وليس في تلك الديار أَحَدٌ لحمل الجنائز، ولكن يُبرَز الميت على الطريق، وينادي مُنَادٍ: احملوا تُحمَلوا، فيبادر الناس إليه حتى يَتَضَايَقُوا عليه».

(٢) في (س): فقد.

(٣) في (س) و(ف) و(ص): إنه نفس.

(٤) في (س) و(د): فزغ، وفي (ص): فزع.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر ﷺ: كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، رقم: (٩٦٠-عبد الباقي)، ولفظه فيه: «إن الموت فزع».

(٦) ينظر: المسالك: (٣/٥٦٢).

(٧) في (س): بها، وفي (ز): عليك، وضرب عليها في (د).

(٨) في (ص): فإنه يستره.

(٩) في (د): يُكره.

وأمَّا المثوبةُ؛ «فمن صلَّى على جنازة فلَهُ قِيرَاطٌ، ومن اتَّبعها حتَّى تُدْفَنَ فله قِيرَاطَانِ؛ أصغرُهما مثلُ أُحُدٍ»[١].

وأمَّا الدعاءُ؛ فإن عَلِمْتَ فيه[٢] خَيْرًا قُلْتَ: «هذا عبدُك فلان، ولا نعلم إلَّا خيرًا، وأنت أعلمُ به، فاغفر لنا وله»[٣]، ولا تَقُلْ: «إلَّا ما تَعْلَمُ»، كذا قال النبي ﷺ.

قال العلماء: «فإن عَلِمْتَ غيره؛ فإن كان من أهل الأهواء قُلْتَ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر:٦]، وإن كان عاصيًا قُلْتَ - إن أَرَدْتَ له الخير -: اللَّهم إنه لا يتعاظمك ذنب، ولا تنقصك رحمة، ولا تَغِيضُ خزائنك من مَوْهَبَةٍ، فارحمه وهَبْ[٤] له عفوك، إنك أنت العفو الغفور».

فإنَّك إذا دَعَوْتَ له أخذت حَظَّكَ منه، وأخذ حظَّه منك، من كان منكما أَصْلَحُ انتفع بِصَاحِبِه[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها، رقم: (٩٤٥-عبد الباقي).

(٢) في (س) و(ف): فيها.

(٣) أخرجه بنحوه الطبراني في الدعاء من قول عمر رضي الله عنه: (١٣٦٠/٣)، رقم: (١١٩٤).

(٤) في (د) و(ص): هبه.

(٥) قوله: «فإنَّك إذا دَعَوْتَ له أخذت حَظَّكَ منه، وأخذ حظَّه منك، من كان منكما أَصْلَحُ انتفع بِصَاحِبِه» موضعه في (د) و(ص) بعد قوله: «وأما الدعاء»، وفي طُرّة في (س): «هنا موضعه في أخرى»، فدلَّ على اختلاف النسخ بين التقديم والتأخير، ولعل ما أثبتناه يكون أوفق وأقوم.

وأمَّا الشَّرِكَةُ في الرحمة؛ فيما يكون من القَبُولِ للدعاء، أو بما[١] يكون له[٢] من قَبُولِ شفاعتكم فيه، أو بما يعودُ عليكم من بركته.

وأمَّا الأُنْسُ من الوحدة؛ فإنه إذا أُنزل في قبره يُستحبُّ أن يجلس عليه سَاعَةً يَسْتَأْنِسُ المَيِّتُ بهم؛ حتى يُرَاجِعَ المَلَكَيْنِ[٣] رُسَلَ ربِّه.

وأمَّا الوفاء؛ فلأنَّه[٤] كان له صاحبًا، والمُسْلِمُ للمسلم ذُخْرٌ في المُلِمَّاتِ، وهذا آخِرُ ما يكون بينهما، فيجب أنْ يَفِيَ[٥] به، وهو مَتَاعٌ قَلِيلٌ من حَبِيبٍ مُفَارِقٍ.

وأمَّا التعزية؛ فقد قال النبي ﷺ: «من عَزَّى مُصَابًا فله مِثْلُ أَجْرِه»[٦].

قيل: دعا له[٧].

وقيل: قال[٨] كَلَامًا حَسَنًا؛ يُسَلِّيه به[٩] ويَقَعُ منه[١٠] مَوْقِعَه[١١].

---

(١) قوله: «فيكون من القَبُولِ للدعاء، أو بما» سقط من (ص).

(٢) سقطت من (س).

(٣) سقط من (د) و(ص).

(٤) في (س) و(ص) و(ف): فإنه.

(٥) في (د): يفيء له.

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه عن ابن مسعود رضي الله عنه: أبوابُ الجنائز عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في أجر من عزَّى مصابًا، رقم: (١٠٧٣-بشار)، وضعَّف أبو عيسى هذا الحديث، ورجَّح وقفه، وضعَّفه ابن العربي في العارضة: (٤/٣٩٦).

(٧) العارضة: (٤/٣٩٦).

(٨) سقطت من (س).

(٩) سقط من (س) و(د).

(١٠) في (س): مثله.

(١١) العارضة: (٤/٣٩٦).

وقد عَلِمَ كُلُّ مسلم أن للباري سبحانه على العبد نِعَمًا لا تُحْصَى، فمنها: نِعْمَةُ البَدَنِ، وهي الصِّحَّةُ والسَّلامة، ومنها: نِعْمَةُ المال، وهي الغِنَى والثروة، فجَعَلَ شُكْرَ نِعْمَةِ البَدَنِ الصَّلَاةَ، وجَعَلَ شُكْرَ نِعْمَةِ المال الصَّدَقَةَ(١)، فكَانَ:

* * * * *

(١) ينظر: المسالك: (٤/١٠).

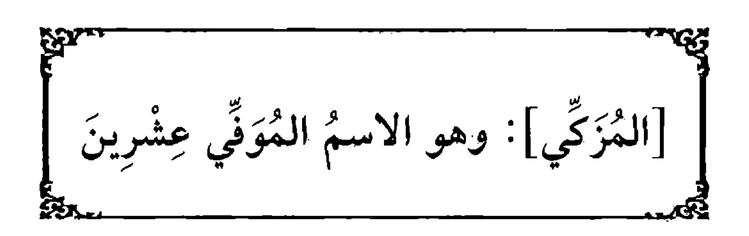
الاسم التَّاسع عشر: المُصَدِّقُ[١]

وهو يَرْجِعُ إلى الصِّدْقِ؛ كما تقدَّم في تفسيره، لمُوَافَقَةِ إنفاقه لاعتقاده[٢]، ويُسَمَّى «المُزَكِّي».

* * * * *

(١) في (س) و(ص) و(ف) و(ز): المتصدق، ومرَّضها في (د).

(٢) ينظر: المسالك: (٤/١٠).



[المُزَكِّي]: وهو الاسمُ المُوَفِّي عِشْرِينَ

والمُزَكِّي أَعَمُّ من المُصَّدِّقِ(١)؛ لأن متعلَّقاته في العربيَّة أكثرُ، وقد بيَّنَّا ذلك في مَوْضِعِه.

والمُصَّدِّقُ والمُزَكِّي: هو/ الذي يَقْضِي ما لله عليه من حَقٍّ في ماله لأَرْبَابِهِ الذين أحالهم عليه به، حسبما بيَّنَّاه في «قِسْمِ المَقَامَاتِ الأَوَّلِ»(٢). [١١٤/أ]

ويَزِيدُ المُزَكِّي عليه بأنه الذي يُطَهِّرُ نفسه من أَدْنَاسِ الذنوب، كما يُطَهِّرُ ماله من أدناس الحقوق، فالصَّدَقَةُ أَوْسَاخُ الناس، كما رُوِيَ(٣) في الحديث الصحيح(٤).

ولمَّا كانت النِّعْمَتَانِ في البَدَنِ والمال مُقْتَرِنَتَيْنِ؛ بهما يَتِمُّ للمرء وجودُه ومعاشُه واستقلالُه، قَرَنَ الله بينهما في الفَرْضِ والشُّكْرِ، والعِوَضِ والأَجْرِ، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٢]، وقال تعالى: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة:٥٧].

---

(١) في (س) و(ص): المتصدق.

(٢) في السِّفْرِ الأَوَّل.

(٣) في (د) و(ص) و(ز): ورد.

(٤) حديث «إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد؛ إنما هي أوساخ الناس»، أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجنائز، باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة، رقم: (١٠٧٢-عبد الباقي).

وأَفْرَدَ أيضًا الصَّلاة في موضعٍ لرُكْنِيَتِها، وأفرد الصدقة في موضعٍ آخر لركنيتها، وذَكَرَ التزكية في مَوْضِعٍ آخَرَ عُمُومًا، وتولَّى بيان ذلك بعِلْمِه وحُكْمِه وحِكْمَتِه[١]، بأَبْدَعِ وَصْفٍ وأَعْظَمِ وَصْفٍ، ولولا التَّطْوِيلُ لتتبَّعناها لكم على نَظْمِ القرآن آيَةً آيَةً، كما فعلنا في الصَّلاة، لكن ذلك الدُّسْتُورَ الذي قدَّمناه[٢] في الصَّلاة اجعلُوه في الزَّكاة بأفهامكم، وبما رَتَّبْنَا[٣] في «قانون التأويل»[٤]، وسَنُبَيِّنُ نحنُ من هذه المعاني في بقية الكتاب ما يُعِينُ على معرفة الطريق إليه إن شاء الله.

[فوائدُ الصدقة]:

وبالجُمْلَةِ فلا مَزِيَّةَ[٥] في الصدقة أَعْظَمَ من التَحَلِّي بأوصاف الإلَهية؛ أن تُقَسِّمَ الرِّزْقَ نائبًا عن الله، كما يُقَسِّمُه الله.

فإن كنت عالمًا وتَحَلَّيْتَ بهذا الاسم؛ فقَسَّمْتَ العِلْمَ وبَثَثْتَهُ في الناس، وكان لك بَذْلُ العِلْمِ وقِسْمَتُه، ونَثْرُ[٦] المال وهِبَتُه؛ فقد تَمَّ لك شَرَفُ الدنيا والآخرة، قال النبي ﷺ: «لا حَسَدَ إلَّا في اثنتين؛ رَجُلٌ آتاه الله الحِكْمَةَ فهو يَقْضِي بها ويُعَلِّمُها، ورَجُلٌ آتاه الله مالًا فهو يُنْفِقُه آناء اللَّيْلِ والنَّهَارِ»[٧].

---

(١) سقطت من (د) و(ص).

(٢) في (س) و(ف): قدَّمنا.

(٣) في (ز): رتبناه، وفي (ص): دللناه.

(٤) قانون التأويل: (ص٢٩٧-٣٠٧).

(٥) في (س) و(ف) و(ص) و(ز): تريد.

(٦) في (د): نشر.

(٧) تقدَّم تخريجه.

ولصِحَّةِ تداخلهما وانتظامها قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٤] الآية.

والصَّلَاةُ مَنْمَاةٌ للمال، والصدقة مَحْمَاةٌ للبدن، مَنْجَاةٌ وتقوًى له[١]، قال النبي ﷺ: «اتقوا النار ولو بشِقِّ تمرة، فإن لم يجد[٢] فبكلمة طيبة»[٣]، وهي[٤] عِصْمَةٌ لماله[٥]، كما أن الصلاة عِصْمَةٌ لبدنه، وهما «الأختان» في ألسنة الفقهاء[٦].

والوَجْهُ العظيم في تطهير الزكاة للبدن قَلْعُ الشُّحِّ والبُخْلِ من القلب، وتُزَكِّيهِم[٧] - أيضًا - على[٨] أن يَلْحَظُوهَا، أو ينظروا إليها، أو يَعْتَدُّوا بها، وإنَّما يجعلونها وَسِيلَةً بين أيديهم، وذَخِيرَةً لهم في استقرارهم.

ومن شَرَفِهَا: قال النبي ﷺ: «إنَّ الصدقة لتقعُ في كَفِّ الرحمن قبل أن تقع في كَفِّ السائل»[٩]، وهو[١٠] عبارةٌ عن القَبُولِ، فإنَّ/ السَّائِلَ إذا قَبِلَ [١١٤/ب]

---

(١) في (س) و(ف): والصلاة منماة للمال، والزكاة محماة للبدن، ومنجاة وتقوية، وفي طرة بـ(س): والصلاة منماة للبدن، والصدقة منماة للمال وتقوية له، وصحَّحهما.

(٢) في (د) و(ز): تجد، وفي (ص): تجدوا.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن عَدِي بن حاتم ﷺ: كتاب الجنائز، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، رقم: (١٠١٦-عبد الباقي).

(٤) سقطت من (س) و(ص) و(ف) و(ز).

(٥) في (د): ماله.

(٦) في (ص): العلماء.

(٧) في (د) و(ص): يزكيهم.

(٨) في (ص): عن، وسقط من (س) و(ف).

(٩) أخرجه عبد الرزاق في التفسير عن ابن مسعود ﷺ موقوفًا: (١/٢٨٧)، والطبراني في أكبر معاجمه: (٩/١١٤).

(١٠) سقط من (د) و(ص).

مَدَّ يَدَه وأَخَذَ الصَّدَقَةَ وجَمَعَ عليها كَفَّه، فكان ذلك علامةً على قَبُولها، وحَوْزُها[١] مِلْكٌ له[٢]، فأخبر النبيُّ ﷺ عن قَبُوله وادِّخاره لها عنده لصاحبها بحال القَبْضِ لها، والاحتياز[٣] في الكَفِّ، وهو هيئة التملك[٤] والقبول، والإخبارُ بلسان الحال عن المقال والمَقَالِ عن الحال أَصْلُ الفصاحة، وهو كثير مُتَقَرِّرٌ في العربية[٥].

وقد مَدَحَ الله قومًا على النفقة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران:١٣٤].

والمعنى: «لا يدَّخرون شيئًا عن الله، ويؤثرونه على جميع الأشياء، يُنفقون أبدانهم في الطاعات، ويُنفقون أموالهم في اقتناء الخيرات، وابتغاء القربات[٦]، ووجوه الصدقات[٧]»[٨]، فيقومون بحَقِّ النِّعْمَتَيْنِ.

وأَوَّلُ من فَعَلَ ذلك أبو بكر رضي الله عنه؛ جاء بماله كُلِّه فقُبِلَ منه، وجاء عمر رضي الله عنه بنِصْفِ ماله فقُبِلَ منه[٩].

---

(١) في (د): حوزه.

(٢) في (د) و(ص): لها.

(٣) في (س) و(ز): الاختيار.

(٤) في (د): التمليك.

(٥) ينظر: القبس: (٢/٤٥٢).

(٦) قوله: «وابتغاء القربات» سقط من (ص).

(٧) في (س) و(ف): الصدقة.

(٨) لطائف الإشارات: (٢/٢٧٧-٢٧٨).

(٩) أخرجه الترمذي في جامعه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٣٦٧٥-بشار).

وروى عبد الرزَّاق - في تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّوْبَةِ -: «أنَّ عبد الرحمن بن عوف جاء بِنِصْفِ ماله فقُبِلَ منه»[١].

وجاء كَعْبُ بن مالك[٢] وأبو لُبَابَةَ[٣] -كما بينَّاه في «أنوار الفَجْرِ[٤]» - بأموالهما، فقُبِلَ منهما الثُّلُثُ.

وقيل فيهما وفي بقية الخَلْقِ: ﴿خُذْ مِنَ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، ولا تأخذ أموالهم؛ فإن قلوبهم لا تحتمله، ونفوسهم لا تَطِيبُ بأخذ أموالهم[٥]، فصار ذلك سُنَّةً حسبما بينَّاه في «كُتُبِ[٦] الفِقْهِ»[٧].

ومن فَضْلِها تَعْيِينُ باب لها في الجنة، فإن للجنة ثمانية أبواب، أَحَدُها باب الصَّدَقَةِ[٨].

وإذا قامت الصَّلَاةُ بِشُكْرِ نِعْمَةِ البَدَنِ، وقامت الصَّدَقَةُ بِشُكْرِ نِعْمَةِ المَالِ؛ وَقَعَ الثَّنَاءُ[٩] في شُكْرِ نِعْمَةِ البَدَنِ في الصِّيَامِ، فكَانَ:

---

(١) تفسير عبد الرزاق: (١/٢٨٣).

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، رقم: (٤٤١٨-طوق).

(٣) تفسير عبد الرزاق: (١/٢٨٦)، وينظر: أحكام القرآن: (٢/١٠١٠).

(٤) قوله: «في أنوار الفجر» سقط من (د) و(س) و(ز).

(٥) في (د) و(ص): بإخراجه.

(٦) في (ص): كتاب. (٧) أحكام القرآن: (٢/١٠١٠).

(٨) الإشارة هنا إلى حديث: «من كان من أهل الصدقة دُعِيَ من باب الصدقة»، أخرجه الإمام مالك في الموطَّأ عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الجهاد، ما جاء في الخيل والمسابقة بينها والإنفاق في الغزو، (١/٤٩٠)، رقم: (١٣٤٧-المجلس العلمي الأعلى).

(٩) في (د) الكلمة غير واضحة.

الصَّائِمُ: وهو الاسمُ الحادي والعشرون

مُقَامًا[١] لِشُكْرِ نِعَمِه[٢]، بتَسْوِيغ الغذاء من الطعام والشراب؛ فإنَّ الصحة واستواء الأعضاء لا يعادلهما شيء، وبالحَرَى أن تقوم بها الصلاة بفَضْلِ الله، فتبقى نعمة الغذاء وهي مادة البقاء، شَرَعَ الله له الإمساك عنها بنيَّة العبادة شُكْرًا، ووعد عليه مثوبة وأجرًا، وأَوْسَعَه ثَنَاءً وفَضْلًا، ولو لم يَكُنْ إلَّا قوله تعالى: «الصَّوْمُ لي وأنا أَجْزِي به»[٣].

وقد كان الصَّوْمُ في شَرْع من مضى على أَصْلِه في العربية: الإِمْسَاكُ عن الكلام والشراب والطعام[٤]، قال الله تعالى مُخْبِرًا عن الصَّالحة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٥].

وكان الصَّوْمُ في أوَّل الإسلام الليل والنهار إلَّا سَاعَةَ الفِطْرِ قبل النَّوْمِ، ثم رَحِمَ الله هذه الأمة فجعل للصَّوْم النَّهَارَ دون اللَّيل.

وقالت الصُّوفِيَّةُ: «الصَّوْمُ على ثلاثة أقسام؛ صَوْمٌ عن الطعام والشراب والوَطْءِ، وصَوْمٌ عن جميع المُحَرَّمَاتِ، وصَوْمٌ عمَّا سوى الله تعالى، فلا يَنْظُرْ إلى غيره، وليُمْسِكْ عمَّن سواه»[٥].

---

(١) خبر فكان، وفي (د): فقامًا، وفي (ص): قيامًا.
(٢) في (د): نعمة.
(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطَّأ عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الصيام، جامع الصيام، (١/٣٥٦)، رقم: (٨٦٤-المجلس العلمي الأعلى).
(٤) ينظر: شرح ابن بطَّال: (٣/١١)، والعارضة: (٣/٢٣٠).
(٥) ينظر: لطائف الإشارات: (١/١٥٢)، والإحياء: (ص٢٧٧)، وقوت القلوب: (٣/١٢٤٥)، وينظر - أيضًا -: العارضة: (٣/٢٣١).

[١١٥/أ] وهذا كلُّه له وَجْهٌ صَحِيحٌ ؛ فإن تَعَلُّقَ القَلْبِ/ بغَيْرِ الله ، وجَرْيَ اللِّسَانِ بذِكْرِ سواه ، واستعمالَ الجوارح في عَمَلٍ لا يكونُ له لا يَنْبَغِي ، وكذلك المحرَّمات ، معلومٌ قَطْعًا أن الخطاب بها مستمرٌّ على العباد دائمًا ، ويتأكدُ ذلك بالصوم ؛ فإن انتهاك الحُرْمَةِ في غير الصوم ذَنْبٌ ، وانتهاكُها[(١)] في الصوم ذَنْبَانِ ، وتتضاعفُ السيِّئات بتضاعف الحُرُمَاتِ.

قال النبي ﷺ: «من لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعَمَلَ به فلَيْسَ لله حَاجَةٌ في أن يَدَعَ طعامه وشرابه»[(٢)].

وقد قال جماعةٌ من السلف: «إنَّ الغِيبَةَ تُفْطِرُ الصائم وعليه القضاء لأجل هذا الحديث ؛ وذلك لأن أَجْرَ الصائم لا يفي بإثم الغيبة لأنها من الكبائر ، والكبائر من العبادات لا تُكَفِّرُ الكبائر من السيئات إلَّا بالموازنة»[(٣)].

وقال النبيُّ ﷺ: «إذا دخل رمضان فُتحت أبواب الجنة - وقيل: الرحمة - ، وغُلِّقَتْ أبواب النار ، وسُلْسِلَتِ الشياطين»[(٤)].

ومن الحديث الحسن: «صُفِّدَتِ الشياطينُ ومَرَدَةُ الجِنِّ ، وغُلِّقَتْ أبوابُ النار ، فلم يُفتح منها بابٌ ، وفُتحت أبواب الجنة فلم يُغلق منها

---

(١) في (د): انتهاكه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الصوم ، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم ، رقم: (١٩٠٣-طوق).

(٣) ينظر: قوت القلوب: (١٢٤٧/٣) ، والإحياء: (ص٢٧٧) ، وفتح الباري: (١٠٤/٤) ، وهو قَوْلُ الأوزاعي وسفيان.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الصيام ، باب فضل شهر رمضان ، رقم: (١٠٧٩-عبد الباقي).

باب، ويُنَادِي مُنَادِي: يا بَاغِيَ الخير أَقْبِلْ، ويا بَاغِيَ الشرِّ أَقْصِرْ، ولله عُتَقَاءُ من النار، وذلك كلَّ ليلة»[١].

[فضائلُ الصوم[٢]]:

وقال ﷺ: «قال الله[٣]: كلُّ عَمَلِ ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي، وأنا أجزي به، يَدَعُ شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، وقال: للصائم فرحتان، فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخُلوف فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المِسْكِ، والصيام جُنَّةٌ»[٤].

فهذه أَحَدَ عشر[٥] خصلة، كلُّ واحدة منهن[٦] تُوَازِي الدنيا:

الخصلة الأولى: «كلُّ عَمَلِ ابن آدم له» فيه قولان:

أحدهما: يعلم مقدار ثوابه.

والثاني: «كل عَمَلِ ابن آدم له»، أي: صفته؛ لأنها[٧] حركات وسكنات، وتلك لا تليق بالله.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﷺ: أبواب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل شهر رمضان، رقم: (٦٨٢-بشار).

(٢) ينظر: العارضة: (٣/٣٢٤-٣٢٧)، والقبس: (٢/٤٨١-٤٨٢)، والمسالك: (٤/٢٣٦-٢٤٢).

(٣) قوله: «قال الله» لم يرد في (د) و(ص).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم؟ رقم: (١٩٠٤-طوق).

(٥) في (س) و(ص): إحدى عشرة، وفي (ف): إحدى عشر.

(٦) في (س): خصلة منها، وفي (س) - أيضًا -: وفي خـ: واحدة.

(٧) في (د) و(ص): فإنها.

الخصلة الثانية: «إلَّا الصوم»؛ ويَتَرَكَّبُ القولان على القِسْم الأوَّل في الخصلة الأولى، فيكون المعنى: أن الصوم لا يَعْلَمُ أَحَدٌ مقدار ما يُثَابُ[١] عليه، ويَدُلُّ عليه قوله فيه: «الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مائة ضعف، إلَّا الصوم، فإنه لي وأنا أَجْزِي به»[٢].

أو يكون المعنى: إلا الصوم، فإنه صِفَةٌ من صفاتي، إذ لا يَطْعَمُ، وأنا الذي لا يَطْعَمُ بحال[٣]، ولا يجوز عليه أن يَطْعَمَ، فإذا تَكَلَّفَ ذلك العَبْدُ وتعاطاه فلا تعلم نَفْسٌ قَدْرَ ثوابه.

الخصلة الثالثة: قوله: «لي»؛ وفيه أقوالٌ، لُبَابُها سَبْعَةٌ[٤]:

الأوَّل: «لي[٥]»، أي: صِفَتِي، كما تقدَّم، فمن تعاطاه فثوابُه غير مُحَصَّلٍ لأَحَدٍ.

الثاني: أضافه إليه إضافةَ تَشْرِيفٍ - وإن كانت الأعمال كلُّها له -/ [١١٥/ب] كما قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج:٢٤]، تنبيهًا على شَرَفِه[٦].

الثالث: أي: لا يعلمه غيري[٧]؛ فإن كلَّ عَمَلٍ لا يُمكن العبد أن يستره[٨] إلا الصوم، فيُمكن أن لا يطَّلع عليه أَحَدٌ إلا الله[٩].

---

(١) في (ص): مقدار ثوابه.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الإمام مالك في الموطَّأ عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الصيام، جامع الصيام، (١/٣٥٦)، رقم: (٨٦٤-المجلس العلمي الأعلى).

(٣) ينظر: التوضيح لابن الملقن: (١٣/٢٧).

(٤) ينظر: القبس: (٢/٤٨١)، والعارضة: (٣/٣٢٤).

(٥) سقطت من (س) و(ص).

(٦) في (ص): شرفها.

(٧) في (س) و(ف): غيره.

(٨) في (س): يشهره.

(٩) غريب الحديث لابن سلَّام: (٣/٣٢٩)، وشرح الصحيح للخطَّابي: (٢/٩٤٠).

الرابع: من صفة ملائكتي؛ لأن العبد إذا لم يأكل تَشَبَّهَ بالملائكة، وهو[1] أقوى من الأول عندي وأَوْلى، فعليه ينبغي أن يكون المعوَّل.

الخامس: أنا الذي أعلمُ مقدار ثوابه، وقد تقدَّم ذِكْرُه في الأقوال.

السَّادس: أن معنى قوله: «الصوم لي»، أي: يَقْمَعُ عَدُوِّي، وهو الشيطان؛ لأن سَبِيلَ الشيطان إلى الآدمي الشهواتُ، فإذا تُرِكَتْ خاب[2] وذَلَّ، وانحَسَر[3] وانْخَنَسَ.

السَّابع: رُوِيَ - ولم يصحَّ، فربُّك أعلم -: «أنَّ غُرَمَاءَ العبد لا يُجْعَلُ لهم إلى الصوم سَبِيلٌ»[4]، وذلك عندي - والله أعلم - إذا لم يكن مَعْلُومًا لأحد، ولا مَكْتُوبًا في الصُّحُفِ، فيسترُه الله له ويخبِّؤه عليه رِفْقًا به، حتى

---

(١) في (د) و(ص): هذا.

(٢) في (د) و(ص): ذاب.

(٣) مرَّضها في (د)، وفي (ص): انحشر، وفي (ز): انخسر.

(٤) قال ابن العربي (المسالك: ٤/٢٤١): «رُوي في بعض الآثار: أن العبد يأتي يوم القيامة بحسناته؛ ويأتي قد ضرب هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، فتدفع حسناته لغرمائه، إلا الصيام، يقول الله: هو لي، ليس إليه سبيل»، وقال ابن حجر (الفتح: ٤/١٠٩): «روى البيهقي من طريق إسحاق بن أيوب بن حسَّان الواسطي عن أبيه عن ابن عُيَينة: إذا كان يومِ القيامة يُحَاسِبُ الله عبده ويؤدي ما عليه من المظالم من عمله، حتى لا يبقى له إلا الصوم، فيتحمَّل الله ما بقي عليه من المظالم، ويُدْخِله بالصوم الجنة»، وصحَّحه من قول ابن عُيَينة، واعترض أبو العباس القرطبي قول ابن العربي وردَّه في المُفْهِمِ: (٣/٢١٢)، وردَّ ابن حجر ما ذهب إليه أبو العباس، ومال إلى ما قرَّره ابن العربي، ينظر: الفتح: (٤/١٠٩)، والتوضيح لابن الملقن: (١٣/٢٦).

يكون له جُنَّة من العذاب، فيطرح[١] أولئك عليه سيئاتهم، فتذهبُ عنهم ويَقِيهِ الصوم، فلا تضر[٢] لأصحابها لزوالها عنهم ولا له؛ لأن الصوم جُنَّته[٣].

الخصلة الرابعة: قوله: «وأنا أجزي به»، إشارة إلى أنه لا يتولَّى ذلك نائبٌ؛ من مَلَكٍ أو سِوَاهُ تَشْرِيفًا له[٤].

الخصلة الخامسة: قوله: «يَدَعُ شهوته من أجلي»، ولم يقل: تُعْدِمُ ولا تُضْعِفُ[٥]، كما تقول الصوفية، وإنما قال: يَدَعُ شهوته مع وجودها وقوَّتها، وذلك أَعْظَمُ في المجاهدة وأَكْثَرُ في الثواب.

الخصلة السَّادسة: قوله تعالى: «وطعامه وشرابه»، بَيَانٌ بأن الشهوة متروكة مقموعة، والطعام والشراب متروك، فهما متروكان:

أحدهما: نَفْسِيٌّ.

والآخَرُ: بَدَنِي.

وهنالك من لا تقوى شهوتُه للطعام، فتكون له الخصلة الواحدة؛ وهي الترك، فإذا اجتمعتا[٦] كان أفضل، إلَّا أن يكون ضَعيف[٧] الشهوة لحُرْمَةٍ في ذلك، واعتمال وارتياض، فيكون لها من الفَضْلِ مثلُ الأوَّل.

---

(١) في (س) و(ف) و(ص): فيطرحون.

(٢) في (س): تصبر، وفي (ص): تصر، وفي (ز): تضير.

(٣) في (س) و(ف) و(ص): جنة.

(٤) هو قَوْلُ أبي نصر الداودي، ينظر: التوضيح لابن الملقن: (١٣/٢٧).

(٥) في (ص) و(ز): يُعدم ولا يُضعف.

(٦) في (د) و(ص): اجتمعَا.

(٧) في (س) و(ف): ضعف.

الخصلة السَّابعة: قوله: «من أجلي»، أي: امتثالًا لأمري، وانقيادًا لحُكْمِي، بيانُ الفَرْقِ[١] بين العبادة والعادة[٢].

الخصلة الثامنة: قوله: «للصَّائم فرحتان[٣]؛ فرحة عند إفطاره»، قال عَامَّةُ العلماء: فَرْحَةٌ بالأكل لشَوْقِه إليه وصَبْرِه عنه، ويَعْضُدُ هذا قوله: «يَدَعُ شهوته»، أي[٤]: يدعها[٥] لله تعالى، حتى إذا انتهى الأمد[٦] المحدود اقتضى شهوته بعد ما قضى عبادته، وأين أفضل من هذا؟

وقالت الصوفية - وساعدهم على ذلك بعض المتفقهة -: معناه: «الفَرَحُ بتمام العبادة؛ سليمة من[٧] نواقصها[٨]».

وقلتُ أنا: إنها[٩] فرحة لها مفروحان[١٠]؛ قضاء الشهوة، وسلامة العبادة، ولا تعارض بينهما حتى يمتنع اجتماعهما.

الخصلة التاسعة: «فرحة عند لقاء ربه»، لِمَا يرى من ثوابه.

---

(١) في (س) و(ف): للفرق.

(٢) في (س) و(ف): العادة والعبادة.

(٣) سقطت من (ص) و(د).

(٤) سقطت من (ص) و(س) و(ز).

(٥) في (س) و(ف) و(ص): فيدعها.

(٦) في (ص) و(س) و(ز): الأمر.

(٧) في (ص) و(د): عن.

(٨) في (س) و(ص) و(ف): نواقضها.

(٩) سقطت من (ص) و(د).

(١٠) في (د): مفرحان، وفي الطرة: في خـ: وجهان، وفي (ص): فرحتان.

[١١٦/أ] **الخصلة العاشرة:**/ قوله: «ولخُلُوفِ فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»، يريدُ أن تَغْيِيرَ فَمِ الصائم إلى الرائحة الكريهة أَطْيَبُ عند الله من طِيبِ رِيحِ المِسْكِ عندكم[١]، الإشارةُ إلى أن العباد يستحبون رائحة المِسْكِ الطَّيِّبَةِ[٢]، ولا يستحبُّون الدَّفْرَة، وهذه الرائحة الكريهة هي التي يُحِبُّ الله، وضَرَبَ الطِّيبَ مَثَلًا للمحبة، والمحبةُ عبارةٌ عن المثوبة.

الخصلة الحادية عشر: قوله: «والصيام جُنَّةٌ»، وهذا نصٌّ في أنه وقاية، مِنَ المِجَنِّ، وهو ما يُتَّقَى به في الحَرْبِ من الطَّعْنِ والضَّرْبِ[٣].

قال الإمام الحافظ[٤] أبو بكر بن العربي ﷺ: ونَاهِيكَ بهذا فَضْلًا، وإنه لكَافٍ في شَرَفِ الصَّوْمِ، فلا تطلبوا بعده فَضْلًا فإنه يُجْزِئكم.

وفائدةُ الصوم تكثرُ وجوهها، وقد مَضَتْ منها في هذا الكلام جُمَلٌ.

وقد قال جماعة من الزهَّاد: إن قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٢]، أي: تضعف شهواتكم[٥].

وقيل: لعلَّه يتذكر الجائعين؛ ولذلك قيل له - في أوَّل الأمر -: إن شئت أن تُعَوِّضَ عن[٦] الصيام إطعامَ المساكين فافْعَلْ.

---

(١) شرح الصحيح للخطَّابي: (٢/٩٤٠).
(٢) ضبَّب عليها في (د).
(٣) شرح الصحيح لابن بطَّال: (٣/٨).
(٤) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي (ص): قال الإمام، وفي (ز): قال الإمام الحافظ القاضي.
(٥) أحكام القرآن: (١/٧٥)، وينظر: الجامع لأبي عبد الله القرطبي: (٣/١٢٦).
(٦) في (ص) و(د): على.

وقيل: لتَقِلَّ مؤونته؛ فيَقِلُّ[١] كَسْبُه، فيَتَفَرَّغُ[٢] زمانُه للعبادة.

وقيل: ليرتدع عن المعاصي، فإن حَالَةً قد[٣] تُحَرِّمُ عليه المباح أَحْرَى أن تمنعه من المحظور.

فركِّبوا على هذا الأُنموذج ما قرَّرناه في «قانون التأويل» من المعاني والألفاظ التي تَحْتَمِلُه.

والسَّحُورُ سُنَّةٌ؛ ثبت أن النبي ﷺ قال[٤]: «تَسَحَّرُوا، فإنَّ في السَّحور بركة»[٥]، ووجوه بركته[٦] كثيرة، وفائدته[٧] أن يُقَسِّمَ غِذاءه بين وَقْتَيْنِ، حتى لا يلحقه ضَجَرٌ بالصوم، ولا يناله مرض[٨]، ولذلك مُنِعَ من[٩] الوِصَالُ.

وأرادت الصحابةُ أن تُواصل فمنعهم النبي ﷺ رِفْقًا بهم[١٠]، ثم

---

(١) في (ص): يثقل.

(٢) في (ص): فيفرغُ زمانُه.

(٣) سقطت من (ص) و(د).

(٤) سقط من (س).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: كتاب الصوم، باب بركة السحور، رقم: (١٩٢٣-طوق).

(٦) في (د) و(ز): بركتها.

(٧) في (ص) و(ز): فائدتها.

(٨) في (س): مرص.

(٩) سقطت من (ص) و(س) و(ز).

(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: كتاب الصوم، باب الوصال، رقم: (١٩٦١-طوق)، ولفظه فيه: «لا تواصلوا، قالوا: إنك تواصل، قال: لست كأحد منكم؛ إني أُطعم وأُسقى».

وَاصَلَ بهم مُنَكِّلًا لهم[١]؛ لتَعَرُّضِهِمْ لِفِعْلِ ما لم يُفْرَضْ[٢] عليهم، تشبيهًا بالأمم الخالفة[٣]، فإنها كانت تَزِيدُ في الفَرْضِ، ثم تعجز عن الجميع، والناسُ منقسمون في ذلك، فمن قَدَرَ عليه فليفعله، ومن لم يقدر فلا أقلَّ من تَمْرَةٍ اتباعًا[٤] للسُّنَّةِ، واغتنامًا للبركة، واعتقادًا للفَرْقِ بيننا وبين أهل الكتاب، ولو لم يكن من بَرَكَةِ السَّحُورِ إلَّا أنَّ في الصحيح؛ قال النبي ﷺ: «لا تواصلوا، فأيُّكم أراد أن يُواصلَ فليُوَاصِلْ حتى السَّحَرِ»[٥].

وتَعْجِيلُ الفِطْرِ سُنَّةٌ[٦]؛ ففي الصحيح: «لا يزالُ الناس بخَيْرٍ ما عجَّلوا الفِطْرَ»[٧]، «وإذا أَقْبَلَ اللَّيْلُ من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، فقد أفطر الصائم»[٨]، أي: دَخَلَ في وَقْتِ الفِطْرِ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال، رقم: (١٩٦٥-طوق)، ولفظه فيه: «فلمَّا أبَوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يومًا، ثم يومًا، ثم رأوا الهلال، فقال: لو تأخَّر لزدتكم، كالتنكيل لهم حين أَبَوا أن ينتهوا».

(٢) في (ص) و(د): يفرض الله.

(٣) في (ص) و(د) و(ز): الماضية، وأشار إليها في (س).

(٤) سقطت من (ص) و(د) و(ز).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كتاب الصوم، باب الوصال إلى السحر، رقم: (١٩٦٧-طوق).

(٦) قوله: «في الصحيح قال النبي ﷺ: لا تواصلوا، فأيُّكم أراد أن يُواصلَ فليُوَاصِلْ حتى السَّحَرِ. وتَعْجِيلُ الفطور سنة» سقط من (ص).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه: كتاب الصوم، باب تعجيل الفطر، رقم: (١٩٥٧-طوق).

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كتاب الصوم، باب متى يحل فطر الصائم؟ رقم: (١٩٥٤-طوق).

١ ورأيتُ المدينة المُقَدَّسَةَ في غَرْبِيِّهَا[١] جَبَلُ أُحُدٍ، فلا يُمكن أحدٌ أن يتحقَّق[٢] - وخاصَّةً/ في أيام الشتاء - غُرُوبَ الشمس، لأنها تسكن وراء[٣] [١١٦/ب] ذلك الجبل العظيم، ولكن يَنْظُرُ طلوع الليل من المشرق، وسقوط الشمس عن عمائم الجبال، ولذلك كانوا إذا اغتاموا[٤] ربما يُفطرون في زمان النبي ﷺ وأبي بكر[٥] وعمر، ثم تطلع الشمس[٦].

ولا يتقدَّمُ الشَّهْرَ بصَوْمٍ، قال النبيُّ ﷺ: «لا يتقدَّمنَّ أحدُكم الشَّهْرَ بيوم ولا بيومين، إلا أن يكون رَجُلٌ كان يصوم صَوْمَه، فليصم ذلك اليوم»[٧].

وفي سنن أبي داود وغيرها: «إذا انتصف شعبان فلا يصومنَّ أحدُكم حتى يدخل رمضان»[٨].

---

(١) في (ص): غربها.

(٢) بعدها في (س): غروبها.

(٣) في (د): من وراء.

(٤) في (س) و(ف): أغاموا، وفي (ص): غاموا.

(٥) قوله: «وأبي بكر» سقط من (د) و(ص).

(٦) أخرج البخاري من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: «أفطرنا على عهد النبي ﷺ يوم غَيْمٍ ثم طلعت الشمس»، كتاب الصوم، باب إذا أفطر في رمضان ثم طلعت الشمس، رقم: (١٩٥٩-طوق).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الصوم، باب لا يتقدَّمن رمضان بصوم يوم ولا يومين، رقم: (١٩١٤-طوق).

(٨) أخرجه أبو داود في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الصوم، باب في كراهية ذلك، رقم: (٢٣٣٧-شعيب).

[صيامُ سِتٍّ من شوَّال[١]]:

ولا يُشَيِّعُه بصوم ستة أيام ولا سواها؛ فإن العِلَّةَ التي[٢] نُهِيَ عن سَبْقِه بصَوْمٍ هي العِلَّةُ بعينها موجودةٌ مُتَمَكِّنَةٌ في التَّشْيِيعِ، وهي أن الله تعالى قد حَدَّ حُدُودًا ووظَّفَ وَظَائِفَ[٣] لكل أمة، ونهاها عن الزيادة في شيء منها أو النقص لها، وأمر بالمحافظة عليها، فغيَّرت الأمم وزادت ونقصت، وترَهَّبت وابتدعت، وحذَّر الله هذه الأمة من ذلك؛ إِقَامَةً للحجة عليهم، ثم أخبرهم أنهم فاعلون ليَنْفُذَ الكتاب عليهم، فقال: «لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم، شِبْرًا بشِبْرٍ، وذِرَاعًا بذِرَاعٍ، حتى لو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه»[٤]، وأبى الله لمن سَبَقَ إلَّا أن يُبَدِّلُوا الصوم[٥]، فحَذَارِ - أيتها الأمة المرحومة - من ذلك، فلا تصوموا قبل رمضان ولا بعده، وأقْبِلُوا[٦] على ما ألزمكم الله بالامتثال، وخُذُوا ما أعطاكم؛ فإنه بكم رؤوف رحيم.

فإن قيل: فقد قال ﷺ: «من صام رمضان وسِتًّا من شَوَّال فكأنَّما صام الدهر»[٧]؟

---

(١) ينظر: العارضة: (٣/٣٢٢).

(٢) سقطت من (س).

(٣) في (ص): وضف وضائف.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: لتتبعن سنن من كان قبلكم، رقم: (٧٣٢٠-طوق).

(٥) في (د): الصيام.

(٦) في (د) و(ص): واقبَلوا ما.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتْبَاعًا لرمضان، رقم: (١١٦٤-عبد الباقي).

قلنا: الفائدة في ذلك: أن الله أَعْلَمَ العَبْدَ بأن سِتَّةً[١] وثلاثين يَوْمًا في الفضل[٢] تَعْدِلُ ثلاثمائة وستين يومًا في الأجر، تأكيدًا وتنبيهًا، لِمَا أُعْلِمْنَا به عن ربنا في القرآن بقوله: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦١]، وأنت فصُمْ سِتَّةَ أَيَّام من أيِّ شَهْرٍ كان مع رمضان، قبله أو بعده، فإنك حَائِزٌ لتلك الفضيلة.

فإن قيل: لفظ الحديث: «ثم أَتْبَعَهُ سِتًّا من شوَّال»؟

قلنا: بإجماع من[٣] الأمة أن غَيْرَ شَوَّالٍ أَفْضَلُ من شَوَّال.

فإن قال: أخافُ أن أموت قبل أن أصومها فأتعجَّل؟

قلنا له[٤]: ولم لا تخاف أن تموت قبل أن يخرج الوقت للصَّلاة؟ وأنت تؤخرها عن أوَّل الوقت، وصلاةٌ واحدةٌ تفوتك أَعْظَمُ عند الله[٥] إثمًا وأحسنُ أجرًا من رمضانَيْن، فأنت تتوانى في الصَّلاة، وتُعَجِّلُ[٦] ستة أيام من شوَّال، تالله ما هذا إلَّا من الشَّيطان.

وما رأيتُ أَحَدًا من أشياخي كُلِّهم يفعلُها، إلَّا واحدًا[٧]؛ كان يُصْبِحُ/ [١١٧/أ]

---

(١) في (س) و(ف) و(ص) و(ز): ستًّا.

(٢) في (ص): الفصل.

(٣) لم ترد في (س).

(٤) سقط من (س) و(ص).

(٥) قوله: «عند الله» لم يرد في (د).

(٦) في (ص): تتعجل، وفي (د): تَعْجَلُ بستة.

(٧) لعله يقصد شيخه الفقيه الحافظ أبا عامر محمد بن سعدون العبدري، الداودي، ثم الشافعي، الأندلسي، نزيل بغداد، فقد ذُكِرَ عنه تنقصه من الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، ذكر ذلك ابنُ عساكر في تاريخه، وأما نسبته إلى البدعة فقد شُهر =

ثَانِيَ الفِطْرِ صائمًا لها، وكانت عليه رائحةُ بِدْعَةٍ وكَرَاهَةٍ[١] لمَالِكٍ، فكان يعتمدُ ذلك لذلك، وما كنتُ أراها خالصةً، وربُّك أعلمُ به.

[من آداب الصيام]:

ومن آدابه إذا أكمل صَوْمَ الشَّهْرِ امتثالُ ما رَوَى أبو داود وغيرُه: عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقولنَّ أحدُكم: قُمْتُ رمضان كلَّه، ولا صُمْتُ رَمَضَانَ كلَّه»[٢]، ورَكَّبَ[٣] الناسُ على هذا: «لا يقولنَّ صَلَّيْتُ»، وزاد فيه بعضهم: «إن شاء الله»، وذلك كلُّه خَطَأٌ، إنما ينبغي له أن يجتنب قَصْدَ التَّزْكِيَةِ، فإذا قال: صَلَّيْتُ أو صُمْتُ، فقد صَدَقَ، حَسْبُه[٤] ما استطاع، ولا يقولُ: صَلَّيْتُ كما يجب، أو الصلاةَ كلَّها، ولا صُمْتُ أيضًا كما يَجِبُ، ولا رمضانَ كلَّه، لأنه قد يَغْفُلُ، أو يُقَصِّرُ، فكُرِهَ له لأجل ذلك، فأمَّا لأجل القَبُولِ فلا يدخلُ ذلك فيه.

= عنه القول بالتجسيم، توفي عام ٥٢٤هـ، قال فيه ابن العربي: «لم أر ببغداد أنبل منه»، وقال فيه أيضًا: «هو ثقة حافظ مُقَيِّدٌ»، سمع منه ابنُ العربي «سنن أبي داود»؛ رواية اللؤلؤي، توفي عام ٥٢٤هـ، ترجمته في: الصلة: (١٩٧/٢)، وتاريخ دمشق: (٥٣/٥٩-٦١)، وسير النبلاء: (١٩/٥٧٩-٥٨٣)، وينظر: فهرس ابن خير: (ص١٤٣).

(١) في (د): كراهية.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن عن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه: كتاب الصوم، باب من يقول: صمت رمضان كله، رقم: (٢٤١٥-شعيب).

(٣) في (ص): رتب.

(٤) في (د) و(ص): حسب.

[صَوْمُ النَّفْلِ]:

وصَوْمُ النَّفْلِ مُرَغَّبٌ فيه، وقد ذكر النبيُّ ﷺ الشُّهُورَ المُمَدَّحَةَ في الصوم والأيام، كان النبي ﷺ كَثِيرَ الصيام، ولكنه ما استكمل صَوْمَ شَهْرٍ قَطُّ، وكان أكثر ما يصوم في شعبان(١)، وكان يصوم شعبان إلَّا قليلًا.

وقال ﷺ لِعِمْرَانَ: «أَصُمْتَ من سَرَرِ(٢) شعبان شيئًا؟ قال: لا، - يعني: من وسطه - قال: فإذا أفطرتَ فصُمْ يومين»(٣)، ولم يَذْكُرْ له سِتًّا من شوَّال، لأنَّ المُرَادَ بسِتٍّ من شوَّال ما قدَّمناه(٤) من سِتَّةِ أَيَّامٍ من أَيَّامِ الفِطْرِ، أيّ شَهْرٍ كان.

وقال ﷺ: «أفضلُ الصيام شَهْرُ الله المحرَّم»(٥).

«وما كان النبي ﷺ يَتَحَرَّى صَوْمَ يَوْمٍ يُفَضِّلُه على سائر الأيام إلَّا يوم(٦) عاشوراء»(٧).

---

(١) حديث أم المؤمنين عائشة ﵂: «ما رأيتُ رسول الله استكمل صيام شهر قط إلا رمضان، وما رأيتُه في شهر أكثر صيامًا منه في شعبان»، أخرجه الإمام مالك في الموطَّأ: كتاب الصيام، جامع الصيام، (١/٣٥٦)، رقم: (٨٦٢-المجلس العلمي الأعلى).

(٢) قال الكسائي: السَّرار آخِرُ الشَّهْرِ، ليلة يَسْتَسِرُّ الهلال، غريب الحديث لابن سلَّام: (٤/٢٤)، وردَّه في المشارق، وقال: إنه وسطُه، (٢/٢١٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن عمران بن حُصَين ﵁: كتاب الصيام، باب صوم سرر شعبان، رقم: (١١٦١-عبد الباقي).

(٤) في (ص): قدَّرنا، وفي (د): قدَّمنا.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﵁: كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، رقم: (١١٦٣-عبد الباقي).

(٦) سقط من (د).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس ﵄: كتاب الصوم، باب صيام عاشوراء، رقم: (٢٠٠٦-طوق).

وقال ﷺ: «لئن عِشْتُ إلى قَابِلٍ لأصومنَّ التاسع»[١].

«وصَوْمُ يوم عَرَفَةَ يُكَفِّرُ سَنَةً قبله وسنة بعده، وصيامُ يوم عاشوراء يُكَفِّرُ سَنَةً قبله»[٢].

وسُئِلَ ﷺ عن صوم يوم الإثنين فقال: «فيه وُلِدْتُ، وفيه أُنْزِلَ عَلَيَّ»[٣].

وكان ﷺ يصوم ثلاثة أيام من الشهر، لا يبالي أيها كانت[٤].

وقال أبو هريرة: «أوصاني خليلي بثلاث[٥]؛ بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتين من الضحى[٦]، ولا أنام إلَّا على وِتْرٍ»[٧].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: كتاب الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء؟ رقم: (١١٣٤-عبد الباقي).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي قتادة رضي الله عنه: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس، رقم: (١١٦٢-عبد الباقي).

(٣) هو حديث أبي قتادة السَّابق.

(٤) هو حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس، رقم: (١١٦٠-عبد الباقي).

(٥) سقطت من (س) و(ص) و(ز).

(٦) قوله: «وركعتين من الضحى» سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، رقم: (٧٢١-عبد الباقي).

ودخل النبي ﷺ على جُوَيْرِيَةَ يوم الجمعة وهي صائمة، فقال: «أَصُمْتِ أَمْسِ؟ قالت: لا، قال لها[١]: أتريدين/ أن تصومي غدًا؟ قالت: لا، قال: فأَفْطِرِي»[٢]. ١ [١١٧/ب]

وفي الصحيح: «أن النبي ﷺ نهى عن صَوْمِ يوم الجمعة»[٣]، ورُوي في الحَسَنِ أنه كان يَصُومُه[٤]، والنهيُ أَصَحُّ.

وفي الحِسَانِ: أن النبي ﷺ قال: «لا تصوموا يوم السبت إلَّا فيما افتُرِضَ عليكم، وإن[٥] لم يَجِدْ إلا لِحَاءَ عِنَبَةٍ[٦] أو عُودَ شَجَرَةٍ فليمضغه»[٧]، ولم يصح.

وفي الصحيح: «ما من أيام أحبُّ إلى الله العمل فيها من عَشْرِ ذي الحجة»[٨].

---

(١) سقط من (س).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب صوم يوم الجمعة، فإذا أصبح صائمًا يوم الجمعة فعليه أن يفطر، رقم: (١٩٨٦-طوق).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الصوم، باب صوم يوم الجمعة، فإذا أصبح صائمًا يوم الجمعة فعليه أن يفطر، رقم: (١٩٨٥-طوق).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صوم يوم الجمعة، رقم: (٧٤٢-بشار).

(٥) في (د) و(ص): فإن.

(٦) في (ص): نخاعته.

(٧) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الصوم، باب النهي أن يخص يوم السبت بصوم، رقم: (٢٤٢١-شعيب)، قال أبو داود: «قال مالك: هذا كذب».

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس ﷺ: كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، رقم: (٩٦٩-طوق).

وفي الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «من صام يومًا في سبيل الله باعد الله وَجْهَه من النار سبعين خَرِيفًا»(١).

وفي الصحيح عن عائشة: «ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ صائمًا في العَشْرِ قَطُّ»(٢).

وقال ﷺ - في الصحيح من طُرُقٍ -: «ما أفطر(٣) ولا صام من صام الدهر»(٤)، وهو مكروه، والمأذونُ فيه صَوْمُ داود، «كان يصوم يومًا ويُفْطِرُ يَوْمًا، ولا يَفِرُّ إذا لاقى(٥)»(٦).

والنَّاسُ في العبادات أقسامٌ، منهم من تَسْهُلُ عليه الصلاة، ومنهم من يَخِفُّ عليه الصوم، ومنهم من تخف عليه الصدقة، فيأخذُ كلُّ أحد قِسْمَه الذي كُتب له(٧)، فيدخل على بابه الذي وُعِدَ(٨) به، قال النبي ﷺ: «فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الرَّيَّانِ»(٩).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ: كتاب الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله، رقم: (١١٥٣-عبد الباقي).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه أم المؤمنين عائشة ﷺ: كتاب الاعتكاف، باب صوم عشر ذي الحجة، رقم: (١١٧٦-عبد الباقي).

(٣) قوله: «ما أفطر» سقط من (س) و(ف).

(٤) هو حديث أبي قتادة ﷺ، تقدَّم تخريجه.

(٥) في (ص): لَقِي.

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه عن عبد الله بن عمرو ﷺ: أبواب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في سرد الصوم، رقم: (٧٧٠-بشار).

(٧) سقط من (س).

(٨) في (ص): وعده.

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب فضائل الصحابة، بابٌ، رقم: (٣٦٦٦-طوق).

[الاعتكافُ]:

وللصَّوْمِ أَخٌ كريمٌ، وصَاحِبٌ شَرِيفٌ، ومُنَاسِبٌ رفيعٌ[١]، وهو الاعتكافُ، ولم يتفطَّن لما بينهما من التَّلَاصُقِ إلَّا مالكٌ - رحمه الله - ومَن قال بقوله، حين قال: «لا يكون الاعتكاف إلَّا بصوم[٢]»[٣]، وليس فيه حديثٌ صحيح، لا في نَفْيِه ولا في إثباته[٤]، إلا أن في الصحيح: أن النبي ﷺ قال له عمر: «يا رسول الله، إني نذرت أن أعتكف ليلةً في الجاهلية، قال: أَوْفِ بنَذْرِكَ»[٥].

وإنما جُعِلَ الليل عبارة عن اليوم؛ على عَادَةٍ عَرَبِيَّةٍ مشهورة، نقلها أهلُ العربية في كتبهم، ولذلك يقولون: صُمْنَا خَمْسًا، فيُعَبِّرونَ بالليالي عن الأيام؛ لأنها عندهم المتقدمة لها المُعَبِّرَة[٦]، وبها الحسابُ، ولم يفهم حقيقة الاعتكاف من قال: «إنه بغير صوم»[٧]، فإن معناه القيام على بِسَاطِ

---

(١) سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٢) في (ص): في المسجد.

(٣) الموطأ: كتاب الاعتكاف، ما لا يجوز الاعتكاف إلَّا به، (١/٣٦٥)، رقم: (٨٨٨-المجلس العلمي الأعلى).

(٤) ينظر: المسالك: (٤/٢٥٤)، وفيه: «فليس لأحد من علمائنا فيه على وجوب الصيام دليلٌ به احتفال».

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاعتكاف، باب من لم ير عليه صومًا إذا اعتكف، رقم: (٢٠٤٢-طوق).

(٦) في (د): لها العبرة، وضبَّب على العبرة، وفي (ز): ولها العبرة، وسقطت من (ص).

(٧) هو قول الإمام الشافعي، ينظر: الإشراف للقاضي عبد الوهَّاب: (١/٤٥٢).

القُرْبَةِ لرَبِّ العزة على الدوام، بالليالي والأيَّام، وقَطْعِ علائق المباحات، حتى يكون مُقْبِلًا بقلبه بالنية، وبَدَنِه[١] بالخدمة لله رب العالمين[٢].

وإذا كان لا يتكلم إلَّا بالذِّكْرِ[٣]، فكذلك لا يُقْبِلُ على طعام ولا شراب؛ لأن الطعام والشراب مُعْظَمُ مقصود الدنيا أو كلها، وإذا لم يُجَامِعْ - بإجماع - فأولى أن لا يأكل، أو هو مثله، إلَّا أنَّ قَطْعَ الجماع دائِمٌ، لأن مثله شُرِعَ[٤] في الإحرام في الحج، ودوامُ قَطْعِ الأكل لم يُشْرَعْ مثلُه، ولا[٥] يصحُّ أن يُشْرَعَ لما فيه من الهَلَكَةِ، فكان الصَّوْمُ والفِطْرُ في وَقْتَيْهِمَا جميعًا بين الأمرين؛ في حَقِّ العبادة،/ وحق النفس المتعبدة، فيُوَفِّي كلَّ ذي حَقٍّ حقَّه. [١١٨/أ]

وتَبَيَّنَ[٦] أن المقصود من الاعتكاف تفريغُ العبد نفسَه بالكُلِّيَّةِ من كل وَجْهٍ لله سبحانه في المَحَلِّ المخصوص بالعبادة، ولهذا قال مالك - رحمه الله[٧] -: «لا يَقْرَأُ العِلْمَ»[٨]، لأنه عنده من أسباب[٩] الدنيا، وقال غيره:

---

(١) في (د) و(ص): ببدنه.

(٢) ينظر: المسالك: (٤/٢٥٣).

(٣) في (د): بذكر الله، وفي (ص): بذكر.

(٤) سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٥) في (د): لم.

(٦) في (س) و(ف): يبيِّن.

(٧) قوله: «رحمه الله» لم يرد في (د) و(ص).

(٨) المدونة: (١/٢٢٩)، وينظر: المسالك: (٤/٢٥٤).

(٩) في (ص): باب.

«يقرأ[(١)]»[(٢)]، وما قاله[(٣)] مالكٌ أَوْلى، وإنَّما ينبغي أن يُقْبِلَ على كل ما يُكْسِبُه رغبةً أو رهبةً، فإمَّا أن يذكر ما تَرَكَ، أو يُقْبِلَ بالذِّكْرِ على ما أعرض عنه[(٤)]، فذلك تقارض[(٥)] وتناقض.

[المعتكفون]:

وقد رأيتُ[(٦)] من المعتكفين والمعتكفات ما لا يُحْصِي عَدَدَهم إلَّا خالقُهم، وقد كانت مريمُ رضوانُ الله عليها[(٧)] منهم، وليست نَبِيَّةً في الأصح من الأقوال، ولكنها لمَّا لَزِمَتْ بَيْتَ رَبِّها، واستغرقت أوقاتها في طاعته، وأعرضت عن الدنيا وأبنائها[(٨)]؛ تَكَفَّلَ الله لها بالرِّزْقِ؛ من غير أن يَجْرِي على يَدَيْ أَحَدٍ من الخَلْقِ، فكان: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّآءُ ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

وكان زكرياءُ نَبِيًّا، فقيَّضه الله لها كافلًا، ونالته بركتُها، واشتملت عليها الدعوة المباركة من أمها، وإنَّما كان سؤالُ زكرياء لها[(٩)] لأنه ظَنَّ أن غيره من أوليائها وقراباتها يأتيها به، فأخبرته أنه لا يدخل عليها أَحَدٌ،

---

(١) في (ص): يقرأه.

(٢) وهو قول ابن وهب، ينظر: المسالك: (٤/٢٥٤).

(٣) سقط من (س). (٤) سقطت من (س).

(٥) في (د): تفارض، وفي (ص): تعارض.

(٦) بعده في (د): جماعة، ومرَّضها.

(٧) قوله: «رضوان الله عليها» لم يرد في (د) و(ص).

(٨) في (ص) و(ز): أبنائها.

(٩) بعدها في (د) لَحَقٌ، ولم يظهر لي شيء.

ولكنها تجده موضوعًا في مكانه، فتعلم أنه من عند الله، لأن أَحَدَ القِسْمَيْنِ إذا انتفى؛ وهو أن يجري على يَدَيْ أَحَدٍ من الخلق، وَجَبَ أن يكون من جهة الخالق، وكلُّ قِسْمَيْنِ عقليين إذا زال أحدُهما تَعَيَّنَ الآخرُ.

[تفسيرُ قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾]

وقد قال الله تعالى في صِفَةِ قَوْمٍ التزموا بابَه واغتلقوا[1] حِجَابَه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:٣٦ - ٣٧].

واختُلِفَ في قوله: ﴿تُرْفَعَ﴾[2]:

فقيل: مفعوله مُضْمَرٌ فيها[3]، التقديرُ: ترفع فيها الحوائج إلى الله عز وجل.

وقيل - وهو الأصح -: تُرْفَعُ عن شأن الدنيا، وتُجَرَّدُ للآخرة، فإنها سُوقُها، وهي مناقضةٌ لسوق الدنيا.

قال النبيُّ ﷺ: «أبغضُ البلاد إلى الله أسواقُها، وأَحَبُّها إلى الله مساجدها»[4]، والمساجد بيوت العبادة، والقلوب بيوت الإيمان والإرادة.

---

(١) في (س) و(ف): اخترقوا، وفي (س) - أيضًا -: في خـ: اعتلقوا، وصحَّحها.
(٢) ينظر: أحكام القرآن: (١٣٨٩/٣)، وتفسير الطبري: (٣١٧/١٧-التركي).
(٣) سقطت من (س) و(ص) و(ز).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد، رقم: (٦٧١-عبد الباقي).

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾: أي: يلتزمونها[١] للتسبيح والتقديس.

هؤلاء الرجال الذين ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾، أي: لا يشغلهم[٢] عن ذِكْرِ الله تجارةٌ في الدنيا، أَيْ: عَمَلٌ يطلبون به أكثر ممَّا هم فيه/ منها، ولا مبايعة، أي: لا يشغلهم طَلَبُ رِبْحٍ في الدنيا، ولا بَذْلُ عَيْنٍ بعَيْنٍ، فقد يكون للرجل غَرَضٌ في الربح في البيع[٣] والتجارة، وقد يكون له غَرَضٌ في عَيْنِ[٤] الشيء المطلوب، ولا عن الصلاة ولا عن الصدقة.

[١١٨/ب]

[نكتة]:

قالوا[٥]: «وفي قوله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾، ولم يقل: لا يتَّجرون؛ نكتة، هي أن الجمع بينهما مُمْكِنٌ، فهذا يقتضي أن يجمع بين تجارته وعبادته[٦] من غير أن تُلْهِيه، ولكن فيما[٧] لا بدَّ له[٨] منه فيه».

وهذا معنى قول مالك: «إن المعتكف لا بأس بأن يبتاع الشيء اليسير لغَدَائِه أو لعشائه[٩]»[١٠].

---

(١) في (د): يلتزمها، وفي (ص): يلزمونها.
(٢) قوله: «لا يشغلهم» سقط من (ص).
(٣) في (س): والبيع.
(٤) في (س): غير.
(٥) هو قَوْلُ الإمام أبي القاسم القُشَيري، ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٦١٤).
(٦) في (د) و(ص): تجارة وعبادة.
(٧) في (س): فيها.
(٨) سقطت من (س) و(ص).
(٩) في (س) و(ف): عشائه، وفي (ص): ولعشائه.
(١٠) المدونة: (١/٢٢٨).

والأَوَّلُ أقوى لا مِرْيَةَ فيه.

وقيل: إن[١] المراد بقوله ذلك: «الذين إذا[٢] سَمِعُوا صَوْتَ[٣] المؤذن «حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاحِ[٤]»؛ تركوا ما هم فيه[٥] من التجارة والبيع، وأقبلوا إلى العبادة، وأجابوا داعي الله، وقامُوا لأداء حقه[٦]»[٧].

[حكاية]:

وقد كان من أصحابنا بتلك الديار[٨] رَجُلٌ صَالِحٌ حَدَّادٌ؛ إذا صلَّى الصبح قَعَدَ يذكرُ الله، ثم يحضر مجلس الذكر، ثم يقومُ إلى حِدَادَتِه، فإذا سمع النداء؛ إن كان والمِطْرَقَةُ مرتفعةٌ بيده لِيَصُبَّها على السَّنْدَانِ رَمَى بها، ولم يوصلها إليه[٩]، وخرج وتوضَّأ[١٠]، وجاء المسجد فصلَّى الظهر، وأقام في حِلَقِ الذِّكْرِ والصلاة إلى العصر، ثم يخرج بعد الصلاة للنَّظَرِ في فِطْرِه، ويُصَلِّي المغرب في المسجد، ويُفْطِرُ في منزله، ويَخْرُجُ فيُصَلِّي إلى أن يُصَلِّيَ العشاء الآخرة[١١]، ثم يرجع إلى منزله فينام حتى السَّحَر، فيقومُ

(١) سقطت من (س) و(ص) و(ز).

(٢) سقطت من (س) و(ز).

(٣) في (د) - أيضًا -: قول.

(٤) قوله: «حي على الفلاح» سقط من (س) و(ص) و(ز).

(٥) في (د): فيها، وأشار إلى ما أثبتناه.

(٦) سقط من (س).

(٧) لطائف الإشارات: (٢/٦١٤).

(٨) بالإسكندرية، ينظر: الأحكام: (٤/١٨٧٣).

(٩) في (س): إليها.

(١٠) في (ش) و(ف): فتوضأ.

(١١) سقطت من (د) و(ص).

يُصَلِّي[1] حتى الفجر، ثم يخرج إلى المسجد لمِثْلِ حاله في يَوْمٍ قبله، هكذا عُمُره.

[حقيقةُ الاعتكاف]:

وفي الحديث الصحيح: قال النبي ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلَّا ظله، فذَكَرَ: ورَجُلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ بالمسجد»[2]، من حين يخرجُ منه حتى يعود إليه، فهو أبدًا في اعتكاف.

وبهذا كله يظهرُ لك أن الاعتكاف تَرْكُ ما سوى الله من الشهوات والمباحات، والإقبال عليه بالطاعة، فإنْ تَرَكَ الأهل والوَلَدَ والمال فذلك على قِسْمَيْنِ:

أحدهما: أن يَتْرُكَهُ بنِيَّةِ أن لا يَعُودَ إليه فهُوَ:

* * * * *

(١) في (س) و(ص) و(ف): فيصلي.

(٢) تقدَّم تخريجه.

المُهَاجِرُ: وهو الاسمُ الثاني والعشرون

صِفَةٌ كَرِيمَةٌ، وخِطَّةٌ شَرِيفَةٌ، تمنَّاها النبيُّ ﷺ كرامةً للأنصار، فقال: «لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار»[1].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟﴾ [التوبة:٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء:٩٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦].

وقد كانت هذه الحالة لبني إسرائيل؛ فلم يَحْفَظُوا رَسْمَها[2]، ولا أُعْطُوا اسْمَها.

والهِجْرَةُ في لسان العرب لِمَعَانٍ كَثِيرةٍ؛ مَرْجِعُها إلى البعد، وقد ذكرناها/ في «شرح الحديث» و«كتاب الأحكام»[3] مُوعَبَةً. [١١٩/أ]

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي ﷺ: «لولا الهجرة لكنتُ من الأنصار»، رقم: (٣٧٧٩-طوق).
(٢) في (د): رتبتها.
(٣) أحكام القرآن: (١/٤١٨-٤١٩).

والحِكْمَةُ في ذِكْرِهَا بلفظ[١] المُفاعلة ما فيها بين العبد وبين الشيطان[٢] من المنازعة، حسبما بيَّناهُ قبلُ في قوله ﷺ: «قَعَدَ الشيطانُ لابن آدم[٣] في طريق الإيمان، وقعد له في طريق الهجرة؛ فقال له: أتهاجر وتَذَرُ أهلك وولدك ومالك، فخالفه فهاجر، إلى قوله: فحَقٌّ على الله أن يُدخله الجنة».

وفي[٤] أصل الهجرة التي نشأتْ[٥] عنه وجهان:

أحدهما: خَوْفُ المُحِقِّ من المُبْطِلِ على نفسه وأهله وماله.

والثاني[٦]: قِلَّةُ المعين على الحق، وعَدَمُ القَابِلِ[٧] له، فيخرج إلى مَوْضِعٍ يَأْمَنُ فيه[٨]، ويُبَلِّغُ، ويُقْبَلُ قولُه[٩] فينتشر، ويقومُ الحَقُّ، ويَشِيعُ الخير، وتعمُّ الطاعة، ويُتَّبَعُ[١٠]، ويُقضى فَرْضُ العبادة المستحقة لله سبحانه، وهذا ممَّا أجمعت عليه الأمة.

---

(١) في (س) و(ف): بمعنى.

(٢) في (د) و(ص): بين العبد والشيطان.

(٣) قوله: «لابن آدم» سقط من (س).

(٤) في (د) و(ص): وأصل الهجرة.

(٥) في (د) و(ص): تنشَّأت، وفي (ص): نشأت على.

(٦) في (د) و(ص) و(ز) و(س): أو قلة المعين، من غير قوله: والثاني، وما أثبتناه صحَّحه في (د).

(٧) في (د) و(ص): القائل.

(٨) سقطت من (د) و(ص).

(٩) سقط من (س) و(ص) و(ز).

(١٠) سقطت من (د) و(ص).

[العِلَّةُ في بقاء الطرطوشي بمصر[١]]:

وقد كنتُ أَتَكَلَّمُ كثيرًا بعد انْكِفَائِي عن العراق إلى الثَّغْرِ مع شيخنا أبي بكر الفِهْرِي في معنى مُقامه بتلك الأرض التي غلبت فيها المناكير على الجماهير، وتعدَّى إلى التوحيد وأصل الدين، وأُشِيرُ عليه بالخروج، ونتناظرُ[٢] في ذلك، وأحتجُّ عليه بالهجرة فيقول لي: «إني لا أخاف على نفسي شيئًا، وأدفع عن قلوب المؤمنين بمُقامي هذا كثيرًا من الشُّبَهِ، وأُقِيمُ بين قَوْمٍ لهم قَبُولٌ للعِلْمِ، وحِرْصٌ على الطلب، ومعرفةٌ بالنظر، فأما بلاد المغرب - وإن كانوا على طريقة واحدة - فقد استولى عليهم الجَهْلُ، وفشا فيهم التقليدُ، وزَهِدُوا في النظر، وحُجِّرَتْ أَمْلَاكُهُمْ[٣] عليهم في[٤] ذلك، سيرة أَمَوِيَّة، ونشأة تقليدية، فإن سَلِمْتُ[٥] بينهم عِشْتُ ضَائِعًا عندهم»، وجرى بيني وبينهم في ذلك كلام كثير، بدأْتُه[٦] في «الأمالي[٧]»، واستوفيتُه[٨] في كتاب «ترتيب الرِّحْلَةِ للتَّرْغِيبِ في المِلَّةِ[٩]».

---

(١) ينظر: أحكام القرآن: (٤٨٥/١).

(٢) في (د): تناظروا، وفي (ص): نتناظر معه.

(٣) قوله: «وحجرت أملاكهم» في موضعه بياض بـ (ص).

(٤) سقطت من (ص).

(٥) في (د) و(ص): سكنت.

(٦) في (ص): بدأناه.

(٧) في (د): الأُوَل، وما أثبتناه أشار إليه في طرته.

(٨) في (د): أستوفيه، وفي (ص): استوفيناه.

(٩) بعده في (د) قوله: «وغَالَبْتُ الأقدار فغَلَبَتْ عَلَيَّ بحياة الوالدة؛ التي لم يكن لها غيري، وكانت لَهْفَى حَسْرَى بَاكِيَةً عليَّ، فتعيَّن في الدِّينِ أن أَكِرَّ =

[مناقبُ أبي القاسم السُّيُورِي]:

وقد كان أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث السُّيُورِي[١] زاهدًا عالمًا، وكان مقيمًا بالقيروان مع شَحْنِهَا بالبدع، وظهور ما ظَهَرَ فيها من الفتن، ولكن كان فيها قَوْمٌ فضلاء يَأْنَسُ[٢] بهم، ويَسْكُنُ إليهم، وكان يُثَبِّتُ قلوب المؤمنين، ويَدْفَعُ في شُبَهِ المبتدعين.

[من ضوابط الهجرة]:

وكلُّ بُقْعَةٍ اليوم مشحونةٌ بالبدع والمظالم والمناكير، ولكن هي دركات[٣]؛ فأيُّها كان أَخَفَّ كانت الهجرةُ إليه أَوْجَبَ، إذ عَدَمُ بعض الشرِّ خَيْرٌ، وتخفيفُ بعضه خيرٌ، ولو لَزِمَ الإنسانُ بَيْتَه في داره ولم يخرج كما فعل جماعةٌ بمصر حين دخلها المُغِيرُونَ[٤] لكان ذلك رأيًا، والأمرُ مشهورٌ، والله أعلم.

= عليها راجعًا، مُمْتَثِلًا لأمر الله، وله فيَّ حِكْمَةٌ بعد انقيادي لطاعته وطاعتها، ثم ماتت وقد وترني الأهل والولد، وانتهى كل شيء إلى ما كتب له من الحال والأمد، وليس لأحد عن قضاء الله ملتحد. اللَّهم إنَّا نعوذُ بك من دَرْكِ الشَّقَاءِ، وسوء القضاء، وجَهْدِ البلاء، وشماتة الأعداء»، وأشار الناسخ إلى ما أثبتناه.

(١) الإمام الفقيه، العلَّامة المستبحر، عبد الخالق بن عبد الوارث التميمي القَرَوِي، أبو القاسم السُّيُوري، تـ ٤٦٠هـ، قرأ على أبي عمران الفاسي، والأَذَرِي، واعتنى بالأصلين، وكان فقيهًا نظَّارًا، ينظر في ترجمته: ترتيب المدارك: (٨/٦٥-٦٦)، ومعالم الإيمان: (٣/١٨١-١٨٤)، والعُمُر: (٢/١٨٧-١٨٨).

(٢) في (د) و(ص): أَنِسَ بهم وسَكَنَ.

(٣) في (س) و(ف): درجات.

(٤) يقصد بهم العُبَيديِّين.

[الباعثُ على رجوع ابن العربي إلى الأندلس]:

وغَالَبْتُ الأقدار فغَلَبَتْ عَلَيَّ بحياة الوالدة؛ التي لم يكن لها[1] غيري، وكانت لَهْفَى حَسْرَى بَاكِيَةً عليَّ، فتعيَّن في الدِّينِ أن أَكِرَّ عليها راجعًا، مُمْتَثِلًا لأمر الله، وله فيَّ حِكْمَةٌ[2] بعد/ انقيادي لطاعته وطاعتها، ثم ماتت وقد وَتَرَنِي[3] الأَهْلُ والوَلَدُ، وانتهى كُلُّ شيء إلى ما كُتِبَ[4] له من الحال[5] والأَمَدِ، وليس لأحد عن قضاء الله مُلْتَحَدٌ.

١ [١١٩/ب]

اللَّهم إنَّا نعوذُ بك من دَرَكِ الشَّقَاءِ، وسوء القضاء، وجَهْدِ البلاء، وشماتة الأعداء.

[أقسامُ الهجرة[6]]:

والهِجْرَةُ على أقسام، رُؤُوسُها ثَمَانِيَةٌ:

الأَوَّل: الهِجْرَةُ من الخَوْفِ على الدِّينِ والنفس، كهجرة النبي ﷺ آخِرًا أَوَّلًا، فإنه وأُمَّتُه الآخِرُون السَّابقون، نَبِيٌّ بنَبِيٍّ، وأُمَّةٌ بأُمَّةٍ، فكانت له ولهم للخَوْفِ[7]، فلمَّا استقر في دَارٍ وأَمِنَ الذَرَا[8]، وعَمَرَ الحَرَا[9]؛ تعيَّن على كل مسلم القَصْدُ إليه، وحَرُمَ عليه البقاءُ دونه، إلَّا لمن أَذِنَ له، تَحْرِيمًا

---

(١) سقطت من (س).
(٢) في (د) و(ص): حكمه.
(٣) في (ص): وتد بي.
(٤) في (ص): كنت.
(٥) سقطت من (ص).
(٦) ينظر: أحكام القرآن: (١/٤٨٤).
(٧) في (ص): هجرة الخوف.
(٨) في (ص): الردى، وينظر في معاني الذَّرَا: تاج العروس: (٣٨/٩٠).
(٩) ينظر: تاج العروس: (٣٧/٤١٨).

يَقْتَضِي له إن لم يجتنبه[١] تحريم الجنة، إذ كان من شروط الإيمان حينئذ التي لا يجزئ إلَّا بها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٩٦-٩٨].

قال ابن عبَّاس: «كنتُ أنا وأُمِّي من المُستضعفين»[٢]، فإنها أَسْلَمَتْ وتَبِعَها في الإسلام، وخرج عن حُكْمِ أبيه على ما يجب في الدِّينِ، خلافًا لمن قال: «إنه لا يتبع إلَّا أباه»، وليس ذلك بصحيح، ولا يُعَوَّلُ[٣] عليه[٤].

فلمَّا فَتَحَ الله على نَبِيِّهِ مكة أسقط الهجرة، [قال رسولُ] الله ﷺ: «[لا هجرة] بعد الفتح، ولكن جهاد ونية[٥]»[٦]، وقال عليه السَّلام: «اعمل من وراء البحار، فإن الله لن يَتِرَكَ من عملك شيئًا»[٧].

---

(١) في (ص) و(د): يجبه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾، رقم: (٤٥٨٧-طوق).

(٣) في (د): بمعول.

(٤) ينظر: العارضة: (٩/١٠٤).

(٥) قوله: «قال رسول الله ﷺ: لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» لم يرد في (ص) و(س) و(ز).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن عائشة ﵂: كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، رقم: (١٨٦٤-عبد الباقي).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﵁: كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، رقم: (١٨٦٥-عبد الباقي).

الثاني: الخُرُوجُ من أرض يُسَبُّ فيها[١] السَّلَفُ، وقد قال مالك: «لا يَحِلُّ لأحد أن يُقِيمَ بأَرْضٍ يُسَبُّ فيها[٢] السَّلَفُ»[٣]، وهذا الفقه صحيحٌ؛ وذلك أن المُنْكَرَ إذا كان معك لم يَحِلَّ لك أن تكون معه إذا لم تَقْدِرْ على تغييره، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

[سَجْنُ الطرطوشي خمس سنين]:

وقد كُنْتُ أُكَلِّمُ شيخنا الفِهْرِيَّ في مُقامه بها، فيقول: «لا آمَنُ من[٤] الإِذَايَةِ»، فلم يَمُرَّ به إلا قَلِيلٌ فقُصِدَ بالمطالبة، وسُجِنَ خمسة أعوام، في صُورَةِ بِرٍّ وإِكْرَامٍ، والله يرفعه في أعلى الدرجات بحُسْنِ نيته، وسَدَادِ طريقته برَحْمَتِه.

[تتمة أقسام الهجرة]:

الثالث: الخروج من أجل الإذاية على النفس، وهي وإن كانت داخلة في القِسْمِ الأَوَّل، ولكنها تَنْفَرِدُ عنها بأن النبي ﷺ خرج[٥] خائفًا، وإلى بقعة تمهَّد[٦] فيها الإسلام، وهذا يَخْرُجُ لمُجَرَّدِ[٧] الخَوْفِ.

---

(١) في (س): فيه.

(٢) في (س): فيه.

(٣) الانتقاء لابن عبد البر: (ص٧٢)، وينظر: أحكام القرآن: (١/٤٨٤).

(٤) سقطت من (ص) و(د) و(ز).

(٥) في (ص) و(ف) و(س): في القسم، وضرب عليها في (د).

(٦) في (ص): يتمهد.

(٧) في (ص) و(د): بمجرد.

وأَوَّلُ ما يُرْوَى ذلك/ عن الخليل عليه السَّلام؛ فإن الله لما آتاهُ رُشْدَه [١٢٠/أ] ويسَّر له من السداد والتوحيد سَبيلَه وقَصْدَه؛ حتى بَلَغَ من الهداية إلى أن يَعْلَمَ أنَّ من يَنْتَقِلُ ويَزُولُ ويَتَصَرَّفُ بين الطُّلوع والأُفول ليس برَبٍّ، ولولا ما كان سَبَقَ[١] له من الرُّشْدِ[٢] ما عَرَفَهُ مُحْدَثًا قَبْلَ أن يراه مُنْتَقِلًا[٣]، ولمَا كان مُحْتَجًّا على قَوْمِه بما لم يَعْرِفْ من حاله، ولكن لمَّا سَبَقَتْ له المعرفةُ بالمخلوقات كُلِّهَا، وأنها صادرةٌ عن الخالق وحده؛ الذي لا يتغيَّر بالحالات، ولا يُشْبِهُ المُحْدَثَاتِ، حينئذ دعا قومه إلى الحِجَاجِ بما آتاه الله من الدليل الذي أخبر عنه بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٤].

ومِثْلُها في الدليل قولُه تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٤]، فغيَّر المنكر بالحق، واستدلَّ عليه بالدليل الحق، وهو **دَلِيلُ الخُلْفِ**؛ الذي ينفع في قلوب المبتدئين[٤] أعظم مما ينفع **الدَّلِيلُ المُطَّرِدُ**، فإنك تُرِي الجاهل في الجدال أنَّك معه؛ حتى تنتهي به إلى موضع لا يُمْكِنُه الاطِّرَادُ إليه[٥]، فتدعوه الضرورة إلى أن يَرْجِعَ معك إلى هَدْمِ ما بَنَى، وحَلِّ ما عَقَدَ، فتبلغ المُرَادَ في لُطْفٍ بحِكْمَةِ[٦] اللَّطِيفِ وحُكْمِه.

---

(١) في (س): سنن.

(٢) في (س): رشد.

(٣) في (ص): مستقبلًا.

(٤) في (د): المهتدين، وفي (ص): المبتدعين.

(٥) في (ص) و(د) و(ز): عليه.

(٦) في (د): لحكمة.

ورَمَوْهُ في النار فأنجاهُ الله منها، ورأى أنه في مِحَنٍ متواترة فقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩]، فخرج من بينهم إلى الله ببَدَنِه، كما كان أبدًا ذاهبًا إلى[1] الله بقلبه، فذهابُه في طاعته أَوْجَبَ ذَهَابَه إليه.

واختُلِفَ في الهداية التي طَلَبَ، وكانت حاصلةً له من قَبْلُ، إذ لو لم تكن[2] هدايةٌ لما دعا إلى التوحيد، ولا كانت منه الحِجَاجُ، ولا طُولِبَ في نفسه.

فقيل: طَلَبَ الهداية في الاستقبال، وسأل أن تَسْتَمِرَّ له[3].

وقيل: سأل الهداية إلى موضع يَأْمَنُ فيه.

وقيل: إلى أعوان يكونون معه.

فأَخْرَجَهُ الله من الشام إلى مصر.

تَوْطِئَةٌ لمُحَمَّدٍ ﷺ وتَأْسِيسُ الحَالِ له[4]:

وسَارَ هو وزوجُه لا ثالث معهما، فلمَّا دخل مِصْرَ تحدَّث الناسُ بجمال سَارَةَ، فبَلَغَ خَبَرُها جَبَّارَها؛ فأرسل إليه أن يَبْعَثَ بها، فلم يَقْدِرْ على الامتناع، إلَّا أنه قال لها: «إن سألك فقولي له: إنك أختي، فإنه ليس على الأرض أَحَدٌ يَعْبُدُ الله غَيْرِي وغيرك[5]»[6]، وقد بيَّنَّا فوائد الحديث في «أَنْوَارِ الفَجْرِ»، وفيه بَدَائِعُ وحِكَمٌ.

---

(١) في (د) و(ص) و(ز): إليه.

(٢) في (د): يكن.

(٣) لطائف الإشارات: (٣/٢٣٧).

(٤) في (س): «توطئةً .. تأسيسَ»، متصلة بما قبلها، ولم يجعلها ترجمة مفردة.

(٥) بعده في (ص): حقيقة الإكراه.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلًا﴾، رقم: (٣٣٥٨-طوق).

ونهاها[١] أن تُقِرَّ بالزوجية، فلمَّا دَخَلَتْ[٢] عليه تَنَاوَلَهَا[٣] فغُطَّ[٤] واضطرب، فقال: «ادْعِي الله لي ولا أضرك، فدَعَتْ فَحُلَّ، ثم عاد إليها فأُخِذَ، حتى عاد[٥]/ثلاث مرات، فقال للذي جَاءَهُ[٦] بها: لم تأتني بإنسان، إنما أتيتني[٧] بشيطان، فأخدمها هاجر، فانصرفت وإبراهيم يصلي، فقالت: أشعرتَ أن الله كَبَتَ[٨] الكافر وأخدمَ وليدة؟ قال أبو هريرة: فتلك أُمُّكم يا بني ماء السماء»[٩]. [١٢٠/ب]

ووَهَبَتْهَا سَارَةُ لإبراهيم، فحَمَلَتْ منه بإسماعيل، فلمَّا ولدته غَارَتْ بها، فخرج بها إبراهيمُ مأمورًا من السماء في القِفَارِ والفَيَافِي، إلى أن أَنْزَلَهُ الله على عُقْرَةِ[١٠] زَمْزَمَ تحت سَرْحَةٍ، فتركها وولَّى عنها، وكان من الحديث ما عَلِمْتُم[١١]، وآلَ[١٢] الحَالُ إلى عمارة البيت وتِبْيَانِ الأثر[١٣] لنَبِيِّنَا ﷺ.

---

(١) في طُرة منقولة من خَطِّ القاضي بـ (س): بوَّب البخاري عليه تبويبًا في كتاب النكاح لم أَرَ من يعرفُه.

(٢) في (د) و(ز): أدخلت.

(٣) في (د) و(ز): تناولنا.

(٤) في (ص): سقط.

(٥) سقط من (د) و(ص)، وفي (ص): من ثلاث مرات.

(٦) في (ص): جاء.

(٧) في (د) و(ص): جئتني.

(٨) في (ص): أكبت.

(٩) هو حديث أبي هريرة السَّابق.

(١٠) في طرة بـ (س): عقرة الحوض: مقام الشارب منه.

(١١) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: كتاب الأنبياء، باب يزفون، رقم: (٣٣٦٤-طوق).

(١٢) في (ص): آلت.

(١٣) في (ص) و(د): الأمر.

وكذلك خَرَجَ موسى خائفًا يَتَرَقَّبُ فَارًّا من الرَّهَبِ، واختُلِف في خوفه على ما بيَّناه في «المُشْكِلَيْنِ»:

وأَقْوَاهُ: خوفه على نفسه، يَتَوَقَّعُ أن يُقْتَصَّ أَثَرُه، ويترقب[١] النصرة من الله له[٢]، قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢١]، ولم يَكُ[٣] بعدُ نَبِيًّا، فتَعْسًا لمن يَنْسُبُ الأنبياءَ قبل البَعْثِ إلى جَهْلٍ بالله وبأحكامه.

ولقد كان مُحَمَّدٌ ﷺ أَعْلَمَ بالله من موسى قَبْلُ وبَعْدُ، وخرج أيضًا مُتَرَجِّيًا كما خرج مُتَرَقِّبًا، وخرج بعد ذلك مُهَاجِرًا إلى موضع الخوف بعد التأمين والنصرة.

وسأل[٤] الرِّفْقَ بأن يُشْرَكَ معه أخوه في الرسالة، فأُعطي سؤله، ولمَّا وَاعَدَهُ الله ليلقاه لم يسأل أن يَحْمِلَ معه أخاه، واستخلفه بعده فلم يقدر على الوفاء.

قال الناس: «ولو استخلف موسى اللهَ لَمَا أَحْدَثَ بنو إسرائيل شيئًا، كما لو لم يَسْتَحْفِظْ يعقوبُ على يوسف[٥] الإخوة لما وقع في الذِّلَّةِ والهَلَكَةِ، كما لو لم يستخلف - على ما ذكره أهل التفسير - آدمُ قَابِيلَ على أهله وولده لما قُتِلَ هابيل».

---

(١) في (ص) و(د): يرقب.

(٢) لطائف الإشارات: (٣/٥٩).

(٣) في (د): يكن.

(٤) في (ص) و(د): فسأل.

(٥) في (س): يعقوب.

ألا ترى إلى هاجر[١] كيف قالت لإبراهيم حين قَفَّى[٢]: «آالله أمرك أن تتركنا هاهنا[٣]؟ قال لها: نعم، قالت: إذًا لا يُضَيِّعُنا الله»[٤]، فسَارَ واستخلفه عليهم.

[السِّرُّ في عدم استخلاف رسول الله]:

وكذلك لم يستخلف رسولُ الله ﷺ على الأمة أَحَدًا، والسِّرُّ في ذلك غَرِيبٌ، وهو أنه ﷺ لمَّا تَلَا قول الله تعالى في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦]، وقال عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الأنعام:١٢٠]، فرفع يَدَيْه وقال: «اللَّهم أُمَّتِي أُمَّتِي، وبكى، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد ﷺ - وربُّك أعلم - فاسأله: ما يبكيك؟ فأتاه جبريل وسأله[٥]، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال - وهو أعلم -، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى مُحَمَّدٍ ﷺ فقل له[٦]: إنا سَنُرْضِيكَ في أُمَّتِكَ/ ولا نسوؤك»[٧]. [١٢١/أ]

---

(١) في (د) و(س): سارة.

(٢) في (ص) و(د): فقأ.

(٣) في (ص): آالله أمرك بهذا.

(٤) هو حديث ابن عباس السَّابق.

(٥) في (ص) و(د): فسأله.

(٦) سقطت من (ص) و(د).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم، رقم: (٢٠٢-عبد الباقي).

فلمَّا تحقَّق الإرضاءُ له وَثِقَ بذلك وسَكَتَ عنهم، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه المُفَسِّرُونَ في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥]، قال: «والله لا يَرْضَى مُحَمَّدٌ وواحدٌ من أُمَّتِهِ في النَّار».

[تتمة أقسام الهجرة]:

الرابع: الخُرُوجُ من أَرْضِ الكُفْرِ، فلا يَحِلُّ لمُسْلِمٍ أن يبقى فيها بإجماع من الأمة، وإن اختلفوا في حُكْمِه مع مُقامه فيها؛ هل له حُرْمَةُ المسلم أم لا؟ حسب ما بيَّناه في «مسائل الخلاف»[(١)].

الخامس: الهِجْرَةُ في طَلَبِ الدِّينِ، وقد فَعَلَه قَوْمٌ[(٢)] في الجاهلية، فَمِمَّنَ أَنْجَبَ فيه وَرَقَةُ بن نوفل[(٣)] وزَيْدٌ، ومِمَّن خُذِلَ عنه أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْتِ الثَّقَفِي، وفَعَلَهُ في الشريعة جماعةٌ أوَّلُهم الكَلِيمُ؛ الجَلِيلُ القَدْرِ العَظِيمُ، فإنه رَحَلَ في طَلَبِ العلم، وماذا كان عنده من العلم! ولكن تَعَطَّشَ إلى المزيد، كما يَفْعَلُه المُحَقِّقُ المريد، فكيف من بَلَغَ إلى غايته؟

وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

وقد رَحَلَ جَابِرُ بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس مَسِيرَةَ شَهْرٍ لِيَسْمَعَ منه حديثًا واحدًا[(٤)].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٠/١٧٩-التركي).

(٢) في (ص) و(د) و(ز): جماعة، وأشار إليها في (س).

(٣) قوله: «ابن نوفل» لم يرد في (ص) و(د).

(٤) الجامع الصحيح: (١/٢٦-طوق).

ولا يَتِمُّ طَلَبُ العِلْمِ والهِجْرَةُ فيه إلَّا كما قال أبو عبد الله محمد بن إسماعيل في حَدِيثٍ طَوِيلٍ؛ ذَكَرَ فيه رُبَاعِيَاتٍ كثيرة؛ فيها: «أن يَطْلُبَ العِلْمَ بأَرْبَعٍ؛ بالبلاد، والجبال[1]، والبَرَارِي، والبحار، إلى قوله: فإذا صَبَرَ على ذلك ابتلاهُ الله في الدنيا بأَرْبَعٍ؛ بشماتةِ الأعداء، وملامة[2] الأصدقاء، وطَعْنِ الجُهَلَاءِ، وحَسَدِ العلماء، فإذا صَبَرَ على ذلك أكرمه الله في الدنيا بأَرْبَعٍ؛ بعِزِّ القناعة، وبهيبة النفس[3]، ولذة العلم، وحِبَرَةِ[4] الأبد، وأثابه في الآخرة بأربع؛ بالشفاعة لمن أراد من إخوانه، وبظِلِّ العَرْشِ يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه، ويَسْقي من أراد من حَوْضِ النبي عليه السلام، وبجوار النبيِّين في أعلى عِلِّيِّين»[5].

وقد ذَخَرَ[6] الله هذا الاسم لأصحاب محمد ﷺ؛ فَشَرَّفَهُمْ به، واختصَّهم من بين سائر الأمم، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر:٨]، وقالت بنو إسرائيل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا

---

(١) سقطت من (ص).

(٢) في (ص): بملازمة.

(٣) في (ص): بتهنية العيش.

(٤) في (ص): خيرة.

(٥) أخرجه القاضي عياض عن ابن العربي في الغُنية: (ص٦٩)، وابن بشكوال في الفوائد المنتخبة: (١/٤٠٣-٤٠٦)، وذَكَرَ أنه سمعه منه بإشبيلية عام ٥١٦هـ، وفي الإسناد أبو عصمة نوح الجامع، متَّهم متروك.

(٦) في (ص): ذكر.

﴿وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة:٢٤٤]، فلم يُسَمَّوا به، لأنه كان مَذْخُورًا لأُمَّةِ محمَّد ﷺ فحُرِمَتْه[1].

حكاية:

وقد رُوِيَ أن بعض الطلبة قال لأُمِّه: «إنِّي[2] أردتُ طلب العلم [فذَرِينِي][3] لله[4]، قالت له: قد فعلت[5]، فخرج مُهَاجِرًا إليه، فلمَّا تعَلَّمَ عاد فدَقَّ الباب عليها، فقالت: من؟ قال لها: ابنك، قالت: وما أردتَ؟ قد تركناك[6] لله ولا نعود فيما تَرَكْنَا[7] له»[8].

[١٢١/ب] **السَّادس: الهِجْرَةُ في طَلَبِ الحَلَالِ،**/ قال الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦]، فالدنيا أَوْسَعُ من أن يَضِيقَ بمُرِيدٍ موضع، فَإِنْ نَبَا به مَنْزِلٌ لوجه من الوجوه الصادَّة عن العبادة فسبيلُه أن يرتحل عن ذلك الموضع إلى سواه.

---

(١) في (س) و(ف): فحرمت، وفي (ز): بحرمة، وهو تصحيف، وفي (س) - أيضًا -: في خـ: بحرمته.

(٢) في (س): إن.

(٣) في (س) و(د): فذرني، وفي (ص): فهبعيني بالله، ومرَّضها، وفي الطرة: فتستعيني، وصحَّحها، والمثبت من الأحكام: (١/٢٧٠).

(٤) في (س): له.

(٥) في (ص): وهبتك له.

(٦) في (ص): وهبناك.

(٧) في (ص): وهبنا، دون قوله: له.

(٨) في الأحكام (١/٢٧٠): «قال رجل من الصوفية لأمه».

وإذا مـا جُفِيـتُ كُنْـتُ حَرِيًّـا أن أُرَى غَيْرَ مُصْبِحٍ حَيْثُ أُمْسِي[١]

السَّابع: الهِجْرَةُ من أرض الفتنة، قال النبي ﷺ: «خَيْرُ مال المسلم غَنَمٌ يتبعُ بها شَعَفَ الجبال[٢] ومواقع القَطْرِ، يفرُّ بدِينِه من الفِتَنِ»[٣].

وقد قال ثوبانُ لأبي عامر: «اسجن نفسك، واتخذ[٤] حمولة وأَنْسَاعًا، وأربعين عَنْزًا شُقْرًا[٥]، فكأني بك قد أُخرجت منها كفرًا كفرًا، قال: وحَذَّرَنِي[٦] فَضْلَ المال»[٧].

فهذه حالة؛ فإذا ظَهَرَ الفسادُ في البر والبحر فليَقْصِدْ أَمْثَلَ البلاد؛ فإنَّ الله سبحانه لا يُسَوِّي بينهما في الفساد أبدًا، إلَّا عند قيام السَّاعة.

وقد تقدَّم حديثُ سعد بن أبي وقاص في اعتزاله في الفتنة[٨]، وكذلك فَعَلَ جماعةٌ من الصحابة؛ لأن الفتنة ظُلْمَةٌ، وقد يُنِيرُ فيها التأويل، وقد يُظْلِمُ، وظُلْمَتُه أكثر، فكان الحَزْمُ تَرْكَها وهِجْرَتَها.

قال النبي ﷺ: «المُهَاجِرُ من هَجَرَ ما نهى الله عنه»[٩].

---

(١) البيت من الخفيف، وهو للبحتري من قصيدته السينية العصماء في وصف إيوان كسرى، وهي في ديوانه: (١١٥٤/٢)، وفيها: «جديرًا» بَدَلَ «حريًّا».

(٢) سقط من (س).

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) في (س) و(ف): وأَعِدَّ.

(٥) في (ص) و(ز): شعرًا.

(٦) في (س) و(ف): وحذَّرني حذَّرني.

(٧) الفتن لنُعَيم بن حمَّاد: (ص٤٠٥)، وفيه: اشحذ سيفك.

(٨) في السِّفْرِ الأوَّل.

(٩) تقدَّم تخريجه.

يعني: أن المهاجر لوطنه وماله[١] وإن كان مُهَاجِرًا؛ فلا يَتِمُّ له ذلك إلا بعد أن يَبْعُدَ عمَّا نهاه الله عنه[٢]، كما أن المؤمن وإن كان من شَهِدَ شهادة الحق، فإن المؤمن بالحق من أَمِنَ الناسُ شرَّه، وذلك باستكمال الشرائع، والمحافظة على الشعائر أبدًا؛ أَمْرًا بالامتثال، ونَهْيًا بالاجتناب، والمُهَاجِرُ من هَجَرَ الشُّبُهَاتِ[٣] والمباحات من الشهوات.

قال ابن سِيرِينَ: «إن رَجُلًا قال لابن عمر: اجعل لك[٤] جَوَارِشَ، قال: وأيُّ شيء الجوارش؟ قال: شيءٌ إذا كَظَّكَ الطعامُ فأَصَبْتَ منه سَهَّلَ عنك[٥]، فقال له ابن عمر: ما شَبِعْتُ مُذْ أربعة أشهر، وما بي ألَّا أكون واحدًا، ولكن[٦] عَهِدْتُ قَوْمًا يشبعون مرَّة ويجوعون أخرى»[٧].

ثم قال بعدُ: «والله ما شَبِعْتُ مُذْ أربع عشرة سنة، ولا مرَّة واحدة»[٨].

الثامن: وقد ذَكَرَ بعضُهم الهجرة[٩] من بَلَدِ الغلاء إلى بلد الرخاء.

---

(١) في (د): حاله.

(٢) قوله: «يعني: أن المهاجر لوطنه وماله وإن كان مُهَاجِرًا؛ فلا يَتِمُّ له ذلك إلا بعد أن يُبْعِدَ عمَّا نهاه الله عنه» سقط من (ص).

(٣) بعده في (س) و(ص) و(ف) و(ز) قوله: «والمهاجر من هجر»، وضرب عليه في (د).

(٤) سقطت من (س).

(٥) بعده في (س) و(ف) و(ص): قال، وضرب عليها في (د).

(٦) في (ص) و(د) و(ز): لكني.

(٧) الزهد للإمام أحمد: (ص٢٣٧).

(٨) الزهد للإمام أحمد: (ص٢٤١).

(٩) في (س) و(ف): الخروج.

قال سفيان الثَّوْرِي: «كُنْ في موضع تَمْلَأُ فيه جِرَابَكَ خُبْزًا بدرهم»[١].

وقال بِشْرٌ: «إذا اهتممتَ بالغلاء أو رِخَصِ السِّعْرِ فاذكر الموت؛ فإنك لا تهتم بغلاء السِّعْرِ ولا رِخَصِه[٢]»[٣]/. ١ [١٢٢/أ]

ومن الهِجْرَةِ الوَاجِبَةِ[٤] للأهل والوطن الخُرُوجُ إلى الحَجِّ، وهو:

* * * * *

---

(١) قوت القلوب: (١٢٦٨/٣).

(٢) بعده في طرة بـ (د): انتهى الجزء الرابع، بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وآله وسلَّم تسليمًا.

(٣) حلية الأولياء: (٣٤٧/٨).

(٤) قوله: «ومن الهجرة الواجبة» سقط من (ص).

الاسم الثالث والعشرون: الحاجُّ[(١)]

إذا تَعَيَّنَ فَرْضُه[(٢)]، وفي وَقْتِ تَعَيُّنِ فَرْضِه خِلَافٌ بين العلماء وفي شروطه[(٣)]، وهو أَحَدُ أركان الإسلام[(٤)]، ودِعَامَةٌ من دعائم الإيمان، يُتْرَكُ له الأهلُ والولد، ولا يُشَاوَرُ[(٥)] فيه[(٦)] الأب والأم، وما رأيتم من أنه يُشَاوِرُ أباه فإنَّما ذلك إذا لم يَجِبْ[(٧)]، فيكون قَضَاءُ حَقِّ الأب في تأنيسه أولى منه، ولو وَجَبَ[(٨)] عليه[(٩)] ما كان للأب فيه رَأْيٌ؛ كالصيام والزكاة والصلاة[(١٠)].

---

(١) قوله: «وهو الاسم الثالث والعشرون: الحاجُّ» سقط من (س)، وسقط الحاج من (ص) و(ز).

(٢) سقط من (ص).

(٣) في (ص): باب الحج وشرطه.

(٤) ينظر: القبس: (٢/٥٣٩).

(٥) في (س): يتشاور.

(٦) سقط من (ص) و(د) و(ز).

(٧) ينظر: المقدمات الممهدات: (١/٢٨٢).

(٨) في (س): وأوجب.

(٩) سقط من (س) و(ف) و(د).

(١٠) ينظر: أحكام القرآن: (١/٢٨٨-٢٨٩).

صحَّ أن النبي ﷺ سُئِلَ أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمانٌ بالله، قيل: ثم أي؟ قال: جهادٌ[١] في سبيل الله، قيل: ثم أي؟ قال: حَجٌّ مبرور»[٢].

وقال ﷺ: «الحج المبرور ليس له ثواب عند الله إلا الجنة»[٣].

والحَجُّ[٤] هو القَصْدُ؛ فلا تَقْصِدْ بَيْتَ رَبِّكَ حتى تَقْصِدَ إلى ربك[٥]، ولا يَتَحَرَّكْ بَدَنُكَ إليه[٦] حتى تُقْبِلَ بقلبك عليه، وإذا أقبلت ببدنك عليه فأَحْرَمْتَ ولَبَّيْتَ فحِلُّكَ الطواف بالبيت، وإذا أَحْرَمْتَ ولَبَّيْتَ بقَصْدِ القَلْبِ إليه فحِلُّكَ أن تراه إن شاء الله عز وجل.

وجَعَلَ تَرْكَ الحَجِّ لمن قَدَرَ عليه كترك الصلاة لمن قَدَرَ عليها، قال النبي ﷺ: «من ترك الصلاة كفر»[٧]، كذلك قال تعالى في تارك الحَجِّ[٨]: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]، وهذه زيادة تهديد[٩] تدلُّ على زيادة تخصيص.

---

(١) في (س) و(ف) و(ص): الجهاد.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم: (١٥١٨-طوق).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم: (١٣٤٩-عبد الباقي).

(٤) سقط من (س).

(٥) قوله: «إلى ربك» سقط من (ص).

(٦) سقطت من (س) و(ص)، وفي (س): بذلك، وصوابه ما أثبتنا.

(٧) تقدَّم تخريجه.

(٨) قوله: «في تارك الحج» سقط من (س).

(٩) في (س): شديدة.

والعَجَبُ مِمَّن يقولُ[١]: «إن الحج لا يجب على أهل المغرب»، وهو يسافر من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، ويخرق البحار، ويقطع المخاوف؛ في مقاصد دينية أو دنياوية، والحالُ واحدة؛ في الخوف والأمن، والحلال والحرام، وإنفاق المال وإعطائه في الطريق وغيره لمن لا يرضى[٢].

فإن قيل: فإن طَلَبَ منه الظالم في الطريق أو في دخول مكة مالًا؟

قُلنا: قال بعض الناس: «لا يدخل، ولا يعطيه، وليرجع»[٣].

والذي أراه أن يعطي، ولا ينبغي أن يكون في ذلك خلافٌ؛ فإن الرجل بإجماعٍ من الأمة يجوزُ له أن يمنع عِرْضَه ممَّن ينتهكه بماله، وقالوا:

---

(١) يقصد به الإمام ابن رشد الكبير، وقد قال ذلك بعد أن استفتاه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، فقد كتب إليه يسأله: «هل الحج أفضل لأهل الأندلس أم الجهاد؟ فأجابه ابن رشد بقوله: فَرْضُ الحج ساقط على أهل الأندلس في وقتنا هذا لعدم الاستطاعة التي جعلها الله شرطًا في الوجوب؛ لأن الاستطاعة هي القدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال، وذلك معدوم في هذا الزمان، فبان أن الجهاد الذي لا تُحْصَى فضائله في القرآن والسنة المتواترة والآثار أفضل منه، وأنَّ ذلك أبين من أن يحتاج فيه إلى السؤال عنه»، روضة النسرين لابن صَعْد: (ص٧١-٧٢)، وممَّن قال بقول ابن رُشْدٍ من أكابر المفتين: عبد الحق الصقلي، وابن حمدين، وابن الحاج القرطبي، وأبو بكر الطرطوشي، والمازَري، واللخمي، وغيرهم، ينظر: المعيار: (١/٤٣٢-٤٣٦).

(٢) أفاد من قول ابن العربي هذا ابنُ صَعْد في روضة النسرين: (ص٧٢)، والونشريسي في المعيار: (١/٤٣٣).

(٣) هو قول الإمام أبي طالب المكي، قوت القلوب: (٣/١٢٥٥)، ويشبه أن يكون قول الإمام الشافعي، ينظر: الجامع للقرطبي: (٥/٢٢٦-التركي).

«ما وقى المَرْءُ به عِرْضَه فهو صدقة»(١)، وكذلك ينبغي أن يشتري دينه ممَّن يمنعه(٢).

ولو أن ظالمًا قال لرجل: لا أُمَكِّنُكَ من الوَضوء والصلاة إلَّا بجُعْلٍ؛ لوَجَبَ عليه أن يُعْطِيَهُ، وهل كانت الهجرة وترك الأموال والأهل والوطن إلَّا للسَّيْفِ(٣)؟ وهي اليوم بَاقِيَةٌ على من آمَنَ في دار الحرب، أن يشتري(٤) الدِّينَ بتَرْكِ الأهل والمال والولد، فتَفَطَّنُوا لهذا فإنه دَقِيقٌ غابت عنه قلوب الغافلين.

[المجاورة بمكَّة]:

والمُجَاوَرَةُ بمَكَّةَ لها فَضْلٌ عظيم، وإني لأستحبُّها،/ ومن يجاور العبد [١٢٢/ب] مثل ربه، ولمن يأوي أكرم منه، وما أدري كيف قَدَرَ من يقول: «تُكْرَهُ المجاورة بمكة»(٥)؟ ولقد سمعتُ في ذلك تعليلات لا تساوي سماعها،

(١) أخرجه الدارقطني في سننه عن جابر ﷺ مرفوعًا: كتاب البيوع، باب الصلح، رقم: (٢٨٩٥-شعيب)، والبغوي في شرح السنة: كتاب الزكاة، باب كل معروف صدقة، رقم: (١٦٤٦-شعيب)، وفي إسنادهما عبد الحميد بن الحسن الهلالي، وثَّقه ابن معين، ينظر: الكامل: (٥/٣٢٢)، وساق له هذا الحديث، فلعله ممَّا أنكر عليه، والله أعلم.

(٢) في (ص) و(د): منعه.

(٣) في (س) و(د) و(ص): السلف، وما أثبتناه صحَّحه في (د) و(ص) في طرتيهما.

(٤) في (ص): اشترى، وفي (س) و(ف) و(ز): إلا شراء.

(٥) هو قول جماعة من أهل العلم، منهم الإمام أبو حنيفة النعمان، والإمام سفيان الثوري، والإمام ابن عُيَينة، قوت القلوب: (٣/١٢٦٥-١٢٦٦)، وينظر في اعتلالات الكارهين: المسالك: (٧/١٦٦).

نعم؛ يمكن أن يُتكلَّم بين مكة والمدينة وأيهما[1] أفضل[2]، ومجاورة من هي أكرم، فأمَّا أن تُكْرَهَ واحدة منهما[3] فحَاشَا لله.

[أقسامُ الحاجِّ]:

والحَاجُّ قِسْمَانِ؛ رِجَالٌ ورُكْبَانٌ[4]، كما قال الله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٥].

قال المفسرون: «أَذَّنَ إبراهيم بالحج فأسمعه الله عز وجل جميع الخلق؛ بأن أحياهم له، فمن أجاب حَجَّ، ومن سَمِعَ ولم يُجِبْ أو لم يَسْمَعْ لم يَحُجَّ»[5].

وقال المحققون: «معناه[6]: أَعْلَمَ بالفرض عليهم جَمِيعَهم، فيأتي من كُتِبَ حَاجًّا منهم، فهو لفظ عموم، والمرادُ به الخصوص»[7].

وهذا التأويلُ الأخير أقوى[8]، وإن كان الأوَّل مُمْكِنًا.

ولقد رأيتُ الجَهْلَ قد انتهى بقَوْمٍ إلى أن يقولوا ليلة المزدلفة قائمين على سَطْحِ مَسْجِدِ المشعر الحرام: «يا فلان: حُجَّ»، فيُنَادِي كلُّ واحد باسم

---

(١) في (س) و(ف): أيهما.

(٢) ينظر: المسالك: (٧/١٦٣-١٧٣).

(٣) في (ص): منهن، وفي (ز): منها.

(٤) ينظر: شرح الصحيح لابن بطَّال: (٤/١٨٨).

(٥) لطائف الإشارات: (٢/٥٣٩).

(٦) سقط من (س).

(٧) تفسير الطبري: (١٦/٥١٧-التركي).

(٨) في (ص) و(د) و(ز): وبهذا التأويل الأخير أقول.

حَبِيبِه أو جاره، ويقول: «إنه إذا فُعِلَ ذلك به[1] حَجَّ»، فقلتُ لبعض جيراني: هذا باطل، نَادِ[2] حتى ترى، فنادَى معي، وانقلبنا إلى البلد[3]، فما حجَّ من نُودِيَ باسمه إلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ.

قال علماؤنا: قُدِّمَ الرَّجَّالَةُ على الرُّكْبَانِ لوجهين:

أحدهما: أن الرَّاجِلَ أَكْثَرُ[4].

[الثاني]: وقيل: لأنه أفضل[5].

وروى ابن حنبل عن تَمِيمٍ الداري: «أنه قرأ القرآن في الصلاة قائمًا، وقرأه راكعًا، وقرأه ساجدًا، وحَجَّ خَبَبًا[6]»[7].

وبَنَى بِشْرُ بن كَعْبٍ[8] قَبْرًا؛ وقرأ فيه القرآن، ودُفِنَ[9] فيه.

وأخبرني محمد الفُسْطَاطِي الصُّوفِي[10] أنه حَجَّ مع أبي الفضل الجَوْهَرِي، فقال: «قال لنا أبو الفضل يومًا في الطريق، كنتُ أرى البارحة

---

(١) سقطت من (ص) و(س) و(ز).

(٢) في (ص) و(د): فناد.

(٣) في (ص) و(س) و(ف): البلاد.

(٤) لطائف الإشارات: (٥٣٩/٢).

(٥) تفسير الطبري: (٥١٨/١٦-التركي).

(٦) في (د): مَشْيًا، وفي (س): خسًا.

(٧) الزهد للإمام أحمد: (ص٢٤٨).

(٨) في (د): بشير بن كعب، وفي (ص): كعب بن بشر.

(٩) في (د): فدفن.

(١٠) هو محمد بن عبد الملك التِّنِّيسي المصري، صاحب أبي الفضل الجوهري، تقدَّم ذِكْرُه.

بابًا من[١] السماء قد[٢] فُتِحَ[٣]، فنزل منه[٤] ثلاثة أَمْلَاكٍ، بيد أحدهم طَسْتٌ، وبيد الآخر إبريق، وبيد الآخر مِنْدِيلٌ، فانتهوا إلى طَرَفِ[٥] القافلة، فقال أحدهم: خُذْ رِجْلَي ذلك الرجل[٦]، قال: نعم، فأخرجها من تحت الثياب ثم وضعها في الطَّسْتِ، وصَبَّ صاحبُ الإبريق على الرِّجْلَين[٧]، وجعل صاحبُ الطَّسْتِ يغسلها، حتى إذا انتظفت أَخَذَهَا صاحبُ المنديل وجَفَّفَها، ثم رَدَّها في دِثَارِها، وجاء آخَرُ ليأخذ رِجْلَيْ[٨] آخَرَ فقال له صاحبه: لا تأخذها، هو راكب، وتَتَبَّعُوا جميع من في القافلة هكذا، حتى وصلوا إليَّ، فمدَّ يده ليأخذ رِجْلِي؛ فقال له صاحبه: هو راكب، فلمَّا فَرَغُوا بجميع من فيها صَعِدُوا على مَرْقَاهُم إلى السماء حتى غابوا فيها».

[حَجَّةُ ابن العربي وما لقي فيها من الأهوال]:

١ فتَفَسَّرَ لي أَمْرٌ كنتُ منه مُتَعَجِّبًا، وذلك أني خَرَجْتُ من الكُوفَةِ إلى مَكَّةَ سنة تِسْعٍ وثَمَانِينَ راكبًا مُعَادِلًا لأبي/ [١٢٣/أ] - رحمة الله عليه[٩] -، حتى بلغنا مكة فقضينا حجَّنا، ثم عُدْنَا إليها، فلمَّا كُنَّا ببَطْنِ نَخْلَة ضَرَبَنَا بَرَدٌ

---

(١) في (د): في.

(٢) سقط من (س) و(ف).

(٣) في (ص): فتحت.

(٤) سقطت من (س)، وفي (ص): قد فتحت فنزل منها.

(٥) سقط من (س) و(د) و(ز).

(٦) سقط من (ص) و(س) و(ز).

(٧) قوله: «على الرجلين» سقط من (د).

(٨) في (د) و(ز): رجليه.

(٩) في (س) و(ف): رحمه الله.

عَظِيمُ الجِرْمِ، قَتَلَ كثيرًا من الإبل والناس، وحَمَلَ وادي نخلة علينا، وكنَّا فيمن بَكَّرَ فعَبَرَ، فمن صادفه السَّيْلُ فيه حَمَلَهُ إلى البحر فلم يُرَ أبدًا، وعُدْنَا نَفَرًا قليلًا، وحَدَثَ في الجِمَالِ طاعونٌ؛ تَرَى الجَمَلَ يُبتاع بخمسين دينارًا، فتأخذه[١] الغُدَّةُ فيصيحُ ويرمي بنفسه إلى الأرض، فيُنْحَرُ[٢] ويقتسمه الناس، ويرمون رحالهم في البيداء ويَتَعَرَّوْنَ[٣] من ثيابهم، ومَضَتْ جِمَالُنا هكذا؛ في حَدِيثٍ طويل بيَّناه في كتاب «ترتيب الرحلة»، ودعت الضرورة إلى أن أمشي رَاجِلًا من فَيْدَ إلى الكوفة خَمْسَ عَشْرَةَ مَرْحَلَةً لموت الجمال، ومعنا الكِراء لو وجدنا الجمال، لكن الطاعون استولى عليها[٤]، ورَمَيْنَا جميع ما كان معنا، ولم يَبْقَ عَلَيَّ إلَّا لِبَاسِي، وكنتُ أمشي مع أصحابنا من الطلبة نتذاكر ونتناظر[٥] ونَتَسَلَّى على[٦] الرَّجْلَةِ النَّهَارَ كلَّه، حتى إذا جاء الليل وَقَعْتُ على اسم المَيِّتِ، وأوقدنا النار، وقَطَعْنَا لحم أرجلنا، وكَوَيْنَاهَا بالشحم، وربطناها بالخِرَقِ، وكنت أضطجعُ وأقول: هذا مرقدي الذي يبعثني الله عز وجل منه وأنام، فإذا أصبحتُ وجدت خِفَّةً، وكأنِّي لم أكن رَجُلَ البارحة، فإذا أخذت في المشي عادتْ قُوَّتِي، وتَصَلَّبَ لَحْمِي[٧] الأحمر عند مِشْيَتِي، وكانت هذه عادتي في نهاري وليلتي[٨]، وأنا أتعجَّب

---

(١) في (ص) و(د): ثم تأخذه.

(٢) في (د): فيخرُّ.

(٣) في (س): يتبرؤون، وفي (ز): يتبرون، وفي (ص): ينبزون.

(٤) في (د): استولى على الجمال.

(٥) في (س) و(ف): نتناظر ونتذاكر.

(٦) في (د): عن.

(٧) في (ص) و(د): اللحم.

(٨) في (ص) و(د): ليلي.

من وُثُوبِ تَجَلُّدِي[١]، وقُوَّتِي بعد ذهاب لَحْمِي وجِلْدَتِي، حتَّى حُدِّثْتُ بهذا الحديث، فعَلِمْتُ يقينًا صِحَّةَ قَوْلِ النبي ﷺ للأشعريين: «لستُ أنا حملتُكم[٢]، ولكنَّ الله[٣] حملكم»[٤].

ورَأَيْتُ قَوْلَ البخاري في[٥] باب من حَدَّثَ[٦] عن مَشَاهِدِهِ في الحرب - وأدخل عن طلحة بن عُبيد الله أنه تَرَّسَ على[٧] النبي ﷺ يوم أُحُدٍ[٨] - فحَدَّثْتُ.

ومن[٩] الدليل على أن الرَّجْلَةَ أفضل الحَدِيثُ الصحيح عن النبي ﷺ: «ما اغبرَّت قَدَمَا عبد في سبيل الله إلَّا حَرَّمَهُمَا الله على النار»[١٠].

فإن رَكِبَ فليركب على رَحْلٍ مُخْتَصَرٍ، فقد قال البخاري: «حَجَّ أَنَسٌ على رَحْلٍ، ولم يكن شحيحًا»[١١].

---

(١) في (ص): ثبوت خلدي.

(٢) في (ص): أحملكم.

(٣) في (د): الله تعالى.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ﷺ: كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، رقم: (٦٦٤٩-طوق).

(٥) سقطت من (د) و(ص) و(ف).

(٦) في (س) و(ف): يحدث.

(٧) في (ص) و(د): عن.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد، باب من حدَّث بمشاهده في الحرب، رقم: (٢٨٢٤-طوق).

(٩) في (د) و(ص): والدليل.

(١٠) تقدَّم تخريجه.

(١١) تقدَّم تخريجه.

المعنى[١]: أنه آثَرَ التواضع؛ لأنه مَوْضِعُ شَعَثٍ وخَشْيَةٍ، وخُرُوجًا[٢] عن الهيئة والبِزَّةِ.

قال علماؤنا: «وإنما حَجَّ النبي عليه السَّلام رَاكِبًا لِئَلَّا يَشُقَّ على أمته، وطاف رَاكِبًا ليُرِيَ جَمِيعَ الناس فِعْلَه ﷺ».

وقد روى الترمذي: نا محمود[٣] بن غيلان: نا أبو داود الحَفَري[٤] عن سفيان عن الربيع بن صَبِيح عن يزيد بن أبان عن أنس بن مالك[٥]/ قال: [١٢٣/ب] «حجَّ رسول الله ﷺ على رَحْلٍ رَثٍّ، وعليه قَطِيفَةٌ لا تساوي أربعة دراهم، قال[٦]: اللهم اجعله[٧] حجًّا لا رياء فيه ولا سُمْعَة»[٨].

وحجَّ بعضُ[٩] الصوفية[١٠] سبعين حَجَّةً ماشيًا، فلمَّا كان في آخرها قال: «اللَّهم إني أظن أن هذه آخِر حجَّتي، فإن كُنْتَ قَبِلْتَها أو قَبِلْتَ منها

---

(١) في (ص) و(د): يعني.

(٢) في (ص) و(د) و(ز): خروج.

(٣) في (س) و(د) و(ز): محمد، وهو سبق قلم.

(٤) في (س) و(ف): الحميري.

(٥) قوله: «نا محمود بن غيلان: نا أبو داود الحَفَري عن سفيان عن الربيع بن صَبِيح عن يزيد بن أبان عن أنس بن مالك» ضرب عليه في في (د).

(٦) في (د): فقال، وفي (ص): وقال.

(٧) سقط من (س).

(٨) الشمائل: (ص٢٠٧)، رقم: (٣٣٢)، وضعَّف إسناده ابنُ حجر في الفتح: (٣/٣٨١).

(٩) هو أبو تراب النخشبي، تـ ٢٤٥هـ، ترجمته في: تاريخ بغداد: (١٤/٢٦٦-٢٦٨).

(١٠) في (س) و(ف): المتصوفة.

شيئًا؛ فإني أُشهدك أني قد تصدَّقتُ بها على المذنبين من أمة محمد ﷺ، أو من أهل الموقف، فرأى الله تعالى في المنام، فقال له: أعلينا تَتَسَخَّى؟ أُشهدك أَنِّي قد غفرتُ لهم ولك»[١].

وقد قيل لابن عمر: «ما أكثر الحاج! فقال: ما أقلهم»[٢].

نَظَرَ الأوَّلُ إلى كثرة الرَّاكِبِ؛ ونظر ابنُ عمر إلى قلة المُخْلِصِ.

وكان الدَّامَغاني[٣] بعرفة إذا رأى ذلك الجمع العظيم يَخِرُّونَ يقول: «اللَّهم اقبَلني معهم وإن كنت زائفًا، فقد يسمحُ الناقد وإن كان عارفًا»[٤].

[حقيقةُ الحاجِّ]:

والحاجُّ[٥] - عند الجميع -: من عَقَدَ[٦] بقلبه رَفْضَ[٧] الدنيا كما رفضها بلباسه، وأن يتجرَّد للمولى كما تجرَّد عن هيئة الدنيا، وينبذ كل طريق، ويرجع إليه بالتحقيق، وإذا اغتسل من الأدناس الظاهرة فليغسل قلبه

---

(١) تاريخ بغداد: (١٤/٢٦٨)، ونحوها في قوت القلوب: (٣/١٢٦٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف: كتاب المناسك، باب ما أقل الحاج، (٥/١٩)، رقم: (٨٨٣٦).

(٣) الإمام الفقيه العلَّامة، محمد بن علي بن حَسُّويَه، أبو عبد الله الدامَغاني الحنفي، (٣٩٨-٤٧٨هـ)، ترجمته في: تاريخ بغداد: (٤/١٨٣-١٨٤)، والأنساب: (٥/٢٥٩)، وسير النبلاء: (١٨/٤٨٥-٤٨٧).

(٤) ذكر ابنُ العربي في القبس (٢/٥٧٧) أن الفقيه القاضي أبا المعالي عَزِيزي بن شَيْذَلَة أخبره بهذا الذي حكاه عن الإمام الدامَغاني.

(٥) ينظر: القبس: (٢/٥٧٦-٥٧٧).

(٦) في (ص): عمر.

(٧) في (ص): ورفض.

من الأوضار[١] الباطنة، وإذا استجاب لسانُه[٢] بالتلبية فينبغي أن يستجيب كلُّ عُضْوٍ من أعضائه بالخضوع له، وإذا بَلَغَ الموقف وَقَفَ بقلبه عليه، فلم يَسْرَحْ كما لا يسرحُ بدنُه، وإذا عرَّف تعرَّف إلى الله بتبرئة عن كل شيء إلَّا هو، واعترف بتقصيره عن حقه، فيتعرَّف الله إليه بأفضاله عليه، فإذا بَلَغَ المَشْعَرَ الحرام استشعر المِنَّةَ في التيسير لسُلوك[٣] تلك المقامات، واستشعر القبول أو الرد، وإذا بلغ مِنًى نفى عن نفسه كل هَوًى ومُنًى، إلَّا[٤] المولى جلَّ وتعالى[٥]، وإذا رمى الجمار فليُلْزِمْ[٦] نفسه الأمَّارة بالسوء بخَلْعِ كل هوى[٧] يتعلق بها، وشهوة تنزع إليها، فإذا دخل الحَرَمَ فلا يصح له بعدُ أن يقرب إلى مُحَرَّمٍ؛ وهو أحد التأويلين في قوله ﷺ: «الحَجُّ المبرور ليس له عند الله جزاءٌ إلَّا الجنة»[٨].

فقيل: يَبَرُّه[٩] بأن[١٠] لا يعصي بعده[١١].

---

(١) في (د): الأوضران، وفي الطرة: لعله: الأدران.

(٢) في (س): بلسانه.

(٣) في (د): بسلوك، وسقط من (ص).

(٤) في (س): إلى.

(٥) قوله: «جل وتعالى» لم يرد في (د) و(ص).

(٦) في (د) و(ز): فليرم، وفي (س): يلزم.

(٧) في (د) و(ص) و(ز): لهو.

(٨) تقدَّم تخريجه.

(٩) في (د): برُّه.

(١٠) في (د): أن.

(١١) يشبه أن يكون قول الحسن البصري، ينظر: قوت القلوب: (١٢٥٩/٣).

وقيل: أن لا يعصي فيه[١]، لقوله: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٦].

وإذا رأى البيت بعينه فليَرَ رَبَّ البيت بقلبه، وإذا حَلَّ[٢] من إحرامه بالطواف فلا يَحُلَّ عَقْدَ القلب إلا بأن تُدار عليه الأكواس في الجنة ويطاف، وكما خرج من بيته إلى بيت ربه[٣]، فليخرج من البيت إلى الله تعالى بقَلْبِه[٤].

والحاجُّ هو: الأشعث الأغبر في لباسه وجِلْدِه، وهو الأشعث القلب الأغبرُه؛ الذي لا يميل إلى مناظر[٥] الدنيا.

[١٢٤/أ] وقد قال فَتْحُ الموصلي في هذا المعنى أبياتًا، وهي[٦]:/

إليك حَجِّي لا للبيت والأثر وفيك سعيي لا للرُّكْنِ والحجر
صفاءُ وُدِّي صَفَايَ حين أعبُره وزمزمُ دمعتي تجري مع المطر[٧]
عِرْفَانُه عَرَفَاتِي والمُنَى بمِنًى وموقفي ومقامي دونهم خَطَرِي[٨]

---

(١) ينظر: قوت القلوب: (١٢٥٩/٣).

(٢) في (ص): انحل.

(٣) في (د): ربه عز وجل.

(٤) سقطت من (د) و(ص).

(٥) في (ص): خاطر.

(٦) من البسيط، وهي من جملة أبيات أوردها ابن الجوزي في المدهش: (ص١٤٩)، وفي مثير الغرام: (١٣/٢)، ونسبها لمحمد بن أحمد الشيرازي.

(٧) في (د): البصر.

(٨) في طرة بـ (د):

عرفانكم عرفاتي إذ مِنًى مِنَنٌ وموقفي وقفةٌ في الخوف والخطر

وجَمْرُ قلبي جِمَارِي حين أقذفه والهَدْيُ جسمي الذي يغني عن الجُزُرِ
زَادِي رجائي له والشوقُ راحلتي والماءُ من عَبَرَاتِي والهوى سَمَرِي

وقد قال[١] بعض[٢] العلماء: إنه لا تُعَارِضُ التجارةُ نِيَّةَ الحج، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٧].

قالوا: هي التجارة في مواسم الحج[٣].

وقد روى أبو داود وغيره؛ عن أبي أمامة التَّيْمِي[٤] قال: «كنتُ رجلًا أُكْرِي في هذا الوجه، وكان الناس يقولون: ليس لك حج، فسألت ابن عمر فقال: ألست تُحْرِمُ وتُلَبِّي، وتطوف بالبيت، وتُفِيض من عرفات، وترمي الجمار؟ قال: قلت: بلى، قال: فإن لك حجًّا؛ جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن مِثْلِ ما سألتني عنه، فسكت عنه رسول الله ﷺ، فلم يُجِبْهُ حتى نزلت هذه الآية عليه، وقال: لك حجٌّ»[٥].

ومن قَطَعَ مسافةً من المشرق إلى المغرب أو من المغرب إلى المشرق لقصد البيت؛ فإن قَطَعَ العُمُرَ قَطَعَ[٦] مَسَافَةً إلى لقائه؛ فلا يَسْتَطْوِلُهَا إلَّا الأحباب، ولا يستقصرها إلَّا الذين لا يوقنون بهذا الثواب[٧].

---

(١) سقطت من (س).
(٢) سقطت من (ص).
(٣) تفسير الطبري: (٤/١٦٥-شاكر).
(٤) في (ص): الباهلي.
(٥) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب المناسك، باب الكَرِيِّ، رقم: (١٧٣٣-شعيب).
(٦) سقطت من (س).
(٧) قوله: «بهذا الثواب» لم يرد في (د) و(س) و(ز).

فإذا[١] وصلتَ إلى البيت لتشهد منافع لك؛ فالمنافعُ التي تشهدها من ربك أعظمُ من التي تشهدها[٢] من بيته، ولا يعرف[٣] أحدٌ قَدْرَ الحب ولا سببه إلا من حجَّ فدخل مكة؛ فيرى وادياً غير ذي زرع؛ رَمْلٌ مُنْهَالٌ، وبَلَدٌ غير مِيهالٍ[٤]، في وسطه بيتٌ مبنيٌّ من حجارة سود، غير عالي البناء[٥]، ولا مرصوف البناء، في أحد أركانه حَجَرٌ أسود أملس، قد حَفَّهُ جبلان أسودان من حجارة حُرْشٍ، لا ماء ولا مرعى، فيدخل القلب من محبته ما لا يَقْدِرُ أحدٌ على صفته، ويغلب النفس من هيبته[٦] ما يكاد يقع من خشيته، فيجري الدمع على وجنته، ولا يدري ما هذه العلاقة بمهجته، وكلما أتبعه البصر تضاعفت فيه البصيرة.

أخبرني[٧] محمد بن عبد الملك الصُّوفي قال: حَجَجْنَا مع الشيخ أبي الفضل الجوهري؛ وذكر حديثًا طويلًا، بيانُه[٨] في كتاب «ترتيب[٩] الرحلة»، فلمَّا دخلنا معه[١٠] مكة ووَلَجْنَا من باب بني شَيْبَةَ وعاين البَيْتَ؛

---

(١) في (ص): وإذا.

(٢) في (د): تشهد.

(٣) في (د): يعلم.

(٤) في (س): مهيال.

(٥) في (ص): غير مُحكمة النَّجْرِ، ولا عالي البناء.

(٦) في (س): هيأته.

(٧) في (س) و(ف): أنا، أي: أخبرنا.

(٨) في (ص): أثبتناه.

(٩) سقطت من (س)، وفي (ص): أثبتناه في كتاب ترتيب الرحلة للترغيب في الملة.

(١٠) سقطت من (ص) و(س).

أخضل الدمعُ شيبتَه[١]، وطفق يمشي إليه خاشعًا، ويتوقل متواضعًا،/ فلمَّا دنا منه وعاين ما عليه من الحُلَلِ الدِّيبَاجِيَّةِ والأَنْمَاطِ الإِسْتَبْرَقِيَّةِ أنشدَ:

ما عُلِّقَ الدُّرُّ على نحرها ... إلَّا لما يُخشى من العَيْنِ
تقول والدُّرُّ على نحرها: ... من علَّق الشَّيْنَ على[٢] الزَّيْنِ[٣]

فوالذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ إنها متجردة[٤] أجمل منها في تلك[٥] الحال مكسوَّة، وما شبَّهتها[٦] في فَضْلِ جمالها متجردةً على جمالها مكسوةً إلَّا بما قال عليُّ بن العباس:

وأحسنُ من عِقْدِ العقيلة جيدُها ... وأحسنُ من سِرْبَالها المتجردُ[٧]

ولقد كنت أُلْصِقُ خَدِّي بجُدُرَاتِها مع قِضَّتِها؛ وكأنها[٨] خَدُّ جارية زهراء.

وأمَّا استلامُ الحجر؛ فوالذي خَلَقَ الماء والحجر، إنه لألَذُّ في قلبي[٩] من رَشْفِ رُضَابِ الكواعب للعازب، ولا يمكنكم أن تدركوا حقيقة ذلك

---

(١) في (ف): شيبَه.
(٢) في (د): من، وفوقها: على، وصحَّحها.
(٣) تقدَّم تخريجهما في السفر الأوَّل.
(٤) في (د) و(ص): لمتجردة.
(٥) في (د) و(ص): بتلك.
(٦) في (ص): أُشَبِّهُها.
(٧) تقدَّم تخريجه في السفر الأوَّل.
(٨) في (د) و(ص): كأنه.
(٩) في (د): القلب، وسقط من (ص).

بالصفة والتمثيل[١] حتى تباشروه[٢]، كما لا يمكن تعريفُ العِنِّينِ لَذَّةَ الجماع بالوصف والتمثيل حتى يباشره.

وقال أبو سَعْدٍ الشهيد الصوفي: كان الأستاذ أبو القاسم القُشَيْرِي يُنْشِدُ:

لستُ من جملة المحبين إن لم ... أجعل القلب بيته والمقامَا
وطوافي إجالةُ السر فيه وهو ... ركني إذا أردتُ استلامَا[٣]

ولو لم يكن من فضل البيت إلا استواء الخلق فيه؛ قال الله تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ [الحج:٢٣]، «وإنَّما يعتبر[٤] فيه السَّبْقُ والتَّقَدُّمُ[٥]»[٦].

قال النبي ﷺ: «مِنًى مُناخ من سَبَقَ»[٧]، فلا منزلة هنالك[٨] إلا للسَّابقين.

---

(١) سقط من (س) و(ص).
(٢) في (ص) و(س) و(د): تعاينوه، ومرَّضها في (د)، وأثبتنا ما أثبت في طُرَّتِه، ورمز لها بـ: خـ.
(٣) البيتان من الخفيف، أنشدهما أبو القاسم في لطائف الإشارات: (٥٣٩/٢)، وساقهما ابن عساكر في تاريخ دمشق: (٧٢/٦٦)، وابن الجوزي في مثير الغرام: (١١/٢)، في ترجمة أبي بكر الشِّبْلِي.
(٤) في (س) و(ف): تعتبر.
(٥) مرَّضها في (د)، وفي الطرة كلمة لم أتبينها لسوء التصوير.
(٦) لطائف الإشارات: (٥٣٧/٢).
(٧) أخرجه الترمذي في جامعه عن أم المؤمنين عائشة ﵂: كتاب الحج، باب ما جاء أن منى مُناخ من سبق، رقم: (٨٨١-بشار).
(٨) في (س) و(ف): هناك.

ومنازلُ الكرام تستوي فيها الأقدام؛ فلا ترتيب فيها إلَّا بالأعمال، ولا صَدَّ ولا طَرْدَ[١]، وإنما هو كله وِصَالٌ واتصال، فإذا وصل العبد إليه فليُكْثِرْ من ذِكْرِ من قصد إليه، وليَسْتَوْفِ منافعه بنيَّة خالصة؛ كما قدَّمنا وجوهها، وهي منافع الآخرة ليس للدنيا في ذلك حَظٌّ، ولينحروا[٢] هداياهم ليُطعموها الفقراء إحياءً لسنة نبيِّهم، وصاحب مِلَّتِهم، ومُعَرِّفهم[٣] بتسميتهم، وأبي[٤] حَبِيبِهم وصَفِيِّهم، وتكون مطاياهم يوم رَجْلَتهم، ويأخذوا في قضاء التَّفَثِ، وهذا حَرْفٌ لم يعلمه[٥] إلَّا قليل، منهم مالك بن أنس رضي الله عنه[٦].

وحقيقته عندي: تمامُ العبادة لتطهير البدن والقلب، وفي ذلك الوفاء بالنذر؛ لأنه عَقَدَ النيَّة بقلبه[٧] في الإحرام ونَطَقَ بلسانه، فإن عَقَدَ التوبة فلا يَحُلَّها[٨] ولا يَنْقُضْها/ فيرجعَ إلى العصيان. ١ [١٢٥/أ]

ومن عَقَدَ اعتناق الطاعة فلا يَحُلَّ يدًا عن عاتق، وإذا طاف بالبيت فمعناه قُصُورُ الآمال عليه، فليقتصر بأمله على الله عز وجل، ولا يُعَلِّقْهُ[٩] بسواه، وليُعَظِّمْ حرمات الله تعالى.

---

(١) قولُه هذا اقتبسه من لطائف الإشارات: (٢/٥٣٧).

(٢) في (س) و(ف): ليتحرَّوا.

(٣) مرَّضها في (د)، وفي الطرة كلمة لم أتبينها لسوء التصوير.

(٤) في (د) و(ص): أي.

(٥) في طرة بـ (س): يعقله، وصحَّحها، كما صحَّح ما أثبتنا.

(٦) قال الإمام مالك: «التفث حلق الشعر، ولبس الثياب، وما أتبع ذلك مما يحل به المُحرم»، ينظر: أحكام القرآن: (٣/١٢٨٢-١٢٨٣).

(٧) في (س): بقلب.

(٨) قوله: «فلا يحلها» سقط من (د) و(ص).

(٩) في (د): يسأله سواه.

ومن الحكمة: «ما زنى غيور قط، ولا فَجَرَ صاحب حُرْمَة»[١].

وقال أهلُ الزهد: «تَرْكُ الخدمة يوجب العقوبة، وهَتْكُ الحُرْمَةِ يوجب النقمة»[٢].

ولا يُرَجَّى[٣] هاتك الحُرمة، فإن فيه استخفافًا يرجع إلى الإنكار، والتعظيم من تقوى القلب، كما أن الكف عن ملابسة الفواحش من تقوى الجوارح.

ومن لُطْفِ الباري تعالى وتمكين الشرائع في القلوب وتحبيبها إلى الخلق تَعْلِيقُها بالعبادة، فإنَّ النفس القاصرة لها أُلْفَةٌ، والنفسُ الكريمة هي التي تعرف مقادير المِنَنِ[٤] المستأنفة، فقال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج:٣٢].

والشرائع متفقة على المعارف، مختلفة في الطاعات؛ بحسب ما عَلِمَ الله من المصالح، فقَوْمٌ ثقَّل عليهم وضاعف الإِصْرَ، وقَوْمٌ خفَّف عنهم[٥] وضاعف الأجر.

---

(١) لطائف الإشارات: (٢/٥٤١).

(٢) لطائف الإشارات: (٢/٥٤١).

(٣) في (د): يرتجي.

(٤) في (د) و(س): المُنى، ومرَّضها في (د)، والمثبت من الطرة، وصحَّحه.

(٥) سقطت من (د) و(س).

وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٢]، أمرٌ منه للكل بأن[1] يستسلموا لحُكْمِه؛ بلا استكراه ولا ضَجَرٍ في القلب ولا في الكلام[2]، وذلك بتصفية[3] الأعمال من الآفات، وتصفية الأخلاق من الكدورات، وتصفية الأحوال من التفريطات[4]، حتى يكون من المُخْبِتِينَ[5].

* * * * *

---

(١) في (د): أن.

(٢) قوله: «بأن يستسلموا لحُكْمِه؛ بلا استكراه ولا ضَجَرٍ في القلب ولا في الكلام» سقط من (ص).

(٣) في (د): بتصفيته.

(٤) لطائف الإشارات: (٢/٥٤٤).

(٥) في (س): المُجِيبِينَ.

وهو الاسمُ الرَّابع والعشرون: المُخْبِتُ[(١)]

وهو: «المستديمُ للطاعة بشرط الاستقامة؛ على[(٢)] الاستطاعة[(٣)]»[(٤)].

وعلامته الوجل عند ذكر الله؛ مخافة الرد، أو حذرًا من سوء العاقبة، أو توقعًا للخروج من الدنيا على غفلة من غير استعداد وأُهْبَةٍ، أو حياء من الله تعالى إذا ذكر اطلاعه عليه، وقد يقع منه ما لا يحبه أو يغفل عنه، وهو لا ينساه بنعمه ولطفه، أو خوفًا من المكر والاستدراج[(٥)]، وأقرب الخلق إلى الله تعالى قلبًا أكثرهم له خوفًا[(٦)].

ومن علامة المُخْبِتِينَ[(٧)] الصَّبْرُ على ما أصابهم، خَمَدُوا[(٨)] تحت جريان المقادير، ولم يكرهوا ما نزل بهم من التقدير[(٩)].

---

(١) سقط من (ص).
(٢) أي: على قدر الاستطاعة.
(٣) في (د) - أيضًا -: قوله: «على الاستطاعة»، ضرب عليه، وقال: كذلك في خـ.
(٤) لطائف الإشارات: (٢/٥٤٤).
(٥) لطائف الإشارات: (٢/٥٤٤).
(٦) في (س) و(ف): وأقرب القلوب إلى الله أكثرهم له خوفًا، وفي (ص): وأقرب الخلق إلى الله أكثرهم له خشية.
(٧) في (س): المجيبين، ورمز لها بـ:خـ.
(٨) في (ص): خمدًا، وأشار إليها في (د)، وفي (س): خمرُوا.
(٩) لطائف الإشارات: (٢/٥٤٤).

وفي طلب الفَرَجِ منه اختلافٌ بينهم، فمنهم من سأله، ومنهم من سأل الزيادة فيه، ومنهم من توقَّف على المقدار، وذلك كله بطرقه وأخباره مذكورٌ في «أنوار الفجر».

وتحقيقه عندي: أن سؤال الفَرَجِ جائز على الإطلاق، فإن كان لإقالة العَثْرَةِ واستدراك ما فَرَطَ من زَلَّةٍ، أو وَقَعَ من غفلة؛ فإنه عبادة، ومن علاماته الفَزَعُ إلى الصلاة/ عند الخوف والرجاء، والوقوفُ أبدًا على باب النَّجْوَى، ويا[1] ما أحسن قول القائل[2]:

١ [١٢٥/ب]

إذا ما تمنَّى الناس[3] رَوْحًا وراحةً ... تمنَّيتُ أن أشكو إليك وتسمعَا[4]

وقال آخَر[5]:

إذا ما تمنَّى الناس رَوْحًا وراحةً ... تمنيتُ يا ربَّاه ألقاك خاليَا[6]

---

(١) سقط من (س) و(ص) و(ف).

(٢) من الطويل، ووقع فيه دمج، فصدره للمجنون، وتمامُه:

تمنَّيتُ أن ألقاك يا ليل خاليَا

وهو في ديوانه: (ص٥٧)، وعجزُه للعبَّاس بن الأحنف، وأوَّله:

تمنَّى رجالٌ ما أحبوا وإنَّما

وهو في ديوانه: (ص١٧١)، وإنما أورده ابنُ العربي هكذا لأنه كذلك هو باللطائف لأبي القاسم القُشَيري: (٢/٥٤٥).

(٣) في (د) - أيضًا -: المرء.

(٤) في (س): تسمع، وفي (ص): تشهد.

(٥) في (د): غيره، وسقط من (ص).

(٦) من الطويل، لمجنون ليلى، ديوانه: (ص٥٧).

غيرُه[١]:

أحبُّ المكان القَفْرَ من أجل أنَّني   بـه أتمنَّـى باسـمه غيـر مُعْجَـمِ[٢]

فخُذْهُ منه، وضعه في موضعه بدلًا عنه.

ومن علاماته إنفاقُ المال في مرضاته؛ فيُسَلِّمُ بدنه للعبادة، وماله للصدقة؛ كما فعل أبو بكر الصديق[٣] رضي الله عنه، فإنه جاء بجميع ماله إلى الله تعالى فقَبِلَه الله تعالى منه[٤]، وجاء غيرُه به فقبل منه الثُلُثَ[٥]، وعُومِلَ كلُّ أحد على مقدار قلبه.

ومن جملة الإنفاق وأشرفه البُدْنُ[٦] التي جعلها الله تعالى من الشعائر، وقد بيَّناها في القسم الثالث من «الأحكام»[٧]، وحَظُّ القسم الرابع منها ما أشرنا إليه في «التذكير» الآن.

[منافعُ البُدْنِ]:

وقد جعل الله عز وجلَّ فيها خيرًا من وجوه كثيرة، منها[٨]:

---

(١) سقط من (س) و(ص).

(٢) من الطويل، وهو من قصيدة لذي الرُّمَّة في ديوانه: (١١٧٢/٢)، وفيه: «أتغنى» بدل «تمنى».

(٣) لم يرد في (د).

(٤) تقدَّم تخريجه.

(٥) تقدَّم تخريجه.

(٦) بيَّض لها في (س).

(٧) أحكام القرآن: (١٢٨٨/٣).

(٨) لطائف الإشارات: (٥٤٥/٢).

الركوبُ لها.

الحملُ عليها.

الشرب لألبانها.

أكلُ لحومها.

الانتفاعُ بوَبَرِها.

الاعتبار بخَلْقِها؛ كيف سُخِّرَتْ على قوتها وعِظَم[١] جثتها؟ كيف تنقادُ للصغير مع كبرها؛ تَنْوِيخًا وركوبًا، وحَمْلًا ونُزُولًا ونَحْرًا، لا تستطيع نفعًا ولا ضرًّا، صبرُها على العطش عشرًا، اجتزاؤها بالعَلَفِ اليسير، سرورها بالحُدَاءِ[٢]، واستراحتُها ونشاطُها بالصوت الحسن؛ مع كثافة أبدانها، وغِلَظِ أكبادها، إلى غير ذلك من غرائبها، وهي مستوفاة في «أنوار الفجر»، هذه نبذة منها، وفائدةُ نَحْرِها ما قدَّمناه.

ومن فوائدها[٣]: إطعامُ القانع؛ وهو عند الزهاد الذي ألقى جلباب الحياء، وكشف صفحة[٤] وجهه للسؤال[٥].

والمُعْتَرُّ: الذي يَتَحَمَّلُ ويَتَجَمَّلُ، وقلبه من الحاجة قاتم[٦]، وهو لسِرِّه كاتم[٧].

---

(١) سقطت من (س) و(ص).

(٢) في (س): الحُرا، وفوقه كذا.

(٣) في (د): فوائده.

(٤) في (د) و(ص): صفحته.

(٥) لطائف الإشارات: (٢/٥٤٦).

(٦) في (ف): قائم، وفي (ص): قائم.

(٧) لطائف الإشارات: (٢/٥٤٦).

وفائدتها أيضًا: ظهور التقوى منكم بامتثال أمره، واجتناب نهيه، والمبادرة إلى حدوده؛ حتى يتحقق إِكْبَارُكم له، ليُكْبِرَكُم[١] لذِكْرِه، فيبشركم رسوله صلى الله عليه إذا أحسنتم، بأن يستوي ما أسررتم وما أعلنتم.

[من علامات المخبتين]:

ومن علامته العظمى عند أهل الزهد أن لا يشتغل قلبك عن[٢] أمر ربك، وأن يكون عملك كله له[٣] بلَذَّةٍ من نفسك، كما كنت تَلَذُّ قبل ذلك بذِكْرِ آبائك ومناقبهم، وسَلَفِك وأيَّامهم، فإن كان لآبائكم حقُّ التربية فأنا ربُّهم وربُّكم، وإن كان للفخر فبي فليفتخروا، وبما عندي فلتفرحوا وتدخروا[٤]، وإن كان للبِرِّ فأنا البَرُّ، وهو لي أوجب، وإن كان لأسلافكم مناقبُ فأنا الله الذي لا إله إلا هو[٥]، له الأسماء الحسنى، وإن كنتم لا/ تَمَلُّونَ من ذِكْرِ آبائكم فأنا أحقُّ أن لا يُمَلَّ من ذِكْرِي، فإنَّ أباك قد ينساك، وقد يعجز عن حالك، وأنا لا أنساك وأحفظك وأتولَّاك[٦].

١ [١٢٦/أ]

وقد قال بَعْضُهم هاهنا: «قوله تعالى: ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ [البقرة:١٩٩]، ولم يقل: أمهاتكم؛ لأن الأب يُذكر احترامًا، والأم شفقةً، والله تعالى هو الذي يَرْحَمُ ولا يُرحم، ويُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ»[٧].

---

(١) في (د) و(ص): لتكثيركم بذكره.
(٢) في (ص): من.
(٣) سقط من (ص) و(س).
(٤) في (س): تذخروا.
(٥) قوله: «لا إله إلا هو» لم يرد في (د) و(ص).
(٦) لطائف الإشارات: (١/١٦٧).
(٧) لطائف الإشارات: (١/١٦٧).

وعندي: أن القوم لا[1] يذكرون امرأة، ولا يفخرون بها، وإنما كان فخرهم بآبائهم؛ فالمناقب للرجال، والعفة والستر للنساء.

وقوله: ﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾؛ أمرهم بأن يَتَعَوَّضُوا من ذِكْرِ الآباء ذِكْرَ الله وتكبيره، أو يزيدون على ذلك، وهو أفضله.

وأخبر تعالى أن الناس على قسمين:

منهم: من يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: حظُّه كلُّه في الدنيا؛ لأنه لا يعرف غيرها بذلك، ما له في الآخرة من خلاق.

ومنهم: من يحفظ الدَّارَيْنِ، ويسأل في المَنْزِلَتَيْنِ؛ دار العمل، ودار الجزاء.

[معاني الحسنة المرجوَّة]:

وللعلماء في ذلك أقوال كثيرةٌ؛ أُمَّهاتُها سِتَّةٌ:

الأول[2]: آتِنَا حسنة تنتظمُ بها جميعُ الحسنات؛ وهي الإيمان المتصل بالمآل، فإنَّ من حصلت له هذه الصفة لم يُخَلَّدْ في النار، وحسنة الآخرة المغفرة، فإذا غُفِرَ له فليس[3] بعده إلَّا كل خير، ولذلك بدأ الله الخَلْقَ عند الإفاضة بالاستغفار[4].

الثاني: الحسنة في الدنيا العُزُوفُ عنها بمعرفة قَدْرِها، والحسنةُ في الآخرة الأَمْنُ من الفَزَعِ[5].

---

(١) في (د) و(ص): ما.

(٢) في (س): الأولى.

(٣) في (د): فبعده ليس.

(٤) لطائف الإشارات: (١٦٨/١).

(٥) لطائف الإشارات: (١٦٨/١).

الثالث: الحسنة في الدنيا معرفتُه، والحسنة في الآخرة صفتُه.

الرابع: الحسنةُ في الدنيا أن يغنيك عن خلقه، وفي الآخرة أن يَهَبَ ما قِبَلك[١] من حقه.

الخامس: الحسنة في الدنيا التوفيقُ للخدمة، وحسنة الآخرة تحقيق الوُصلة[٢].

يعني: بالرضا عنكم، فلا يسخط أبدًا عليكم[٣].

السَّادس: الحسنةُ في الدنيا العافيةُ، والحسنة في الآخرة الأَمْنُ[٤].

وقد روي أن النبي ﷺ دخل على رجل يعوده فوجده مثل الفَرْخِ، فقال له: «هل كنت تقول شيئًا؟ قال: كنت أقول: اللهم ما كنت مُعَاقبي به في الآخرة فعَجِّلْه لي[٥] في الدنيا، فقال له النبي ﷺ: إنك لا تستطيعُه، هلَّا قلتَ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:١٩٩] الآية»[٦].

وبهذا أقول.

---

(١) في (ص): كان.

(٢) لطائف الإشارات: (١/١٦٩).

(٣) سقط من (س) و(ص).

(٤) الكشف والبيان: (٢/١١٦).

(٥) سقطت من (س).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا، رقم: (٢٦٨٨-عبد الباقي).

[ذِكْرُ الله في الأَيَّام المعدودات]:

ثم قال سبحانه: وإذا كنتم ذاكرين فخُصُّوا الأيام المعدودة، وهي أيامُ الرَّمْيِ، على ما بيَّناه في «الأحكام»(١)، فإنَّ ذلك آخِرُ نُسُكِكُمْ.

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة:٢٠١]؛ خَفَّفَ على الخلق الرجوع عنه إلى الأهل والوطن؛ لمَا علم من علاقة قلوبهم، فأعادهم بأبدانهم، وعَلَّقَ قلوبهم بما عاينوه من مكانهم.

وذلك قوله:/ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٤]، فلا يراه أحدٌ إلا تمنَّى أن يعود إليه، وإن حَمَلَهُ شَوْقُ الأهل وحب الوطن على أن يفارقه. [١٢٦/ب]

وقد رأيتُ الفراق وذُقته، وأكلتُه وشربتُه، وساورني وساورتُه؛ فما رأيت فراقًا أبعد مُلْتَقًى، ولا استفالاً أقصى مُرْتَقًى من فراق المُحَصَّبِ.

فريقان: منهم جازعٌ بَطْنَ نخلة وآخرُ منهم قاطعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ(٢)

منهم مُشَرِّقٌ إلى الغاية، ومُغَرِّبٌ إلى النهاية، وشَمالي بغير موعد، وجَنوبي ولات حين مرصد، ولا شك - والله أعلم(٣) - أنه عِيَارٌ(٤) لفراق(٥) يوم الموقف، فإنه بين أَخْذٍ إلى الجنة، ومَحْمُولٍ إلى النار، ولا ملتقى أبدًا.

---

(١) أحكام القرآن: (١/١٤٠).

(٢) من الطويل، وهو لامرئ القيس من قصيدة في ديوانه: (ص١٤).

(٣) قوله: «والله أعلم» لم يرد في (س).

(٤) في (ص): عيان، وأثبت الناسخ: عنوان.

(٥) في (د): بفراق يوم، وفي (س): ليوم الموقف.

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [البقرة:٢٠٠]؛ إنْ خيرًا فخيرًا، وإنْ شرًّا فشرًّا، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ للكل في القيامة، ولمن اصطفى في كل نَفْسٍ، ويأتي[1] بيانُه إن شاء الله تعالى.

تقسيم[2]:

قال المُفَسِّرُونَ: «ذَكَرَ اللهُ من يسأل[3] الدنيا وحَظَّها، ومن يسألُ[4] الآخرة وفَضْلَها، ولم يذكر الرَّاضين بالقضاء، المُسَلِّمِينَ[5] للأمر، السَّاكنين[6] عن كل دعاء»[7].

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي[8] ﷺ: وهذا ممَّا لم أعلمه، ولا أقول به، ولا يُتصوَّر له معنى، وإنما هو من تلك الأغراض؛ في أن الدعاء تَحَكُّمٌ على الله، وذلك لَغْوٌ، أَمَا إنه قد يكون الرضا بالقضاء في بعض أحوال العبد، وذلك لا يمنع من أن يكون في غالب أحواله من أهل السؤال والدعاء.

---

(١) في (د) و(س) و(ف): سيأتي.

(٢) بيَّض لها في (س).

(٣) في (ص): سأل.

(٤) في (ص): سأل.

(٥) في (ص): المستسلمين.

(٦) في (س) و(د): السَّاكتين، وفي طرة بـ (س): في خـ: الناكبين.

(٧) لطائف الإشارات: (١٦٩/٢).

(٨) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي الطرة: قال القاضي أبو بكر، وفي (ص): قال الإمام أبو بكر العربي.

[الهجرةُ إلى رسول الله ﷺ]:

ويُعْقِبُ[١] الحجَّ الهجرةُ إلى مُحَمَّدٍ ﷺ، والوقوفُ ببابه الكريم، ومناجاتُه على قُرْبٍ، والتَّشَرُّفُ[٢] بروضته المقدسَّة.

قال علماؤنا: «هم أحياء؛ يعلمون الدَّاخِلَ والخَارِجَ[٣]».

وقد ثبت عن عائشة ﵂ أنها كانت تَحْسِرُ خمارها أيَّان كان النبي ﷺ[٤] وحده، فلمَّا صار فيه من صار كانت تَتَسَتَّرُ دائمًا[٥].

ومن طَيِّبِ ما سمعت[٦] من الكلام قَوْلُ خَطِيبِ «الخَلِيلِ» - رحمة الله عليه[٧] - في مسجده بإزاء[٨] قبره في خُطْبَتِه[٩]: «اللهم صَلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آل مُحَمَّدٍ، كما صلَّيت على خَلِيلِك إبراهيم[١٠] هذا»، ويُشِيرُ إلى قبره

---

(١) في (د): تعقب.

(٢) في (س): التشريف.

(٣) في (ص): هم أيضًا يعلمون الداخل عليهم والخارج.

(٤) في (د): عليه السَّلام.

(٥) حديث «كنت أدخل بيتي الذي دُفن فيه رسول الله ﷺ وأبي فأضع ثوبي وأقول: إنما هو زوجي وأبي، فلمَّا دُفن عمر معهم فوالله ما دخلته إلَّا وأنا مشدودة عليَّ ثيابي، حياءً من عمر»، أخرجه الإمام أحمد في المسند: (٤٢/٤٤١)، رقم: (٢٥٦٦٠-شعيب).

(٦) في (د) و(ص): سمعته.

(٧) في (ص): عليه السلام، وأشار إليه في (د).

(٨) في (د): إزاء.

(٩) في (د): خطبة.

(١٠) لم يرد في (س).

أمامه من غَرْبِيِّ المسجد في وسطه، وقول خطيب المدينة: «اللَّهم صَلِّ على مُحَمَّدٍ نبيك هذا - ويشير إليه وهو من[1] شَرْقِيِّ المنبر - كما صلَّيت على إبراهيم».

أخبرني محمد بن عبد الملك[2] التِّنِّيسِي قال: لمَّا وصلنا مع الشيخ أبي الفضل الجَوْهَرِي إلى المدينة، وأشرفنا على الثَّنِيَّةِ، ورأينا[3] القُبَّةَ، وأشرق لنا نورُها السَّاطع الطالع المتصل بالسماء في منتصف النهار، وقد أربى[4] على نُورِ/ الشمس؛ وَثَبَ الشيخ أبو الفضل عن بَعِيرِه وأنشد: ١ [١٢٧/ب]

نزلنا عن الأكوار[5] نَمْشِي كرامةً   لمن بان عنه أن يُلِمَّ[6] به رَكْبَا[7]

ومَشَيْنَا حتى بلغنا إلى المسجد، والشيخ أبو الفضل يُنْشِدُ هذه[8] الأبيات[9]:

---

(١) في (د) و(ص): في، وأشار إليها في (س).

(٢) بعدها في (ص): الصوفي.

(٣) في (د) و(ص): فرأينا.

(٤) في (ص): رَبَا.

(٥) في (س): الأكوان.

(٦) في (ص): نُلِم.

(٧) البيت من الطويل، وهو من قصيدة للمتنبي يمدح فيها سيف الدولة، ديوانه: (١٣٥/١).

(٨) قوله: «هذه الأبيات» سقط من (س) و(ص) و(ف).

(٩) من الخفيف، وهي في المنثور لابن الجوزي: (ص٢١)، ونفح الطيب: (٤٠/١)، والبيت الثاني في المدهش لابن الجوزي: (ص١٤٧)، لأبي بكر الشِّبْلِي.

قلـت للقلـب إذ تـراءى لعينـي   رَسْمُ دار لَهُـمْ فهَـاجَ اشـتياقي[1]
هــذه دارهــم وأنــت مُحِــبٌّ   ما احتباسُ الدموع فـي الآمَـاقِ[2]
والمغـاني للـصَّبِّ فيهـا معـانٍ   هـي تُـدْعَى مـصارع العُـشَّاقِ
حُلَّ عِقْدَ الـدموع واحْلُـلْ رُبَاهَـا   واهْجُرِ الصبر واقْضِ حَقَّ الفِرَاقِ

[مناجاةُ ابن العربي لرسول الله]:

ولقد وصلتُ إليها والحمد لله، وأشرفتُ من الثَّنِيَّةِ، ورأيتُ النور ساطعًا إلى السماء بفضل الله تعالى، وصلَّيتُ في الروضة، وناجيتُ الرسول وَحْدِي لَيْلًا من جهة رأسه، وتسمَّيتُ له، وتشفَّعتُ به، فنسأل الله الذي يختص برحمته من يشاء، ويمنُّ على من يشاء من عباده؛ أن لا يجعل ذلك عناءً، ولا يُصَيِّره هباءً، بفضله ورحمته.

قال الإمام الحافظ[3] ﷺ: ولمَّا كان الذِّكْرُ من الأسماء المتقدمة مع أصحابه، وكان على وجهين؛ منه ما يكون في الخلوة، كما جاء في الحديث[4]: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فذكر: ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»، وقد يَذْكُرُ[5] مع غيره، كما جاء عنه ﷺ أنه قال[6]: «من ذَكَرَني في نفسه ذَكَرْتُه في نفسي، ومن ذَكَرَني في مَلَأٍ ذَكَرْتُه في

(١) سقط هذا البيت من (د) و(س).
(٢) في (د) - أيضًا -: ما بقاء هذه الأبيات في الآماق.
(٣) في (ص): قال الإمام أبو بكر العربي.
(٤) تقدَّم تخريجه.
(٥) في (س) و(ف): نذكره، ومرَّضها في (د).
(٦) تقدَّم تخريجه.

مَلَأٍ خَيْرٍ من مَلَائِه» ، فهذا الذَّاكِرُ مع غيره هو مُذَّكِرُ[١] أيضًا ؛ لأن[٢] الله تعالى عند سماع من معه يذكرُه يَخْلُقُ له العلم الثاني به[٣] ؛ الذي هو الذِّكْرُ ، كما بيَّناه في حقيقته ، فصار المُذَكِّرُ من الأسماء المذكورة[٤] .

* * * * *

(١) في (ص): مذكور.

(٢) في (س) و(ف): لآلَاء.

(٣) في (س): له ، وسقط من (ف).

(٤) في (ص) و(س) و(ف): فصار من الأسماء المُذكِّر.

وهو الاسمُ الخامسُ والعشرون: المُذَكِّرُ[1]

لقولـه تعـالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:٢١]، وقولـه: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:٧]، وقولـه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

فأخبر الله تعالى أنه أرسل مُحَمَّدًا رسوله مُذَكِّرًا؛ فذَكَّر العاصين بالعقوبة والتخويف ليرتدعوا، وذَكِّر المطيعين بالثواب ليزدادوا رغبة؛ فيُكْثِرُوا من الطاعات والعبادات، وذَكِّر العالمين فيما صرفتُ عنهم من مِحَنٍ، وما أسديتُ إليهم من مِنَنٍ، وما أَنَلْتُهم من الفِعْلِ الحسن، وذَكِّر الأغنياء بما أَفَضْتُ عليهم[2] من الأرزاق، وذَكِّر الفقراء بعظيم ما صرفتُ عنهم لما[3] عوَّضتهم به[4]، وذَكِّر المبتلين بما ألزمتهم من الصبر، وذَكِّر المصابين بما وَعَدْتُهم من الأجر، وذَكِّر الداعين بما أخبرتهم به من الإجابة، وذَكِّر المجتهدين بما أعددتُ لهم من المثوبة[5]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[6] [ق:٣٧].

---

(١) سقط من (س) و(ص).

(٢) في (د) - أيضًا -: فيهم.

(٣) في (د): وما.

(٤) في (ص): وذكِّر الفقراء بما صرفتُ عنهم لعظيم ما عوضتهم.

(٥) ينظر: لطائف الإشارات: (٣/٤٧٠).

(٦) في (س) و(ف): إن في ذلك كله، ومرَّض «كله» في (د)، وخلت منها (ص).

[١٢٨/أ] قيل: عقل حاضر[١]/.

وقيل: قلب غير لَاهٍ، ولا مُشْتَغِلٍ بما لم يُنْدَبْ إليه.

﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾، أي: أصغى إلى ما يُقال له بباطنه، ولم يكن حيران من خِلَطِ الدنيا، ولا سكران من شرابها؛ بل كان على نُورٍ من ربه، فهو في اعتبار واستبصار[٢].

ومن[٣] الحديث الصحيح: «قَلْبُ المؤمن بين أُصْبُعَيْنِ من أصابع الرحمن»[٤]، تارة يدفع عنها[٥] البلاء، و يُفيض عليها[٦] النعماء[٧]، وتارة يغمسها[٨] في الظلماء، وقَلْبٌ يُكْسِبُه النعوت الحميدة، وقلب يكسوه الصفات الذميمة، فهو الذي قال فيه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾[٩]، أي: يسَّرته لقبوله، وطهَّرته من تضليله.

ومن الحكمة المبثوثة في القراطيس: «إن القلوب أواني، فأوعاها للخير أنورُها، وأجلاها ما رَقَّ وصَفَا منها، وقَلْبُ الكافر إناءٌ منكوس، لا

---

(١) لطائف الإشارات: (٣/٤٥٦).

(٢) ينظر: لطائف الإشارات: (٣/٤٥٦).

(٣) في (د) أيضًا: في.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه عن أنس بن مالك ﷺ: أبواب القدر عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم: (٢١٤٠-بشار).

(٥) في (ص): عنه، وأشار إليه في (د) و(س).

(٦) في (ص): عليه، وأشار إليها في (د) و(س).

(٧) سقطت من (س).

(٨) في (د) و(س) - أيضًا-: يغمسه، وفي (ص): يغيبه.

(٩) ينظر: لطائف الإشارات: (٣/٤٥٦).

يدخل فيه شيء، وقَلْبُ المنافق إناء مكسور، ما يلقى في أوله يخرج من أسفله، وقلب المؤمن إناء صحيح غير منكوس ولا مكسور[١]، يدخل فيه الإيمان ويبقى»[٢].

ولكن هذه القلوب مختلفة؛ فمنها مُلَطَّخٌ بالغفلات وفنون الآفات، ومنها صَافٍ عن الكدورات[٣].

[أحاديثُ القلوب]:

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي[٤] رضي الله عنه: الصَّحِيحُ في أحاديث القلوب أربعة:

الأوَّل: قوله ﷺ: «ألا إن في الجسد بَضْعَةً[٥]، إذا صلحت صلح الجسد[٦]، وإذا فسدت فسد الجسد[٧]؛ ألا وهي القلب»[٨].

الثاني: قوله: «إنه بين أُصْبُعَيْنِ من أصابع الرحمن»[٩].

الثالث: قوله ﷺ: «لا، ومقلب القلوب»[١٠]، **في يَمِينِه**.

---

(١) لم يرد في (س)، وفي (ص): إناء صحيح غير مكسور.

(٢) لطائف الإشارات: (٣/٤٥٦).

(٣) لطائف الإشارات: (٣/٤٥٦).

(٤) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي (ص): قال الإمام.

(٥) في (د) و(ص): مضغة، وأشار إليها في (س).

(٦) في (ص): سائر الجسد.

(٧) في (ص): سائر الجسد.

(٨) تقدَّم تخريجه.

(٩) تقدَّم تخريجه.

(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد، باب مقلب القلوب، رقم: (٧٣٩١-طوق).

الرابع: قوله: «تُعرض الفِتَنُ على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا، فأيُّ قلب أُشربها نُكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة بيضاء؛ حتى يصير على قَلْبَيْنِ، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبَدٌّ[1] كالكُوزِ مُجَخِّيًا[2]، لا يعرف معروفًا، ولا يُنكر منكرًا، إلا ما أُشرب من هواه»[3].

وهذه تكفيكم[4]، فلا تلتفتوا بعدها إلى سواها.

[أَيَّامُ الله]:

وأمَّا قوله تعالى لموسى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾؛ يريد أيام العافية والنعم، وهي الأيام[5] التي يعدُّها الحازم، وأيامُ الطاعة هي التي يعدُّها العالم.

قال لي عطاء المقدسي: «كان شيخ صوفي إذا كان له يوم صالح خالص جعل جَوْزَةً في بُرَنِيَّةٍ، فإذا سئل عن عمره أخرج البُرَنِيَّةَ وحلَّ شَنَاقَها، وعدَّد[6] الجَوْزَ، وقال: هذا عُمُرِي»[7].

١ وكذلك - لَعَمْرُ أبيكم - هو، فإنَّ يومك هو الذي لك، ويومُك [١٢٨/ب] الذي عليك لا يضاف/ إليك.

---

(١) في (س): مرباد.

(٢) في (س): مخجيًا.

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) في (س) و(ص) و(ف): هذا يكفيكم.

(٥) سقطت من (س).

(٦) في (ص): عدَّ.

(٧) ذكرها ابنُ العربي - أيضًا - في الأحكام: (١١١٦/٣).

وأين[١] أيامي التي كانت لي؟ ويا أسفي عليها، وإني لأقولُ فيها ما أخبرنا به أبو الفضائل[٢] بن طَوْق قال: أنشدنا الأستاذ أبو القاسم[٣]:

سَقْيًا لها ولطِيبِها ... ولحُسْنِها[٤] وبهائها

أيَّام لم تَلِجِ النَّوى ... بين العصا ولِحَائِها

وقيل[٥]: أَمَرَ الله موسى أن يُذَكِّرهم أيام العَدَمِ؛ أيَّام لم تكن[٦] للعبيد[٧] عين ولا أثر، ولا لمخلوق خبر ولا وفاق، ولا وفاء ولا نقضُ عَهْدٍ[٨]، ولا ذنب ولا التواء، كان متعلق العلم متناول القدرة، مقصور الحكم على الإرادة، وفي ذلك كله آياتٌ لكل صبَّار شكور، رَضِيَ بحكمه[٩]، بدَّل لذيذ العيش بأَشَرِّه[١٠]، ولكل شكور غَرَقٌ في المِنَنِ، ولم يخرج كل واحد منهما عن حده، وذلك كله دعاءٌ إلى الحق، واستنهاجٌ

---

(١) في طرة بـ (د): في خـ: وإن.

(٢) في (س): الفضل.

(٣) البيتان من مجزوء الكامل، وأنشدهما أبو القاسم القُشَيري في لطائف الإشارات: (٢/٢٤٠).

(٤) سقطت من (ص).

(٥) لطائف الإشارات: (٢/٢٤٠).

(٦) في (د): يكن.

(٧) في (ص): العبد.

(٨) في (د): في خـ: ولا نقض ولا عهد.

(٩) في (د): بحكمته.

(١٠) في (س) و(ص): بشَرِّه، ومرَّضها في (د)، وأثبتنا ما أورده في طُرَّته وصحَّحه.

لسبيل الله؛ كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥].

والدعاءُ إلى سبيل الله ما حَثَّ[١] على طاعة الله، وزَجَرَ[٢] عن المخالفة[٣].

والحكمةُ هي أن لا يخالف قولُه فعلَه[٤]؛ فيُدْعَى بالحَكِيمِ.

* * * * *

(١) في (س) و(د): بالحث، ومرَّضها، وفي (ص): والحث، والمثبت ما صحَّحه ناسخ (د) بطرته.

(٢) في (س) و(ص): زجرهم.

(٣) لطائف الإشارات: (٢/٣٢٩).

(٤) لطائف الإشارات: (٢/٣٢٩).

[الحَكِيمُ]: وهو الاسم السَّادس والعشرون

والموعظة: هو[١] كلُّ[٢] كلام يَخْلُقُ الله عنده قَبُولَ القلب لما يُلْقَى إليه من الخير.

والحسنة: هي ما صَدَرَتْ عن عِلْمٍ وصواب، برِفْقٍ ولِينٍ، دون أن يكون فيه تَعَسُّفٌ ولا تَعْيِيرٌ ولا إِخْجَالٌ[٣].

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَقُولاَ لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّناً﴾ [طه:٤٣]، فصار هذا أصلًا في الرِّفْقِ في الموعظة.

قال علماؤنا: «وإنما أمرهما بالمُلَايَنَةِ معه في الخطاب لأنه كان أوَّل ما دعوه إلى الدين، وفي حال الدعوة يجب التمكين؛ فإنه وَقْتُ المُهْلَةِ، فلا بدَّ من الإمهال، ريثما يَنْظُرُ؛ ألا ترى إلى قوله لنَبِيِّنَا ﷺ[٤]: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وهو الإمهال، حتى ينظروا ويستدلُّوا، وذلك حسب ما اقتضته صِفَةُ الحلم[٥]، فإن الخلق على حُكْمِ صفاته[٦] العُلَى وأسمائه

---

(١) في (د) - أيضًا -: هي، وسقطت من (ص).

(٢) في (د): قل.

(٣) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٣٢٩).

(٤) قوله: «لنبينا ﷺ» لم يرد في (س) و(ز).

(٥) في (ص): العلم.

(٦) في (س) و(ف) و(ص): صفات الباري.

الحسنى يُجْرَوْنَ، وكذلك قال الله تعالى: قل لهم[١]: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ:٤٦]، فإذا ظهر من المَدْعُوِّ العنادُ والإباءُ حينئذ يُقَابَلُ بالغلظة»[٢].

وقد[٣] قال بعض علمائنا[٤]: «علَّمهما لقاءَ الأكابر وإن كانوا كُفَّارًا، فلهم رُتْبَةُ[٥] التسلط[٦] على عباد الله»[٧].

وبهذا استدلَّ جَمَاعَةٌ من الزهَّاد على رِفْقِ الله بالمؤمنين[٨] عند السؤال؛ فإنه إذا كان يُشْرَعُ الرِّفْقُ في سؤال الأعداء الكافرين، فذلك أحرى من لُطْفِه بالمؤمنين، فيكون ذلك عُنْوَانًا على سؤال الملك في القبر؛ فإنه إذا رَفَقَ بمن جَحَدَه، فأولى أن يَرْفُقَ بمن وَحَّدَه[٩]/. [١٢٩/أ]

ومن أحسن عبارة فيه قولُ بعضهم: «ألا ترى إلى رِفْقِه بمن قال: أنا، فكيف ترى رِفْقَه بمن قال: أنت»[١٠].

---

(١) في (س) و(ف): قال الله له.

(٢) لطائف الإشارات: (٢/٤٥٩).

(٣) سقطت من (س).

(٤) في (س) و(ف) و(ص): بعضهم، ومرَّضها في (د)، وما أثبتناه أشار إليه في (س).

(٥) في (د) و(ص): رِقْبَة.

(٦) في (ص): التسليط.

(٧) لطائف الإشارات: (٢/٤٥٩).

(٨) في (د): المؤمن.

(٩) لطائف الإشارات: (٢/٤٥٩).

(١٠) لطائف الإشارات: (٢/٤٥٩).

وقيل: «رَفَقَ بموسى في تربيته فقيل له: ارفُق به[1] حتى تقضي حقه في الدنيا؛ فلا يبقى له في الآخرة مكافأة»[2].

وعلى هذا المعنى كَسَا النبيُّ ﷺ عبد الله بن أُبَيٍّ قَمِيصَه، وإن مات منافقًا، مكافأةً لقميصه الذي كَسَاهُ هو[3] يوم بَدْرٍ العبَّاس[4]؛ حتى يموت ولا يَدَ له عند النبي ﷺ في الآخِرَة.

والحِكْمَةُ العُظْمَى[5] في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٣]؛ أنه لم يُعْلِمْهُمَا أنه لا يؤمن، لئلَّا تلحقهما فَتْرَةٌ في الدعوة[6].

وكذلك شَأْنُ «المُذَكِّرِ»، يَعُمُّ بذكراه[7]، والباري تعالى يَخْلُقُ القَبُولَ لمن أراد، ومِن هذا كُلِّه يكتسبُ وَصْفَ «الواعظ».

* * * * *

---

(١) مرَّضها في (د).

(٢) لطائف الإشارات: (٢/٤٥٩).

(٣) سقط من (ص).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن جابر رضي الله عنه: كتاب الجنائز، باب هل يخرج الميت من القبر واللحد لعِلَّةٍ؟ رقم: (١٣٥٠-طوق).

(٥) في (س) و(ف): العظيمة.

(٦) لطائف الإشارات: (٢/٤٦٠).

(٧) في (س) و(ص) و(ف): بذكره.

[الوَاعِظُ]: وهو الاسمُ السَّابع والعشرون

وفي صَحِيحِ الحَدِيثِ: «كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلُنا بالموعظة مخافة السَّآمَةِ علينا»[١].

وصلَّى النبي ﷺ العيد ثم خطب الناس، ثم مشى إلى النساء فذكَّرهنَّ ووعظهنَّ، فجعلنَ يتصدَّقنَ، وطَفِقَتِ المَرْأَةُ تُلقي قُرْطَها وسِخَابَها وخَدَمَتَها في ثَوْبِ بِلَالٍ[٢].

فكان هذا دليلًا على سؤال الكبير للفقير الناسَ، وجمعه عنده حتى يُفَرِّقَه، وقد فَسَدَ الناسُ فزالت هذه الحال؛ لما يَلْحَقُ في ذلك من الظِنَّةِ، ويتطرَّقُ إليه من التُّهمة، ودخله من الفُجَّارِ من الخيانة والاحتجان دون من جُمِعَ له، وليست هذه الخصلة[٣] مختصة بمن يُبَشِّرُ ويُنْذِرُ بالوعد والوعيد، دون من يُبَيِّنُ الأحكام، ويَزْجُرُ عن مخالفة السُّنَّةِ[٤] وتَعَدِّي المصلحة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الدعوات، باب الموعظة ساعة بعد ساعة، رقم: (٦٤١١-طوق).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العيدين، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد، رقم: (٩٧٨-طوق).

(٣) في (د): الحلية، وضَبَّبَ عليها.

(٤) قوله: «ودخله من الفجار من الخيانة والاحتجان دون من جُمِعَ له، وليست هذه الخصلة مختصة بمن يُبَشِّرُ ويُنْذِرُ بالوعد والوعيد، دون من يُبَيِّنُ الأحكام، ويزجر عن مخالفة السنة» سقط من (ص).

ففي الصحيح عن ابن مسعود: «أن رجلًا قال: يا رسول الله، إني لأتأخَّر عن الصلاة في الفجر ممَّا يُطَوِّلُ بنا فلانٌ فيها، فغضب رسول الله ﷺ، ما رأيتُه غَضِبَ في موعظة[1] كان أشد منها[2] يومئذ[3]، ثم[4] قال: أيها الناس، إن منكم منفرين، فمن أَمَّ الناس فليَتَجَوَّزْ، فإن خَلْفَه الضعيف والكبير وذا الحاجة»[5].

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

فالموعظة للعامَّة، والشِّفَاءُ للخاصَّة، فهنالك من يُصغي بظاهره فلا يتأثَّر بذلك قلبُه، ومنهم من يُصْغِي بسِرِّه فيبلغ إلى قلبه فيُشْفَى من دائه على حسب دوائه[6]، فشفاء المذنب الرحمة، وشفاء المطيع النعمة، وشفاءُ العلماء بالله تعالى القُرْبَةُ، وشفاء العاصين التوبة، وشفاء المُحِبِّينَ لَذَّةُ المناجاة بالحكمة[7]، فيفرح السَّامعُ بذلك كله، وهو الذي/ [١/ب] ينبغي أن يُفْرَحَ به، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

---

(١) في (س): موضع، ومرَّضها في (د)، وفي (ص): مكان.

(٢) في (س): فيه، وأشار إليه في (د).

(٣) سقط من (س).

(٤) سقط من (س) و(ف).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه: كتاب الأذان، باب تخفيف الإمام في القيام وإتمام الركوع والسجود، رقم: (٧٠٢-طوق).

(٦) في (ص): دائه، وفي (د): خنائه، كذا قرأتها، والله أعلم.

(٧) ينظر: لطائف الإشارات: (١٠٢/٢).

يعني[١] ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾: أي: بإحسانه؛ الذي ليس بواجب عليه عند أهل السنة[٢].

والرَّحْمَةُ: إمَّا إرادة النعمة، وهي الأصلُ، أو نَفْسُ النعمة، وذلك لا يُحصى، كما أخبر الله تعالى[٣].

وقيل: فضل الله: ما أتاح لهم من الخيرات، ورحمته: ما أزاح عنهم من الآفات[٤].

وقيل: فضل الله: ما أكرمهم به من الطاعات، ورحمته: ما حماهم به من الزلَّات[٥].

وقيل: فضل الله: ابتداء[٦] التوفيق، ورحمته: دوام[٧] التحقيق، ما لم يسلبه عنهم.

وقيل: فضل الله: أنْ عرَّفهم بنفسه أوَّلًا بالأدلة، ورحمته: أن أراهم نفسه مُعَايَنَةً[٨].

وقيل: فضلُ الله: ما وَعَدَ به أهل الطاعة من إحسانه، ورحمته: ما خصَّ به أهل المعاصي من غفرانه[٩].

---

(١) في (د) - أيضًا -: معنى.
(٢) لطائف الإشارات: (٢/١٠٢).
(٣) لطائف الإشارات: (٢/١٠٢).
(٤) لطائف الإشارات: (٢/١٠٢).
(٥) لطائف الإشارات: (٢/١٠٢).
(٦) في اللطائف (٢/١٠٢): دوام.
(٧) في اللطائف (٢/١٠٢): تمام.
(٨) لطائف الإشارات: (٢/١٠٣).
(٩) لطائف الإشارات: (٢/١٠٣).

وقيل: فضل الله: الجنة، ورحمته: الرؤية[١].

وقيل: رحمته: رضاه الذي لا سَخَطَ بعده[٢].

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من مَالِ الدنيا، أو عَمَلِ الآخِرَة[٣].

ويَعْضُدُ ذلك الحديث الصحيح الذي كان يقوله النبي ﷺ عند تمامه من الصَّلاة: «اللَّهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعْطِيَ لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[٤]، وهذا من الأسماء الإلَهية، وهي أشرفها، فإنَّ كُلَّ اسم للرَّبِّ إذا[٥] أَذِنَ فيه للعبد فقد شَرَّفَه[٦]، فما أبقى المولى للعبد من الإحسان والشرف وجهًا إلَّا أَذِنَ له فيه؛ حتى[٧] في التَّسَمِّي[٨] باسمه، وقد بيَّنا أن اسم[٩] الحكيم[١٠] يرجع إلى العالم[١١]، والعاقل عالم[١٢]؛ فيُسَمَّى حكيمًا،

---

(١) لطائف الإشارات: (٢/١٠٣).

(٢) قوله: «وقيل: فضلُ الله: ما وَعَدَ به أهل الطاعة من إحسانه، ورحمته: ما خصَّ به أهل المعاصي من غفرانه. وقيل: فضل الله: الجنة، ورحمته: الرؤية. وقيل: رحمته: رضاه الذي لا سَخَطَ بعده» تقدَّم في (س) و(ف) و(ص) و(ز) عن موضعه هنا.

(٣) في (س) و(ف) و(ص): دنيا .. آخرة.

(٤) تقدَّم تخريجه.

(٥) ضبَّب عليها في (د)، وفي الطرة كلمة لم نتبينها، وصحَّحها.

(٦) في (ص): فهو شرفه.

(٧) قوله: «فيه حتى» سقط من (س) و(ص) و(ف).

(٨) في (س): في خـ: بالتسمي.

(٩) سقط من (س).

(١٠) في (س): الحَكَم.

(١١) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٢٣٠).

(١٢) سقط من (س).

والفَهِمُ عالم، وعِلْمُ[١] النُّبُوَّةِ عِلْمٌ شريف؛ فهو حكيم، والعملُ بما عَلِمَ عِلْمٌ[٢]، ولذلك قال النبي عليه السَّلام[٣]: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[٤].

ويُسَمَّى الفِعْلُ المنتظم به[٥] حِكْمَةً، والقول الصائب؛ لأنه عن العلم يَصْدُرُ، كما يُسَمَّى المقدورُ قُدْرَةً، والباري تعالى حكيم؛ لأنه لا يُوقِعُ أفعاله إلَّا على مقتضى إرادته، وذلك بحسب ما عَلِمَ، ولا يكون موجودٌ[٦] إلَّا أن يريده الله عَزَّ وجل، كيف ما كان؛ من طاعة أو معصية.

وغايةُ الحكمة أن يعمل المرءُ بما عَلِمَ، كما قال الأوَّل:

يا أيُّها الرجل المُعَلِّمُ غيره ... هلَّا لنفسك ذلك التعليمُ[٧]
تصفُ الدواء من الظَّما ومِـ ... ـنَ الضنا ودواه أنت سقيمُ[٨]
ابدأ بنفسك فانْهَها عن غَيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك ينفعُ إن وَعَظْتَ ويُقتدى[٩] ... بالعلم منك وينفعُ التعليمُ[١٠]

---

(١) سقط من (س).
(٢) في (ص): والعمل بها علم.
(٣) في (س) و(ف) و(ص): ﷺ.
(٤) تقدَّم تخريجه.
(٥) لم ترد في (ص) و(د).
(٦) في (س) و(ف) و(ص): موجودًا.
(٧) لم يرد في (د) و(س).
(٨) لم يرد في (د) و(س).
(٩) في (ص): يهتدى.
(١٠) تقدَّم تخريجها.

وفي معارضته قال سفيان بن عُيَينة:

اعملْ بعِلْمِي ولا تنظر إلى عَمَلِي   يَنْفَعْكَ عِلْمِي ولا يَضْرُرْكَ تَقْصِيرِي[١]

وفي ذلك كلام طويل ذكرناه[٢] في[٣] مواضعه؛ حسبما أشرنا إليه في «قانون التأويل»[٤].

والصحيحُ هو الأول، ولكن إذا سمعت حَقًّا فَخُذْهُ، وإن كان من لسان مُبْطِلٍ، واسْتَنِرْ أنتَ به، وإن احترقَ هو فيه، ولا يَقْدِرُ على ذلك كلُّ أحد، وإنما يكون كذلك من خَصَّه الله به، كما قال تعالى:/ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٨].

١ [١٣٠/أ]

فأخبر أن الحكمة يؤتيها من يشاء، ولا يتذكَّر بالذِّكْرَى إلَّا من كان له لُبٌّ، أي: من[٥] كان علمُه[٦] حاضرًا، ولم تَلْحَقْهُ غفلة.

وأصلُ الحكمة أن تحكم نفسك، فمن لم يحكم نفسه فليس بقوي ولا ذي[٧] حِكْمَةٍ، ولهذه الحكمة طهَّر الله نبيَّه داود ممَّا نسبه إليه أهلُ التفسير؛ ممَّا كذبت عليه الإسرائيليَّة؛ من أنه شُغِفَ بالمرأة، وعرَّض

---

(١) من البسيط، وهو للخليل بن أحمد الفراهيدي في المعارف لابن قُتَيبة: (ص٥٤٢)، ولباب الآداب للثعالبي: (ص١٦١)، وسِمط اللآلي: (٨١٥/١).

(٢) في (س): اذكروه، وفي (ص): مذكور.

(٣) في (س) و(ص): من.

(٤) قانون التأويل: (ص٢٥٤-٢٥٥).

(٥) في (د): كمن.

(٦) في (ص): عقله.

(٧) في (د): ذا.

زَوْجَها للمَنِيَّةِ، وخَلَفَه عليها، وهذا افتراءٌ على الله وعلى رسوله، وقد بيَّناه في «أنوار الفجر»[(١)]، و«الأحكام»[(٢)]، و«كتاب الأنبياء».

وقد قال الله سبحانه في أوَّل السورة: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٦].

يعني: ذا القوة.

فأثبت له القوة، ولا قوة لمن غلبته نفسُه في الهوى، فاقتضى هذا القولُ نَفْيَ ما نَسَبَهُ[(٣)] إليه الجَهَلَةُ عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:١٩]، وأصلُها كما بيَّنا أن يحكم نفسه، فأخبر الله عنه أنه قَوِيٌّ حَاكِمٌ على نفسه، فكيف تغلبه نَفْسُه[(٤)] على علاقة حُبِّ امرأة ومعه منهن تِسْعٌ[(٥)] وتسعون امرأة؟ هل هذا إلَّا عين المحال على ذوي[(٦)] الهيئات والمروءات؟ فكيف على أهل النبوات؟ وما عَمِلَ داودُ إلا ما أخبر الله عنه، ولا عاتبه إلا على ما أخبر أنه فَعَلَه، فاقرأ القِصَّةَ واعلم ما قاله الله فاعتقده، ولا تَزِدْ عليه، فإنه الصادق، وهم الكاذبون.

وإذا أردتم أن تكونوا حكماء فعليكم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله؛ فهي الغاية، وإيَّاكم وهذه الكتب التي تُنْسَبُ إلى الحكمة، فإنها مجموعة

---

(١) في (س) و(ف): الأنوار.

(٢) أحكام القرآن: (٤/١٦٣٤).

(٣) في (س) و(ف): نسب.

(٤) في (س) و(ف): نفس.

(٥) في (د): تسعة.

(٦) في (ص): ذي.

من أقوال الفلاسفة[١] والمُعَطِّلَةِ؛ ككتاب «دِمْنَةَ وكَلِيلَةَ» الذي[٢] تَرْجَمَهُ الملحدون، والكتب التي جمعتها الملحدة؛ كالجاحظ وغيره، لِيُشْغِلَ[٣] بها الخلقَ عن كلام الله وكلام نَبِيِّه[٤]، ودُسَّ فيها من كلام الله تعالى وكلام نَبِيِّه ما لم يصح؛ ليصيد[٥] بذلك قلوب الفتيان، ويجذب إليها أعناق الرُّعنان[٦]، حتى يكون المُتَحَذْلِقُ منهم في جملة أهل الغفلة من[٧] الرُّعيان.

[التَّعْرِيفُ بأبي الفضل الجوهري ونوادره]:

ولم يكن في المتأخرين من الصَّالحين أعظم رتبة[٨] من أبي الفضل الجَوْهَرِي، وإن كان لم يكن عنده عِلْمٌ، ولكن[٩] كان عنده طَبْعٌ.

أخبرني الحاجُّ أحمد بن محمد اليَمَنِي[١٠]، قال لي[١١]: دخلتُ عليه فقلتُ له: أريد أن أحج، وقد تردَّدت بين الجادَّة أو الصعيد، فعلى أيهما تَدُلُّنِي؟ فقال لي: ارفع يديك فقُلْ:

---

(١) في (ف) و(د): الفسقة، ومرَّضها.
(٢) في (س) و(ف): التي.
(٣) في (س) و(ف): لتُشْغَلَ.
(٤) في (د): كلام الله تعالى ورسوله.
(٥) في (د) و(ص): ليتصيَّد، وضعَّفها في (د)، وكتب في طرته: ليتعبد، من غير تصحيح.
(٦) في (س) و(ف): الرعثان.
(٧) قوله: «ويجذب إليها أعناق الرُّعنان، حتى يكون المتحذلق منهم في جملة أهل الغفلة من» سقط من (ص).
(٨) في (ص): وثبة.
(٩) في (س): لا.
(١٠) لم أهتد إلى معرفته، وهو من أصحاب أبي الفضل الجوهري، وغالب الظن أن يكون لقيه بمصر، فقد أخذ ابنُ العربي عن عَدَدٍ من أصحاب الجوهري، والله أعلم.
(١١) ضبَّب عليها في (د).

يـــا لطيفًـــا بعبـــده أنـــت تعطـــي وتمنـــعُ
قـــد تحيَّـــرتُ ســـيدي دُلَّنِـــي كيـــف أصـــنعُ[١]

[١٣٠/ب] فَقُلْتُهـا ، ففَـتَحَ الله لـي ورَكِبْـتُ الـصعيد ؛/ فـصعدت علـى حـاجتي ، وقضيتُ حَجَّتي.

وأخبرني محمد بن عبد الملك التِّنِّيسِي ، قال لـي[٢]: كـان الـشيخ أبـو الفضل الجوهري[٣] وإن لم يكن عنده[٤] عِلْمٌ ، فكان عنده دِينٌ وفَهْمٌ وطَبْعٌ ؛ أصبح يومًا فقال في مجلسه: أرسلتُ البارحة في سُكَّرٍ يُبتاع لي ، فجـاء[٥] بـه الرسول ، فلما أَدْنَيْتُه مني وجدت عليه رائحة الـصِّيرِ[٦] ، فقلـت لـه: مـا هـذه الرائحة[٧] عليه؟ فقال لي: ما أدري ، فقلت لـه: ارجـع فانظرهـا ، فرجـع إلـى الفامي[٨] فوجد زِيرَ[٩] زجاج كان فيه السُّكَّرَ يجاور زِيرَ زجاج كان فيه الـصِّيرُ المُمَلَّحُ ، وذكر أنه تعلَّق به من ذلك ، فقلـتُ: آهْ[١٠] ، أَوْصَـلَ إليـه الأذى مـن وراء حجـاب ، وبقيـتُ مُـتَمَلْمِلًا علـى الفـراش أعجـبُ مـن خَـرْقِ الرائحـة

---

(١) البيتان من مجزوء الخفيف ، ولم أقف عليهما في غير هذا الديوان.
(٢) ضبَّب عليها في (د).
(٣) سقط من (د) و(ص).
(٤) في (د): له.
(٥) في (د) و(ص): فجاءني.
(٦) في (د) و(ص): صير.
(٧) في (د): الرائي.
(٨) الفامي: بائع الفُوم ؛ وهي الحنطة والحمص ، تاج العروس: (٢٢٢/٣٣).
(٩) الزِّيرُ: الدَّنُّ ، تاج العروس: (٤٨٣/١١).
(١٠) في (ص): إذًا.

للحُجُبِ ووصولها إلى قلب السُّكَّرِ[١]؛ وتأثيرها فيه بكثرة الملازمة، وطول المجاورة، وتمادي الصحبة، وجعل يضرب لذلك مثلًا للقلب وتأثيره بما عليه[٢] من الحُجُبِ بما يُلقى[٣] إليه، حتى مضى أكثرُ النهار، وما انقطع له الكلام بكل نادرة.

أخبرني أبو عبد الله محمد بن قاسم العُثْمَانِي[٤]، قال لي: إن مصر كما تراها من غلبة الفجور، واستيلاء الفسق، وعلانية الملاهي، وتَجَرُّمِ الخلق، وانهماكهم[٥] في كل معصية، ولا يقدرُ أحدٌ من خَلْقِ الله على التغيير، وما كان أبو الفضل الجوهري ولا غيرُه ممَّن يستجرئ على الخروج منها، فاتَّفق ليلة أن يَبِيتَ في جواره دَسْتٌ عظيم[٦]؛ من زَمْرٍ وطَبْلٍ ودَكٍّ، فشغله ذلك عن العبادة، وأصبح إلى المجلس وقال: يا أصحابنا[٧]،

---

(١) في (د): قبب.

(٢) في (د): ضرب عليه، وعلى «ضرب» تضبيب.

(٣) في (د): يلقي.

(٤) الفقيه الشَّهِيد، محمد بن قاسم العُثماني، أبو عبد الله الكاتب، نزيل بيت المقدس، روى عنه ابنُ العربي «نوادر أبي الفضل الجوهري»، و«قصيدة ابن عبد الصمد السرقسطي» في إكرام الشيوخ والبِرِّ بهم، وسمعها منه ببيت المقدس، وروى عنه «قصيدته في مناسك الحج»، وسمعها منه بمصر، ويُفْهَمُ من نَعْتِ ابن العربي له بالشهيد بأنه من جُمْلَةِ من استُشْهِدَ من المرابطين ببيت المقدس، فتكون وفاته في شعبان من عام ٤٩٢هـ، عند دَخْلَةِ الصَّلِيبِيِّينَ، ينظر: قانون التأويل: (ص٨٩)، وأحكام القرآن: (١٧٤٢/٤)، وفهرس ابن خير: (ص٥٠٧).

(٥) في (د) و(ص): انهمالهم.

(٦) سقط من (س).

(٧) في (س) و(ف) و(ص): «وقال: أصحابي».

جاورني البارحة وُعَّاظٌ ملؤوا مسامعي حكمةً الليل كلَّه؛ صاحبُ نَايٍ، وصاحبُ قرقرة؛ وهي التي تُسَمَّى هاهنا أَجْوَال[١]، وصاحبُ كَبَرٍ، قال: فأمَّا صاحبُ النَّايِ ففَتَحَ باب الدَّعْوَى؛ فكان يقول: «لي، لي، لي»، فيقول له صاحب القرقرة: «لي ولك، لي ولك»، فيقول له صاحب الكَبَر: «ستعلم ستعلم، إذا كُشِفَ الغطاء فتندم، رَمْ رَمْ، رَمْ رَمْ[٢]»، فكان ذلك مثلًا لتنازع رجلين في الدنيا؛

أحدهما: يريد[٣] أن يختص بها[٤] قَسْرًا.

والآخر: يريد أن يُداريَها، ويتمتَّع بها شركة.

والثالث: زاهد فيها، عارف بها[٥]، يقول لكل واحد منهما: «ما[٦] أنت اليوم إلَّا[٧] في عَمًى، وسينكشف لك الغطاء غدًا؛ فتبصر حين لا تنفعك تَبْصِرَةُ الهدى».

وقُضِي[٨] المجلس من[٩] هذا الفن[١٠] في غرائب.

---

(١) في (ص): الدف، وفي (د): أغوال، وما زال هذا اللفظ يستعمل عندنا بشمال المغرب.

(٢) قوله: «رم رم، رم رم» سقط من (ص).

(٣) سقط من (س).

(٤) سقطت من (س).

(٥) في (ص): بقدرها.

(٦) سقطت من (س) و(ف) و(ص).

(٧) سقطت من (س) و(ف) و(ص).

(٨) في (س): قضى، وفي (ص): مضى.

(٩) في (ص): في.

(١٠) سقط من (د) و(س).

فانظروا - رحمكم الله - إلى فَهْم هذا الرجل وسَعَةِ ذِهْنِه، كيف غُلِبَ على سماع المنكر، ولم يستطع أن يُغَيِّرَ ولا أن يُصِمَّ أُذُنَيْهِ، فقبِلَه[١] على[٢] الحق وردَّه إلى الخير، واتَّعظ به اللَّيْلَ كلَّه، فكأنه كان صاحب مجلس/ يُلقي إلى الخلق[٣] الخير[٤]، وهذا حُكْمٌ ضروري، كَشْفُ سَرِيرَةٍ من عِلْمٍ دِينِيٍّ. [١/١٣١أ]

وقد كنتُ أعجبُ من هذا[٥] حتى عَلِمْتُ من أين أَخَذَها، أو من وافق فيها إن كان لم يرها؛ وهو علي بن أبي طالب ﷺ، فإنَّ[٦] في «كتب الزهد» أن عليًّا ﷺ سَمِعَ ناقوسًا يُطَنْطِنُ، فقال: «أتدرون ما يقول هذا الناقوس؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: كذا، وذَكَرَ[٧] تقديسًا للباري وتعظيمًا»[٨].

وكنتُ أعجب أيضًا[٩] من ذلك حتى تَبَيَّنْتُ[١٠] قَوْلَ الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) في (س): في خـ: فقَلَبَهُ، وأشار إليها في (د).

(٢) سقط من (ص).

(٣) في (س): الناس، وما أثبتناه صحَّحه في طرته، وهو الذي في (د).

(٤) قوله: «واتعظ به اللَّيْلَ كله، فكأنه كان صاحب مجلس يُلقي إلى الخلق الخير» سقط من (ص).

(٥) قوله: «من هذا» سقط من (س).

(٦) في (س): قال.

(٧) في (ص) و(ف) و(س): وكذا.

(٨) رسالة القُشَيري: (ص٣٨٢).

(٩) في (س) و(ف) و(ص): أيضًا أعجبُ.

(١٠) في (ص): تلوتُ.

قال ابن عبَّاس: «كُفْرُ الكافر تسبيحٌ لله وتقديسٌ».

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي[١] ﷺ: المعنى[٢] فيه: أنه أَمْرٌ جرى بقَدَرِ الله وإرادته، مع ما فيه من مخالفة أمره، وتَعَدِّي حَدِّه، وذلك دليلٌ على سَعَةِ مُلْكِه، وبديع حِكْمَتِه، وانفراده بعلمه، وإلزامه الخلق التسليم لأمره، والإقرار بالعجز عن دَرْكِه.

قال الإمام الحافظ أبو بكر[٣] ﷺ: وذلك لما قدَّمنا بيانه؛ بأنه[٤] ما من شيء إلَّا يُسَبِّحُ بحمده[٥]؛ يعبد الله كما يجب للمولى على عبده، ويُسَبِّحُ كما يستحق[٦] بحمده، «ومن لم يُسَبِّحْ تَسْبِيحَ قَالَة، سبَّح تَسْبِيحَ حَالَة[٧]»[٨].

فإذا رتَّب هذا من قوله ونَظَمَه من كلامه سُمِّيَ «القاص».

* * * * *

---

(١) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي (ص): قال الإمام.

(٢) بيَّض لها في (د).

(٣) في (د): قال الإمام الحافظ، ولم يرد في (ص).

(٤) في (ص): لأنه.

(٥) قوله: «يسبح بحمده» سقط من (د) و(ص).

(٦) في (ص): سبق.

(٧) في (س) و(ص) و(ف): دلالة.

(٨) لطائف الإشارات: (٢/٣٥٠).

[القَاصُّ]: وهو الاسمُ الثامن والعشرون

وحقيقتُه: هو الذي يُتْبِعُ القَوْلَ القَوْلَ، والقَصَصُ هو القول الثاني، كما أنه في الفعل: وَضْعُ الأثر على الأثر، وهو من أسماء الباري من حيث الأفعال.

قال الله سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١١٩]، فقَرَنَ بين الثلاثة الأسماء؛ «القاصِّ»، و«المُذَكِّرِ»، و«الواعظِ».

وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «يرحم الله موسى؛ وَدِدْنا لو صبر حتى يقصَّ الله علينا من أمرهما[١]»[٢].

فعرَّفه الله تعالى أخبار[٣] النَّبِيِّينَ، وسيرة المرسلين[٤] الماضين، ومُقاساتهم للأمم، وصبْرهم على الأذى، ونصْرهم على الأعداء، ليُثَبِّتَ نفسه؛ لما يُقاسي من عنادهم، وليتعلَّق بالرجاء في إرشادهم، ويسعد[٥]

---

(١) بعده في (س) و(ف): شيئًا.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي بن كعب ﷺ: كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله، رقم: (١٢٢- طوق).

(٣) في (د): بأخبار.

(٤) سقطت من (س)، وفي (ص): سيرة الصالحين.

(٥) في (س) و(ف): يصعد.

بمنزلة[١] عند الله بما ولَّاه[٢] من ذلك وتولَّاه، وليكشف له[٣] بذلك عن شَرِيفِ منزلته التي رقَّاه[٤] إليها، ممَّا لم يَرْتَقِ إليها[٥] أحدٌ[٦].

ومن عظيم تشريفه أنه أَطْلَعَهُ على أخبار من مضى، ولم[٧] يَطَّلِعْ على خبره[٨] أحد[٩]، وقد نالت هذه البركةَ أُمَّتُه، فإنها عَرَفَتْ أخبار الماضين، ولم يعرف لها أحدٌ خبرًا[١٠] سواها.

وقد قيل: «إن ثبوته بمن يُسْمِع كان أكثر من ثبوته واعتداده[١١] بما يُسْمَع، وأُنسُه بالمُحَدِّثِ كان أكثر من أُنسه بالحديث»[١٢].

والقَصَصُ والتَّذْكِيرُ[١٣] سيرة سابقة؛ لم تَزَلْ في عهد الخلفاء، وبحضرة الصحابة والعلماء، وكان يدخل فيها من ليس من أهلها فيُصَدُّ

---

(١) في (س) و(ف) و(ص): منزلته.

(٢) في (ص): والاه.

(٣) سقطت من (س).

(٤) في (س) و(ف) و(د): أرقاه، ومرَّضها في (د).

(٥) في (ص): إليه.

(٦) لطائف الإشارات: (٢/١٦٣).

(٧) في (ص): لا.

(٨) في (د): أخباره.

(٩) لطائف الإشارات: (٢/١٦٣).

(١٠) قوله: «وقد نالت هذه البركة أمته، فإنها عرفت أخبار الماضين، ولم يعرف لها أحدٌ خبرًا» سقط من (س).

(١١) في (س): اعتذاره، وهو تصحيف.

(١٢) لطائف الإشارات: (٢/١٦٣).

(١٣) في (ص): الحديث، وفي (س): التذكير، وكتبه بلون أحمر، كأنه ترجمة من تراجم الكتاب.

ويُمْنَعُ، ثم اتَّسَعَ الخَرْقُ على/ الرَّاقع، وجاء من اختلال[1] الحال ما ليس له دافع[2]، وانتهت الحال إلى أن يُقَصَّ بأقبح القصص؛ من الكذب والمحال وما لا أصل له في الدين، وباض الشيطان وفرَّخ، وسلخ[3] من الإسلام من سلخ، حتى لم يَبْقَ للعلم طَبَاخٌ[4] بما اعتجن من الباطل واطَّبخ، ودعا إلى مأدبته الجَفَلَى، فعمَّ بهذه الحادثة في الأقطار كلها البلاء، ودخل فيه المُدَّعُونَ على العلماء، والسفهاء على الحكماء[5]. [١٣١/ب]

كنتُ يومًا بمسجد[6] «بَابِ[7] أَبْرَزَ»[8] في مجلس[9] أبي عبد الله[10] بن أبي نَصْرٍ التَّمِيمِي المُتَكَلِّمِ[11]؛ ونحن نقرأ في

---

(١) في (د) و(ص): انحلال.

(٢) في (ص): ليس بدافع.

(٣) في (س): سرخ.

(٤) في (س): طبخ، وفي (ص): طباخًا.

(٥) في (د): الحكمة.

(٦) في (د) - أيضًا -: بدمشق، وسقط من (ص).

(٧) في (د): بباب.

(٨) باب أبرز: أحد أبواب بغداد.

(٩) في (ص): مسجد، وأشار إليه في (د).

(١٠) في (ص): محمد.

(١١) الإمام الحافظ، المقرئ المتكلم، محمد بن عَتِيق بن محمد بن أبي نصر التَّمِيمِي القَرَوِي، أبو عبد الله بن أبي كُدَيَّة، أخذ بالقيروان عن الإمام أبي عبد الله الأَذَرِي، صاحب القاضي أبي بكر الباقلَّاني، دَرَسَ عليه عام ٤٤٣هـ، وهذا يُفِيد أن الأَذَرِي كان حيًّا في ذلك التاريخ، وهو تاريخ ابتداء دراسته للكلام، وقد اختلف الناس في تاريخ وفاته، فذكر الرُّشاطي أنه توفي =

سقيفة[١] المسجد، وفي صَدْرِه واعظ، وقد اغتصَّ المسجد بأهله، ولمَّا انقضت القراءةُ لَفَتُّ إلى سماعه لَحْظَةً من خاطري، فسمعته ينشد الناس[٢]، وجَعَلَ يقول[٣]:

جُرْحُ قلبي من الهوى ليس يَبْرَا ... كيف يبرا وقد تعشَّق[٥] بَدْرَا

أنا إن مُتُّ فاحْفِرَا[٤] ليَ قبرَا ... عند دار الحبيب يا لَكَ قَبْرَا

واكْتُبَا من دمي على لَوْحِ قَبْرِي ... رحم الله عاشقًا مات صَبْرَا[٦]

=عام ٤٢٣هـ (تراجم المؤلفين التونسيين: ١/٤٥)، وأرَّخه ابن الذهبي ضمن من تُوُفِّيَ قريبًا من الأربع مائة والأربعين (تاريخ الإسلام: ٩/٦٠٠)، وهذا التاريخ الذي أوردناه يُؤكد ما ذكره ابن الذهبي، وقد أخذ أبو عبد الله بالأندلس عن ابن عبد البر، وسمع بمصر من الشِّهاب القُضاعي، ودخل دمشق قبل عام ثمانين وأربع مائة، لقيه ابنُ العربي ببغداد، وأخذ عنه واختصَّ به، وكان أبو عبد الله قائمًا بعلم الكلام، مناظرًا فيه، مُسْتَوْلِيًا على مباحثه ومطالبه، فتصدَّر بالنِّظامية، وأخذ الناس عنه ذلك، ورَمَتْهُ الحَنْبَلِيَّةُ بما هو بَرَاءٌ منه، وجَرَتْ له معهم فِتَنٌ ومِحَنٌ، مات - رحمه الله - عام ٥١٢هـ، وقد نَيَّفَ على التسعين، ودُفِنَ في تُرْبَةِ إمام أهل السنة أبي الحسن الأشعري، ترجمته في: تاريخ دمشق: (٥٤/١٨٨-١٩٠)، ومعجم البلدان: (٤/٤٢١)، وسير النبلاء: (١٩/٤١٧-٤١٨)، والوافي بالوفيات: (٤/٥٩).

(١) في (د): سقيف.

(٢) سقطت من (ص).

(٣) قوله: «وجعل يقول» سقط من (س) و(ص) و(ف).

(٤) في (ص): فاحفروا، وفي البيت الذي يليه: واكتبوا.

(٥) في (س): تعشقت.

(٦) الأبيات من الخفيف، ولم أقف عليها في ديوان آخر.

وإذا به يتكلَّم في الزيارة ويُشَوِّقُ[١] إليها، ويتمنَّى أن يكون بها، وأن يموت عندها؛ فيدفن[٢] في ذلك الجوار الكريم.

[نَقْدُ إطلاق العشق على الله تعالى]:

وللصوفية في إطلاق العِشْقِ على الله تجاوزٌ عظيم، واعتداء كبير، ولولا إطلاقُه للمحبة ما أطلقناها عليه[٣]، فكيف أن نتعدَّاها[٤] إلى سواها من ألفاظ المُجَّانِ[٥]؟ وليس لها[٦] أصل في الشريعة، وقد يكون لانتزاع المعاني من الشعر[٧] وَجْهٌ، ولكن ليس بهذا[٨] الإفراط الذي لا يَحِلُّ.

[حكاية]:

وكان ببغداذ واعظٌ[٩] يقال له ابن عطاء[١٠]؛ يتكلَّم على الخاطر، ذَكَرَ

---

(١) في (ص): يتشوق.

(٢) في (ص): ويدفن.

(٣) سقط من (د) و(س).

(٤) في (س) و(ف) و(ص): تتعدَّاها.

(٥) في (س): المجاز، وفي (ص): المحال.

(٦) في (د) و(ص): له.

(٧) في (ص): السر.

(٨) في (د): إلى هذا.

(٩) في (ص): وعاظ منهم.

(١٠) الإمام الزاهد، العالم العابد، أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، أبو العباس الأَدَمِي الصُّوفِي، من طبقة الجُنَيد، ومن أنبل متصوفة بغداد، له لسانٌ في فهم القرآن، ويؤثر عنه كلمات لِطَافٌ في الأحوال والمقامات، توفي ببغداد عام ٣٠٩هـ، ترجمته في: طبقات الصوفية للسُّلَمي: (ص٢٦٥-٢٧٢)، وحلية الأولياء: (١٠/٣٠٢-٣٠٥)، وتاريخ بغداد: (٦/١٦٤-١٧٠)، ورسالة القُشَيري: (ص٧٤).

يومًا على المنبر قصة يوسف؛ وبرَّأه ممَّا نَسَبَ إليه المبطلون وجَهِلَه المفسرون، فقام رَجُلٌ من أفناء[(١)] الناس في آخر المجلس فقال له: يا سيدنا الإمام؛ فإذًا يوسف هَمَّ وما تَمَّ، فقال له على البديهة: نعم؛ لأن العناية جاءت من ثَمَّ، ورفع يده[(٢)] إلى السَّماء[(٣)].

[من آفات الوُعَّاظِ]:

ولهم في الكذب تَلْفِيقَاتٌ مُزَوَّرَةٌ يقصدون بها التَّمْلِيحَ[(٤)]؛ هي[(٥)] تُكِبُّهم[(٦)] على وجوههم في النار، سمعتُ واعظًا منهم بالرَّيْحَانِيِّينَ تحت المنظرة بالدار العزيزة، وهو يقول: «لمَّا كُسِيَ آدمُ الحُلَّةَ، ووُضِعَ على رأسه التاج؛ خطا ثلاث خطوات، فأخذت الخطوة الأولى الملوك فتَجَبَّرَتْ[(٧)]، وأخذت الثانية أهل المعاش فسَعَتْ في الآفاق واضطربت[(٨)]، وأخذت الخطوة الثالثة الصوفية فتواجدت»، فهذه كذبة شنعاء؛ لأن آدم لم يفعل شيئًا من ذلك، ولا رواه بَشَرٌ، وما كان له[(٩)] ليتكبَّر في حال من الأحوال، ولا في موضع من/ المواضع، فكيف في الجنة؟ ولا بين الخُطا والسَّفَرِ[(١٠)] [١٣٢/أ]

---

(١) في (ف): أبناء.
(٢) في (د) و(ص): يديه.
(٣) ينظر: أحكام القرآن: (١٠٨٢/٣-١٠٨٣).
(٤) في (ص): الملح، وفي (د): التلويح.
(٥) في (س): حتى.
(٦) في (س): يكبهم.
(٧) في (ص): فتبخترت بها.
(٨) قوله: «في الآفاق واضطربت» سقط من (ص).
(٩) سقط من (د) و(ص).
(١٠) في (ص): السعي.

والوَجْدِ نسبة، وكانت[١] هذه كذبة فاترة غير متناسبة[٢]، مُؤْثِمَةً غير مستحسنة عند الجاهل ولا مُسَلَّمَة.

[طرائقُ الوُعَّاظِ]:

ومن أحسن ما شاهدتُ منهم[٣] أن عالمًا عَتَبَ عليه السلطان بغير ذنب، وهمَّ بعقوبته، وحَجَرَ عليه العلم والخَلْقَ، ثم عفا عنه، وأَذِنَ له في الجلوس، فلمَّا رقى المنبر وقرأ القارئ؛ فلمَّا أكمل عُشْرَهُ قام على رِجْلَيْهِ وأنشد[٤]:

أَلَمِي ما مثله أَلَمُ ... وسقامي دونه السَّقَمُ
هكذا في البِرِّ[٥] يُفعل بي ... كيف لو زَلَّتْ بيَ القَدَمُ

ثم زَهق[٦] على المنبر وتدحرج على درجاته، حتى وصل إلى الأرض على قَدَمَيْهِ مُسْتَقِلًّا، لم تتغيَّر له هيئة من لباسه، ثم عاد مسرعًا إلى المنبر، وأنشأ القَوْلَ في وعظه.

ورأيتُ منهم[٧] رجلًا يتكلَّم على محاسبة العبد على الذنوب يوم القيامة بين يدي الله، وتقريرِه عليها[٨] ذنبًا ذنبًا؛ عبدي تذكرُ يوم كذا وكذا؛

---

(١) في (د) و(ص): فكانت.
(٢) في (د) و(ص): مناسبة.
(٣) سقط من (س).
(٤) البيتان من المديد، ولم أقف عليهما في كتاب آخر.
(٥) في (ص): بالبر.
(٦) في (ص): زعق عن.
(٧) في (س) و(ف): منها، وسقطت من (ص).
(٨) في (ص): عليه، وسقط من (س).

إذ فعلتَ كذا وكذا، فقام رجل من الصوفية مُتَعَبِّدٌ؛ ورمى بنفسه بين يديه، وطَرَحَ ثيابه مِنْ عليه، وجعل يقول: أنا هو ذاك، بالله نَادِ عليَّ، فلم يبق أَحَدٌ إلا تخيَّل الحالة وبكى، وعلا[١] ذلك في المجلس حتى وجدتُ قلبي على جموده[٢] قد لَانَ، وانحللتُ حتى وقعتُ على حائط المقصورة بظَهْرِي من رِقَّةِ القلب.

[مجلسُ الإمام أبي منصور الشيرازي]:

وحضرتُ يومًا مجلس شيخنا الإمام أبي منصور الشيرازي بنهر مُعَلَّى، وعادةُ الوُعَّاظِ ألَّا يرقى المنبر إلا عالم يجيب عن كل سؤال، ويستوي على المنبر، ويأخذ[٣] القراءُ القاعدون بين يديه في القراءة، فتُرمى الرقاع بالأَسْوِلَةِ[٤] من كل جانب، وتتداولها الأيدي حتى تبلغ إليه، فيجعلها تحت ركبتيه، فإذَا تَمَّ القارئون أخذها واحدة واحدة، وقال: هذا يسأل عن[٥] كذا، وجوابُه كذا، فلا يتلعثم في واحدة منها، ويأتي بكل ما يَحْسُنُ ويَشْفِي الصدور ويكمل، فكتبتُ له - وأنا صغير السن - رُقْعَةً أقول له: ما الحكمة في أن الله قال[٦] - مخبرًا عن إبليس -: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾، ولم يقل: من فوقهم، ولا من

---

(١) في (ص): وعلا البكاء في ذلك المجلس.

(٢) في (د): جمود فيه.

(٣) في (ص) و(د): ثم يأخذ.

(٤) في (س) و(ف): الأسئلة.

(٥) سقطت من (د).

(٦) في (ص): يقول.

تحتهم؟ ورَمَيْتُها[١] في بعض الأيام[٢] في جملة الرِّقَاعِ؛ فلمَّا تكلَّم عليها، وبلغت الدَّوْلَةُ إلى رُقْعَتِي، وليس له عِلْمٌ بصاحب واحدة منها، وقال[٣]: هذا[٤] يسأل عن قول الله كذا، ويا حبيبي؛ هذا وقد مَكَّنَه الله من أربع جهات يكون تسع مائة وتسعة وتسعون للنار، وواحدٌ للجنة، فكيف لو جاء من الجهات كلها؟ ما رأى أحدٌ الجنة أبدًا،/ ولكن إذا غَشِيَ من الجهات الأربع غَشِيَتِ الرحمة من فوقنا، وثَبَّتَتِ السكينةُ أقدامنا فنجونا، فعجبت من قوله: يا حبيبي، وناداني مناداة الصبيان، وهذا فنٌّ يُسَمُّونه الكلام على الخواطر.

١ [١٣٢/ب]

[الكلامُ على الخواطر]:

قال لي بعضُ أشياخي بالمسجد الأقصى من الصوفية: كنتُ يومًا في مجلس أبي سعيد الصوفي[٥] بنيشاغور، وهو يتكلم في حفل عظيم، فرأيته يصنع شيئًا على المنبر، فقلت في نفسي: يا ليت شعري، إن كان[٦] هذا الذي يفعل[٧] الشيخ يجوز أم لا؟ فصرف وجهه إلى جهتي وأنا في ناحية من الخَلْقِ[٨]، وجعل يقول: «رُوَاسْت، رُوَاسْت»، يعني: يجوز، يجوز.

---

(١) في (س): رميته.

(٢) قوله: «في بعض الأيام» سقط من (س).

(٣) في (ص) و(د): قال.

(٤) في (ص): وهذا.

(٥) وَرَدَ ذِكْرُه في سراج الملوك لأبي بكر الفهري: (٢/٥١٦-٥١٧)، وذَكَرَ هناك أنه باني المدرسة النظامية لخواجا بُزُرْك، وذَكَرَ سيرتَه في شراء الخانات والدُّورِ والبساتين، وقد جَعَلَ كُلَّ ذلك مُحَبَّسًا على الصوفية والفقراء.

(٦) قوله: «إن كان» سقط من (ص).

(٧) في (ص) و(د): فعله.

(٨) في (د): الحلقة.

ولهم في ذلك كراماتٌ في مقامات لا يعلمها أهلُ هذه البلاد[١].

أخبرني أبو الحُسَين[٢] المبارك بن عبد الجبَّار بمنزله بالقَطِيعَةِ وأنا أقرأ عليه «غريب الحديث» لابن قُتَيبة، قال لنا: كنت أختلفُ إلى سماع هذا الكتاب على أبي الحسن علي بن عمر[٣] القزويني[٤] الحربي[٥]، بالحَرْبِيَّةِ[٦] من الجانب الغربي كل يوم؛ من الظهر إلى العصر، فصرتُ يومًا[٧] مع صاحبي من القطيعة إلى الحربيَّة[٨] في القائلة، ولطول الطريق استعنَّا[٩] بالحديث، فقلنا: إن شيخنا أبا الحسن لا يُخرج أبدًا يده من كُمِّه، وإنَّما يُمسك الأجزاء بأكمامه، ويُناولها[١٠] بأكمامه[١١]، ولا يَطَّلِعُ له أحدٌ على يد، فقال لي صاحبي: ولعل به بَرَصاً، فهو يستره، وبلغنا المسجد بالحربية[١٢]، ودخلنا وركعنا، وانتظرنا حتى خرج فصلَّى بنا، فلمَّا فَرَغْنَا تحلَّقنا إليه[١٣]،

---

(١) يقصد بلاد الأندلس.

(٢) في (س) و(ف) و(ص): الحسن.

(٣) ترجمته في: تاريخ بغداد: (١٣/٤٩٨)، وسير النبلاء: (١٧/٦٠٩-٦١٣).

(٤) في (د): الغزوني، وفي (ص): الغروي.

(٥) في (س): الخربي.

(٦) في (د): الخربية.

(٧) في (د) و(ص): مع صاحبي يومًا.

(٨) في (س): الخربية.

(٩) في طرة بـ (د): اشتغلنا.

(١٠) في (د): تناوله، وسقطت من (ص).

(١١) سقطت من (س) و(ص).

(١٢) في (س): الحديث.

(١٣) في (د) و(ص): عليه.

فمدَّ يده وتناول بها جُزْءَ «الغريب» الذي كنا نقرأ فيه، ثم أخرج يديه[١] من كُمَّيْهِ، وفتحه وحوَّل ورقه يطلبُ المَوْقِفَ، وهو يقول: الحمد لله على العافية، ثم أعطانا الجزء، وصرف يديه في كُمَّيْه، وما رأيناها قبل ذلك ولا بعده.

[اعتناءُ الوُعَّاظِ بالشعر]:

وسمعتُ محمد بن عبد الملك الواعظ[٢] وهو على المنبر[٣]، في الملتزم بين الركن والمقام، وهو يَعِظُ في ليلة من ليالي كانون الأوَّل[٤]؛ من حين فراغنا من صلاة العتمة إلى الفجر، ما نزل ولا انقطع له كلام في التملق لله والتحبب والتعطف[٥]، وأنشد في تلك الليلة نحوًا من ألف بيت، وقد قيَّدنا منها كثيرًا في «ترتيب الرحلة»، وكان من جملتها هذه الأبيات[٦]:

بسطتُ نحو الحبيب كفًّا ... أسأله بالغداة عَطْفَا

وقلتُ: يا سيدي تراني ... وليس[٧] ما بي عليك يَخْفَى

---

(١) في (د): يده.

(٢) هو محمد بن عبد الملك التِّنِّيسِي المصري الصوفي، تقدَّم التعريف به.

(٣) بعده في (س) و(ف): يقول.

(٤) قَصَدَ الإمام ابن العربي أن يُظهر طُول الزمان الذي تحدَّث فيه وذكَّر ووعظ وابتهل، من غير انقطاع، فليالي كانون الأوَّل طويلة، والمدة الزمنية بين العتمة والغداة ما يقارب عشر ساعات، لهذا ذَكَرَ الشهر الأعجمي؛ لأنه أبلغ في الإفادة.

(٥) في (س) و(ف): التعطف والتحبب.

(٦) قوله: «هذه الأبيات» سقط من (د) و(ص).

(٧) في (د): فليس، وفي (ص): وليس حالي.

ولم أزل دائمًا لما بي | أذرفُ دمع الجفون[١] ذَرْفَا
حتَّى أتاني الجوابُ منه | وقيل لي في الجواب: تُكْفَى[٢]

وهو رافعٌ يديه يقول: «يا سيدي تراني، يا سيدي تراني[٣]»، والخلق يجأرون[٤]، والمسجد الحرام قد امتلأ بالأصوات[٥] والجؤار والبكاء، والناس يتساقطون يمينًا وشمالًا، صَعْقًا وإغماءً/. ١ [١٣٣/أ]

وسمعتُ الرازي الإمام على المنبر بمدينة السَّلام يتكلم على الحج وفضائله، ويُحَرِّكُ الناس للحج معه، وقد كان قَدِمَ من الرَّيِّ[٦] بتلك النيَّة، فأنشد يصفُ خروجه من بلده:

جعلوا الحج حجةً للفراق | واستحلُّوا خيانة الميثاقِ
وأراقوا دمَ القلوب اشتياقًا | حين ولَّت ركابهم للعراقِ[٧]
وطَوَوْا نشرهم فهُمْ نَشَرُ المِسْـ | ـكِ عليهم مُبَشِّرًا بالتلاقِ[٨]
قُلْ لحاديهم: رُويدًا فقلبي | كلما سُقْتَ عِيسَهم في السياقِ
فوق تلك الجمال من لو أقاموا | لحملناهم على الأحداقِ
وتمنيتُ أن أكون بعيدًا | والذي بيننا من الوُدِّ باقِ

---

(١) في (ص): العيون.
(٢) الأبيات من مخلع البسيط، ولم أقف عليها في كتاب آخر.
(٣) قوله: «يا سيدي» سقط من (س) و(ص).
(٤) في (ص): يخرون.
(٥) في (د): في خـ: بالصوات والخوات.
(٦) قوله: «من الري» سقط من (ص).
(٧) في (د): الفراق.
(٨) سقط هذا البيت وما يتلوه من (د) و(س).

رُبَّ هَجْرٍ يكون من خوف هَجْرٍ وفِرَاقٍ يكون خَوْفَ الفِرَاقِ[١]

[من تفسير أهل الإشارة]:

وسمعتُ القاضي المُرْشِدَ النَّسَوِي[٢] شيخَ الصوفية بمَهْدِ عيسى صلوات الله عليه؛ في ليلة النصف من رمضان، في أوَّل ختمات المسجد الأقصى، والكازَرُوني مقرئ الأرض يقرأ بين يديه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعراف:١٤٣]، بمجلس ذكرناه في كتاب[٣] «ترتيب الرحلة» كله مُسْتَوْفًى، ومن[٤] جملته أمور صوفيَّة لا معنى لها عندي، وعقليَّة لا مردَّ لها مِنِّي، وأدبيَّة يحتمل[٥] أن تكون، وشعريَّة[٦] على طريقة القوم.

قال: قَوْلُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾، قال: «جاء موسى ولم يَبْقَ شيء من موسى لموسى»[٧].

وقال: آلَافُ الآلَافِ[٨] خَطَوْا خُطًى كثيرة ولم يُذكروا، واختصَّ له بفضله موسى، فذكر خُطاه في إقباله للمواعدة تشريفًا، يختص برحمته من

(١) الأبيات من الخفيف، والأول والخامس في ديوان الوَأْوَاء الدمشقي: (ص١٦٠)، وأربعة أبيات منها في آداب الصحبة للسُّلَمي: (ص٩٧)، باختلافٍ في الترتيب.
(٢) ذكره ابنُ العربي أيضًا في الناسخ والمنسوخ: (١٦٥/٢)، ولم أهتد لما يفيد في التعريف بحاله.
(٣) سقط من (ص) و(ف) و(س).
(٤) في (د) و(ص): من.
(٥) في (د): تحتمل.
(٦) في (ص): شعرية.
(٧) لطائف الإشارات: (٥٦٤/١).
(٨) في (د) و(ص): آلاف.

يشاء[١]، ولمَّا جاء موسى للميقات بسط الله له الكرامة، وأسمعه كلامه، فلم يتمالك أن قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، غلبه[٢] الحب، وأَدَلَّ بالقرب، فسأل الرؤية[٣].

وأبرحُ ما يكون الشوق يومًا ... إذا دَنَتِ الخيامُ من الخيام[٤]

وكان موسى في أيام المُواعدة يقول: «من كانت له إلى الله حاجة فليذكرها لي»، فلمَّا أسمعه الكلام استولت عليه العظمة فنسي ما كان حُمِّلَ، وغَلَبَه[٥] الشَّوْقُ فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾[٦].

فيا لَيْلَ كم من[٧] حاجة لي مُهِمَّةٌ ... إذا جئتكم يا لَيْلَ[٨] لم أَدْرِ ما هيَا[٩]

ثم أنشد[١٠]:

أُرَوِّي[١] ما أقول إذا افترقنا ... وأجمع دائبًا[٢] حُجَجَ المقال

فأنساها إذا نحن التقينا ... وأَنْطِقُ[٣] حين أنطقُ بالمُحال[٤]

---

(١) لطائف الإشارات: (١/٥٦٤).

(٢) في (د) و(ص): غلب عليه.

(٣) لطائف الإشارات: (١/٥٦٤).

(٤) من الوافر، وهو لإسحاق الموصلي، وهو عند القالي مُسْنَدًا في أماليه: (١/١١٠)، وفي الموشَّح للمَرْزُباني: (ص٣٧٣)، ويُروى - أيضًا -: إذا دنت الديارُ من الديارِ، وإنما أخذه القاضي النَّسَوِي من لطائف الإشارات: (١/٥٦٥).

(٥) في (د): غلب عليه.

(٦) لطائف الإشارات: (١/٥٦٥).

(٧) سقطت من (د).

(٨) في (س): بالليل.

(٩) من الطويل، للمجنون في ديوانه: (ص١٢٢).

(١٠) قوله: «ثم أنشد» سقط من (س).

ثم قال[٥]: اقرأ يا أستاذ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾، فقرأه[٦] القارئ، فأنشد[٧]:

لو عَلِمْنَا مجيئكم لنَثَرْنَا ... مُهَجَ النَّفْسِ أو سواد العيون

وبَسَطْنَا على الطريق جُفُونًا ... ليكون المَمَرُّ فوق الجفون[٨]

وأنشد[٩]:

قالوا: تَوَقَّ رجالَ الحي إن لهم

عينًا عليك إذا ما نِمْتَ لم تَنَمِ

فقلتُ: إن دمي أقصى مرادهم

وما غَلَتْ نظرةٌ منهم بسَفْكِ دَمِ

والله لو علمتْ نفسي بمن هَوِيَتْ

جاءت على رأسها فضلًا عن[١٠] القَدَمِ[١١]

---

(١) في (س): أروني. (٢) في (س): دانيًا.

(٣) في (س): فأنطق.

(٤) من الوافر، وهو في الرسالة القشيرية: (ص١٥٢)، والزهرة للظاهري: (١/١٢)، غير منسوبين.

(٥) في (ص): «يا قارئًا بالعشر، ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾».

(٦) في (ص): فقرأ.

(٧) في (ص): ثم أنشد، وتأخر البيتان اللذان بعده عمَّا في (س) و(د).

(٨) البيتان من الخفيف، وهما في سِلْكِ الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: (٣/٢٣٩).

(٩) في (ص): ثم أنشد.

(١٠) في (س) و(ف): على.

(١١) الأبيات من البسيط، وهي في مواهب الجليل: (٢/٤٩٨)، والأوَّلان منها في البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ: (١/١٧٠).

[١٣٣/ب] /قال الله لموسى[١]: «لن تراني حتى يراني، صاحب السبع المثاني»، لئن[٢] كان الله اصطفى موسى بالكلام فقد اصطفى[٣] مُحَمَّدًا ﷺ بالكلام والرؤية.

طلب موسى الرؤية فقيل له: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾، فموسى لم يقل: «لا أريد الجبل، إنما أريد أنتَ»، ولكنه امتثل ما أُمِرَ[٤]، كما قالوا[٥]:

أريدُ وصاله ويريد هجري ... فأتركُ ما أريدُ لما يريدُ[٦]

وقَالَ مِنْ أَمْثَالِ هذا ما قال، ومَشَى هكذا ما مشى، إلى[٧] الفجر من[٨] العِشَا، ولم أقدر أن أحتمل ذلك لخروجه عن حَدِّ القانون الشرعي الذي مهَّدناه في «قانون التأويل»[٩].

---

(١) في (د) و(ص): يا موسى.

(٢) في (د) و(ص):قد.

(٣) في (د) و(ص): واصطفى.

(٤) لطائف الإشارات: (٥٦٧/١).

(٥) في (ص): قال، وبعدها في (د) كلمة غير واضحة تقرب أن تكون: وأنشد.

(٦) من الوافر، أنشده أبو القاسم القُشَيري في اللطائف: (٥٦٧/١)، ونسبه الصفدي في الوافي بالوفيات: (١٦٠/١٨)، وابن الكُتْبي في فوات الوفيات: (٣٠١/٢)، لعبد الرحمن بن مروان، المعروف بابن المُنَجِّمِ الواعظ.

(٧) في (ص): من، وسقطت من (س).

(٨) في (ص): إلى.

(٩) قانون التأويل: (ص١٩٦-١٩٧).

وكنتُ أرى القاضي المذكور وجميع الحضور قد استولى عليهم البكاء والخشوع، والحنين والذَّنِين[١]، والتوجع والتفجع، والدعاء والتضرع، وأنا متفكر في هذه الألفاظ، متوقل[٢] على هذه الأغراض، فما تلتئم لي[٣]، فكنتُ أقول: هل حال بيني وبين هؤلاء قسوة مغربية أم غفلة شهوانية أم نية دينية؟ وتأملتُ عند تفقهي ذلك كلَّه، فعلمت أنه ليس على طريق من مضى، فأعرضتُ عنه وقلت: لا أرضى، وقد[٤] بَيَّنْتُ خروجه عن التأويل في «القانون»[٥]، وكلكم يرى خروجه، ويُدْرِكُ مفارقته لما ينبغي، وسنشير في بقية الباب و«الأسماء» إلى هذا الغرض إن شاء الله.

[رُكُوبُ بعض الوعاظ مَتْنَ الكذب على رسول الله]:

ومنهم من يستجيزُ الكذب على النبي ﷺ صُرَاحًا، ولا يرى في ذلك جُنَاحًا، كما أخبرني محمد بن عبد الملك عن أبي الفضل الجوهري، قال: ذكر لنا يومًا أن النبي ﷺ مرض فعاده أبو بكر، فلمَّا رآه أبو بكر[٦] خاف[٧] عليه، حتى خرج من عنده عليلًا، ووجد النبيُّ ﷺ خِفَّةً فجاء يعود أبا

---

(١) في (ص): الأنين.

والذنين: المخاط يسيل من الأنف، ينظر: تاج العروس: (٦٦/٣٥).

(٢) في (ص): متوكل.

(٣) في (س): تليتم به.

(٤) سقطت من (س) و(ص).

(٥) قانون التأويل: (ص١٩٦-١٩٧).

(٦) قوله: «فلما رآه أبو بكر» سقط من (د) و(ص).

(٧) في (د) و(ص): فخاف.

بكر، فلمَّا رآه أبو بكر قد برئ ثَابَتْ إليه نفسُه وعادت إليه صحتُه، فقال أبو بكر رضي الله عنه[١]:

مرض الحبيب فعُدْتُه ... فمرضتُ من حَذَرِي عليه
شُفِيَ الحبيبُ فعادني ... فشُفِيتُ[٢] من نظري إليه[٣]

وهذا شيء ما أنزل الله به من سلطان، بل هو غاية البهتان، وقد قدَّمنا أن هذا الشيخ كان رجلًا[٤] عفيفًا ولم يكن عالمًا.

[تَوْطِيدُ القول في القصص]:

ومن أحسن[٥] الإيراد في القصص أن يُوَطِّد[٦] القول ويأتي به على قلوب حاضرة ووجوه مقبلة، وفي الحديث: «حَدِّثِ الناس ما حَدَجُوك[٧] بأبصارهم»[٨]، وإن رأى غفلة فليستدع الناسَ[٩] حضورهم وإنصاتهم، قال:

---

(١) ذَكَرَ هذه الحكاية منسوبة إلى الإمام الشافعي أبو طالب المكي في قوت القلوب، ولم أقف عليها كما ذكرها ابنُ العربي عن أبي الفضل الجوهري، ينظر: القوت: (١٥٨٠/٣).

(٢) في (د) و(ص): فبريت، وأشار إليه في (س).

(٣) البيتان من مجزوء الكامل، وهي للشَّافعي في ديوانه: (ص٤٠٣)، ونُسِبت لغيره.

(٤) سقط من (س) و(ف).

(٥) في (د): حسن.

(٦) في (ص): يطرد، وفي (د): توطد.

(٧) في (س): جرحوك، وفي (ص): حدقوا إلي.

حدجوك بأبصارهم: رَمَوْكَ بها، أي: حَدِّثْهم ما داموا يشتهون حديثك، فإذا أعرضوا عنك فاسكت، ينظر: شرح السنة: (٣١٤/١).

(٨) أورده البغوي في شرح السنة عن ابن مسعود ﵁ موقوفًا: (٣١٤/١).

(٩) سقطت من (د) و(ص).

«إنَّ[١] النبي ﷺ في حجة الوداع، استَنْصَتَ الناس ثم قال: لا ترجعوا بعدي كُفَّارًا؛ يضربُ بعضكم رقاب بعض»[٢].

١ جلس يومًا أبو الفضل الجَوْهَرِي على المنبر؛ فقرأ القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم،/ فقال: والله لا منعتُها من أحد[٣] أبدًا، وسكت، وعاد القارئ للاستعاذة، فلمَّا أكملها قال أبو الفضل: والله لا منعتها من أحد أبدا، وسكت[٤]، وعاد القارئ إلى الاستعاذة، فلمَّا أكملها قال أبو الفضل: والله لا منعتها من أحد أبدًا، وعاد القارئ إلى الاستعاذة[٥]، فقال الناس: ما معنى هذا[٦]؟ [١٣٤/أ]

وأقبلت القلوب على كلامه مُتَعَجِّبَةً من قوله هذا، ولمَّا[٧] استقبلته الوجوه قال: رُوي عن محمد بن واسع أنه قال: «خرجتُ يومًا إلى المسجد فلقيتُ الشيطان في طريقي، فقال لي: يا محمد بن واسع، إني كلما رُمتك وجدت حجابًا بيني وبينك؛ لا أستطيع أن أبلغ إليك معه، فقال له ابن واسع: إني أقول كل يوم إذا أصبحت: اللهم إنك سلَّطت علينا الشيطان

---

(١) سقطت من (د) و(س).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن جرير ﵁: كتاب المغازي، باب حجة الوداع، رقم: (٤٤٠٥-طوق).
(٣) قوله: «من أحد» سقط من(ص).
(٤) سقطت من (د).
(٥) في (د): للاستعاذة.
(٦) قوله: «وسكت، وعاد القارئ للاستعاذة، فلمَّا أكملها قال أبو الفضل: والله لا منعتها من أحد أبدا، وسكت، فلما أكملها قال أبو الفضل: والله لا منعتها من أحد أبدًا، وعاد القارئ إلى الاستعاذة، فقال الناس: ما معنى هذا؟» سقط من (ص).
(٧) في (د) و(س): واستقبلته.

عدوًّا من أعدائنا؛ يرانا هو وقَبِيلُه من حيث لا نراه، اللهم أَيْئِسْهُ[١] منَّا كما أيأسته[٢] من عفوك، وقَنِّطْهُ منَّا كما قنَّطته من رحمتك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين جنتك، إنك على كل شيء قدير، فقال له الشيطان: بالله لا تخبر بها أحدًا أبدًا، فقال: والله لا منعتها من أحد أبدًا[٣]».

فانظروا إلى حُسْنِ هذا السياق في جَمْع القلوب على السماع والإصغاء، حتى يقع القَوْلُ موقعَه؛ فيكون أوعى له وأثبت لتحصيله.

[من نوادر الوعاظ]:

ومن نوادرهم: ما سمعتُ بعضهم؛ وقرأ القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح:٢٩]، إلى خاتمة الفتح، فقام وأنشد:

حُبُّ صَحْبِ النبي خالط لحمي ... وجرى في مفاصلي فاعذروني
أنا والله مُغْرَمٌ بهواهم[٤] ... عَلِّلُوني بذِكْرِهم عَلِّلُوني[٥]

ثم أخذ في ذِكْرِ الصحابة، وكان مجلسًا عظيمًا، فيه علوم جَمَّةٌ، من جملتها[٦]: «إن قوله: ﴿مَعَهُۥٓ﴾: أبو بكر، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: عُمَرُ، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾: عثمانُ، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: عَلِيٌّ»[٧].

---

(١) في (ص): آيسه.

(٢) في (ص): آيسته.

(٣) قوله: «فقال: والله لا منعتها من أحد أبدًا» سقط من (س).

(٤) في (د): في هواهم، وفي (ص): من هواهم.

(٥) من الخفيف، ونسبهما موفق الدين ابن الشيخ الشارعي في مرشد الزوار إلى قبور الأبرار: (٣٠١/١) إلى الشيخ أبي الفضل الجوهري الواعظ.

(٦) في (د) و(ص): جملتها.

(٧) لطائف الإشارات: (٤٣٣/٣).

قال الإمام الحافظ أبو بكر[١] رضي الله عنه: الآية عامَّة في المؤمنين، إلا أن هؤلاء الأُوَلَ أوائلُ، وكلٌّ[٢] من بعدهم أواخر، وهذا ذِكْرُهم في التوراة، وذكرهم في الإنجيل ﴿كَزَرْعٍ﴾: مُحَمَّدٌ، ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾: أَصْحَابُه[٣]، كان واحدًا[٤] ثم تتامَّت إليه الصحابة، فيقوى ويَشْتَدُّ، ويَعْظُمُ ويَكْثُرُ؛ حتى يستوي على سُوقِهِ، وتظهر ثمرته، وتعم منفعته، ليغيظ بهم أجمعين الكفَّار، هم قُرَّةُ عين الولي، وغَيْظُ عين الحسود، فكلُّ من قَرَّتْ عينُه بهم فهو مؤمن، وكُلُّ من كَرِهَ منهم واحدًا فهو كافر[٥].

قال مالك: «لا أرى في الفيء حقًّا لمن لم يكن على مقتضى قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]»[٦]/ . [١٣٤/ب]

وقد أَحْسَنَ القائل:

وعَامِلٍ بالذنوب يأمرُ بالبرِّ ... كهَادٍ يخوضُ في الظُّلَمِ
أو كطبيب قد شَفَّهُ سَقَمٌ ... وهو يُدَاوِي من ذلك السَّقَم
يا واعظ الناس غير متعظ ... نَفْسَك عَاتِبْ أو لا[٧] فلا تَلُمِ[٨]

---

(١) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي (ص): قال الإمام أبو بكر بن العربي.
(٢) في (س): كان.
(٣) في (س): أبو بكر وأصحابه، وفي (ص): ﴿أخرج شطأه فآزره﴾.
(٤) في (س): واحدًا منهم.
(٥) يُقارَن بما في لطائف الإشارات: (٣/٤٣٤).
(٦) مسند الموطأ للجوهري: (ص١١٢)، والانتقاء لابن عبد البر: (ص٧٣).
(٧) في (د): أولى.
(٨) الأبيات من المنسرح، وهي لأحمد بن يوسف الكاتب، يعاتب جارية له، وهي في الأغاني: (٢٣/١٢٨)، وزهر الآداب: (٢/٤٨٧).

قال الإمام الحافظ أبو بكر[١] رضي الله عنه: وهذا كله يَتَنَضَّدُ[٢] ويتأكَّد بالتفكر؛ فإنه من أَجَلِّ العبادات وأعظم الطاعات، ويختص بالقلب، ليس للجوارح فيه أثر، فيكون[٣] مُتَفَكِّرًا[٤].

* * * * *

(١) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي (ص): قال الإمام أبو بكر بن العربي.
(٢) في (د): ينتصر، وفي (ص): يعتضد.
(٣) سقط من (د).
(٤) قوله: «فيكون مُتَفَكِّرًا» سقط من (ص)، وفي (د): التفكر، ومرَّضها.

وهو الاسمُ التاسع والعشرون: المُتَفَكِّرُ[١]

وحقيقتُه: تَرَدُّدُ العلوم في القلب، وترتيبُها حتى تُثْمِرَ أَمْثَالَها في أمثالها[٢].

وهو الذِّكْرُ بعينه، وهو النَّظَرُ، وكل ناظر متفكر، وكل متفكر مُتَذَكِّرٌ؛ إذ حقيقة المتفعل طالب الفعل، وسَتَرَوْنَ تَرْتِيبَ ذلك في الأمثلة إن شاء الله؛ فإنَّ قومًا[٣] أرادوا الفرق بينهما[٤]، وجعلوا لكل واحد حقيقة، ولو كان ذلك صحيحًا لما أجدى، أَمَا إنهم أرادوا أن يجعلوا لمراتب الفكر أسماء ويفصلوا بينها بها[٥]، وإذا أطلقنا الاسم على جميعها لم يضرَّنا ذلك.

وممَّا يجبُ أن تعرفوه مُقَدِّمَةٌ بين يدي النظر في هذا الاسم أنه ليس فيه حديث صحيح عن النبي ﷺ، ولا عن العَشَرَةِ الأبرار، فلا تلتفتوا إليها، فجميع ما أورده[٦] المصنفون باطلٌ.

---

(١) سقط من (س) و(ص).

(٢) ينظر: أحكام القرآن: (٨١٦/٢).

(٣) يقصد شيخَه الإمامَ أبا حامد، ينظر: الإحياء: (ص١٨٠١).

(٤) في (س): في خـ: أن يجعلوا بينهما فرقًا.

(٥) في (س): وبينها.

(٦) في (ص): أوردوه عليكم.

أَمَا إن فيه آيات كثيرة، وإذا[١] وجدتم في المسألة آية واحدة - فكيف آيات كثيرة[٢]؟ - فلا تطلبوا عليها حديثًا - وإن كان صحيحًا - حتى تُحْكِمُوا ما في القرآن، إلَّا أن تفتقر الآيةُ إلى بيان، فحينئذ تطلبون الحديث، فكيف بأن تطلبوا مع كتاب الله أحاديث لا أصل لها عن رسول الله ﷺ ولا عن جِلَّةِ أصحابه[٣]؟

ومن الآيات فيه قولُه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١]، وقد ثبت «أنَّ ابن عبَّاس بات عند النبي ﷺ فاستيقظ وقرأ العشر الآيات خواتم آل عمران، ثم قام وتوضَّأ وصلَّى حتى أصبح»[٤]، وليس في الحديث ذِكْرٌ للآية بحرف[٥]، فأبى الشيطان إلا أن يزيد في الحديث ويأتي بطامَّة فيه[٦] ليس لها أصل، فلا تلتفتوا إليها.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ:٤٦][٧].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ إلى قوله:﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠ - ١١].

---

(١) في (س) و(ف): إن.
(٢) سقطت من (د).
(٣) في (ص): الصحابة، وأشار إليها في (د).
(٤) سبق تخريجه.
(٥) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ عن عائشة ﵂: (١٢٠/٣)، وفيه: «ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها»، وأخرجه ابن حبان في صحيحه: (٣٨٦/٢)، رقم: (٦٢٠-إحسان).
(٦) سقطت من (س) و(ص).
(٧) في (د) و(ص): ﴿أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾.

وقال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٦٨ - ٦٩].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم:٧].

وقال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٥١]./ ١ [١٣٥/أ]

وفائدةُ الفكر زيادةُ العلم به والإيمان واليقين والإسلام، ودوامُ الذكر تثبيتًا للتوحيد في القلوب.

وقد روى ابنُ القاسم عن مالك: قيل لأم الدرداء: «ما كان عملُ أبي الدرداء؟ قالت: كان شأنه التفكر»[١].

وقيل لمالك: «أترى التفكر عملًا؟ قال: نعم، هو اليقين[٢]»[٣].

وقيل لابن المسيب: «في الصلاة بين الظهر والعصر، فقال[٤]: ليست هذه عبادة، إنما العبادة الورعُ عمَّا حرَّم الله، والفِكْرُ[٥] في أمر الله»[٦].

---

(١) البيان والتحصيل: (١٧/٥٨٠).
(٢) في (س): من العمل، وفي (ص) و(د): العمل، وضبَّب عليه، وما أثبتناه صحَّحه ناسخ (د) في طرته.
(٣) البيان والتحصيل: (١٧/٥٨٠).
(٤) في (ص) و(س) و(ف): قال.
(٥) في (ص): التفكر.
(٦) البيان والتحصيل: (١٧/٥٨١).

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي[١] رضي الله عنه: كان ابن عمر يصلي من الظهر إلى العصر، وكان يَرِعُ[٢] عمَّا حرَّم الله، فأراد سعيد بن المسيب أن يُبَيِّنَ أن الوَرَعَ عمَّا حرم الله والفِكْرَ في أمر الله خَيْرٌ من الصلاة دون وَرَعٍ كما يفعله الناس، فإنهم يصلون ويصومون ولا يَرِعُونَ[٣] عن حرام، ولا يتفكَّرون في أمر.

[مجالُ الفِكْرِ ومَحَالُّه[٤]]:

ومجالُ الفكر ومَحَالُّه أفعال الله، وهي منقسمة إلى قسمين:

عامَّة: كالسَّماوات والأرض، وما اشتملت عليه من صنوف الآيات وعجائب المخلوقات.

وخاصَّة: وهي: ذات المُتَفَكِّرِ وأفعاله[٥].

فأمَّا أفعال الله العامَّة إذا تفكر الناظر فيها فإنها تفيدُه معرفةً بقَدْرِ كل فكرة، وإيمانًا بإزاء كل عبرة، وتوحيدًا عند كل نظرة، وذلك هو المطلوب الأكبر، والمقصود الأظهر؛ فإذا رأى السماء سقفًا مرفوعًا، والأرض مِهَادًا موضوعًا، قد[٦] زُيِّنَتْ تلك بشمسها[٧] وقمرها وزُهْرِها، ورُتِّبَ طلوعُها وغروبُها، ودُبِّرَ مَسِيرُها ذاهبةً وراجعةً، مَمْحُوَّةً ونَيِّرَةً، وقد زُخْرِفَتْ هذه

(١) في (د): قال الإمام الحافظ، وفي (ص): قال الإمام أبو بكر بن العربي.

(٢) في (ص): يتورع.

(٣) في (ص): يتورعون.

(٤) ينظر: أحكام القرآن: (٨١٧/٢).

(٥) قوله: «وهي: ذات المتفكر وأفعاله» بيَّض له في (ص).

(٦) في (د): وقد.

(٧) في (س) و(ف) و(ص): شمسها.

بأشجارها، وشُقَّتْ بأنهارها، وصُيِّرَتْ خزانةً للأقوات، وقُدِّرَتْ معاشًا للحيوانات، وأُرْسِيَتْ بالجبال ودُحِيَتْ[١]، وهُيِّئَتْ للنبات وأُكرمت؛ تَحَقَّقَ أن في كل جزء من ذلك عِبْرَةً تستغرقُ الفِكْرَةَ.

والجماداتُ والحيواناتُ إذا نُظِرَ في أصنافها وأنواعها، ودُبِّرَ اختلافُها واتفاقُها، واشتراكُها فيما تشترك فيه، وانفرادُها، وتسخيرُ بعضها لبعض، وتَقَلُّبُها في الأرض والبحار؛ عَذْبِها ومِلْحِها، صغيرها وكبيرها ومحيطها[٢]، كل ذلك مبهت مفيد، عظيم الملك وسعة القدرة.

والهواء ترى أنه جسم محسوس، وهو غذاء النفس والروح لبعض الحيوانات، وهو قاتلُ الآخرين، أو قاتلُهم عَدَمُ غذائهم؛ وهو الماء، والأوَّل أصح؛ لأن الماء كما يقتل حيوان البر وإن كان من غذائه، كذلك[٣] الهواء يقتل حيوان الماء.

ولتعجب[٤] من ركوده ثم اضطرابه؛ وهي الريح، وإنزالُ الغيث من السماء أَمْرٌ معجز، ودليل نَيِّر.

ونفسُ الإنسان وذاتُه أقربها إليه نظرًا، / وأكثرها عبرة[٥] - إن فتَّش - عِبَرًا؛ فإنه لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم كان نطفة من ماء دافق، ثم تردَّد - كما أخبر الله عنه - في أطوار الاجتنان[٦]، حتى أخرجه إلى صفة الإنسان [١٣٥/ب]

(١) بعده في (ص): الأرض.
(٢) بعدها في طرة بـ (د): في خـ: وما لها.
(٣) في (س): كان.
(٤) في (د): ليعجب.
(٥) سقطت من (س).
(٦) في (ص): الاجتناء.

فأنشأه خلقًا سَوِيًّا، ضعيفًا ثم قويًّا، جهولًا ثم عالمًا، مُخَلًّى ثم مُقَيَّدًا مُبْتَلًى بالأمر والنهي، بعد أن كان معافًى، محفوفًا بآفات، مشحونًا بدناءات من الصفات، مدفوعًا[١] إلى تطهيرها عمَّا سَدِكَ[٢] بها، وإقبالها على ما حُدَّ لها.

قال الله تعالى لنبيه عليه السَّلام: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

فهذا فضلُه عليه في ذاته، وفضلُه علينا به[٣] أن بلَّغ رسالات ربه، وبيَّن[٤] عنه ما أُمر به، وأوعز إلينا[٥] العمل النافع والضار، وبيَّن لنا النجدين، وأوضح لنا[٦] سبيل النجاة، وحذَّر من[٧] طريق الهلكة، فتعيَّن علينا - والحالة هذه[٨] - الفكرة في أنفسنا حتى نعرف قَدْرَنا وقدر خالقنا، ولَزِمَتِ الفِكْرَةُ والنظر فيما وَظَّفَ من أَمْرٍ ونَهْيٍ علينا، فكان هذا رأسَ العبادة، حتى إذا تقرَّر في النفس وجب العطفُ على العمل.

---

(١) في (د): مرفوعًا.

(٢) في (ص): ينزل.

(٣) سقطت من (س)، وفي (ص): عليه أنه إن بلَّغ.

(٤) في (س): بلغ، وما أثبتناه أشار إليه وصحَّحه.

(٥) في (ص): النبي صل الله عليه وسلم.

(٦) سقطت من (د) و(ص).

(٧) في (د) و(ص): عن.

(٨) في (د) و(ف): والحال له هذه.

[المفاضلةُ بين العمل والفِكْرِ[١]]:

وقد اختلف في أي الحالين أفضل؛ العمل أم الفكر؟

فذهب قَوْمٌ من السلف إلى أن الفكر أفضل، منهم: أبو الدرداء، وسعيد بن المسيب، والحسن، وقد تقدَّم.

وقال الحسن: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»[٢].

وقال مالك بن أنس - رحمه الله - كما بيَّنَّا: «الفكر عمل من الأعمال، وهو اليقين»[٣].

وقد تقدَّم فِعْلُ ابن عمر.

وصَغْوُ الصوفية إلى أن الفكر أفضل من كل عمل.

وذهب[٤] أكثرُ الفقهاء إلى أن العبادة أفضل.

وبه أقول.

والدليلُ عليه حالُ النبي ﷺ في كثرة صلاته بالليل، وما كان يَقِفُ على آية ليلةً، إنَّما رُوي عنه ﷺ أنه كان إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مرَّ بآية عذاب استعاذ[٥]، فلا يعدل بعمله شيء.

---

(١) ينظر: أحكام القرآن: (٨١٨/٢).

(٢) الإحياء: (ص١٧٩٩)، وإنما يُعْرَفُ هذا عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو في الحلية عنه: (٢٠٩/١).

(٣) البيان والتحصيل: (٥٨٠/١٧).

(٤) سقط من (س) و(ص).

(٥) سبق تخريجه.

والفِكْرُ حسن لمن كان قوي النظر، شديد العارضة، مستمر المِرَرِ[(١)] في الأدلة ومتعلقاتها؛ فالفكرة له أفضل في بعض الأوقات[(٢)].

وأمَّا عمومٌ بعموم؛ فلا يعدل العملَ بالسنة شيءٌ، وانظروا[(٣)] إلى الحديث الصحيح: عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ قام فمسح النوم عن وجهه، ثم قرأ الآيات الخواتم من سورة آل عمران، ثم توضأ وصلى حتى طلع الفجر، فأخذ ساعة في العبرة، واستوفى/ بقية الليل في التهجد للعبادة»[(٤)]. [١/١٣٦أ]

[الفِكْرُ في الله عز وجل][(٥)]:

فأمَّا الفِكْرُ في الله فقد روى الضعفاء عن النبي ﷺ أنه قال: «تفكَّروا في خَلْقِ الله، ولا تفكَّروا في ذات الله»[(٦)]، وهذا حديث باطل، وإنما حضَّ الله على الفكر في آياته، والاعتبار بمخلوقاته؛ لأن ذاته لا يُتَصَوَّرُ الفِكْرُ فيها؛ لأن الفِكْرَ والنظر إنَّما هو لما[(٧)] له مِثْلٌ[(٨)]، ولمَّا لم يكن لها مِثْلٌ لم يُتَصَوَّرْ فيها فِكْرٌ.

---

(١) في (ص): النظر.

(٢) في (س): في خـ: الأحوال.

(٣) في (د) و(ص): انظر.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) من طرة بـ (س)، وفوقه: بخطه، أي بخط ابن العربي.

(٦) أخرجه هنَّاد في الزهد من طريق الأعمش مرسلًا: (٤٦٩/٢)، رقم: (٩٤٥)، وكذلك عن الحسن مرسلًا: (٤٦٩/٢)، رقم: (٩٤٦)، وأبو نُعَيم في الحلية عن ابن سلام ﷺ: (٦٧/٦)، وورد عند آخرين بأسانيد لا تخلو من ضعف، وينظر: المقاصد الحسنة: (ص١٥٩)، رقم: (٣٤٢).

(٧) في (س) و(ص): لها.

(٨) قوله: «له مثل» سقط من (س) و(ص).

وقد قالت طائفةٌ من[١] الصُّوفِيَّةِ: «إن الفِكْرَ في الله إنما امتنع لأن العقول تتحيَّر فيه، فلا يُطِيقُه إلا الصِّدِّيقُونَ، وإذا أطاقوه لم يُطِيقوا دوامه، ولو تعرَّضوا له لأفادهم حيرة ودَهَشًا»[٢].

وقد أخذه بعضُ[٣] المغاربة فقال في صفة أهل الإيمان: «يعتبر المتفكرون[٤] بآياته[٥]، ولا يتفكَّرون في مائية ذاته»، وهذا كلُّه نَوْعٌ من الغفلة؛ فإن الصفات التي تقوم بذات العبد على ضربين:

منها: ما لا يصح أن تتعلق بالباري سبحانه.

ومنها: ما يصح تعلقها به.

ولا خلاف في أن العلم يَتَعَلَّقُ بالباري باتفاق، فهو لنا معلوم، ولا يُؤَثِّرُ عِلْمُنا فيه، فإن العلم لا يُؤَثِّرُ في المعلوم، ولم يَجُزْ أن تتعلَّق لنا[٦] بالباري قدرة ولا إرادة؛ لأنهما صفتان تؤثران في المقدور، والباري سبحانه يُؤَثِّرُ ولا يَتَأَثَّرُ.

واختلف الناس في الرؤية هل تتعلق به؟

وقد دللنا على أنها تتعلق به، ولا استحالة في ذلك ولا آفة، والنظر والفكر علوم مجموعة يتركب عليها علم، فلا استحالة في أن يتعلق

---

(١) قوله: «طائفة من» سقط من (ص).

(٢) الإحياء: (ص١٨١٠).

(٣) هو الإمام أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، وذَكَرَه في الرسالة: (ص٩- أصل ابن الأزرق).

(٤) في (ف): المتفكر.

(٥) في (د) و(ص): يتفكرون في مخلوقاته.

(٦) سقطت من (س) و(ص).

بالباري، وليس في ذلك دَهَشٌ ولا حيرة، إنما في ذلك شُبَهٌ وبدعة، ولم يرد الباري سبحانه أن يُعْلِمَ بصفاته ضرورة، وإنَّما قدَّر أن يُدْرَكَ بالنظر، وبتحرير العلم من الشُّبَهِ.

فإذا قال المبتدع: كيف تؤمنون بموجود ليس داخل العالم ولا خارج العالم[١]، وليس بجسم ولا عَرَضٍ؟

قلنا له: حقيقة الإيمان به أنه ليس كمثله شيء، ولا يحويه مكان، وهذه الألفاظ التي جُمعت[٢] فاسدة، لا يوصف الباري بأنه داخل ولا خارج، ولا أنه مؤلف، ولا أنه معدوم، ولا زائل، ولا يَحُولُ ولا يزول، ولا يتغيَّر بما خلق.

وألفاظ المبتدعة هي الفاسدة، فأمَّا العِلْمُ بالباري وذاته وصفاته فصحيح، ونَفْيُ المِثْلِيَّةِ عنه أصحُّ شيء، وليس له مائيَّة إلا ذلك، فأيُّ نَهْيٍ عن هذا أو نفي له؟ وكلُّه بَيِّنٌ، وهو على المؤمن هَيِّنٌ.

[قُصُور الخَلْقِ عن معرفة الله عز وجل][٣]:

ولا تعجبوا إلا ممَّن ينتمي إلى التحقيق، ويدَّعي قصور الخلق عن معرفة الله، مع أنه أظهر الموجودات، ولا يعلم السبب في قصور الخلق، فقال: «إنه[٤] إنما صار أظهر الموجودات لأنه مدلول عليه بكل وجه، شاهد له كل شيء،/ ليس في ملكوت السماوات والأرض ذرة إلا وهي عليه [١٣٦/ب]

---

(١) في (ص): منه.

(٢) في (د): جمعتم.

(٣) من طرة بـ (س)، وفوقها: بخطه، أي: بخط ابن العربي.

(٤) سقطت من (س).

دالة[١]، فلعظيم[٢] ظهوره خفي، كما يبهر ضوء الشمس الخفاش، فلا يرى بالنهار، فضعفت عقول الخلق عن إدراك حقيقة الحق، وما عَمَّ وجوده حتى لا ضد له عَسُرَ دَرْكُه، ونورُ الشمس لم تكن تدرك حقائق المرئيات به لولا عَدَمُه، فبعدمه استبان حالُه، ولو كان للباري[٣] عَدَمٌ[٤] لأدركنا التفرقة بين الحالين، أو[٥] لو كان بعض الأشياء موجودًا به وبعضها موجودًا بغيره لأدركنا التفرقة بينهما في الدلالة، ومَنْ قَوِيَتْ بصيرتُه واعتدل أمره لم ير إلا الله، وعلم أن وجود الأشياء به، فلم ينظر إلَّا فيه»[٦].

قال الإمام الحافظ رضي الله عنه[٧]: هذا كلام هائل، وليس وراءه طائل، إذا ظهر الشيء عُلم، وإذا زاد ظهورًا[٨] زاد علمًا به[٩]، ولو قدَّرت الظهور إلى غير غاية لكان العلم كذلك، ولم يرجع خفيًّا[١٠] أبدًا، وهذا معلوم ضرورة،

---

(١) في (د) و(ص): دلالة، وأشار إليها في (س).

(٢) في (ص): فلعِظَمِ.

(٣) في (س) و(ف): الباري.

(٤) بعده في (ص) و(ف) و(س): لانهدت السماوات والأرض، وضرب عليها في (د).

(٥) في (ص) و(ف) و(س): و.

(٦) الإحياء: (ص١٦٨٦)، وينظر في نقضه - أيضًا - الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١/٤٩٩-٥٠٣).

(٧) في (د): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، وفي (ص): قال الإمام أبو بكر بن العربي.

(٨) مرَّضها في (د)، وفي الطرة: في خـ: ظهر.

(٩) سقطت من (د) و(ص).

(١٠) فوقها في (د) - بخط مغاير -: ظاهرًا.

ولا يصح[١] لأحد أن يقول: إنَّ العلم إذا زاد يعود جهلًا، ولا إذا كثرت الحركة تعود سُكُونًا، هذه خرافات باردة، وتقديرُ عَدَمِ الإله محال، وفَرْضُ المحال لا يفيد شيئًا، ولو فرضنا أنَّ[٢] مع الله فاعلًا غيره لما كان إلهًا[٣] واحدٌ[٤] منهما، وذلك محال.

وإنَّما قَصُرَ الخَلْقُ عن معرفة الله تعالى لكثرة معارضة الشُّبَهِ للأدلة، ولو شاء ربك لجعله كله دليلًا، ولكن أراد أن يُضِلَّ من يشاء، ويهدي من يشاء، وكلما ازددتَ في الله تعالى فِكْرَةً ازددتَ له[٥] معرفة.

وقد جعل بعضُهم[٦] من مَحَالِّ[٧] الفكرة أفعالَ الإنسان، وإنها لموضعُ تَفَكُّرٍ، فإنها تدلُّ على الباري سبحانه من جهة وجودها، واختلافها في أنفسها، وانقسامها إلى موجودة بقلبه، وإلى قائمة بجوارحه، وقد تعلَّق بها الابتلاء، وأُمِرَ فيها ونُهِيَ، ووجب عليه منها[٨] وحَرُم، وهذا كله مَحَلٌّ للعبرة، ومحل للمعرفة، ومحل للسعي والنظر في امتثال الأوامر بها واجتناب النواهي عنها.

---

(١) ضبَّب عليها في (د)، وفي الطرة: يصلح، وقال: هي من خـ.

(٢) سقطت من (س) و(د).

(٣) في (ف): الله.

(٤) في (س) و(ف): إله واحد.

(٥) في (د) و(ص): به.

(٦) هو الإمام أبو حامد الطوسي، ينظر: الإحياء: (ص١٨٠٣).

(٧) في (س): مجال.

(٨) ضرب عليها في (د).

وللعبد في ذلك شُغْلٌ عظيم، بحيث لو تفرَّغ لها لم يقم بها[1] إلَّا عن جهد، فإنها تستغرق العمر، بل اليوم، بل السَّاعة، فمن غفل عنها لم يعرفها، ومن تعاطاها فبالحَرَى أن يستقلَّ بها، وهذه هي العبادة، وهي المنزلة.

وإذا لم يَقْدِرْ المرءُ على ذلك فليُحافظ على امتثال دعائم الإسلام، وليتحرَّز[2] من الكبائر السَّبع عشرة؛ فترجى[3] له مع ذلك العاقبة الجميلة إن شاء الله.

وركَّب الناسُ على هذا المقام فَضْلَ العالم على العابد، ورَوَوا في ذلك عن النبي ﷺ آثارًا ليس منها حرف واحد يصح، فلا تلتفتوا إليها، وأَشْبَهُ ما رُوي في ذلك عن ابن عباس، ولكنه حُرِّفَ، هو من باب آخر، وليس من هذا الباب في شيء.

سئل ابن عباس: عن رجل عنده فَضْلُ معرفة وربما قَارَفَ،/ وآخر أقل منه معرفة ولم يُقارِفْ؟ فقال: «لا أعدل بالسَّلامة شيئًا»[4]. [١٣٧/أ]

والذي رُوي من الحديث الحَسَنِ فيما يقرب من هذا المعنى: عن جابر أن رجلًا ذُكِرَ عند النبي ﷺ بعبادة واجتهاد، وذُكِرَ الآخَرُ[5] برَعَةٍ[6]، فقال النبي ﷺ: «لا أعدل بالرِّعَةِ[7] شيئًا»[8].

---

(١) في (د) - أيضًا -: به. (٢) في (س): ليحترز.

(٣) في (د): يرجى.

(٤) أخرجه ابن وهب في جامعه: (٢/٥٠٠)، رقم: (٣٨٦)، والبيهقي في شُعَب الإيمان: (٩/٤٢٧)، رقم: (٦٩٢٨).

(٥) في (د) و(ص): آخر.

(٦) في (س) و(ف): الدعة. (٧) في (س) و(ف): الدعة.

(٨) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله =

ويَجِبُ أن تعلموا ممَّا قدَّمنا لكم في اسم «المؤمن» و«العالم» من البيان؛ أن العالم المؤمن لا يعصي، فإن أَلْفَيْتَ منهما[١] معصية ففيما لم يحصل له[٢] به عِلْمٌ، فلتُجَدِّدْ به عهدًا هنالك.

ولمَّا كان الفِكْرُ في المخلوقات والعبرة بالآيات[٣] تدل على الذات، وهي: الطريق إلى العلم؛ لأن الشاهد يدل على الغائب باتفاق من العقلاء[٤]، والعالم صاحب معرفة وحقائق، والعامل صاحب خدمة وطرائق، والعالم لا يبرح عن بساط المَلِكِ، والعامل يتصرف في خدمة الملك، والكل في خدمته، ولكن للحضور معنًى، وقد بيَّنَّا ذلك فيما تقدَّم، وسنزيده تبصرة، والأوَّل يقتضي الثاني.

قال الله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١][٥]، إذا نظروا إلى السماوات وما نِيطَ بها من التدبيرات، والأرض وما اختزن فيها من الأقوات، وتعارض الليل والنهار على الأوقات، وما في اختلافها من التدبير والتقديرات، وتعارض الأمثال[٦] والآجال عليهما في الدورات؛

= ﷺ، بابٌ منه، رقم: (٢٥١٩-بشار)، وضعَّفه أبو عيسى، فلعل نسخة ابن العربي من الترمذي فيها غيرُ ذلك، فلهذا صرَّح بتحسينه.

(١) في (ص): منه، وأشار إليها في (د).

(٢) سقط من (س).

(٣) في (ص): الآت.

(٤) في (س) و(ف): العملاء.

(٥) في (ص): ويتفكرون في خلق السماوات والأرض.

(٦) في (د) و(س) و(ص): الآمال، ومرَّضها في (د)، وما أثبتناه صححه في طرته.

عَلِمُوا أن هذا في نفسه ليس بمقصود، ولو كان ذلك ما كان إلَّا باطلًا لا فائدة فيه، وتحققوا أن خالقها ومُدَبِّرَهَا أوجدها لما وراءها.

وقد كان بعضُ فصحاء المتفكرين من أهل الفترة يقول: «ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وسحاب تُسَخَّر، وأرض تُمطر، وموجود ومعدوم، وماض وآت، وأحياء وأموات، إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعِبَرًا»، وهذا ممَّا تَلَقَّفَهُ فلَفَقَه، وسَمِعَه[1] فوعاه وعَقَلَهُ، ونظر فيه فاستبصره، وعلى هذا نبَّه بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥]، فبَادِرُوا بالإيمان[2] به قبل الفوت، وسرعةُ الأجل تُكَدِّرُ لذة الأمل[3].

وأمَّا الفِكْرَةُ في نزول الغيث وما يترتَّب عليه من النبات؛ فقد أَحْكَمَ الله بيانَه في كل موضع وَرَدَ من كتابه، وأوضح به أن ذلك بقدرة الباري وإرادته، لا بطَبْعٍ، حسبما بيَّناه في «كتب الأصول»، وأمليناه عليكم في هذه الأيام[4] في كتاب «العواصم»[5].

والفِكْرَةُ في النَّحْلِ أبدعُ آية؛ في إحكام بناء بيوتها، ولذاذة قيئها، وما تقذفه من بطونها نوعًا بعد أن قطعته[6] أنواعًا، وأخذته طعامًا فأعطته شرابًا.

---

(١) قوله: «فلفقه، وسمعه» سقط من (س).

(٢) في (د): الإيمان.

(٣) في (ص): فبادروا به قبل سرعة الأجل وتكدر الأمل، وفي (د): يكدر.

(٤) عام ٥٣٦هـ، ينظر: العواصم: (ص٣١٤).

(٥) العواصم: (ص١٢٧-١٣١).

(٦) في (ص): تطعمه.

١ ومن أعظم العبرة في النحل أنها ليس لها منزلة في القِيمَةِ[١]، ولا مرتبة[٢] في القوة، ولا منظرة في الصورة[٣]، وجعل ما يخرج منها لذيذَ/ [١٣٧/ب] الكأس، شفاءً للنَّاس.

وانظروا[٤] إلى الإنسان وقيمته، وقوته ومنظرته، وحسن صورته، وقذارة ما يخرج منه، فأين الطبع؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون، أي ذنب للإنسان؟ وأي فَضْلٍ[٥] للنحل؟ وأي فضيلة للدُّودِ في جَعْلِ الإبريسَم مُودَعًا فيها؟ وجَعْلِ الدُّرِّ في الصَّدَفِ؛ وهو أوحش الحيوان البحري[٦]، وأودع الذَّهَبَ الرَّغام، وأودع القلب معرفته، فإذا بالعبد قد دنَّسه بالرِّيبَةِ، ورَحَضَه[٧] بالمخالفة.

[جَلَالُ رسول الله عليه السَّلام][٨]:

وإن تَفَكَّرَ المُتَفَكِّرُ في النبي ﷺ عَلِمَ بشَاهِدِ حَالِه صِدْقَ مقاله، وسَخِرَ ممَّن ينسبه إلى الشِّعْرِ، وليس كلامه على إقرائه، أو إلى الجنون، وليس على صفاته، كان النبي ﷺ يأخذه بُرَحَاءُ الوحي فيشتد عليه حتى يضطرب

---

(١) في (د): القيامة.

(٢) في (ص): منزلة.

(٣) في (س) و(ف): السورة.

(٤) في (د): انظر.

(٥) في (د) و(س) و(ص): فضيلة، وضبب عليها في (د)، والمثبت ممَّا صحَّحه بطرته.

(٦) في (د) و(ص): حيوان البحر.

(٧) في (ص): وخطه.

(٨) من طرة بـ (س)، وذكر أنها بخطه، أي: بخط ابن العربي.

ويُغْشَى عليه[١]، ويَرْفَضُّ عَرَقًا، ثم يُفِيقُ أزهر اللون، حاضر القلب، حَدِيدَ الذهن نشيطًا، والذي يتخبَّطه الشيطان من المَسِّ بعَكْسِه، فجعله[٢] الله آيةً في فتنة، وقد قال الله تعالى[٣]: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]، ولكنهم عَمُوا عن الرشد، وصَمُّوا عن الحق، ولا يستوي الأعمى والبصير.

وكما لا يَتَمَاثَلُ الضوء والظلام، كذلك لا يستوي الأعمى والبصير، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر:١٩ - ٢١]، وكما[٤] لا تستوي هذه المعاني، كذلك لا يستوي العالم والجاهل، والمؤالف والمخالف، والمساعد والمعاند، والموصول والمقطوع، والمقبول والمردود، والمُقَرَّبُ والمحجوب، والمصطفى في البداية والمُقْصَى في النهاية، ولا من أشهدناهُ خَلْقَنا، ولا من أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنا، وإذا أَمْعَنَ في الفكرة، وصَقَلَتْ قلبَه العِبْرَةُ، ووَقَفَ على ما هو عليه من الصفة؛ عَلِمَ أنه فقير حقير[٥]، وأنَّ خالقه وربَّه الغني الحميد العظيم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، وهو:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (د) و(س) و(ص): جعلها، ومرَّضها في (د)، والمثبت صحَّحه بطرته.

(٣) قوله: «الله تعالى: قل» لم يرد في (س) و(ص) و(ف).

(٤) في (د): كما.

(٥) في (د): حقير فقير.

الاسمُ المُوَفِّي ثلاثين: الفَقِيرُ(١)

قال علماؤنا: «ومن فَضْلِ الفقر أنه قدَّمه على الهجرة، وأنه كان سَيِّدَهم ﷺ»(٢).

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٢].

ومن الحديث الصحيح: «اطَّلعتُ في الجنة فرأيتُ أكثر أهلها الفقراء»(٣).

وقال الله تعالى لنَبِيِّه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾(٤) [طه:١٢٩-١٣٠].

وقال تعالى في مَدْحِهم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾(٥) [الكهف:٢٨].

---

(١) سقط من (س) و(ص).

(٢) قوت القلوب: (١٤٩٣/٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين رضي الله عنه: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم: (٣٢٤١-طوق).

(٤) تقدَّمت الآية على التي قبلها في (س) و(ف).

(٥) في النسخ: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم﴾.

وفي الحديث الصحيح: «ألا أخبركم بأهل الجنة؛/ كل ضعيف مُتَضَعِّفٍ»(١). [١٣٨/أ]

وسئل أبو علي الدقَّاق: أي الوصفين أفضل؛ الغنى أو الفقر؟

قال(٢): «الغنى؛ لأنه وَصْفُ الحق، والفقر وصف الخلق، ووصفُ الحق(٣) أفضل من وصف الخلق»(٤).

وثبت في الصحيح: أن الفقراء قالوا: «يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثور بالأجور؛ يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فُضول أموال يتصدَّقون بها، قال لهم: ألا أخبركم بأمر إذا فعلتموه تُدركون من قَبلكم، وتسبقون من جاء بعدكم، ولا يأتي أحدٌ بما(٥) جئتم به إلا من جاء بمثله؛ تسبحون في دبر كل صلاة عشرًا، وتحمدون عشرًا، وتكبرون عشرًا - وفي رواية: ثلاثة(٦) وثلاثين في كل واحدة -، فسمع ذلك الأغنياء ففعلوه، فذكر ذلك الفقراءُ لرسول الله ﷺ فقال لهم: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»(٧).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه: كتاب التفسير، ﴿ن والقلم﴾، رقم: (٤٩١٨-طوق).

(٢) في (د): فقال.

(٣) قوله: «والفقر وصف الخلق، ووصف الحق» سقط من (د).

(٤) رسالة القشيري: (ص٣٠٦)، ويُروى عن ابن عطاء، قوت القلوب: (٨١٣/٢).

(٥) في (د) و(ص): بمثل.

(٦) في (د) و(ص): ثلاثًا.

(٧) تقدَّم تخريجه.

وقد أبدأ الناس في ذلك وأعادوا، وتكلَّمتُ في ذلك مع رجلين من أهل الطريقة؛ الطُّرطوشي والطُّوسي، ووقعت المفاوضة[١] في ذلك مرارًا، وكتب كل واحد منهم فيه[٢] وأملى، وحَمَلْتُه عنهما، ولم يكن في ذلك كله[٣] شفاء، فبَيْنَا أنا يومًا في «الثغر[٤] المحروس»، إذا برجل قد[٥] دخل عليَّ بمجلد صغير نحو «الإرشاد»، فقال لي: هذا كلام في التفضيل[٦] بين الفقر والغنى غيرُ مُتَرْجَمٍ، فنظرته واحتبست[٧] به، ثم طالعته؛ فإذا به فائدة الأيام[٨]، وكلام إمام أي إمام، أتى فيه بالحقيقة، وكشف عن الطريقة، ولم أعلم من هو[٩].

لُبَابُ قَوْلِه - في كلمات مختصرة على طريق التقريب -: أن الفقر عبارة عن العجز، والغنى عبارة عن القدرة، وهما صفتان من صفات الإنسان قائمتان به، فإنما يكون غنيًّا وفقيرًا بصفاته الموجودة بذاته، قال النبي ﷺ[١٠]: «ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، وإنما[١١] الغِنَى غِنَى النفس»،

---

(١) في (ص): المعارضة.
(٢) سقطت من (س).
(٣) سقطت من (س).
(٤) في (د): بالثغر.
(٥) سقط من (س).
(٦) في (ص): الفضل.
(٧) في (د): احتبسته، ومرَّضها، وفي الطرة: في خـ: احتبسه.
(٨) قوله: «غيرُ مُتَرْجَمٍ، فنظرته واحتبست به، ثم طالعته؛ فإذا به فائدة الأيام» سقط من (ص).
(٩) لعله للإمام أبي منصور البغدادي، ذكره له التاج في طبقاته: (٥/١٤٠).
(١٠) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، رقم: (١٠٥١-عبد الباقي).
(١١) في (د) و(س): لكن.

ولذلك لم يكن الغَنِيُّ بالحقيقة ولا[١] على الإطلاق إلا الله وحده[٢] ؛ فإنه موصوف بالقدرة الواجبة له ، مُنَزَّهٌ عن الحاجة ، والعبد موصوف بالعجز ، ملازم[٣] بالحاجة ، فهو فقير أصلًا ووصفًا وحالًا ، وإنما يكون غنيًّا بالاكتساب ، فالمخلوق مفتقر إلى خالقه في إيجاده ، مفتقر إليه في إنعامه ، فإنْ عَدِمَ المال كان فقيرًا إليه ، وإن وجده كان غنيًّا به ، فإنَّ من افتقر إلى شيء كان غنيًّا بوجوده ، فالفقير بالحقيقة العبد ، وإنما يكون غنيًّا إذا عوَّل على مولاه ، ولم ينظر إلى أحد سواه ؛ فإن تعلَّق بالُه بشيء من الدنيا ورأى في نفسه أنه فقير إليه فهو عَبْدُه ، وإنما شَرَفُ العبد افتقارُه إلى مولاه ،/ وعِزُّه خضوعه له ، وما أحسن ما قال بعضهم فيه:

وإذا تَذَلَّلَتِ الرقابُ تقربًا ... منَّا إليك فعِزُّها في ذُلِّهَا[٤]

فالغَنِيُّ المتعلق البال بالمال ، الحريص عليه الراغب فيه ؛ هو الفقير حقيقة ، وعادمُه الذي يقول: ما أنا به ، ولا رغبة لي[٥] فيه ، إنما هي ضرورة العيش ، فإذا وجدتها فغيرُها زيادة تشغل عن الإرادة ؛ هو[٦] الغنيُّ حقيقة ، وليس كل قلب يصفو هذا الصفاء.

---

(١) سقطت من (د).
(٢) في (ص): لم يكن الغِنى على الحقيقة إلا لله وحده.
(٣) ضبَّب عليها في (د) ، وكأنه أراد أن يُمَرِّضَ حتى التي قبلها ، فتكون العبارة: موصوف بالحاجة ، فهو فقير ، والله أعلم.
(٤) البيت من الكامل ، وهو لأبي إسحاق الصابئ ، من قصيدة له يمدح عَضُدَ الدولة ، في التذكرة الحمدونية: (١٨٢/٤) ، والمنتحل للثعالبي: (ص٣٥) ، واليتيمة له: (٢٧٤/٢) ، وأنشده أبو القاسم القُشَيري في اللطائف: (١٩٩/٣).
(٥) في (د): ولا بي رغبة ، وفي (ص): ولا حاجة لي.
(٦) في (د) و(ص): فهو.

ويقدرُ الفقير أن يقول بنِيَّتِه[١] - إذا رأى الغني يتصدق -: لو كان عندي مال مثله[٢] لفعلتُ فعله، فيُكتب له أجره ويُعطى منزلته ولم يَنْصَبْ في كَسْبٍ، كما ورد في الحديث الصحيح، ولذلك أعطى الله هذه المنزلة لمحمد[٣] ﷺ؛ فأغناه بصفاته لا بالأموال، فهو الفقير إلى ربه، الغني باعتقاده ونيته[٤]، المُعرض عن الدنيا بعد تمكنه منها وقدرته[٥]، وأبو بكر رضي الله عنه حين أعطى جميع ماله ولم يَلْتَفِتْ إليه[٦].

وإذا فتح الله على رجل في مال، وفتح على آخر في نية وعمل؛ فلا خلاف أن صاحب العمل والنية[٧] أرجح وأربح، وأهنأ عيشًا، وأكثر اقتداءً بمُحَمَّدٍ وشَبَهًا به[٨].

خَطَرُ الفقر[٩]:

ولكن للفقر[١٠] أخطار، لا يقدر عليها ولا يخلص منها إلا الأبرار.

منها: أنه يميل إلى المال وكسبه، ولكنه لا يقدر أو لا يدري كيف يطلبه، وهو الحرص.

---

(١) في (ص): بنية.

(٢) في (د) و(ص): لو كان لي مثله.

(٣) في (د): مُحَمَّدًا.

(٤) في (ص): قلبه.

(٥) بعدها في (د) علامة اللحق، ولا يظهر شيء يسرة الورقة.

(٦) تقدَّم تخريجه.

(٧) في (د) و(ص): النية والعمل.

(٨) سقطت من (س) و(ص).

(٩) في (س): الفقير.

(١٠) في (س) و(ص): للفقير.

ومنها: أن يحبه ولا يتعرض لطلبه، وهذا هو القانع، وهي خصلة محمودة، ومنزلة حسنة.

ومنها: أن لا يحبه، ولو جاءه لم يُقبل عليه، وهذه حالة شريفة، ومنزلة رفيعة، ولكن لم يحمل الله ولا رسولُه الخَلْقَ عليها، بل قال لهم: «ما أتاك من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف نفس فخُذْهُ، وما لا فلا تُتْبِعْه نفسك»[1]، ولا يشير النبي ﷺ ولا يدل في الرِّفْقِ إلَّا على منزلة عالية، حتى إذا كان ثَمَنًا لدِينِك فدَعْهُ، وهذه الحالة هي الزُّهْدُ، وصاحبُها هو «الزَّاهد».

(١) تقدَّم تخريجه.

آخِرُ السِّفْرِ الثاني من كتاب «سراج المريدين في سبيل الدين» للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي رضي الله عنه، ضبط نصَّه وخرَّج أحاديثه ووثَّق نقوله وترجم لأعلامه وصنع فهارسه وقدَّم له الدكتور عبد الله بن عبد السَّلام بن عبد الله بن محمد بن التِّهامي المصمودي التَّوْرَاتي القَصْرِي، عفا الله عنه وعن آبائه، وذلك في شهر ربيع الأنور من عام ١٤٣٧هـ، بتِطَّاوْن - حرسها الله تعالى - قاعدة شمال المغرب الأقصى، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيِّدنا محمَّد، وعلى أزواجه وذريته، وصحابته المُعَدَّلِينَ، ومن تبعهم من الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات